٧









د. عبدالله شحاته



دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت : ٣٥٤٢٠٧٩

فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

المكـــتـــبـــة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩١٧٩٥٩ }

إدارة التســويق والمعرض الدائم { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣ }

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قال مجاهد : سِيمَاهُمْ . التخشع والتواضع أى تعرفهم بتخشعهم وتواضعهم - وقال السدى : - تعرفهم بسيماهم - أى بأثر الجهد من الفقر والحاجة. وقال الضحاك: أى بصفرة ألوانهم ورثاثة ثيابهم ... ثم قال - رحمه اللّه - : وعندى أن كل ذلك فيه نظر والمراد شىء آخر هو أن لعباد اللّه المخلصين هيبة ووقعا فى قلوب الخلق، وكل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم ، وذلك له إدراكات روحية ، لا علامات جسمانية. ألا ترى أن الأسد إذا مر هابته سائر السباع بطباعها لا بالتجربة ، لأن الظاهر أن تلك التجربة ما وقعت، والبازى إذا طار تهرب منه الطيور الضعيفة ، وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية فكذا هنا ... » (٥٧).

وقد ذكر - سبحانه - فى الجملة السابقة أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من أجل تعففهم عن السؤال ، وذكر هنا أنهم يعرفون بسيماهم ، وذلك للإشعار بأن أنظار الناس تختلف باختلاف فراستهم ونفاذ بصيرتهم . فأصحاب الأنظار التى تأخذ الأمور بمظاهرها يظنونهم أغنياء ، أما أصحاب البصيرة المستنيرة والحس المرهف، والفراسة الصائبة، فإنهم يدركون ما عليه أولئك القوم من احتياج بسبب ما منحهم اللّه من فكر صائب ونظر نافذ، فى الحديث الشريف « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور اللّه » (٥٨).

أما الصفة السادسة من صفاتهم فهى قوله تعالى : لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا . والإلحاف - كما يقول صاحب الكشاف - : هو الإلحاح بأ لاَّ يفارق - السائل المسئول - إلا بشىء يعطاه . من قولهم : لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده . ومعناه : أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا . وقيل هو نفى للسؤال والإلحاف » (٥٩).

والذى عليه المحققون من العلماء أن النفى منصب على السؤال وعلى الإلحاف أى أنهم لا يسألون أصلا تعففا منهم ، لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف ، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين . ولو كان يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس فى سماتهم، لأن سؤالهم كان يغنيه عن ذلك.

وإنما جاء النفى بهذه الطريقة التى يوهم ظاهرها أن النفى متجه إلى الإلحاف وحده للموازنة بينهم وبين غيرهم، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافًا فهم لا يسألون مطلقًا لا بإلحاف ولا بدونه، والنفى بهذه الطريقة فيه تعريض للملحفين وثناء على المتعففين؛ ولذا قال بعضهم : وإذا علم أنهم لا يسألون ألبتة فقد علم أنهم لا يسألون الناس إلحافا والمراد التنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافا، ومثاله إذا حضر عندك رجلان أحدهما عاقل وقور قليل الكلام ، والآخر طياش مهذار سفيه، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بذم الآخر قلت : فلان رجل عاقل وقور لا يخوض فى الترهات ولا يشرع فى السفاهات ، ولم يكن غرضك من قولك لا يخوض فى الترهات وصفه بذلك لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يغنى عن ذلك، بل غرضك التنبيه على مذمة الثانى . فالأمر هنا كذلك لأن قوله : لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا . بعد قوله : يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ. الغرض منه بيان مباينة أحد الجنسين عن الآخر فى استيجاب المدح والتعظيم » (٦٠).

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعففين عن السؤال ، وتذم الملحفين فيه ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - : ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ولا التمرة والتمرتان إنما المسكين الذى يتعفف. اقرأوا إن شئتم : **لا يسألون الناس إلحافا** . (٦١).

وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر - رضى اللّه عنهما - أن النبى - صلى اللّه عليه وسلم - قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى اللّه وليس فى وجهه مزعة لحم » (٦٢).

روى مسلم - أيضًا - فى صحيحه عن عوف بن مالك قال : كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة عند رسول اللّه فقال : ألا تبايعون رسول اللّه ؟ فقلنا: علام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئًا . والصلوات الخمس..وتطيعوا ولا تسألوا الناس. فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحدا يناوله إياه »(٦٣).

والخلاصة أن السؤال إنما يجوز عند الضرورة ، وأنه لا يصح لمؤمن أن يسأل الناس وعنده ما يكفيه . لأن السؤال ذل يربأ بنفسه عنه كل من يحافظ على مروءته وكرامته وشرفه.

وقوله : **وما تنفقوا من خير فإن اللّه به عليم** . تحريض للمؤمنين على البذل والسخاء وتربية لنفوسهم على الشعور بمراقبة اللّه - تعالى - وعلى محبة فعل الخير، أى : وما تنفقوا من خير سواء أكان المنفق قليلاً أم كثيراً سراً أم علناً فإن اللّه يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب، وأعظم العطاء.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن النفقة والمنفقين بقوله :

٢٧٤ - **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** . وقوله : **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية** . استئناف المقصود منه مدح أولئك الذين يعممون صدقتهم فى كل الأزمان وفى كل الأحوال فهم يتصدقون على المحتاجين فى الليل وفى النهار، وفى الغدو وفى الآصال ، فى السر وفى العلن وفى كل وقت وفى كل حال، لأنهم لقوة إيمانهم . وصفاء نفوسهم يحرصون كل الحرص على كل ما يرضى اللّه - تعالى -.

وقد بين اللّه - تعالى - فى ثلاث جمل حُسن عاقبتهم ، وعظيم ثوابهم، فقال فى الجملة الأولى: **فلهم أجرهم عند ربهم** . فلهم أجرهم الجزيل عند خالقهم ومربيهم ورازقهم.

و الجملة الكريمة خبر لقوله : **الذين ينفقون** ... . ودخلت الفاء فى الخبر لأن الموصول فى معنى الشرط فتدخل الفاء فى خبره جوازاً ، والدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها أى أن استحقاق الأجر متسبب عن الإنفاق فى سبيل اللّه .

وقال فى الجملة الثالثة : وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . أى لا يصيبهم ما يؤدى بهم إلى الحزن والهم والغم : لأنهم دائماً فى اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان. وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها أن على بن أبى طالب كان يملك أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهارًا، وبدرهم سرًا ، وبدرهم علانية فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - ما حملك على ذلك ؟ فقال : أريد أن أكون أهلا لما وعدنى ربى . فقال - صلى الله عليه وسلم - : لك ذلك فأنزل الله هذه الآية » (٦٤).

والحق أن هذه الرواية وغيرها لا تمنع عمومها، فهى تنطبق على كل من بذل ماله فى سبيل الله فى عموم الأوقات والأحوال.

أما بعد : فهذه أربع عشرة آية بدأت من قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ... وانتهت بقوله تعالى :

الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ .

والذى يقرأ هذه الآيات الكريمة بتدبر وتعقل يراها قد حضت الناس على الإنفاق فى سبيل الله بأبلغ الأساليب ، وأحكم التوجيهات ، وأفضل الوسائل، كما يراها قد بينت أحكام الصدقة وآدابها ، والآفات التى تذهب بخيرها، وضربت الأمثال لذلك، كما يراها قد بينت أنواعها ، وطريقة أدائها، وأولى الناس بها. ورسمت صورة كريمة للفقراء المتعففين ، وكما بدأت الآيات حديثها بالثناء الجميل على المنفقين فقد ختمته أيضًا بالثناء عليهم وبالعاقبة الحسنى التى أعدها الله لهم.

ولو أن المسلمين أخذوا بتوجيهات هذه الآيات لعمتهم السعادة فى دنياهم، ولنالوا رضا الله ومثوبته فى أخراهم.

وبعد هذه الصورة المشرقة التى ساقها القرآن عن النفقة والمنفقين ، أتبعها بصورة مضادة لها وهى صورة الربا والمرابين . ومن مظاهر التضاد والتباين بين الصورتين أن الصدقة بذل للمال فى وجوه الخير بدون عوض ينتظره المتصدق ، أما الربا فهو إخراج المال فى وجوه الاستغلال لحاجة المحتاج مع ضمان استرداده ومعه زيادة محرمة. وأن الصدقة نتيجتها الرخاء والطهارة للمال، وشيوع روح المحبة والتعاون والتكافل والاطمئنان بين أفراد المجتمع، أما الربا فنتيجته محق البركة من المال ، وشيوع روح التقاطع والتحاسد والتباغض والخوف بين الناس. ولقد نفر القرآن الناس من تعاطى الربا تنفيرًا شديدًا وحذرهم من سوء عاقبته تحذيرًا مؤكدًا فقال - تعالى - :

★ ★ ★

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

٢٧٥ - ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ .. استئناف قصد به الترهيب من تعاطى الربا، بعد الترغيب فى بذل الصدقة لمستحقيها.

ولم يعطف على ما قبله لما بينهما من تضاد، لأن الصدقة - كما يقول الفخر الرازى - عبارة عن تنقيص المال - فى الظاهر - بسبب أمر الله فى ذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهى الله عنه فكانا متضادين .

والأكل فى الحقيقة : ابتلاع الطعام، ثم أطلق على الانتفاع بالشىء وأخذه بحرص وهو المراد هنا . وعبر عن التعامل بالربا بالأكل ، لأن معظم مكاسب الناس تنفق فى الأكل.

والربا فى اللغة : الزيادة المطلقة، يقال : ربا الشىء يربو إذا زاد ونما، ومنه قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ . (الحج : ٥).

أى : زادت .

وهو فى الشرع : - كما قال الألوسى - عبارة عن فضل مال لا يقابله عوض فى معاوضة مال بمال.

وقوله : يَتَخَبَّطُهُ. من التخبط بمعنى الخبط وهو الضرب على غير استواء واتساق. يقال : خبطته أخبطه خبطا أى ضربته ضربا متواليا على أنحاء مختلفة. ويقال : تخبط البعير الأرض إذا ضربها بقوائمه . ويقال للذى يتصرف فى أمر ولا يهتدى فيه يخبط خبط عشواء . قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ، ومن تخطئ يعمر فيهرم

والمس : الخبل والجنون . يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا أصابه الجنون .

وأصل المس اللمس باليد، ثم استعير للجنون ، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه.

والمعنى : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا . أى يتعاملون به أخذًا وإعطاء :**لا يَقُومُونَ** . يوم القيامة للقاء الله إلا كقيام المتخبط المصروع المجنون حال صرعه وجنونه، وتخبط الشيطان له ، وذلك لأنه يقوم قياما منكرًا مفزعًا بسبب أخذه الربا الذى حرم الله أخذه.

فالآية الكريمة تصور المرابى بتلك الصورة المرعبة المفزعة، التى تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا.

وهنا نحب أن نوضح أمرين : أما الأمر الأول فهو أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم كما أشرنا إلى ذلك ..

قال الألوسى : وقيام المرابى يوم القيامة كذلك مما نطقت به الآثار ، فقد أخرج الطبرانى عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إياك والذنوب التى لا تغفر . الغلول فمن غل شيئًا أتى به يوم القيامة . وأكل الربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط » (٦٥). ثم قرأ الآية . وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه ، ولعل الله - تعالى - جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له ... ثم قال : وقال ابن عطية : المراد تشبيه المرابى فى حرصه وتحركه فى اكتسابه فى الدنيا بالمتخبط المصروع كما يقول لمن يسرع بحركات مختلفة : قد جن . ولا يخفى أنه مصادمة لما عليه سلف الأمة ، ولما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غير داع سوى الاستبعاد الذى لا يعتبر فى مثل هذه المقامات » (٦٦).

و الذى نراه أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين ، فى الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا فى قلق مستمر، وانزعاج دائم ، واضطراب ظاهر بسبب جشعهم وشرههم فى جمع المال ، ووساوسهم التى لا تكاد تفارقهم وهم يفكرون فى مصير أموالهم.. ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين فى أقوالهم وحركاتهم ، أما فى الآخرة فقد توعدهم الله - تعالى - بالعقاب الشديد ، والعذاب الأليم.

وقد رجّح الإمام الرازى أن الآية الكريمة تصور حال المرابى فى الدنيا والآخرة فقال ما ملخصه : « إن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله ، ومن كان كذلك فى أمر الدنيا متخبطا .. وآكل

الربا بلا شك أنه يكون مفرطا فى حب الدنيا متهالكا فيها، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك حجابا بينه وبين اللّه - تعالى - فالخبط الذى كان حاصلاً له فى الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط فى الآخرة وأوقعه فى ذلك الحجاب، وهذا التأويل أقرب عندى من غيره [٦٧].

وأما الأمر الثانى فهو أن جمهور المفسرين يرون أيضًا أن التشبيه فى الآية الكريمة على الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حال المرابين بحال المجنون الذى مسه الشيطان لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون.

ولكن الزمخشرى ومن تابعه ينكرون ذلك ، ويرون أن كون الصرع أو الجنون من الشيطان باطل : لأنه لا يقدر على ذلك، فقد قال الزمخشرى فى تفسيره : وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . والمس الجنون . ورجل ممسوس - أى مجنون -. وهذا أيضًا من زعماتهم . وأن الجنّى يمسه فيختلط عليه ، وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن، ورأيتهم لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات » [٦٨].

ومن العلماء الذين تصدوا للرد على الزمخشرى ومن تابعه الإمام القرطبى فقد قال : « وفى هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ولا يكون منه مس . وقد روى النسائى عن أبى اليسر قال : كان رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - يدعو فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من التردى والغرق والهدم والحريق، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبرًا وأعوذ بك أن أموت لديغا » [٦٩].

وقال الشيخ أحمد بن المنير : ومعنى قول الزمخشرى أن تخبط الشيطان من زعمات العرب، أى من كذباتهم وزخارفهم التى لا حقيقة لها، كما يقال فى الغول والعنقاء ونحو ذلك. وهذا القول من تخبط الشيطان بالقدرية - أى المعتزلة - فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع، ثم قال : واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه الأمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشرع عنها، والقدرية ينكرون كثيرًامما يزعمونه مخالفًا لقواعدهم ، من ذلك السحر، وخبطة الشيطان ، ومعظم أحوال الجن. وإن عترفوا بشىء من ذلك فعلى غير الوجه الذى يعترف به أهل السنة وينبئ عنه ظاهر الشرع فى خبط طويل لهم [٧٠].

والذى نراه أن ما عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون ، ولأنه لا يسوغ لنا أن نؤول بغير ظاهره بسبب اتجاه لا دليل عليه.

وقوله : مِنَ الْمَسِّ . متعلق بيقومون ، أى لا يقومون من المس الذى حل بهم بسبب أكلهم الربا إلا كما يقوم المصروع من جنونه.

وقوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . بيان لزعمهم الباطل الذى سوغ لهم التعامل بالربا، ورد عليه بما يهدمه.

واسم الإشارة **ذلك** . يعود إلى الأكل أو إلى العقاب الذى نزل بهم . والمعنى : ذلك الأكل استحلوه عن طريق الربا، أو ذلك العذاب الذى حل بهم والذى من مظاهره قيامهم قيام المتخبط ، سببه قولهم إن البيع الذى أحله الله يشابه الربا الذى نتعامل به فى أن كلا منهما معاوضة.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام فى الربا لا فى البيع. فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل الشىء الذى لا يساوى إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين ؟ قلت : جىء به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونًا فى الحل حتى شبهوا به البيع » (٧١).

وقوله : **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** . جملة مستأنفة ، وهى رد من الله – تعالى – عليهم ، وإنكار لتسويتهم الربا بالبيع.

قال الألوسى : وحاصل هذا الرد من الله – تعالى – عليهم : أن ما ذكرتم من أن الربا مثل البيع – قياس فاسد الوضع لأنه معارض للنص فهو من عمل الشيطان ، على أن بين البابين فرقا، وهو أن من باع ثوبًا يساوى درهما بدرهمين فقد جعل الثوب مقابلاً لدرهمين فلا شىء منهما إلا وهو مقابله شىء من الثوب، وأما إذا باع درهمًا بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بدون عوض، ولا يمكن جعل الإمهال عوضًا إذ الإمهال ليس بمال فى مقابلة المال » (٧٢).

وقوله : **فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ** .

تفريع على الوعيد السابق فى قوله : **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا** . . إلخ.

والمجىء بمعنى العلم والبلاغ . والموعظة : ما يعظ الله – تعالى – به عباده عن طريق زجرهم وتخويفهم وتذكيرهم بسوء عاقبة المخالفين لأوامره.

أى : فمن بلغه نهى الله – تعالى – عن الربا ، فامتثل وأطاع وابتعد عما نهاه الله عنه، : **فَلَهُ مَا سَلَفَ**. أى فله ما تقدم قبضه من مال الربا قبل التحريم وليس له ما تقدم الاتفاق عليه ولم يقبضه . لأن الله تعالى يقول بعد ذلك : **وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ** .

وقوله: **وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ** . أى أمر هذا المرابى الذى تعامل بالربا قبل التحريم واجتنبه بعده ، أمره مفوَّض إلى الله – تعالى – فهو الذى يعامله بما يقتضيه فضله وعفوه وكرمه.

قال ابن كثير : وقوله : **فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ** ... إلخ من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة لقوله تعالى : **عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ** . (المائدة : ٩٥) . وكما قال النبى – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة : « وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين وأول ربا أضع ربا عمى العباس » (٧٣).

ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى : فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ . أى فله ما كان قد أكل من الربا قبل التحريم (٧٤).

و مَن . فى قوله : فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ .شرطية وهو الظاهر . ويحتمل أن تكون موصولة . وعلى التقديرين فهى فى محل رفع بالابتداء . وقوله : فَلَهُ مَا سَلَفَ . هو الجزاء أو الخبر . و مَوْعِظَةٌ . فاعل جاء. وسقطت التاء من الفعل للفصل بينه وبين الفاعل ولكون الموعظة ها بمعنى الوعظ فهى فى معنى المذكر.

وفى قوله : مِّن رَّبِّهِ . تضخيم لشأن الموعظة، وإغراء بالامتثال والطاعة، لأنها صادرة من الله – تعالى – المربى لعباده.

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر السماحة فيما شرعه الله لعباده، لأنه – سبحانه – لم يعاقب المرابين على ما مضى من أمرهم قبل وجود الأمر والنهى، ولم يجعل تشريعه بأثر رجعى بل جعله للمستقبل، إذ الإسلام يجب ما قبله . فما أكله المرابى قبل تحريم الربا فلا عقاب عليه فيه وهو ملك له ، إلا أنه ليس له أن يتعامل به بعد التحريم. وإذا تعامل به فلن تقبل توبته حتى يتخلص من هذا المال الناتج عنه الربا.

ولقد توعد الله – تعالى – من يعود إلى التعامل بالربا بعد أن حرمه الله – تعالى – فقال : وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أى ومن عاد إلى التعامل بالربا بعد أن نهى الله عنه فأولئك العائدون هم أصحاب النار الملازمون لها، والماكثون فيها بسبب تعديهم لما نهى الله عنه.

وفى هذه الجملة الكريمة تأكيدٌ للعقاب النازل بأولئك العائدين بوجوه من المؤكدات منها : التعبير فيها بأولئك التى تدل على البعيد فهم بعيدون عن رحمة الله . والتعبير بالجملة الاسمية التى تفيد الدوام والاستمرار والتعبير بكلمة أصحاب الدالة على الملازمة والمصاحبة ، وبكلمة خَالِدُونَ. التى تدل على طول المكث.

ثم بين – سبحانه – سوء عاقبة المرابين ، وحسن عاقبة المتصدقين فقال :

٢٧٦ – يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... .

والمحق : النقصان والإزالة للشىء حالا بعد حال . ومنه محاق القمر، أى انتقاصه فى الرؤية شيئاً فشيئاً حتى لا يرى ، فكأنه زال وذهب ولم يبق منه شىء.

أى : أن المال الذى يدخله الربا يمحقه الله ، ويذهب بركته، وأما المال الذى يبذل منه صاحبه فى سبيل الله فإنه – سبحانه – يباركه وينميه ويزيده لصاحبه.

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « اعلم أنه لما كان الداعى إلى التعامل بالربا تحصيل المزيد من الخيرات، والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان المال، لما كان الأمر كذلك بيّن –

سبحانه - أن الربا وإن كان زيادة فى المال إلا أنه نقصان فى الحقيقة ، وأن الصدقة وإن كانت نقصانًا فى الصورة إلا أنها زيادة فى المعنى . واللائق بالعاقل ألاَّ يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس والدواعى والصوارف بل يعول على ما أمره به الشرع.

ثم قال: واعلم أن محق الربا وإرباء الصدقات يحتمل أن يكون فى الدنيا وأن يكون فى الآخرة. أما محق الربا فى الدنيا فمن وجوه إحداها: أن الغالب فى المرابى وإن كثر ماله أن تئول عاقبته إلى الفقر، وتزول البركة عنه ، ففى الحديث : « الربا وإن كثر فإلى قل » . وثانيها : إن لم ينقص ماله فإن عاقبته الذم والنقص سقوط العدالة وزوال الأمانة.. وثالثها : أن الفقراء يلعنونه ويبغضونه بسبب أخذه لأموالهم . ورابعها : أن الأطماع تتوجه إليه من كل ظالم وطماع بسبب اشتهاره أنه قد جمع ماله من الربا ويقولون : إن ذلك المال ليس له فى الحقيقة فلا يترك فى يده.

وأما أن الربا مسبب للمحق فى الآخرة فلوجوه منها أن الله - تعالى - لا يقبل منه صدقة ولا جهادا ولا صلة رحم - كما قال ابن عباس -، ومنها أن مال الدنيا لا يبقى عند الموت بل الباقى هو العقاب وذلك هو الخسار الأكبر.

وأما إرباء الصدقات فى الدنيا فمن وجوه منها : أن من كان لله كان الله له، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه وزاده من فضله، ومنها أن يزداد كل يوم فى ذكره الجميل وميل القلوب إليه، ومنها أن الفقراء يدعون له بالدعوات الصالحة وتنقطع عنه الأطماع..

وأما إرباؤها فى الآخرة فقد روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «إن الله تعالى يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم مهره ، أو فلوَّه حتى أن اللقمة لتصير مثل أُحد » (٧٥).

ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظيمة للمتصدقين ، وتهديد شديد للمرابين . ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله:

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . و « كفار » من كفر بمعنى ستر وأخفى وجحد فهى صيغة مبالغة لكافر.

و أَثِيمٍ . فعيل بمعنى فاعل فهى صيغة مبالغة من آثم ، والأثيم هو المكثر من ارتكاب الآثام المبطئ عن فعل الخيرات.

أى : أن الله - تعالى - لا يرضى عن كل من كان شأنه الستر لنعمه والجحود بها، والتمادى فى ارتكاب المنكرات، والابتعاد عن فعل الخيرات.

وقد جمع - سبحانه - بين الوصفين للإشارة إلى أن إيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه وهم كفار إن استحلوه ، وهم فى الحالتين آثمون معاقبون بعيدون عن محبة الله ورضاه. وسيعاقب - سبحانه - الناقصين فى إيمانهم والكافرين به بما يستحقون من عقوبات.

فالجملة الكريمة تهديد شديد لمن استحلوا الربا، أو فعلوه مع عدم استحلالهم له.

وبعد هذا التهديد الشديد للمتعاملين بالربا ، ساق - سبحانه - آية فيها أحسن البشارات للمؤمنين الصادقين فقال تعالى :

٢٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا . أى إيمانًا كاملاً بكل ما أمر اللّه به ، وَعَمِلُوا الصالحات . أى الأعمال الصالحة التى تصلح بها نفوسهم والتى من جملتها الإحسان إلى المحتاجين ، والابتعاد عن الربا والمرابين ، وأقاموا الصلاة. بالطريقة التى أمر اللّه بها، بأن يؤدوها فى أوقاتها بخشوع واطمئنان ، وآتوا الزكاة . أى أعطوها لمستحقيها بإخلاص وطيب نفس .

هؤلاء الذين اتصفوا بكل هذه الصفات الفاضلة. لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ . أى لهم ثوابهم الكامل عند خالقهم ورازقهم ومربيهم.

وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . يوم الفزع الأكبر . وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . لأى سبب من الأسباب ، لأن ما هم فيه من أمان واطمئنان ، ورضوان من اللّه - تعالى - يجعلهم فى فرح دائم، وفى سرور مقيم.

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى أسلوب الخطاب المباشر للمؤمنين فيأمرهم بتقوى اللّه وينهاهم عن التعامل بالربا فيقول :

٢٧٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ . . . . أى اخشوه وصونوا أنفسكم عن الأعمال والأقوال التى تفضى بكم إلى عقابه .

وقوله : وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ، أى : اتركوا ما بقى فى ذمم الذين عاملتموهم بالربا ولا تأخذوا منهم إلا رءوس أموالكم فحسب، فهذا مقابل لقوله تعالى قبل ذلك فَلَهُ مَا سَلَفَ أى ما سلف قبضه من الربا قبل نزول الآية فهو لكم ، وما لم تقبضوه فأنتم مأمورون بتركه.

وقوله : مِنَ الرِّبَا . متعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل : بَقِيَ . أى اتركوا الذى بقى حال كونه بعض الربا، ومن للتبعيض . أو متعلق ببقي.

و وَذَرُوا. فعل أمر - بوزن علوا - مبنى على حذف النون والواو فاعل ، وأصله : وَذَرُوا. فحذفت فاؤه ، والماضى منه « وذر ».

وقوله : إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . حض لهم على ترك الربا ، أى إن كنتم مؤمنين حق الإيمان فامتثلوا أمر اللّه وذروا ما بقى من الربا مما زاد على رءوس أموالكم.

قال ابن كثير : نزل هذا السياق فى بنى عمرو بن عمير بن ثقيف ، وبنى المغيرة من بنى مخزوم، كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه ، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا . وقالت بنو المغيرة لا نؤدى فى الإسلام ، فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - فنزلت

هذه الآية ، فكتب بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليه. فقالوا: نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لكل من استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار » (٧٦).

ثم هدد الله - تعالى - كل من يتعامل بالربا تهديدًا عنيفًا فقال :

٢٧٩ - فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

أى : فإن لم تتركوا الربا وأخذتم منه شيئًا بعد نهيكم عن ذلك ، فكونوا على علم ويقين بحرب كائنة من الله - تعالى - ورسوله ، ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبدا.

وقوله : فَأْذَنُوا . من أذن بالشىء يأذن إذا علمه. وقرئ : فَآذِنُوا . من آذنه الأمر وآذنه به : أعلمه إياه : أى أعلموا من لم ينته عن الربا بحرب من الله ورسوله.

وتنكير « حرب » للتهويل والتعظيم، أى فكونوا على علم ويقين من أن حربًا عظيمة ستنزل عليكم من الله ورسوله .

قال بعضهم : والمراد المبالغة فى التهديد دون نفس الحرب. وقال آخرون : المراد نفس الحرب بمعنى أن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص وقدر عليه الإمام قبض عليه وأجرى فيه حكم الله من الحبس والتعزير إلى أن تظهر منه التوبة. وإن وقع ممن يكون له عسكر وشوكة، حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية، وكما حارب أبو بكر الصديق مانعى الزكاة.

وقال ابن عباس : من تعامل بالربا يستتاب فإن تاب فبها وإلا ضرب عنقه » (٧٧).

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عند توبتهم عن التعامل بالربا فقال :

وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

أى : وإن تبتم عن التعامل بالربا الذى يوجب الحرب عليكم من الله ورسوله فلكم رءوس أموالكم أى أصولها بأن تأخذوها ولا تأخذوا سواها، وبذلك لا تكونون ظالمين لغرمائكم ، ولا يكونون هم ظالمين لكم، لأن من أخذ رأس ماله بدون زيادة كان مقسطا ومتفضلا، ومن دفع ما عليه بدون إنقاص منه كان صادقًا فى معاملته.

ثم أمر الله - تعالى -الدائنين أن يصبروا على المدينين الذين لا يجدون ما يؤدونه من ديونهم فقال تعالى :

٢٨٠- وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ .

والعسرة : اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال . يقال : أعسر الرجل إذا صار إلى حالة العسرة وهى الحالة التى يتعسر فيها وجود المال.

والنظرة : اسم من الإنظار بمعنى الإمهال . يقال : نظره وانتظره وتنظره، تأنّى عليه وأمهله فى الطلب.

والميسرة : مفعلة من اليسر الذى هو ضد الإعسار. يقال : أيسر الرجل فهو موسر إذا اغتنى وكثر ماله وحسنت حاله.

والمعـنى : وإن وجد مدين معسر فأمهلوه فى أداء دينه إلى الوقت الذى يتمكن فيه من سداد ما عليه من ديون، ولا تكونوا كأهل الجاهلية الذين كان الواحد منهم إذا كان له دين على شخص وحل موعد الدين طالبه بشدة وقال له : إما أن تقضى وإما أن تربي، أى تدفع زيادة على أصل الدين.

و « كان » هنا الظاهر أنها تامة بمعنى وجد أو حدث ، فتكتفى بفاعلها كسائر الأفعال . وقيل يجوز أن تكون ناقصة واسمها ضمير مستكن فيها يعود إلى المدين إن لم يذكر، وقوله « فنظرة » الفاء جواب الشرط. ونظرة خبر لمبتدأ محذوف أى فالأمر أو فالواجب أو مبتدأ محذوف الخبر أى فعليكم نظرة.

ثم حبب - سبحانه - إلى عباده التصدق بكل أو ببعض ما لهم من ديون على المدينين المعسرين فقال تعالى : وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

أى: فإن فعلتم هذا يكون أكثر ثوابًا لكم من الإنظار.

وجواب الشرط فى قوله : إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . محذوف . أى إن كنتم تعلمون أن هذا التصدق خير لكم فلا تتباطؤوا فى فعله ، بل سارعوا إلى تنفيذه فإن التصدق بالدين على المعسر ثوابه جزيل عند الله -تعالى-.

وقد أورد بعض المفسرين جملة من الأحاديث النبوية التى تحض على إمهال المعسر، والتجاوز عما عليه من ديون .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى قتادة أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّم - قال : «من نفَّس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة »[٧٨].

وروى الطبرانى عن أسعد بن زرارة أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّم - قال : « من سرّه أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه »[٧٩].

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّم - « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » [٨٠].

ثم ساق - سبحانه - فى ختام حديثه عن الربا آية كريمة ذكر الناس فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من أموال، وبالاستعداد للآخرة وما فيها من حساب فقال .. تعالى - : وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

أى : واحذروا - أيها المؤمنون - يومًا عظيمًا فى أهواله وشدائده ، وهو يوم القيامة الذى تعودون فيه إلى خالقكم فيحاسبكم على أعمالكم ثم يجازى - سبحانه - كل نفس بما كسبت من خير أو شر بمقتضى عدله وفضله، ولا يظلم ربك أحدا.

فالآية الكريمة تعقيب حكيم يتناسب كل التناسب مع جو المعاملات والأخذ والعطاء، حتى يبتعد الناس عن كل معاملة لم يأذن بها الله - تعالى -.

قال الألوسى : أخرج غير واحد عن ابن عباس أن هذه الآية هى آخر ما نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من القرآن ، واختلف فى مدة بقائه بعدها . فقيل : تسع ليال. وقيل : سبعة أيام . وقيل : واحدًا وعشرين يومًا . وروى أنه قال : اجعلوها بين آيات الربا وآية الدين ... » [٨١].

هذا ، والمتدبر فى هذه الآيات التى وردت فى موضوع الربا، يراها قد نفَّرت منه تنفيرًا شديدًا، وتوعدت متعاطيه بأشد العقوبات ، وشبهت الذين يأكلونه بتشبيهات تفزع منها النفوس ، وتشمئز منها القلوب، وحضت المؤمنين على أن يلتزموا فى معاملاتهم ما شرعه الله لهم، وأن يتسامحوا مع المعسرين ويتصدقوا عليهم بما يستطيعون التصدق به.

وقد تكلم الفقهاء [٨٢] وبعض المفسرين عن الربا وأقسامه وحكمة تحريمه كلامًا مستفيضًا، قال بعضهم: الربا قسمان : ربا النسيئة ، وربا الفضل.

فربا النسيئة : هو الذى كان معروفًا بين العرب فى الجاهلية ، وهو أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوه فى موعد معين، فإذا حل الأجل طولب المدين برأس المال كاملاً، فإذا تعذر الأداء زادوا فى الحق وفى الأجل.

وربا الفضل : أن يباع درهم بدرهمين، أو دينار بدينارين ، أو رطل من العسل برطلين ، أو شعير كيلة بكيلتين.

وكان ابن عباس فى أول الأمر لا يحرم إلا ربا النسيئة وكان يجيز ربا الفضل اعتمادًا على ما روى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال - : « إنما الربا فى النسيئة » [٨٣] ولكن لما تواتر عنده الخبر بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل يدا بيد » [٨٤]رجع عن قوله . لأن قوله - صلى الله عليه وسلم- « إنما الربا فى النسيئة » محمول على اختلاف الجنس فإن النسيئة تحرم ويباح التفاضل كبيع الحنطة بالشعير. تحرم فيه النسيئة ويباح فيه التفاضل.

ولذلك وقع الاتفاق على تحريم الربا فى القسمين : أما ربا النسيئة فقد ثبت تحريمه بالقرآن كما فى قوله تعالى : وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا .

وأما ربا الفضل فقد ثبت تحريمه بالحديث الصحيح الذى رواه عبادة بن الصامت أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر . والملح بالملح. مثلاً بمثل، سواء بسواء، يدا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كانت يدا بيد» [٨٥].

وقد اشتهرت رواية هذا الحديث حتى صارت مسلمة عند الجميع، وجمهور العلماء على أن الحرمة ليست مقصورة على هذه الأشياء الستة، بل تتعداها إلى غيرها مما يتحد معها فى العلة. وقد فسر بعضهم هذه العلة باتحاد الجنس والقدر ... » [٨٦].

ومن الحكم التى ذكرت فى أسباب تحريم الربا : أنه يقتضى أخذ المال من الغير بدون عوض . ويؤدى إلى امتناع أصحاب الأموال عن تحمل المشاق فى الكسب والتجارة والصناعة، وإلى استغلال حاجة المحتاج آسوأ استغلال ، وكل ذلك يفضى إلى إشاعة روح التباغض والتخاصم والتحاسد بين أفراد المجتمع - كما سبق آن أشرنا.

ومن الأحاديث الشريفة التى وردت فى التحذير من تعاطى الربا ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم . والتولِّى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» (٨٧).

وأخرج مسلم فى صحيحه عن جابر عن عبيد الله قال : «لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه» (٨٨).

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين أن يسارعوا فى التصدق على المحتاجين وأن يجتنبوا الربا والمرابين. وبين لهم أن أموالهم تزكو وتنمو بالإنفاق فى وجوه الخير، وتمحق وتذهب بتعاطى الربا ، بعد أن وضح كل ذلك ساق لهم آية جامعة، متى اتبعوا توجيهاتها استطاعوا أن يحفظوا أموالهم بأفضل طريق، وأشرف وسيلة، وأن يصونوها عن الهلاك والضياع عندما يعطى أحدهم أخاه شيئًا من المال على سبيل الدين أو القرض الحسن المنزه عن الربا، استمع إلى القرآن وهو يتكلم عن أحكام الدين وعن أحكام بعض المعاملات التجارية الحاضرة فيقول :



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٢٨٢) ﴾

قال ابن كثير : قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ . هذا إرشاد منه - تعالى - لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على ذلك فى آخر الآية حيث قال : ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا .

وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله وأذن فيه ثم قرأ : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم . . . الآية .

وثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قدم النبى - صلى الله عليه وسلم - المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » (٨٩).

ومعنى تَدَايَنتُم . تعاملتم بالدين وداين بعضكم بعضا. وحقيقة الدين - كما يقول القرطبى - « عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدًا والآخر فى الذمة نسيئة ، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا، والدين ما كان غائبًا » (٩٠).

والأجل فى اللغة هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان هو الوقت المحدد لانقضاء عمره . وأجل الدين هو الوقت المعين لأدائه فى المستقبل . وأصله من التأخير ، يقال : أجل الشىء يأجل إذا تأخر والآجل نقيض العاجل.

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا عامل بعضكم بعضا بالدين إلى وقت معين ، فاكتبوا هذا الدين، لأن فى هذه الكتابة حفظا له، وضبطا لمقداره، ومنعًا للتنازع من أن يقع بينكم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : إذا تداينتم إلى أجل مسمى ، وأى حاجة إلى ذكر الدين؟ قلت: ذكر - لفظ الدين - ليرجع الضمير إليه فى قوله : فَاكْتُبُوهُ. إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال : فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن ، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال.

فإن قلت : ما فائدة قوله : مُسَمًّى . قلت : ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلومًا كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام . ولو قال : إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية » (٩١).

وجمهور العلماء على أن الأمر فى قوله « فاكتبوه » للندب، ولأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك « فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته »، ولأن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يلزم الدائنين بكتابة ديونهم، ولا المدينين بأن يكتبوها.

وقال الظاهرية : إن الأمر هنا للوجوب، ومن لم يفعل ذلك كان آثما، لأن الأصل فى الأمر أنه للوجوب ...

وقوله : وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ . بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين من يتولاها عقب الأمر بها على سبيل الإجمال.

أى : عليكم أيها المؤمنون - إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين أن تكتبوا هذا الدين، وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها ، وما يكون من الشروط موافقاً لشريعة الإسلام وما يكون منها غير موافق.

وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق مع الدائن والمدين فى كتابته، لأن الله تعالى يقول : وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ . (المائدة : ٨) . فالجملة الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا لكتابته شخصاً تتوافر فيه إجادة الكتابة والخبرة بشروط العقود وتوثيقها، كما تتوافر فيه الاستقامة وتحرى الحق . ومفعول « يكتب » محذوف ثقة بالفهامة ، أى وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل. والتقييد بالظرف بينكم للإيذان بأنه ينبغى للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن ينفرد به أحد المتعاقدين لأن فى هذا الانفراد تهمة يجب أن يربأ بنفسه عنها.

والجار والمجرور وهو : بِالْعَدْلِ . متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى : وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين . أو متعلق بالفعل يكتب . أى : وليكتب بالحق.

ثم نهى الله - تعالى - من كان قادرًا على الكتابة عن الامتناع عنها متى دعى إليها فقال : وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ.

أى : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتداينين ديونهما بالطريقة التى علمه الله بأن يتحرى العدل والحق فى كتابته ، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية.

فالكاف ومجرورها فى قوله تعالى : كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ . نعت لمصدر محذوف والتقدير: فليكتب كتابة مثل ما علمه الله - تعالى : بمعنى أن يلتزم الحق والعدل فيها.

ويجوز أن تكون الكاف للتعليل فيكون المعنى : لا يمتنع عن الكتابة لأنه كما علمه الله إياها ويسرها له ونفعه بها، فعليه أن ينفع غيره بها، فهو كقوله تعالى : وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . (القصص : ٧٧) وفى الحديث الشريف « إن من الصدقة أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرق »[٩٢]وفى حديث : « من كتم علما يعلمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة »[٩٣].

وقوله : فَلْيَكْتُبْ. تفريع على قوله : وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ . أى : فليكتب الكتابة التى علمه الله إياها فهو توكيد للأمر المستفاد من قوله : وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ . ويجوز أن يكون توكيدًا للأمر الصريح فى قوله وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ.

قال القرطبى : واختلف الناس فى وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد فقال الطبرى : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب، وقال الحسن : ذلك واجب عليه فى الموضع الذى لا يقدر على كاتب غيره فيضر صاحب الدين إن امتنع ، فإن كان كذلك فهو فريضة ، وإن قدر على كاتب غيره فهو فى سعة إذا قام بها غيره»[٩٤].

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد قررت مبدأ الكتابة فى الدين، وبينت كيفية الكتابة، وأشارت إلى إجادة الكاتب لها، ونهته عن الامتناع عنها إذا دعى لها.

ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيان من يتولى الإملاء فقال تعالى : وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا .

والإملال معناه الإملاء ، فهما لغتان معناهما واحد. وقد جاء القرآن باللغتين فقال تعالى : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . (الفرقان :٥).

أى : وعلى المدين الذى عليه الدين وقد التزم بأدائه أن يمل على الكاتب هذا الدين ، وذلك ليكون إملاؤه إقرارًا به وبالحقوق التى يجب عليه الوفاء بها. وعليه كذلك أن يراقب الله - تعالى - فى إملائه فلا ينقص من الدين الذى عليه شيئًا ، لأن هذا الإنقاص ظلم حرمه الله - تعالى - وقد أمر الله - تعالى - بأن يكون الذى يملى على الكاتب هو المدين لأنه هو المكلف بأداء مضمون الكتابة، ولأنه بإملائه يكون قد أقر على نفسه بما عليه

ولأنه لو أملى الدائن فربما يزيد فى الدين ، أو يملى شيئًا ليس محل اتفاق بينه وبين المدين، ولأن المدين فى الغالب فى موقف ضعيف فأعطاه اللّه - تعالى - حق الإملاء على الكاتب حتى لا يغبن من الدائن.

فأنت ترى أن اللّه - تعالى - قد مكّن المدين من الإملاء على الكاتب حتى تكون الكتابة تحت سمعه وبصره وباختياره ، ولكنه فى الوقت نفسه أوجب عليه أمرين : تقوى اللّه ، وعدم الإنقاص من الدين الذى عليه . وأن ذلك لتشريع حكيم عادل لا ظلم فيه للدائن ولا للمدين.

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا كان الذى عليه الدين لا يحسن الإملاء فقال تعالى : فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وهو المدين : سَفِيهًا . أى جاهلاً بالإملاء أو ناقص العقل ، أو متلافا مبذرا لا يحسن تدبير أمره.

أَوْ ضَعِيفًا . بأن يكون صبيا أو شيخا تقدمت به الشيخوخة.

أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ . بأن يكون عييا أو أخرسًا أو لا خبرة له بإملاء أمثال هذه المكاتبات.

فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ . أى فعلى ولى أمره أو من يهمه شأنه ولا يرضى له أن يضيع حقه أن يتولى الإملاء متحريًا الحق والعدل فيما يكلف به.

وبعد هذا البيان الحكيم عن الكتابة وأحكامها فى شأن الديون، انتقل القرآن إلى الحديث عن الإشهاد فيه فقال تعالى : وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ . أى : اطلبوا شاهدين عدلين من الرجال ليشهدوا على ما يجرى بينكم من معاملات مؤجلة، لأن هذا الإشهاد يعطى الديون والكتابة توثيقًا وتثبيتًا . والسين والتاء فى قوله : « واستشهدوا » للطلب.

قال الألوسى : « وفى اختيار صيغة المبالغة فى : شَهِيدَيْنِ . للإيماء إلى من تكررت منه الشهادة ، فهو عالم بها مقتدر على أدائها وكأن فيه رمزًا إلى العدالة ، لأنه لا يتكرر ذلك من الشخص عند الحكام إلا وهو مقبول عندهم ولعله لم يقل رجلين لذلك، والأمر للندب أو للوجوب على الخلاف فى ذلك » (٩٥).

وقوله : مِن رِّجَالِكُمْ . متعلق بقوله : وَاسْتَشْهِدُوا . ومن لابتداء الغاية. ويجوز أن يكون متعلقًا بمحذوف صفة لشهيدين ومن للتبعيض ، أى من رجالكم المسلمين الأحرار فإن الكلام فى معاملتهم.

ثم بين - سبحانه - الحكم إذا لم يتيسر شاهدان من الرجال فقال : فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ .

وقوله : مِمَّن تَرْضَوْنَ . متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجل وامرأتان. أى فإن لم يتيسر رجلان للشهادة فليشهد رجل وامرأتان كائنون مرضيين عندكم بعدالتهم.

وهذا الوصف وإن كان فى جميع الشهود إلا أنه ذكر هنا للتشدد فى اعتباره، لأن اتصاف النساء به قد لا يتوافر كثيرًا.

وقوله : مِنَ الشُّهَدَاءِ . متعلق بمحذوف حال من ضمير المفعول المقدر فى «ترضون» العائد إلى الموصول : أى فليشهد رجل وامرأتان ممن ترضونهم حال كونهم من بعض الشهداء لعلمكم بعدالتهم ، وثقتكم بهم.

وقوله تعالى : مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ . أدق فى الدلالة على صدق الشهادة من العدالة، لأن الإنسان العدل قد يكون مرضيا فى دينه وخلقه ولكنه يتأثر بالمشاهد المؤثرة فتخونه ذاكرته فى وقت الحاجة إليها، أو قد يكون ممن يمنعه منصبه وجاهه ومقامه فى الناس من الكذب إلا أنه قد يرتكب بعض المعاصي، فجاء- سبحانه - بهذه الجملة الحكيمة لكى يقول للناس : اختاروا الشهداء من الذين يرتضى قولهم، ويقيمون الشهادة على وجهها بدون التأثر بأى نوع من أنواع المؤثرات.

هذا ، وشهادة النساء مع الرجال عند الحنفية فى الأموال والطلاق والنكاح والرجعة وكل شىء إلا الحدود والقصاص . وعند المالكية تجوز فى الأموال وتوابعها خاصة. ولا تقبل فى أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص والنكاح والطلاق والرجعة.

ثم بين – سبحانه – العلة فى أن المرأتين تقومان مقام الرجل الواحد فى الشهادة فقال : أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ.

قال القرطبى : معنى تضل تنسى . والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالا» (٩٦).

والمعنى : جعلنا المرأتين بدل رجل واحد فى الشهادة ، خشية أن تنسى إحداهما فتذكر كل واحدة منهما الأخرى. إذ المرأة لقوة عاطفتها ، وشدة انفعالها بالحوادث قد تتوهم ما لم تر، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة أخرى فى الشهادة بحيث تتذاكران الحق فيما بينهما.

والعلة فى الحقيقة هى التذكير، ولكن الضلال لما كان سببا فى التذكير، نزل منزلة العلة. وذلك كأن تقول: أعددت السلاح خشية أن يجىء العدو فأدفعه فإن العلة هى الدفاع عن النفس، ولكن لما كان مجىء العدو سببًا فيه نزل منزلته.

وكما أمر اللّه – تعالى – الكتاب فى أول الآية بعدم الامتناع عن الكتابة، أمر الشهود أيضًا بعدم الامتناع عن الشهادة فقال تعالى : وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا . أى : ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة وتحملها متى دعوا إليها، لأن الامتناع عن تحمل الشهادة وأدائها قد يؤدى إلى ضياع الحقوق، واللّه – تعالى – قد شرع الشهادة لإحقاق الحق، ونشر العدل بين الناس ، فعلى من اشتهروا بالعدالة ووثق الناس بهم أن يؤدوا الشهادة كما أمرهم اللّه – تعالى –. ثم أمر – سبحانه – بكتابة الدين سواء أكبر الدين أم صغر فقال : وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صغيرا أو كبيرًا إِلَىٰ أجله .

السأم : الضجر والملل . يقال : سئمت الشىء أسأمه سأما وسآمة أى مللته وضجرته.

والمعنى : وعليكم أيها المؤمنون - ألاّ تسأموا من كتابة الدين إلى الوقت المحدد له سواء أكان هذا الدين كبيرًا أم صغيرًا ، لأن الكتابة فى الحالتين أدعى إلى حفظ الحقوق وصيانتها ، وإلى عدم نشوب التنازع أو التخاصم بينكم، ولأن الدين قد يكون صغيرًا فى نظر الغنى الملىء إلا أنه كبير فى نظر الفقير المعسر، ولأن التهاون فى شأن الدين الصغير قد يؤدى إلى التهاون فى شأن الدين الكبير، لذا وجب عليكم أن تنقادوا لشرع اللّه وأن تكتبوا ما بينكم.

والضمير فى قوله : أَن تَكْتُبُوهُ . يعود إلى الدين أو إلى الحق. وقوله : صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا. حال من الضمير. أى لا تسأموا أن تكتبوه على كل حال قليلاً أو كثيرًا ، وقدم الصغير على الكبير اهتمامًا به وانتقالاً من الأدنى إلى الأعلى.

ثم بين - سبحانه - ثلاث فوائد تعود عليهم إذا ما امتثلوا ما أمرهم اللّه - تعالى - به ، فقال : ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .

واسم الإشارة : ذَلِكُمْ . يعود إلى كل ما سبق ذكره فى الآية من الكتابة والإشهاد ومن عدم الامتناع عنهما، ومن تحرى الحق والعدل.

و أَقْسَطُ . بمعنى أعدل. يقال : أقسط فلان فى الحكم يقسط إقساطا إذا عدل فهو مقسط . قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. (المائدة : ٤٢) .. ويقال : قاسط إذا جار وظلم. قال تعالى : وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . (الجن : ١٥).

أى : ذلكم الذى شرعناه فى أمر الديون من الكتابة والإشهاد وغيرهما أعدل فى علم اللّه - تعالى - ، وكل ما كان كذلك فهو أعدل وأفضل وأحكم فى ذاته ؛ لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فيه مصلحتكم فاستجيبوا له، وتلك هى الفائدة الأولى. أما الفائدة الثانية فهى قوله - سبحانه - : وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ. ومعنى وَأَقْوَمُ . أبلغ فى الاستقامة التى هى ضد الاعوجاج أى : أثبت لها وأعون على إقامتها وأدائها، وأما الفائدة الثالثة فهى قوله : وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا. أى : أقرب إلى زوال الشك والريبة. أى أن الأوامر والنواهى السابقة إذا نفذت على وجهها كان تنفيذها أعدل فى علم اللّه - تعالى - ، وأعون فى إقامة الشهادة إذ بها يتم الاعتماد على الحفظ، وأقرب إلى عدم الشك فى جنس الدين وقدره وأجله، وإذا توافرت هذه الفوائد الثلاث فى المعاملات ساد الوفاق والتعاون بين الناس ، أما إذا فُقدت فإن الثقة تزول من بينهم ، ويحل محلها النزاع والشقاق .

ثم أباح - سبحانه - فى التجارة الحاضرة عدم الكتابة فقال : إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا.

والتجارة الحاضرة التى تدور بين التجار : وهى التى يجرى فيها التقابض فى المجلس أو التى يتأخر فيها الأداء زمنًا يسيرًا . وسميت الحاضرة، لأن البيع والثمن كلاهما حاضر.

والمعنى : أن الله - تعالى - يأمركم بكتابة الديون وبالإشهاد عليها إلا أنه - سبحانه - رحمة بكم أباح لكم عدم الكتابة فى التجارة الحاضرة التى تكثرون إدارتها والتعامل فيها، لأنه لو كلفكم بذلك لشق الأمر عليكم، وهو - سبحانه - : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . (الحج ٧٨). ولأن أمثال هذه التجارات التى يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها ، لا يتوقع فيها التنازع أو النسيان .

والاستثناء هنا منقطع لأنه ليس هناك دين حتى يكتب، وليست التجارة الحاضرة من جنس التعامل بالديون فكأنه قيل : إذا تداينتم فتكاتبوا وأشهدوا لكن التجارة الحاضرة التى يجرى فيها التقابض لا جناح عليكم فى عدم كتابتها.

وقيل : الاستثناء متصل والجملة مستثناة فى موضع نصب لأنه استثناء من الجنس، لا لأنه أمر بالكتابة فى كل معاملة واستثنى منها التجارة الحاضرة . والتقدير: آمركم بالكتابة والإشهاد فى كل معاملة إلا فى حال حضور التجارة فلا بأس من ترك الكتابة و تِجَارَةً قرأها الجمهور بالرفع على أنها اسم تكون ، والخبر جملة تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ أو على أنها فاعل تكون اذا اعتبرناها تامة.

وقرأها عاصم بالنصب على أنها خبر تكون واسمها ضمير مستتر فيها يعود على التجارة أى : إلا أن تكون التجارة حاضرة.

وقوله - تعالى - : وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ . أمر منه - سبحانه - بالإشهاد عند البيع، وهذا أمر للإرشاد والتعليم عند جمهور العلماء. ويرى الظاهرية أنه للوجوب.

قال صاحب الكشاف : هذا أمر بالإشهاد على التبايع مطلقًا ناجزا أو كالئا - أى مؤجلا - لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف . ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع. يعنى التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة. وعن الضحاك : « هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل » [٩٧].

ثم نهى - سبحانه - عن المضارة فقال : وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ .

والمضارة : إدخال الضرر. والفعل : يُضَارَّ . احتمل أن يكون مبنيا للفاعل ، وأن أصله « ولا يضارر - بكسر الراء- ويحتمل أن يكون مبنيا للمفعول . وأن أصله لا يضارر بفتح الراء الأولى.

والمعنى على الأول : نهى الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضررا بأحد المتعاقدين ، بأن يبخس الكاتب أحدهما، أو يشهد الشاهد بغير الحق.

والمعنى على الثانى : وهو الظاهر - نهى الدائن والمدين عن أن ينزل أحدهما ضررا بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، فإنهما أمينان ، والإضرار بهما قد يحملهما على الخيانة وفى ذلك ضياع للأمانة وذهاب للثقة ؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك : وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ.

أى : وإن تفعلوا ما نهيتم عنه أو تخالفوا ما أمرتم به، فإنكم بذلك تكونون قد خرجتم عن طاعة الله ، وتلبستم بمعصيته ، وصرتم أهلا للعقوبة، فعليكم أن تقفوا عند حدود الله حتى تتحقق لكم السعادة فى دينكم ودنياكم.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته . وبتذكيرهم بنعمه فقال : وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

أى : واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو - سبحانه - الذى يعلمكم ما يصلح لكم أمر دنياكم وما يصلح لكم أمر دينكم متى اتقيتموه واستجبتم له ، وهو - سبحانه - بكل شىء عليم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

وبعد : فهذه هى آية الدَّين التى هى أطول آية فى القرآن ، تقرؤها فتراها قد اشتملت على أدق التشريعات، وأحكم التوجيهات ، وأنجح الإرشادات التى تهدى إلى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل.

تقرؤها فترى الدقة العجيبة فى الصياغة بأن وضع كل لفظ فى مكانه المناسب، وترى الطلاوة فى التعبير، والعذوبة فى الألفاظ بحيث لا تطغى دقة الصياغة على جمال العرض.

وترى الوفاء الكامل ، لكل الجوانب التشريعية، والاحتراس التام من كل المؤثرات التى قد تؤثر على سلامة التعاقد، والإرشاد الجامع إلى كل ما يضمن وصول الحق والعدل إلى جميع الأطراف بدون محاباة أو غبن.

وترى قبل ذلك وبعد ذلك كيف يسوق القرآن تشريعاته بطريقة تغرس فى النفوس الخوف من الله - تعالى- والمراقبة له، والاستجابة لأوامره، لا كطريقة البشر فى قوانينهم التى صاغوها فى قوالب صماء من الألفاظ لا تشعر معها بتأثير فى النفس ولا باهتزاز فى القلب.

ولو لم يكن فى شريعة الله سوى هذا التأثير الذى تشعر به النفوس النقية الصافية عند تدبرها لكفاها ذلك دليلاً على سموها وفضلها ، وعلى أنها من صنع الله - تعالى - ولو أن المسلمين أخذوا بها وبتوجيهاتها فى سائر شئونهم لظفروا بالسعادتين : الدينية والدنيوية.



﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

المفردات :

وإن كنتم على سفر : أى مسافرين فعلا، ولذا عبر بقوله : عَلَىٰ سَفَرٍ. إشعارًا بمباشرتهم له وتمكنهم منه تمكن الراكب مما يركبه.

فرهان مقبوضة : الرهان جمع رهن ، وهو ما يأخذه الدائن من الأعيان ذات القيمة ضمانًا لدينه، وهو فى الأصل مصدر، وشاع استعماله فى العين المرهونة حتى أصبح حقيقة عرفية فيها.

التفسير :

٢٨٣ - وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ.. . لحظ فى الآيات لونًا من ألوان التدرج فى التشريع ، فقد بين الله أن الكتابة فى الديون والإشهاد عليها مطلوبان ، فإن تعذرت الكتابة والشهادة لسبب من الأسباب فإنه يترخص حينئذ بالرهن المقبوض.

وقد يعتمد الدائن على أمانة المدين ، وسلامة ذمته، فيجب على المدين أن يقدر هذه الأمانة، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . (النساء : ٥٨).

معنى الآية :

وإذا كنتم - أيها المتداينون - مسافرين ، ولم تجدوا كاتبًا يكتب بينكم الدين، فالذى يستوثق به حينئذ ، رهان يقبضها الدائنون ، وتبقى عندهم حتى أداء الدين فترد إلى المدين.

وإذا أودع أحدكم آخر وديعة تكون أمانة عنده وقد اعتمد على أمانته ، فليؤد الوديع المؤتمن الأمانة عند طلبها وليخش الله الذى رباه وتولاه بالعناية حتى لا يقطع عنه نعمته فى الدنيا والآخرة .

ولا تخفوا الشهادة بما علمتم إذا دعيتم لأدائها، ومن يكتم الشهادة بالحق فهو آثم خبيث القلب، والله مطلع على أعمالكم ، عليم بما تعملون من خير وشر وسيجازيكم عليها حسب ما تستحقون.

فى أعقاب الآية :

١ - أخذ مجاهد بظاهر الآية فلم يجز الرهن إلا فى السفر ، وقيده الضحاك فى السفر بفقدان الكاتب، ولكن الراجح جواز الرهن سفرا وحضرا.

قال القرطبى : ولم يرو عن أحد منع الرهن فى الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود ، متمسكين بالآية ولا حجة فيها لهم، لأن هذا الكلام وإن خرج مخرج الشرط، فالمراد به غالب الأحوال ، وليس كون الرهن فى الآية فى السفر مما يحظر فى غيره [٩٨].

٢ - روى البخارى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - « رهن درعه فى المدينة عند يهودى على ثلاثين صاعا من شعير»(٩٩) ومن الواضح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما رهن درعه كان مقيمًا ولم يكن مسافرا .

٣ - أخذ بعض الفقهاء من قوله تعالى : فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ. أن الرهن لا يتم إلا بالقبض فإذا افترق المتعاقدان من غير قبض كان الرهن غير صحيح بنص الآية ، وهذا مذهب الأحناف والشافعية، ويرى المالكية والحنابلة أن الرهن يتم من غير القبض، لأن القبض حكم من أحكامه، فمن حق الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطالب بقبض العين المرهونة، فالقبض حكم من أحكام العقد، وليس ركنًا من أركانه ولا شرطًا لتمامه.

٤ - حث القرآن على أداء الشهادة بالحق ، قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ . (النساء:١٣٥).

وهذه درة فى جبين التربية الإسلامية، ودليل على عناية القرآن بتكوين شخصية المسلم وتثبيت معالم الحق والفضيلة، ومحاربة الجبن والرذيلة، وقد نهى القرآن عن كتمان الشهادة.

وفى هذه الآية :

وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ . وقد نسب الإثم إلى القلب، لأن كتمان الشهادة من أعمال القلب، وإذا أثم القلب أثم صاحبه، لأن العبرة بأفعال القلوب، ولذا رفعت المؤاخذة عمن يفعل المعصية ناسيا، لأنه لا قصد له فيها.

« ولأن القلب رئيس الأعضاء ، والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل : فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه وملك أشرف مكان منه »(١٠٠).

روى الشيخان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب »(١٠١).



﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) ﴾

المفردات :

تبدوا ما فى انفسكم : تظهروه

يحاسبكم به : أى يبينه لكم، ويجازيكم عليه.

التفسير :

٢٨٤ - لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ... الآية . لله ما فى السموات وما فى الأرض من أجزائهما، وما استقر فيهما ، لا يشاركه فى خلقها أو ملكها، أو التصرف فيها شريك، فله أن يلزمكم - أيها العباد - بما يشاء من التكاليف وعليكم - أيها العباد - أن تطيعوه ولا تعصوه .

والله - سبحانه وتعالى - يحاسبكم أيها العباد - على نياتكم ، وما تكسبه قلوبكم سواء أأخفيتموه أم أظهرتموه.

وقد بين المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنما تكون على ما يعزم عليه الإنسان وينويه ويصر على فعله ، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته ، كمن عزم على السرقة وأصر عليها ثم وجد الشرطى فتركها.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست به صدورها ، ما لم تعمل أو تكلم »[١٠٢].

وأخرج مسلم فى صحيحه عن ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يروى عن ربه تعالى قال : « إن الله كتب الحسنات والسيئات - ثم بين ذلك - فمن هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة »[١٠٣].

وروى عن أبى هريرة قال : « جاء ناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسألوه فقالوا : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان. وسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الوسوسة ، قال : تلك صريح الإيمان[١٠٤].

وفى كتب التفسير أن الصحابة لما سمعوا هذه الآية رقت قلوبهم ودمعت عيونهم، وخافوا أن يحاسبهم الله على خطرات نفوسهم ، وهم لا يملكونها ولا يستطيعون التحكم فيها، حيث قال سبحانه : وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ . (البقرة :٢٨٤).

فلما فعلوا نسخها الله فأنزل : لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . (البقرة : ٢٨٦).

وروى ابن جرير الطبرى عن مجاهد والضحاك أنه قال : هى محكمة لم تنسخ ، واختار ابن جرير ذلك ، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب.

وقد ورد فى الصحيحين ومن طرق متعددة وعن قتادة عن صفوان بن محرز قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال: يا بن عمر : ما سمعت رسول الله- صلى الله عليه وسلم - يقول فى النجوى ؟ قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يدنو المؤمن من ربه - عز وجل - حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له : هل تعرف كذا ؟ ، فيقول : رب أعرف

مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ . قال : إنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم. قال : فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الأشهاد : هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . (هود : ١٨) [١٠٥].

وجاء فى تفسير الألوسى : المؤاخذة على تصميم العزم على إيقاع المعصية فى الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التى تلحق بالملكات ، وليس كذلك سائر ما يحدث فى النفس - أى من خواطر لا تصميم ولا عزم معها - قال بعضهم :

مراتب القصد خمس، هاجس ذكروا
فخاطر فحديث النفس فاستمعا
يليه هم فعزم كلها رفعت
سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا[١٠٦].

وجاء فى ظلال القرآن :

« وهكذا يعقب على التشريع المدنى البحت بهذا التوجيه الوجدانى البحت ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة، بذلك الرباط الوثيق، المؤلف من الخوف والرجاء فى مالك الأرض والسماء ، فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ، ضمانات القلب الوجدانية .. وهى الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام فى قلوب المسلمين فى المجتمع المسلم .. وهى والتشريع فى الإسلام متكاملان، فالإسلام يصنع القلوب التى يشرع لها، ويصنع المجتمع الذى يقنن له صنعة إلهية متكاملة متناسقة ، تربية وتشريعًا ، وتقوى وسلطانًا ، ومنهجًا للإنسان من صنع خالق الإنسان ، فأنى تذهب شرائع الأرض، وقوانين الأرض، ومناهج الأرض؟ أنى تذهب نظرة إنسان قاصر ، محدود العمر، محدود المعرفة، محدود الرؤية ، يتقلب هواه هنا وهناك ، فلا يستقر على حال ، ولا يكاد يجتمع اثنان على رأى ولا على رؤية ولا على إدراك ؟ ..

ألا إنها الشقوة للبشرية فى هذا الشرود عن منهج الله وشرعه.

الشقوة التى بدأت فى الغرب هربًا من الكنيسة الطاغية الباغية هناك .. ومن إلهها الذى كانت تزعم أنها تنطق باسمه، وتحرم على الناس أن يتفكروا أو يتدبروا ، وتفرض عليهم باسمه الإتاوات الباهظة والاستبداد المنفر.. فلما هم الناس أن يتخلصوا من هذا الكابوس ، تخلصوا من الكنيسة وسلطانها، ولكنهم لم يقفوا عند حد الاعتدال ، فتخلصوا كذلك من إله الكنيسة وسلطانه .. ثم تخلصوا من كل دين يقودهم فى حياتهم الأرضية بمنهج الله .. وكانت الشقوة وكان البلاء [١٠٧].

فأما نحن - نحن الذين نزعم الإسلام - فما بالنا ؟ ما بالنا نشرد عن الله ومنهجه وشريعته وقانونه ؟ ما بالنا وديننا السمح القويم لم يفرض علينا إلا كل ما يرفع عنا الأغلال ، ويحط عنا الأثقال ، ويؤدى إلى الرقى والفلاح ؟ [١٠٨].



﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾

المفردات :

وملائكتـــه : الملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل، خلقوا للطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

التفسير :

٢٨٥ - آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ... .

هذا ختام سورة البقرة أطول سورة فى القرآن ، السورة التى اشتملت على التشريع وساهمت فى بناء الفرد، وتكوين المجتمع.

قال الزجاج - رحمه الله - : لما ذكر الله - عز وجل - فى هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام والحج والطلاق والحيض والإيلاء والجهاد، وقصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والربا والدين ، ختمها بقوله : آمَنَ الرَّسُولُ. لتعظيمه وتصديق نبيه - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين لجميع ذلك المذكور قبله، وغيره ليكون تأكيداً له (١٠٩).

معنى الآية :

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه فى هذه السورة وغيرها - إجمالاً وتفصيلا، وآمن المؤمنون به كذلك. كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . كل من النبى وأفراد المؤمنين، صدق بالله وما يتصف به من كل كمال، وما يتنزه به عن كل نقص، وصدق بملائكته وطهارتهم من المعاصى أنهم منفذون لأوامر الله تعالى ، وأن بعضهم سفراء بينه تعالى وبين رسله الأكرمين، وآمن بكتبه التى أنزلها على رسله متعبدا بها عباده، وآمن برسله من حيث إنهم مبلِّغون لكتبه وشرائعه إلى خلقه.

لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ . بل نؤمن بهم جميعًا فهم رسل الله إلى خلقه، فمن كفر بأحدهم ، فهو كافر بهم جميعًا ، ولا نقول كما قال الضالون : نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ . (النساء : ١٥٠).

وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا : أى قالوا : بلغنا الرسول فسمعنا القول سماع تدبر وفهم، وأطعنا ما فيه من الأوامر والنواهى طاعة إذعان وانقياد.

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا : أى اغفر لنا غفرانك ، أو نسألك غفرانك ذنوبنا.

وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ : أى الرجوع بالموت والبعث إليك وحدك لا إلى غيرك، ومنك وحدك يكون الحساب والثواب والعقاب ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . (الشعراء : ٨٨-٨٩).

★ ★ ★

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

تختم السورة بهذه الآية الكريمة ، وفيها يسر التشريع وسماحة الإسلام، فتكاليفه فى متناول البشر، الصلوات الخمس ، والصوم شهر فى السنة ، والزكاة نسبة قليلة من المال ، والحج فريضة لمن استطاع إليه سبيلا، وعند المرض والسفر يباح للإنسان قصر الصلاة وجمعها ويباح للصائم فى رمضان الفطر والقضاء، وفى كثير من تشريعات الإسلام تتجلى سماحة هذا الدين ومراعاته لطبيعة الإنسان.

فالشريعة يسر كلها، ورحمة كلها، وعدل كلها، قال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . (البقرة :١٨٥).

وقال سبحانه : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ . (المائدة: ٦).

ويقول النبى – صلى الله عليه وسلم – « يسّروا ولا تعسروا ، وبشّروا ولا تنفروا .. » [(١١٠)].

ومجمل معنى الفقرة الأولى : إن الله لا يكلف عباده إلا ما يستطيعون تأديته والقيام به، ولذلك كان كل مكلف مجزيًّا بعمله : إن خيرًا فخير. وإن شرّا فشر .. ومن هذه الفقرة تتضح المسئولية الفردية، وتحمل الإنسان لتبعات عمله، فهو أهل للجزاء الحسن إذا أحسن، وهو مستحق للمؤاخذة إذا أساء ، قال تعالى :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (الجاثية:٢١).

وتسترسل الآية فى دعاء رخى ندى يملأ القلب نورا والنفس خيرًا وبركة.

رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا . ربنا لا تعاقبنا إن وقعنا فى النسيان لما كلفتنا إياه، أو أهملنا أسباب السلامة فوقعنا فى الخطأ بسبب ضعف أو قصور.

فقد فتحت باب التوبة للتائبين ، وقبلت رجوع المذنبين إليك، ولم تغلق فى وجههم باب رحمتك.

قال تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. (الزمر:٥٣).

رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا .الإصر، معناه العبء الثقيل ، مأخوذ من أصره يأصره أى حبسه، والمراد به : التكاليف الشاقة، أى ربنا ولا تحمل علينا عبئًا ثقيلاً، كما حملته على الذين من قبلنا ولا تشدد علينا فى التشريع كما شددت على اليهود بسبب تعنتهم وظلمهم.

فمن شرائعهم قتل النفس فى التوبة أو فى القصاص ، لأنه لا يجوز غيره فى شريعتهم، وقطع موضع النجاسة من الثوب، ونحوه ، وصرف ربع المال فى الزكاة.

قال تعالى : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ . (الأنعام: ١٤٦).

على أن الإصر الأكبر الذى رفعه الله عن هذه الأمة هو إصر العبودية للبشر، عبودية العبد للعبد، فالله ينادينا فى القرآن بأنه قريب لا يحتاج إلى واسطة : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة :١٨٦).

ولا بأس أن ننقل هنا طائفةً مما حمله بنو إسرائيل من الآصار والعناء ننقله عن أسفارهم. فى سفر الخروج فى الإصحاح الحادى والعشرين:

(١٥) ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا.

(١٦) ومن سرق إنسانًا وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلا.

(١٧) ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا.

وفى سفر اللاويين ، فى الإصحاح الحادى عشر تحريم بعض الطيور وفيه آصار كثيرة منها :

(٣٣) وكل متاع خزف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس وأما هو فتكسرونه.

وفى الإصحاح الثانى عشر أحكام النفساء عندهم ، والفرق بين ولادتها ذكرًا وأنثى ، وأنها فى الأول تكون نجسة أسبوعًا، ثم ثلاثا وثلاثين يومًا ، وفى الثانى أسبوعين ثم ستة وستين يومًا.

وفى الإصحاح الخامس عشر أحكام الحائض ومنها :

(١٩) وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء. (٢٠) وكل ما تضطجع عليه فى طمثها يكون نجسا وكل ما تجلس عليه يكون نجسا . (٢١) وكل من مس ثيابها يغسل ثيابه.

ومن دعاء المؤمنين :

رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ أى لا تكلفنا ما لا طاقة لنا به من التكاليف.

والطاقة : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة وذلك تشبيه بالطوق المحيط فقوله تعالى لا تُحَمِّلْنَا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه : لا تحملنا ما لا قدرة لنا به [111].

إنهم يتوجهون إلى الله راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم، فلا يكلفهم ما لا يطيقون كى لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه، وإلا فهى الطاعة والتسليم، إنه طمع الصغير فى كرم الكبير وبره وتيسيره.

ومن دعاء المؤمنين :

واعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا . إنه تبتل المؤمن وإخلاصه فى طلب العون من الله .

اعْفُ عَنَّا : بكرمك بأن تمحو عنا ما ألممنا به من الذنوب وتتجاوز عنها .

وَاغْفِرْ لَنَا : سامحنا واشملنا برحمتك وغفرانك وسترك.

وَارْحَمْنَا : برحمتك الواسعة، فهم طلبوا من الله أن يعفوا عنهم بأن يسقط عنهم العقاب ، وأن يغفر لهم بأن يستر عليهم ذنوبهم فلا يفضحهم ، وأن يشملهم بعطفه ورحمته ، ثم ختموا دعاءهم بقوله :

أنت مولانا فانصُرنا على القَوْمِ الكَافِرِينَ .. أنت ولى المؤمنين وناصر المتقين فاجعلنا أهلا لعونك وتوفيقك ، وانصرنا على الكافرين الجاحدين فضلك ونعمتك، وهو ختام يدل على كمال الإيمان ونهاية الخضوع والطاعة للرحمن، والرغبة فى إحقاق الحق ونصرة الدين وهزيمة الكافرين.

وفى تفسير ابن كثير عنوان عن :

(ذكر الأحاديث الواردة فى فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما).

(الحديث الأول) قال البخارى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «من قرأ بالآيتين - من آخر سورة البقرة كفتاه» (١١٢). ثم نقل عشرة أحاديث نبوية فى فضل الآيتين الآخيرتين من سورة البقرة.

وقد ورد فى صحيح مسلم عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: قد فعلت .

أى لما قال المؤمنون : رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، (قال الله - عز وجل - قد فعلت) رَبَّنَا ولا تحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا (قال : قد فعلت) وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا . (قال : قد فعلت) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة» ولفظ الترمذى : «وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » (١١٣).

وأخرج سعيد بن منصور والترمذى والحاكم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: « لكل شىء سنام ، وإن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هى سيدة آى القرآن آية الكرسى »(١١٤).

★ ★ ★

فائـدة

قال ابن القيم : تأمل خطاب القرآن ، تجد ملكًا له الملك كله ، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومواردها إليه، مستويا على العرش، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالماً بما فى نفوس عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم ، منفردًا بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ويعطى ويمنع، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضى ، ويدبر الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها ، وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغبهم فيه ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم، بنعمه وآلائه ، يذكرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ، ويقول الحق، ويهدى السبيل. ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وآلامها، ويذكر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجهة ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكرهم غناءه عنهم ، وعن جميع الموجودات ، وأنه الغنى بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته ، وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم ، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم ، والرافع عنهم ، والحامى عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجى لهم من كل كرب ، والموفى لهم بوعده ، وأنه وليهم الذى لا ولى لهم سواه. فهو مولاهم الحق، وينصرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير. وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكا عظيما، جوادًا رحيمًا جميلاً هذا شأنه، فكيف لا تحبه ، وتنافس فى القرب منه ، وتنفق أنفاسها فى التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضى كل من سواه ؟ وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه، والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها ؟.



أمهات المسائل الواردة فى سورة البقرة

١ - دعوة الناس جميعًا إلى عبادة ربهم.

٢ - عدم اتخاذ أنداد له.

٣ - ذكر الوحى والرسالة، والحجاج على ذلك بهذا الكتاب المنزَّل على عبده، وتحدى الناس كافة بالإتيان بمثله.

٤ - ذكر أسس الدين وهو توحيد الله .

٥ - إباحة الأكل من جميع الطيبات .

٦ - ذكر الأحكام العملية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأحكام الصيام، والحج، والعمرة، وأحكام القتال والقصاص.

٧ - الأمر بإنفاق المال فى سبيل الله .

٨ - تحريم الخمر والميسر .

٩ - معاملة اليتامى ومخالطتهم.

١٠ - أحكام الزوجية من طلاق ورضاعة وعدة.

١١ - تحريم الربا والأمر بترك ما بقى منه.

١٢ - أحكام الدين من كتابة وإشهاد وشهادة، وحكم النساء والرجال فى ذلك.

١٣ - وجوب أداء الأمانة.

١٤ - تحريم كتمان الشهادة.

١٥ - خاتمة ذلك كله، الدعاء الذى طلب إلينا أن ندعوه به ..

★ ★ ★

خاتمة من تفسير البقاعى

(... ولما بشَّرهم بذلك عرفهم مواقع نعمه من دعاء رتبه على الأخف فالأخف، على سبيل التعلى، إعلامًا بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسيانًا، ولا مما قارفوه خطأ ولا حمل عليهم ثقلا، بل جعل شريعتهم حنيفية سمحاء، ولا حملهم فوق طاقتهم ، مع أن له جميع ذلك ، وأنه عفا عن عقابهم ثم سترهم ، فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم ، ثم رحمهم بأن أحلهم محل القرب فجعلهم أهلا للخلافة، فلاح بذلك أنه يعلى أمرهم على كل أمر، ويظهر دينهم على كل دين ، إذ كان - سبحانه وتعالى - هو الداعى عنهم ، وليكون الدعاء محمولاً على الإصابة ومشمولاً بالإجابة.

فقال تعالى : رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا أى لا تعاقبنا ، إن نَّسِينَا أمرك ونهيك ، أَوْ أَخْطَأْنَا أى فعلنا خلاف الصواب تفريطا ونحوه [١١٥].

* * *

اللهم اجعل هذا القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزننا، وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك ، يا أرحم الراحمين.

تم تفسير سورة البقرة عصر الجمعة ٢٣
من ربيع الثانى سنة ١٤٠١هـ الموافق
٢٧ من فبراير (شباط) سنة
١٩٨١ بمدينة العين بدولة
الإمارات العربية
المتحدة والحمد لله
رب العالمين




سورة آل عمران

سورة آل عمران

سورة آل عمران سورة مدنية ، وآياتها مائتان ، نزلت بعد الأنفال ، والمراد بعمران هو والد مريم ، ام عيسى - عليهما السلام - وآل عمران هم عيسى ويحيى ومريم وأمها .

وتسمى الزهراء : لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتاب فى شأن عيسى عليه السلام.

والأمان : لأن من تمسك بما فيها أمن من الغلط فى شأنه.

والكنز : لتضمنها الأسرار العيسوية.

والمجادلة : لنزول نيف وثمانين آية منها فى مجادلة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم - نصارى نجران.

وسورة الاستغفار : لما فيها من قوله تعالى: وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ . (آل عمران : ١٧).

★ ★ ★

من أهداف سورة آل عمـــران

١ - بيـان مـعنى الدين ، ومـعنى الإسـلام ، فليس الدين هو كل اعـتـقـاد فى اللّه إنما هـو صـورة واحـدة من صـور الاعتقاد فيه سبحانه ، صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع :

توحيد الألوهية التى يتوجه إليها البشر.

وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله، فلا يقوم شىء إلا باللّه تعالى ، ولا يقوم على الخلائق إلا اللّه تعالى.

٢ - تصوير حال المسلمين مع ربهم ، واستسلامهم له ، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق .

٣ - التحذير من ولاية غير المؤمنين ، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة باللّه مع تولى الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب اللّه ، ولا يتبعون منهجه فى الحياة.

٤ - بيان أن اللذائذ الدنيوية زائلة، والآخرة خير وأبقى .

٥ - محبة اللّه سبحانه لا تتم إلا بمتابعة الرسول - صلى اللّه عليه وسلم .

٦ - بيان قصص بعض المصطفين الأخيار : كمريم وزكريا ويحيى وعيسى - عليهم السلام - وما جرى لعيسى من المعجزات ، والرد على من ادعى أنه ابن اللّه .

٧ - أمر النبى أن يدعو أهل الكتاب إلى المباهلة والدعاء بأن ينزل اللّه لعنته على الكافرين.

٨ - بيان أنه تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء : أن يؤمنوا بجميع الرسل، وأن من صفة محمد كونه مصدقاً لما معهم.

٩ - بيان أفضلية البيت الحرام على غيره ، وأن حجَّه واجب على المستطيع .

١٠ - ذكر غزوة أحد ، وبيان أن طريق الجنة : الجهاد والعمل الصالح، وأن كثيرًا من الأمم حاربت مع أنبيائهم .

١١ - النبى صلى اللّه عليه وسلم رحيم بأمته ، ولو كان سيئ الأخلاق لابتعد الناس عنه ، وقد حثه القرآن على مشاورة أصحابه والعزم والتوكل على اللّه . وقد تفضل اللّه على الخلق برسالة سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم .

١٢ - بيان حال الشهداء وفضلهم ومنزلتهم السامية عند اللّه .

١٣ - بيـان أن بعض أهل الكتـاب آمنوا ، وحث المؤمنين على الصبـر والمرابطة والتقـوى والتمسك بالوحدانيـة المطلقة .

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

الحـــى : ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة.

القيــوم : القائم على كل شىء بكلاءته وحفظه.

الفـرقان : القرآن ، أو جميع الكتب السماوية، لأنها تفرق بين الحق والباطل.

ذو انتقام : ذو عقوبة شديدة لمن عصاه، لا يقدر على العقاب بمثلها أحد.

التفسير :

١ - الٓمٓ

تحدثنا عن فواتح السور فى أول سورة البقرة ، وتكلمنا عن الحروف المقطعة التى بدئت بها بعض السور.

وآراء العلماء فى هذه الفواتح ترجع إلى رأيين اثنين.

أحدهما : أنها جميعًا مما استأثر الله به ، ولا يعلم معناها أحد سواه - وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين.

ثانيهما : أن لها معنى وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى . فمنهم من قال هى أسماء للسورة، ومنهم من قال هى رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته ، ومنهم من قال هى حروف للتنبيه، ومنهم من ذكر أنها حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها، وفى هذا دليل على أنه ليس من صنع بشر بل تنزيل من حكيم حميد.

٢ - اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

رغم أن بعض الناس قد يؤلِّهون أربابا كثيرة، ويعبدون أشياء عدة إلا أن الحقيقة الخالدة هى أن كافة المخلوقات تنتمى إلى الله الذى لم يكن له شريك أزلا ولا شريك له أبدا، فهو الله الحى القيوم ، واهب الحياة للخلق أجمعين لا عون ولا مدد إلا منه ، وهو المعين ولا معين سواه، لا شبيه له فى صفاته ، ولا ند له فى ذاته، ولا مثيل له، ولا شريك له ، ولذا فاتخاذ إله آخر - أيا كان - مع الله فى الأرض أو السماء . إن هو إلا زور وبهتان مبين.

روى ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم - وكانوا نحو ستين راكبًا ، وخاصموه فى عيس ابن مريم وقالوا: من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى - صَلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم : ألستم

تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ، قال ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى . قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا ؟ قالوا: لا. قال ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب، ولا يحدث الحدث؟ قالوا بلى . قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذى كما يغذى الصبي، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى . قال فكيف يكون هذا كما زعمتم. فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا، فأنزل الله : الـم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . إلى آخر الآيات .

ووجه الرد عليهم فيها ، أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادئ ذى بدء، ثم أتبع ذلك بما يؤكده من كونه حيا قيوما: أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى ، فكيف تقوم به قبل وجوده.

ويذكر البيضاوى فى تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) رواية تفيد أن الرسول (ﷺ) قال : إن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور [١١٦].

فى البقـــــرة : اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

وفى آل عمـران : اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

وفى طــــــه : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ .

٣ - نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ... .

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يعنى القرآن ، وللقرآن أسماء كثيرة وردت متفرقات فى ثنايا الكتاب العزيز فهو القرآن ، والكتاب ، والفرقان ، والذكر ... وغير ذلك من الأسماء العديدة التى أوردها السيوطى فى كتابه (الإتقان) وقد عبر عن القرآن بالكتاب، للإيذان بأنه هو الكتاب المتميز الذى ينصرف إليه هذا الاسم عند الإطلاق ، والألف واللام فيه للعهد أى الكتاب المعهود . أو الإشارة إلى أنه مشتمل على ما فى غيره من الكتب السماوية من المقاصد المشتركة بين الأديان فكأنه جنس الكتب السماوية ، والألف واللام فيه على هذا للجنس.

بِالْحَقِّ أى بالصدق الذى لا شبهة فيه .

فقد أنزل الله القرآن متلبسًا بالحق فى جميع صوره من توحيد الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد، وإخباره عن أحوال الأمم السابقة ، وشهادته بنبوة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم - وبيان ما جاء به من العبادات والمعاملات والأخلاق وأحوال الآخرة ، فكل هذه الصور من الحق ، نزل بها القرآن .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .

الضمير فى يديه يعود على الكتاب ، والمعنى أن الكتاب العزيز مصدق لما قبله من الكتب السماوية التى أنزلها الله على رسله ، ومحقق لها فيما نزلت به ، فإن الله سبحانه لم يبعث رسولا قط إلا بالدعوة إلى توحيده، والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه ، مثل صحف إبراهيم ، وزبور داود ، وتوراة موسى.

قال أبو مسلم : المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبيا قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التى هى صلاح كل زمان، فالقرآن مصدق لتلك الكتب فى كل ذلك (١١٧).

التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ . أى أنزل التوراة على موسى وأنزل الإنجيل على عيسى.

٤ – مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ . أى أنزل التوراة والإنجيل من قبل القرآن لأجل هداية الناس حين أنزلهما على موسى وعيسى، فلم يكن فيهما شىء من الضلال الذى يشتملان عليه الآن (١١٨).

وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ، المراد بالفرقان ما يفرق بين الحق والباطل، والمعنى الأقرب أن المقصود بالفرقان هو القرآن الكريم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه فصل بين الحق والباطل فى أمر عيسى، لأن سورة آل عمران تحدثت فى نصفها الأول عن عيسى عليه السلام وبينت حقيقته ، ونفت أن يكون ابنا لله . وناقشت من ذهب إلى تأليهه. وذهب مفسرون آخرون إلى أن القرآن فصل بين الحق والباطل فى أحكام الشرائع، فقد أحل الحلال وحرم الحرام، وفرض الفرائض، وسن الأخلاق الرفيعة ...

أخرج ابن جرير ، عن محمد بن جعفر بن الزبير أنه – أى القرآن – الفاصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى – عليه السلام – وغيره .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ. المراد بالكافرين : النصارى الذين نزل صدر السورة بسببهم أو كل كافر فيدخل هؤلاء فيه دخولا أوليا.

والمراد بآيات الله : الكتب المنزلة على الرسل، أو ما يعمها وغيرها كالآيات والمعجزات.

وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . العزيز : الغالب الذى لا يغلب ، والانتقام : العقوبة، وكلمة عَزِيزٌ : للإشارة إلى القدرة التامة على العقاب.

والجملة سيقت لتقرير الوعيد السابق عليها

التــوراة و الإنجـيل

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى تفسير هذه الآيات ما يأتى :

يفهم الناس بوجه عام أن المراد بالتوراة هى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم [١١٩] وأن المقصود بالإنجيل أناجيل العهد الجديد الأربعة الشهيرة [١٢٠] ومن هنا ظهرت هذه المشكلة.

أى هذه الكتب يا ترى هى كلام الله حقا ؟ وهل يصدق القرآن فعلا كل ما ورد فيها من أقوال ؟ والحقيقة أن التوراة ليست هى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم بل هى منشورة فى بطنها، وأن الإنجيل ليس هو الأناجيل الأربعة بل هو موجود بين سطورها.

فالمراد بالتوراة أصلاً تلك الأحكام التى نزلت على موسى عليه السلام منذ بعثته وإلى وفاته أى فى مدة تقارب اثنين وأربعين عامًا كانت منها تلك الوصايا العشر التى دوَّنها الله على ألواح وأعطاها له. أما بقية الأحكام فقد أمر موسى عليه السلام بكتابة اثنتى عشرة نسخة منها وأعطاها لأسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر، وأعطى نسخة من بين هذه النسخ إلى بنى لاوَى أحد أسباط بنى إسرائيل كى يحفظوها. وكان هذا الكتاب يسمى بالتوراة، وقد ظل سليمًا محفوظًا ككتاب مستقل حتى أول تدمير لبيت المقدس، وكانت نسخة بنى لاوى والألواح الحجرية توضع فى تابوت العهد ويعرفها بنو إسرائيل باسم (التوراة). غير أن غفلتهم ونسيانهم وصل إلى حد أنه حين حدث ترميم الهيكل السليمانى فى عهد (يوسياه) ملك يهوذا . عثر كبير الكهان على التوراة موضوعة فى مكان ما فى (خلقيا) وأعطاها إلى كاتب الملك كأعجوبة أثرية فأخذها الكاتب وقدّمها للملك كاكتشاف مدهش عجيب (انظر الملوك الثانى إصحاح ٢٢ من ١٣٠٨).

وحين فتح (بختنصَّر) أورشليم وأحرق الهيكل والمدينة بأكملها وسواها بالتراب فقد بنو إسرائيل نسخ التوراة الأصلية ، التى كانت لديهم أعداد جد قليلة منها، وكانوا قد أسدلوا عليها ستائر النسيان .

ثم لما عادت بقية بنى إسرائيل من الأسر البابلى فى عهد الكاهن عزرا (عزير) إلى أورشليم وبنى بيت المقدس من جديد دوَّن عزرا كل تاريخ بنى إسرائيل بعون من بعض أكابر القوم وهو ما يضم الآن الأسفار السبعة عشر الأولى من العهد القديم.

والأسفار الأربعة من هذا التاريخ التى تحوى سيرة موسى عليه السلام وهى الخروج واللاويين والعدد والتثنية أدرجت فيها آيات التوراة التى كانت فى يد عزرا ومعاونيه حسب موقعها وفق ترتيب نزولها.

فالتوراة الآن إذن هى تلك الأجزاء المتفرقة التى تتناثر فيها سيرة موسى عليه السلام بين صفحات العهد القديم، ونستطيع أن نتبينها من بين هذا السرد التاريخى بعلامة واحدة هى أننا إذا وجدنا مصنف سيرة موسى يقول : قال الله لموسى كذا ... أو قال موسى : الرب إلهكم يقول كذا ... فلنعلم أن جزءًا من التوراة قد بدأ هنا . ثم إذا استؤنف سرد السيرة فلنعلم أن هذا الجزء قد انتهى. وإذا ما أسهب مصنف التوراة فى شرح وتفسير شيء ما فى موضع وسط صفحاتها تعذر على المرء العادى أن يميز ما إذا كان هذا الجزء من التوراة أم من الشرح

والتفسير. ومع ذلك فمن لهم بصيرة فى تدبر الكتب السماوية فى مقدورهم أن يعرفوا إلى حد ما التفاسير والشروح التى أضيفت وألحقت بهذه الأجزاء على نحو صحيح.

والقرآن يسمى هذه الأجزاء المتناثرة (التوراة) ويصدقها، والحقيقة أننا لو جمعنا هذه الأجزاء وقارناها بالقرآن فلن نجد قيد شعرة من الاختلاف فى الأحكام الجزئية فى بعض المواضع، والمتدبر لكليهما اليوم يستطيع أن يحس إحساسًا واضحًا بأن كلا الرافدين صادر من منبع واحد.

كذلك فالإنجيل فى أصله هو تلك الخطب والأقوال التى قالها المسيح عليه السلام حتى آخر عامين أو ثلاثة من حياته بوصفه نبيا من عند الله . أما هل كتبت هذه الكلمات الطيبات فى حياته أم لا فليس عندنا أى مصدر نستقى منه المعلومات حول ذلك وقد يجوز أن يكون بعض الناس قد دوّنوها ويجوز أن بعض المؤمنين به سمعوها وحفظوها شفاهة. على أى حال حين كتبت رسائل مختلفة عن سيرته الطاهرة بعده بردح من الزمن أدرجت فيها - إلى جانب البيان التاريخى - تلك الأقوال والخطب التى وصلت إلى مصنفى هذه الرسائل عن طريق الروايات الشفهية أو المذكرات المكتوبة. وكتب متى ومرقص ولوقا ويوحنا التى تسمى اليوم (أناجيل) ليست هى الإنجيل الأصلى وإنما الإنجيل الحق هو أقوال المسيح التى أدرجت بين سطورها وليس لدينا وسيلة للتعرف عليها أو التفريق بينها وبين كلام كتاب سيرة المسيح عليه السلام سوى أنه حين يقول المؤلف قال المسيح كذا ... أو علم المسيح الناس كذا ... فهذه هى أجزاء الإنجيل الأصلى، والقرآن يسمى هذه الأجزاء بالإنجيل ويصدقها ولو جمع امرؤ اليوم هذه الأجزاء المنثورة بين صفحات العهد الجديد وقارنها بالقرآن لما وجد بين كليهما سوى فرق طفيف وحتى هذا الفرق البسيط الذى يدركه من يقوم بهذه المقارنة يمكن حله وإزالته بسهولة ويسر بعد التفكير فيه بعقل بعيد عن التعصب (١٢١).



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾

المفردات :

لا يخفى : لا يغيب.

يصوركم : يخلقكم على ما شاء من صورة.

الأرحام : جمع رحم وهى مكان الحمل مشتق من الرحمة.

التفسير :

٥ - إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيه شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ . إن الله واسع العلم، لا يخفى عليه شىء كائن فى الأرض ولا فى السماء ، لعلمه بما يقع فى العالم من كلى أو جزئى، فهو العالم بما كان وما يكون ، وهو مطلع على

كفر من كفر بآيات الله، وإيمان من آمن بها، وهو مجازيهم عليه، والمسيحيون يؤمنون بألوهية عيسى غافلين عن أنه بشر محدود المعرفة فكيف يكون إلهًا ؟.

وعبر عن علمه - تعالى - بذلك إيذانًا بأن علمه سبحانه بالكائنات، ولو كانت فى أقصى غايات الخفاء ليس من شأنه أن يكون فيه شائبة خفاء بوجه من الوجوه، بل هو فى غاية الوضوح والجلاء [١٢٢].

٦- هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ .

هو الذى يمنحكم الصورة التى يشاء ويمنحكم الخصائص المميزة لهذه الصورة ، وهو وحده الذى يتولى التصوير بمحض إرادته ومطلق مشيئته .

قال أبو السعود فى التفسير :

(يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها فى قبول الأحوال المتغايرة من كونكم نطفا ثم علقا ثم مضغا غير مخلَّقة ثم مخلقة وفى الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات).

لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . إذ لا يتصف بشىء مما ذكر من الشئون العظيمة الخاصة بالألوهية أحد ليتوهم ألوهيته.

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . المتناهى فى القدرة والحكمة؛ ولذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع .

وفى هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى فى عيسى عليه السلام ونشأته ومولده فالله هو الذى صور عيسى (كيف يشاء) . لا أن عيسى هو الرب، أو هو الله أو هو الابن، أو هو الأقنوم اللاهوتى الناسوتى ، إلى آخر ما انتهت إليه التصورات المنحرفة الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد.



﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾

المفردات :

محكمات	: واضحات.
متشابهات	: محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها فاشتبه أمرها على الناس.
زيغ	: ميل عن الحق إلى الباطل.

ابتغاء الفتنة : طلبًا لها.

الراسخون فى العلم : الثابتون فيه.

الألبـــــاب : العقول الخالصة.

المعنى العام للآية :

وهو الذى أنزل عليك القرآن وكان من حكمته أن جعل منه آيات محكمات محددة المعنى بيّنة المقاصد، هى الأصل وإليها المرجع، وأخر متشابهات يدق معناها على أذهان كثير من الناس ، وتشتبه على الراسخين فى العلم وقد نزلت هذه المتشابهات لتبعث العلماء على العلم ، والنظر ودقة الفكر فى الاجتهاد، وفى البحث فى الدين.

وشأن الزائغين عن الحق أن يتبعوا ما تشابه من القرآن ، رغبة فى إثارة الفتنة، وهم يؤولون الآيات حسب أهوائهم ، وهذه الآيات لا يعلم تأويلها الحق إلا الله ، والذين تثبتوا فى العلم وتمكنوا منه، وأولئك المتمكنون منه يقولون : إننا نوقن بأن ذلك من عند الله ، لا نفرق فى الإيمان بالقرآن بين محكمه ومتشابهه، وما يعقل ذلك إلا أصحاب العقول السليمة التى لا تخضع للهوى والشهوة.

ويتعلق بتفسير الآية ما يأتى :

١ - المحكم والمتشابه

المحكمات : من أحكم الشىء بمعنى وثّقه وأتقنه ، والمعنى العام لهذه المادة المنع فإن كل محكم يمنع بإحكامه تطرق الخلل إلى نفسه أو غيره ، ومنه الحكم والحكمة، وحكمة الفرس، قيل وهى أصل المادة.

والمتشابه : يطلق فى اللغة على ما له أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضا، وعلى ما يشتبه من الأمر أى يلتبس قال فى الأساس (وتشابه الشيئان ، واشتبها ، وشبهته به، وشبهته إياه واشتبهت الأمور وتشابهت : التبست لإشباه بعضها بعضا، وفى القرآن المحكم والمتشابه).

٢ - آراء العلماء فى المحكم

(أ) هو الحلال والحرام ... روى عن ابن عباس ومجاهد.

(ب) هو ما علم العلماء تأويله ...

(جـ) هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان.

(د) هو ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهًا واحدًا.

(هـ) هو الأمر والنهى والوعد والوعيد والحلال والحرام .

(و) عن ابن مسعود : قال أنزل القرآن على خمسة أوجه :

حرام وحلال ، ومحكم ومتشابه، وأمثال ، فأحل الحلال، وحرّم الحرام ، وآمن بالمتشابه، واعمل بالمحكم واعتبر بالأمثال.

(ز) قال ابن عباس ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ هن أصل الكتاب اللاتى يعمل عليهن فى الأحكام ومجمع الحلال والحرام .

٣ - آراء العلماء فى المتشابه

(أ) هو ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة .

(ب) هو الحروف المقطعة فى فواتح السور كقوله ﴿ الٓمٓ ﴾ . ونحو ذلك . وقد جاء فى تفسير المنار أن المفسرين قد اختلفوا فى المحكم والمتشابه على أقوال :

(أحدها) أن المحكمات هى قوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ... ﴾ (الأنعام :١٥١) إلى آخر الآية والآيتين اللتين بعدها [١٢٣] والمتشابهات هى التى تشابهت على اليهود وهى أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور .

(ثانيها) أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ.

(ثالثها) أن المحكم ما كان دليله واضحًا لائحًا كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ، والمتشابه ما يحتاج فى معرفته إلى التدبر والتأمل.

(ورابعها) أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفي، والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال [١٢٤].

٤ - الوقف والوصل

فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾

للعلماء فى تفسير هذه الآية رأيان :

١ - رأى بعض السلف وهو الوقوف على لفظ الجلالة ، وجعل قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . كلام مستأنف، وعلى هذا فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، واستدلوا على ذلك بأمور منها :

(أ) أن الله ذم الذين يتبعون تأويله.

(ب) أن قوله : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ . ظاهر فى التسليم المحض لله تعالى، ومن عرف الشىء وفهمه لا يعبر عنه بما يدل على التسليم المحض.

وهذا رأى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم كأبى بن كعب وعائشة.

٢ - ويرى بعض آخرون الوقف على لفظ : الْعِلْمِ . ويجعل قوله : يَقُولُونَ آمَنَّا . كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه يعلمه الراسخون ، وإلى هذا ذهب ابن عباس وجمهرة من الصحابة ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين فى العلم ، أنا أعلم تأويله .

وردوا على أدلة الأولين بأن اللّه تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة، والراسخون فى العلم ليسوا كذلك فإنهم أهل اليقين الثابت الذى لا اضطراب فيه، فاللّه يفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكم [١٢٥] ويشهد لصحة هذا الرأى أمران :

أحدهما : أن اللّه تعالى ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ، فلا ينبغى أن يكون فيه ألغاز ومعميات لا يمكن فهمها وإدراكها، فمتشابهه يجب أن يرد إلى محكمه كما قال تعالى هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ : أى مرجعه عند الاشتباه.

وثانيهما : أن اللّه تعالى أثنى على الراسخين فى العلم بقوله : وما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ففى وصفهم بأنهم أصحاب العقول الخالصة المتذكرة دليل على أنهم استعملوها فى كشف المتشابهات والتذكر بها.

٥ - الحكمة فى وجود المتشابه

(أ) امتحان قلوب المؤمنين فى التصديق به .

(ب) هو حافز للعقول إلى النظر فيه.

(جـ) البحث عن المتشابه ومحاولة فهمه من حظ الخاصة كما أن التسليم والتفويض من حظ العامة.

قال الزمخشرى : فإن قلت : فهلا كان القرآن كله محكما ؟.

قلت: لو كان كله محكمًا لتعلق الناس به، لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل والنظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك، لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة اللّه وتوحيده إلا به [١٢٦].

ولما فى المتشابه من الابتلاء ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما فى تقادح العلماء وإتعاب القرائح - فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم ، من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمَّة، ونيل الدرجات عند اللّه ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام اللّه ولا اختلاف فيه - إذا رأى فيه ما يناقض ظاهره- وأهمه طلب ما يوفق بينه ، ويجريه على سنن واحدة ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح اللّه عليه ، وتبين مطابقة المتشابه للمحكم- ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة إيمانه ... ا هـ.

٦ - زعم التناقض

زعم النصارى أن القرآن فيه تناقض حين نفى بنوة عيسى للّه ، ثم أثبتها حين ذكر أنه روح منه، وهذا زيغ منهم يبتغون به الفتنة، فإن المراد من قوله « وروح منه » أنه صادر من اللّه ، فكما أن كل شىء صادر من اللّه بالخلق والإبداع ، فكذلك روح عيسى، وصدق اللّه إذ يقول : لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (الإخلاص : ٣ - ٤).

٧ - صفات اللّه

جاء فى القرآن الكريم آيات تدل بظاهرها على أن للّه وجها ويدين وجهة هى السماء ومكانا هو العرش ونحو ذلك مما يوهم التشبيه والجسمية والانتقال، وآيات أخرى تثبت له صفات مختلفة من العلم والقدرة والكلام ونحوها .

وطائفة ثالثة : منها ما يصرح بأنه لا تدركه الأبصار ومنها ما يدل على جواز رؤيته تعالى

فرأى رجال السلف الصالح متابعة الصحابة والتابعين فى موقفهم منها.

« فغلَّبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام اللّه فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل [١٢٧] وقد سئل الإمام مالك عن معنى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى) فقال : « الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة » [١٢٨].

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى تفسير سورة آل عمـــــران :

ونشأت المشكلة : حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التى وردت فى القرآن الكريم ، والتى توهم التشبيه، كاليد والوجه والاستواء، أو التى وردت فى الأحاديث : كالنزول والصورة ، والأصابع.

بدأت المشكلة: حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الألفاظ وأمثالها : تأويلا لها، أو نفيًا لمعناها، أو تفسيرًا أو شرحًا ... (... والموقف الذى يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن تجاه كلمات الصورة واليد والنزول، إنما هو الإيمان بها مع التنزيه للّه تعالى عن الجسمية وتوابعها، وليس معنى ذلك ، أن هذه الألفاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال اللّه وعظمته : مما ليس بجسم ولا عرض فى جسم، وأن يؤمن بأن ما وصف اللّه تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله - صلى اللّه عليه وسلم - فهو كما وصفه ، وحق بالمعنى الذى أراده - وعلى الوجه الذى قال ، وأن لا يحاول لها تفسيرًا ولا تأويلا.

وشعار السلف معروف فى هذه الكلمات وهو :

« أمروها كما جاءت » - يقول الإمام الرازى فى كتابه (أساس التقديس) : « إن هذه المتشابهات ، يجب القطع فيها بأن مراد اللّه تعالى فيها ، شىء غير ظواهرها، ثم يجب تفويض معناها إلى اللّه تعالى، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها ».

إن الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة ، قاطعة الدلالة مدركة المقاصد وهى أصل هذا الكتاب.

والذين فى قلوبهم زيغ، يتركون الأصول الواضحة، ويجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التى تنشأ عن بلبلة الفكر نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر فى تأويله ، وأما الراسخون فى العلم فيقولون فى طمأنينة وثقة آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا أى الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له وليس شىء من عند اللّه بمختلف ولا متضاد.

روى الإمام أحمد أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم - سمع قومًا يتدارسون فقال : (إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه) (١٢٩).

★ ★ ★

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

لا تزغ قلوبنا : لا تملها عن الحق.

من لــدنك : من عنــدك.

ليوم لا ريب فيه : ليوم لا يصح أن يشك فيه وهو يوم القيامة.

التفسير :

٨ - رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ .

هذه الآية من تتمة كلام الراسخين فى العلم فهم أمام المتشابه من القرآن ، يؤمنون به ، ويصدقون بأنه كلام الله وينحنون بعقولهم أمام كلام ربهم قائلين : آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ثم يسترسلون فى الدعاء سائلين الله الثبات على الحق والاستمرار على الهدى، ولن يكون ذلك إلا بتوفيق الله لهم .

ويذهب الشريف الرضى فى تفسيره هنا إلى أنه دعاء بالتثبيت على الهداية، وإمدادهم بالألطاف التى معها يستمرون على الإيمان، وعلى طريق المعتزلة يسوق الشريف تفسيره فى نطاق جدلى ينتهى إلى الجواب السليم فيجرى تساؤلا بقوله : وكيف يكون مزيغًا لقلوبهم بألا يفعل اللطف ؟ ثم يتولى الإجابة قائلاً :

من حيث كان المعلوم له متى قطع إمدادهم بألطافه وتوفيقه زاغوا وانصرفوا عن الإيمان ، ويمضى شارحًا ضاربًا المثل قائلاً : ويجرى هذا مجرى قولهم :

اللهم لا تسلّط علينا من لا يرحمنا ، ومعناه لا تخل بيننا وبين من لا يرحمنا فيتسلط علينا .

وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ . هم يعرفون أنهم لا يقدرون على شىء إلا بفضل الله ورحمته، وأنهم لا يملكون قلوبهم فهى فى يد الله .. فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة.

روى ابن أبى حاتم عن أم سلمة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يقول : « يا مقلّب القلوب ثبت قلبى على دينك » (١٣٠) ثم قرأ : رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ .

والوهاب : كثير الهبات والعطايا أى إنك أنت وحدك الوهاب لكل موهوب، وفيه دليل على أن الهدى بتوفيق الله ، والضلال بعدم الإعانة منه، لتقصير العبد فى سلوك سبيله ، وأنه متفضل بما ينعم به على عباده، من غير أن يجب عليه شىء .

٩ - رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ ... .

أى أنت يا ربنا ، جامع المهتدين والزائغين ، لحسابهم وجزائهم فى يوم لا ينبغى أن يرتاب فى وقوعه ، ليجزى كل إنسان بما عمله فى الدنيا من خير وشر.

إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . **هذه الجملة من كلام الله بعد أن تم كلام الراسخين فى العلم.** كأن القوم لما قالوا : « إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » صدّقهم الله فى ذلك وأيد كلامهم بقوله « إن الله لا يخلف الميعاد» وقيل هو كلام الراسخين.

والمعنى على هذا :

إنك لا تخلف وعدك للمسلمين والكافرين بالثواب والعقاب.

والتأكيد بإن ، وإظهار لفظ الجلالة بدلا من الضمير يفيد تأكيد نفى الريب، كما يفيد تأكيد قيام الساعة تأكيدًا حاسمًا .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

وقود النار : وقود النار - بالفتح - ما توقد به النار ، وبالضم : الاشتعال.

كـدأب : الدأب ، العادة ، والصنيع والحال ، و الشأن والأمر.

التفسير :

١٠ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ . التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع- المضار.

وَلا أَوْلادُهُم . الذين بهم يتناصرون ، وعليهم يعتمدون.

مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . أى من عذاب الله شيئًا من الإغناء أى لن تدفع عنهم شيئًا من عذابه.

قال تعالى : يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . (الشعراء : ٨٨، ٨٩).

وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ . بفتح الواو أى حطبها وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها، وأكثر اللغويين على أن الضم للمصدر أى التوقد، والفتح للحطب.

وقال الزجاج المصدر مضموم ، ويجوز فيه الفتح ، وهذا كقوله تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دون الله حصبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . (الأنبياء : ٩٨).

١١ - كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . قال ابن عباس كصنيع آل فرعون ، أو كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون ، وكشبه آل فرعون والألفاظ متقاربة.

والدأب بالتسكين والتحريك أيضًا كنهر ونهر هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة كما يقال : لا يزال هذا دأبى ودأبك.

وقال امرؤ القيس :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والمعنى كعادتك فى أم الحويرث حين أهلكت نفسك فى حبها وبكيت دارها ورسمها ».

والمعنى فى الآية :

لن تغنى عن هؤلاء الكفار أموالهم ولا أولادهم ، شأنهم فى هذا شأن آل فرعون حيث لم يغن عنهم ما ملكوه من أموال طائلة، وما أنجبوه من أبناء عديدين ، فأغرقوا وأدخلوا نارا بسبب كفرهم، وكما دخلوا النار بكفرهم فسيدخلها كل كافر مفسد.

وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . أى الأمم الكافرة التى كذبت الرسل.

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبنى على السؤال المقدر. والآيات: المعجزات والبراهين التى أيد بها الرسل، أو الأدلة على وجود الله ووحدانيته أو هما معًا .

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أى عاقبهم وأهلكهم بسببها وقد استعمل الأخذ لأن من ينزل به العقاب يصير كالمأخوذ المأسور الذى لا يقدر على التخلص.

وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . أى الأخذ بالذنب ، فيه تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة ، وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ للجميع وتكملة له.

★ ★ ★

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

المفردات :

المهـــاد : الفـــــراش.

سبب النزول :

روى أبو داود فى سننه والبيهقى فى الدلائل عن طريق ابن إسحاق عن ابن عباس :

أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما أصاب ما أصاب من بدر ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال :

يا معشر اليهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا. فقالوا: يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش: كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تكن مثلنا ..) فأنزل الله :

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ . إلى قوله : لأُولِي الأَبْصَارِ. وحكم الآية يعم جميع الكافرين، وإن نزلت بسبب اليهود :

المعنى : قل ، يا محمد لهؤلاء الكفار : ستغلبون – ألبتة – عن قريب وستحشرون بعد موتكم إلى جهنم وبئس الفراش : جهنم ، التى مهدتموها لأنفسكم بذنوبكم وآثامكم.

والتعبير عن جهنم بالمهاد، للتهكم بهم، فإن المهاد هو الفراش الذى يمهد ليستراح عليه، ولا مهاد ولا راحة فى السعير ، وقد صدق الله وعده بقتل يهود بنى قريظة (١٣١)، وإجلاء بنى النضير وفتح خيبر (١٣٢) وضرب على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة ، حيث أخبر القرآن به قبل وقوعه .



﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

آيـــة : الآية هنا ، العبرة والعظة.

فئــــة : الفئة، الطائفة من الناس.

الأبصار : البصائر والعقول .

التفسير :

١٣ - قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا . . . .

أى قل لأولئك اليهود الذين غرتهم أموالهم واعتزوا بأولادهم وأنصارهم لا تغرنكم كثرة العدد ولا المال والولد، فليس هذا سبيل النصر والغلب فالحوادث التى تجرى فى الكون أعظم دليل على تفنيد ما تدّعون.

انظروا إلى الفئتين اللتين التقتا يوم بدر، فئة قليلة من المؤمنين تقاتل فى سبيل الله كتب لها الفوز والغلب على الفئة الكثيرة من المشركين.

وفى هذا عبرة أيما عبرة لذوى البصائر السليمة التى استعملت العقول فيما خلقت لأجله من التأمل فى الأمور والاستفادة منها.

ووجه العبرة فى هذا أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيد الفئة القليلة فتغلب الفئة الكثيرة بإذن الله.

فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أى فئة مؤمنة فى أعلى درجات الإيمان تجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله وحماية الحق والدفاع عن الدين وأهله.

وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ. أى فئة أخرى كافرة ، والمراد بها كفار قريش.

وكان المسلمون فى بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معهم فرسان وستة أدرع وثمانية سيوف، وأكثرهم رجالة. وكان المشركون قريبًا من ألف.

يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ . أى يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين قريبًا من ألفين، أو مثلى عدد المسلمين.

والمراد من الرؤية الظن والحسبان ، وقد كثَّر الله المسلمين فى أعين المشركين ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم ، أو أنزل الله الملائكة حتى صار عدد المسلمين كثيرًا فى نظر المشركين .

رَأْيَ الْعَيْنِ . أى رؤية ظاهرة لا لبس فيها.

لقد كانت هناك مواقف مختلفة للمعركة. فقبل المعركة قلل الله المسلمين فى أعين المشركين حتى يجترئوا عليهم كما قلل الله المشركين فى أعين المسلمين ، ليزداد حماس المسلمين ويقينهم بالنصر.

قال تعالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ . (الأنفال : ٤٤).

فلما بدأت المعركة والتحم الجيشان ، كثر عدد المسلمين فى أعين الكفار ليهابوهم وتتزلزل أقدامهم ، فيفشلوا وينهزموا .

ويحتمل أن المسلمين كثروا أولاً فى أعين المشركين ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التّصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ليقضى الله أمرًا كان مفعولا .

ومضمون الآيات يرجح الرأى الأول ، والعبرة أنه كان هناك تقليل للعدد فى مواطن ، وتكثير للعدد فى مواطن أخرى من المعركة، وأن ذلك كان سبيلاً من سبل النصر.

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ . والله يقوى بنصره وعونه من يشاء من عباده ، فالنصر والظفر، إنما يحصلان بتأييد الله ونصره لا بكثرة العدد ولا بقوة الشوكة، ولا بقوة السلاح: وقد تقف بعض العقبات فى طريق النصر ولكن العاقبة دائمًا للمتقين .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ . إن فى التكثير والتقليل، وغلبة القليل مع عدم العدة على الكثير الشاكى السلاح لَعِبْرَةً أى لاعتبارا وآية وموعظة لِّأُولِي الْأَبْصَارِ لذوى العقول والبصائر .



﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

حب الشهوات : حب المشتهيات للنفس.

المقنطرة : المجمعة أو المضعّفة.

المسومة : الراعية فى المرعى ، مأخوذ من سوَّم خيله، إذا أرسلها فى المرعى ، أو المطهمة الحسان.

والأنعام : الإبل والبقر، والغنم والمعز.

والحرث : مصدر مراد به المزروع .

التفسير :

فى آية واحدة يجمع السياق القرآنى أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : النساء والبنين والأموال المكدَّسة والخيل والأرض الخضراء والأنعام .. وهى خلاصة الرغائب الأرضية إما بذاتها وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى.

وقد بدأت الآية أنواع المشتهيات بقولها :

١ - من النِّسَاءِ وقدمهن على الكل لأن التمتع بهن أكثر والاستئناس بهن أتم، إذ يحصل منهن أتم اللذات.

٢ - وَالْبَنِين والمراد بهم الأولاد الذكور للتكثُّر بهم والتفاخر والزينة، وقيل المراد بهم الأولاد مطلقا كما قال تعالى: أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ . (الأنفال : ٢٨) وفى الحديث (الولد مجبنة مبخلة)[١٣٣]. والعلة فى حب الزوجة، وحب الولد واحدة وهى تسلسل النسل وبقاء النوع، وهى حكمة مطردة فى غير الإنسان من الحيوانات الأخرى.

وقدم حب النساء على حب الأولاد مع أن حبهن قد يزول وحب الأولاد لا يزول، لأن الولد لا يعظم فيه الغلو والإسراف كحب المرأة . فكم من رجل جنى حبه للمرأة على أولاده، وكم من غنى عزيز يعيش أولاده عيشة الذل والفقر، بسبب حب والدهم لغير أمهم.

٣ - وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ أى الأموال الكثيرة من الذهب والفضة، والقناطير جمع قنطار، ويطلق أحيانًا على المال الكثير بغير عدد وقد يستعمل فى مقدار كثير معين من المال وهو ١٢ ألف أوقية.

وفى القاموس القنطار مائة رطل من الذهب والفضة ووصف القناطير بالمقنطرة للمبالغة، فمن عادة العرب أن يصفوا الشىء بما يشتق منه للمبالغة ، كقولهم ألوف مؤلفة، وبدر مبدرة، وإبل مؤبلة، ودراهم مدرهمة، وظل ظليل.

ونهم المال هو الذى ترسمه القناطير المقنطرة ولو كان يريد مجرد الميل إلى المال لقال : والأموال ، أو والذهب ، والفضة، ولكن القناطير المقنطرة توحى بالنهم الشديد لتكديس الأموال، ذلك أن التكديس ذاته شهوة، بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى.

وحب المال غريزة فطرية، وقد يبلغ النَّهم بالإنسان فى جمع المال أن ينسى أن المال وسيلة لا مقصد فيفتن فى الوصول إليه الفنون المختلفة، ولا يبالى أمن حلال كسب أم من حرام.

وقد أباح الإسلام الملكية ولكنه هذَّبها وقلَّم أظافرها وأوجب أن يكون تملك المال من طرق سليمة، كما أوجب فيه الزكاة، وغير ذلك من الواجبات، وبذلك يكون المال نعمة لا نقمة، فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس أن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - قال : (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب اللّه على من تاب) [١٣٤].

٤ - وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ . : التى ترعى فى الأودية، يقال : سام الدابة : رعاها، وأسامها : أخرجها إلى المرعى كما قال تعالى : مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. (النحل :١٠).

وقال ابن جرير : المسومة المعلَّمة ، التى عليها السيمياء وهى العلامة.

وقال أبو مسلم : المراد من هذه العلامات الأوضاح والغرر التى تكون فى الخيل ، وهى أن تكون الأفراس غرا، وقال النابغة :

بسمر كالقداح مسومات ... عليها معشر أشباه جن

وقال ابن جرير : إن معنى المطهمة والمعلَّمة والرائعة واحد.

وكل من الخيل الراعية التى تقتنى للتجارة، والمطهمة التى يقتنيها الكبراء والأغنياء للمفاخرة، من متاع الدنيا الذى يتنافس فيه، ومن الناس من يغلو فى حب الخيل وأشباهها حتى يفوق عنده كل حب.

٥ - وَالْأَنْعَامِ . وهى الإبل والبقر والغنم، والأنعام مال أهل البادية بها ثروتهم، وفيها تكاثرهم وتفاخرهم، ومنها معايشهم ومرافقهم .

وقد امتن اللّه بالأنعام على عباده فقال :

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ : (النحل : ٥ - ٨).

٦ - وَالْحَرْثِ . أى الزرع والنبات والشجر على اختلاف أنواعه وهو قوام حياة الإنسان والحيوان فى البدو والحضر.

ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . أى ذلك الذى ذكر من الأنواع الستة هو ما يستمتع به الناس فى حياتهم الدنيا أى الأولى.

وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . واللّه عنده حسن المرجع فى الحياة الآخرة التى تكون بعد موت الناس وبعثهم فلا ينبغى لهم أن يجعلوا كل همهم فى هذا المتاع القريب العاجل بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه فى الآجل.

والإسلام دين وسط فهو لم يحرّم التمتع بالطيبات ، فإن التمتع بها حلال كما قال - سبحانه : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . (الأعراف : ٣٢).

فالزوجة الصالحة نعمة والدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة.

وينبغى أن تكون وسيلة للعفة والاستقامة والذرية الصالحة.

والابن الصالح نعمة، والمال نعمة وهو وسيلة لإخراج الزكاة والصدقة. وكذلك الخيل والأنعام والحرث.

ولكن على المؤمن ألا يشتغل بها عن طاعة اللّه، وألا يجعلها أكبر هَمِّهِ أو شاغلا له عن آخرته.

فإذا اتقى ذلك واستمتع بها بالقصد والاعتدال فهو السعيد فى الدارين.

ومن دعاء المؤمنين :

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . (البقرة : ٢٠١).

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) ﴾

المفردات :

أؤنبئكم : الهمزة للاستفهام ، والمراد منه : التنبيه والتشويق إلى ما ينبئهم به. والإنباء : الإخبار. فكأنه يقول : إنى مخبركم بخبر يستدعى انتباهكم وشوقكم إلى سماعه، فاستمعوا إليه.

وأزواج مطهرة : وزوجات مطهرة من الأدناس حسية ومعنوية .

والقانتين : والمطيعين لله، الخاضعين له، المقربين بعبوديتهم له.

بالأسحار : الأسحار جمع سحر ، وهو آخر الليل قبيل الفجر .

ورضوان : الرضوان : الرضا العظيم.

التفسير :

١٥ - قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . . . .

بعد أن بين سبحانه زخارف الدنيا وزينتها ، وذكر ما عنده من حسن المآب إجمالا، أمر رسوله بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب.

والمعنى : قل لقومك وغيرهم : أأخبركم بخير من جميع ما تقدم ذكره من النساء والبنين إلى آخره، وجئ بالكلام على صورة الاستفهام لتوجيه النفوس إلى الجواب وتشويقها إليه. وقوله خير يشعر بأن تلك الشهوات خير فى ذاتها ، ولاشك فى ذلك إذ هى من أجلِّ النعم التى أنعم الله بها على الناس ، وإنما يعرض الشر فيها كما يعرض فى سائر نعم الله على عباده كالحواس والعقول وغيرها.

ثم أجابهم عن هذا الاستفهام المشوق فقال :

لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . . . .

جعل ما أعده للمتقين من الجزاء على التقوى نوعين :

نوعًا جسمانيا نفسيا وهو الجنات وما فيها من الخيرات ، والأزواج المطهرات.

ونوعا روحيا عقليا وهو رضوان الله تعالى .

قال القاسمى :

و لِلَّذِينَ اتَّقَوْا . خبر المبتدأ الذى هو :جَنَّاتٌ

و تَجْرِي . صفة لها و عِندَ رَبِّهِمْ . صفة للجنات فى الأصل قدم فانتصب على الحال، والعندية مقيدة لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [١٣٥].

خَالِدِينَ فِيهَا . أى ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولا.

وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ . من الدنس والخبث والأذى والحيض وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا.

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ . أى يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده، وهذه اللذة الروحانية تتمة ما حصل لهم من اللذات الجسمانية وأكبرها كونًا قال تعالى : وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (التوبة: ٧٢).

روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى أن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم قال : إن اللّه عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا: يا ربنا وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا [١٣٦].

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ : أى عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة، وأن يزهدوا فيما زهدهم فيه من أمور الدنيا.

١٦ - الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . هؤلاء المتقون هم الذين يقولون :

ربنا إننا صدقنا بالذى أنزلته على رسولك محمد وسائر من سبقه من الرسل، فاغفر لنا ذنوبنا واحفظنا من عذاب النار. قال الحاكم : فى الآية دلالة على أنه يجوز للداعى أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى اللّه، ثم يدعو، ويؤيده ما فى الصحيحين من حديث أصحاب الغار [١٣٧] وتوسل كل منهم بصالح عمله، ثم تفريج البارى تعالى عنهم .

١٧ - الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ .

الصَّابِرِينَ. على البأساء والضراء وحين البأس.

وَالصَّادِقِينَ . فى إيمانهم وأقوالهم ونياتهم.

وَالْقَانِتِينَ. المطيعين لله الخاضعين له.

وَالْمُنفِقِينَ . أموالهم فى حقوق الله تعالى، وحقوق ذويهم، وفى أنواع البر التى ندبهم الله ورسوله إليها.

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ . أى هم يعبدون الله ويصلون بالليل، وفى آخر الليل يستغفرون الله تعالى. والأسحار جمع سحر. وهو الهزيع الأخير من الليل قبل الفجر.

روى ابن جرير عن حاطب قال : سمعت رجلاً فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفر لى ، فنظرت فإذا هو ابن مسعود. وثبت فى صحيح البخارى ومسلم وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم - قال : « ينزل ربنا، تبارك وتعالى ، كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، يقول : من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفر لى فأغفر له ؟» (١٣٨) .

وفى رواية لمسلم : « ثم يبسط يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم ؟» وفى رواية « حتى ينفجر الفجر ».

« ويروى أن بعض الصالحين قال لابنه : يا بنى لا يكن الديك أحسن منك ينادى بالأسحار وأنت نائم ، والحكمة فى تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية والألطاف الإلهية وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالصة، والرغبة وافرة، مع قربه تعالى وتقدس من عباده.

قال السيوطى : فى الآية فضيلة الاستغفار فى السحر، وأن هذا الوقت أفضل الأوقات. وقال الرازى: واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر فى قوة الإيمان وفى كل العبودية » (١٣٩).

لطيفة :

قال الزمخشرى : الواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها.



﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

شهد الله أنه لا إله إلا هو : أى بيّن لعباده ذلك بالأدلة الواضحة، فكأن ذلك منه شهادة وأى شهادة، أما شهادة الملائكة وأولى العلم فهى: إقرارهم بذلك.

قائمًا بالقسط : أى قائمًا بالعدل فى تدبير الكون.

التفسير :

١٨ - شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . أى علم وأخبر، أو قال أو بين أنه لا معبود حقيقى سوى ذاته العلية.

وتطلق هذه الشهادة على ما أقامه القرآن من الأدلة على وحدانيته، كقوله تعالى :

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا . (الأنبياء : ٢٢).

وقوله عز شأنه : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . (الإخلاص : ١).

وقوله تعالى : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . (محمد : ١٩).

وكما شهد اللّه بأنه لا إله إلا هو ، فقد شهد الملائكة الذين : لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ. (التحريم : ٦).

وكذلك أصحاب العلم والفكر السديد من الأنبياء والمرسلين ، ومن آمن بهم، وكل من فكّر فى آيات اللّه الكونية فآمن به. هؤلاء جميعًا، شهدوا للّه بالوحدانية ، حال كونه قائمًا بالقسط والعدل فى تدبيره للكون، فبعدله قامت السموات والأرض.

.... والعدل هنا هو : الحكمة فى التدبير ، الذى استقامت به أمور الكون.

لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . كرره تأكيداً وليضيف إليه قوله : الْعَزِيزُ ، فلا يرام جنابه.

الْحَكِيمُ . لا يصدر عنه شىء إلا على وفق الاستقامة.

(وقال العارف الشعرانى فى كتاب « الجواهر والدرر » : سألت أخى أفضل الدين : لمَ شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال :

لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له، وإنه هو الموحد نفسه بنفسه- فقلت له : فلم عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلاً من النظر فى الأدلة كالبشر، وإنما كان علمهم بذلك حاصلاً من التجلى الإلهى ، وذلك أقوى العلوم وأصدقها، فلذلك قُدموا فى الذكر على أولى العلم. وأيضا فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله فناسب ذكرهم فى الوسط فاعلم ذلك » [١٤٠].

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

بغيًا بينهم : ظلمًا قائمًا فيهم، وحسدا موجودا فى بيئتهم .

فإن حاجوك : أى جادلوك .

أسلمت وجهى لله : أخلصت ذاتى ونفسى له تعالى .

والأميين : المراد بهم، من لا يكتبون من مشركى العرب من غير الكتابيين لشيوع الأمية فيهم .

التفسير :

١٩ - إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ... . الإسلام هنا معناه إخلاص الوجه لله تعالى، فاليهودية إسلام فى مدتها والمسيحية إسلام فى فترتها والرسالة المحمدية إسلام بمعنى إخلاص الوجه لله والامتثال لطاعته.

وتسمية أتباع الدين الإسلامى فى العصر الحاضر بالمسلمين كانت تسمية سابقة على وجودهم الزمنى قال تعالى :

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... . (الحج : ٧٨).

وإذا تتبعنا المعنى اللغوى لكلمة إسلام والمعنى الشرعى لها خرجنا بالنتائج الآتية :

- إن الدين وإسلام الوجه لله، والتوحيد والإسلام كلها بمعنى واحد يفسر بعضها بعضا ويشرح بعضها بعضا .

- إن جوهر الشخصية الإسلامية ، أو شخصية المسلم هو إسلام الوجه لله، أو التوحيد أو التدين الصادق أو الإسلام.

يقول ابن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨هـ فى المعنى اللغوى للإسلام: المسلم معناه المخلص لله فى عباداته، من قولهم سلم الشىء لفلان خلص له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى .

والإسلام لا يشير إلى شخص معين، ولا إلى شعب معين ولا إلى إقليم معين، ولا يحُد بالبعثة المحمدية. فرسالة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى هى الإسلام بنص القرآن الكريم.

قال تعالى : ما كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (آل عمران:٦٧).

ومن دعاء يوسف الصديق :

ربَ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (يوسف :١٠١).

- وقال سيدنا موسى لقومه :

يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ سورة . (يونس :٨٤).

وفى شأن عيسى يقول القرآن الكريم :

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . (آل عمران :٥٢-٥٣).

معنى الآية :

إن الملة المرضيَّة عند الله هى الإسلام ، فلا يقبل من أحد دين غيره بعد رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد أرسله الله مصدقاً لما سبقه من الرسل والكتب ومهيمنًا عليها يقر صحيحها ويقوّم عوجها وينسخ ما قبله من الأديان والشرائع.

وكما أن الإسلام هو دين هذه الأمة الذى رضيه لها، فهو دين جميع الأنبياء والمرسلين وأممهم من قبل محمد، فهو دين الله دائمًا فى جميع الأزمان، لاشتماله على توحيده تعالى وتنزيهه عن الصاحبة والولد واحتوائه على أصول الشرائع المشتركة بينها .. أما الفروع، فإنها مختلفة باختلاف الأمم قال تعالى : لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا. (المائدة : ٤٨).

فإن ما يصلح منها لأمة لا يصلح لأمة أخرى.

« فالصيام مشروع فى جميع الأديان، ولكن كيفيته تختلف باختلاف الأمم. والميراث مشروع فى جميع الشرائع، ولكن كيفيته تختلف باختلاف الأمم. وهكذا الأمر بالنسبة لباقى الأحكام » [١٤١].

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ . لقد أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسل أن يصدق بعضهم بعضا وأن يؤمنوا بالنبى محمد عند ظهوره، وكان اليهود يبشرون بنبى سيظهر ويستفتحون به ويدعون الله أن ينصرهم بسببه.

ومن دعاء اليهود فى حروبهم مع المشركين :

(اللهم افتح علينا ، وانصرنا بالنبى المبعوث آخر الزمان).

وكانوا يقولون لأعدائهم المشركين :

قد أظل زمان بنبى يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما ظهر الإسلام آمن بعضهم كعبد الله بن سلام، وزيد بن سعنة من أحبار اليهود، وكفر أكثرهم من بعد ما جاءهم العلم اليقينى بأنه الحق، إذ جاء الإسلام ونبيه وفق أوصافه ونعوته فى كتبهم.

وما كان اختلافهم فيه - من بعد ما أتاهم العلم - إلا بغيا وحسدًا.

قال تعالى : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا . النساء:٥٤).

بَغْيًا بَيْنَهُمْ .أى حسدا كائنا بينهم ، وطلبا للرئاسة. وهذا تشنيع عليهم إثر تشنيع.

وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

المعنى :

ومن يجحد آيات الله الشاهدة بأن الإسلام هو الدين عند الله فإنه تعالى يجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب، فإنه سريع الحساب.

قال أبو السعود فى التفسير :

فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ قائم مقام جواب الشرط علة له. أى ومن يكفر بآياته تعالى فإن حسابه يأتى عن قريب ، أو يتم حسابه بسرعة فإن الله سريع الحساب.

وإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة ، وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبغى دلالة على كمال شدة عقابهم (١٤٢).

٢٠ - فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ...

المعنى :

فإن جادلك أهل الكتاب ، أو جميع الناس فى الدين بعد ما جاءهم العلم به ، وظهرت لهم براهينه ، فقل لهم أسلمت وجهى لله، أى أخلصت ذاتى ونفسى له ومن آمن معى أخلصوا له أنفسهم كذلك.

وإطلاق الوجه على الذات كلها، لأنه ترجمان النفس، وعليه تظهر آثارها، وهو من إطلاق اسم الجزء على الكل لأهميته.

والمراد من الآية أن الله تعالى أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لأهل الكتاب ذلك ليعلموا أنه ليس مسئولا عن انحرافهم وكفرهم، وأن تبعة ذلك عليهم وحدهم ، وأنه سائر فى طريق عبادة الله وحده هو

وأتباعه ، دون اكتراث بضلالهم لأن المحاجة والجدل معهم لا فائدة فيهما، بعدما جاءهم العلم بأن ما عليه هو الحق.

وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ... . أى قل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والأُمِّيِّينَ أى الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب الذين عرفوا بهذا الوصف لعدم معرفة سوادهم الأعظم القراءة والكتابة، قل لهم : هل أجدى معكم هذا وأسلمتم متبعين لى كما فعل المؤمنون . أم أنتم بعد على الكفر.

قال الزمخشرى : يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضى حصوله لا محالة، فهل أسلمتم؟ أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة، ولم تبق من طرق البيان والكف طريقا إلا سلكته : هل فهمتها؟ ومنه قول الله عز وعلا فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . (المائدة:٩١) بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفى هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق . انتهى.

فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ : أى خرجوا من الضلال فنفعوا أنفسهم.

وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . وإن أعرضوا عن الإسلام فلا يضرك إعراضهم فما عليك إلا تبليغهم وقد فعلت، فخلصت بذلك من التبعة . وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . عليم بأحوالهم فلا تخفى عليه أعمالهم فيجزى من أسلم بإسلامه ، ويعاقب من أعرض على إعراضه. والجملة وعد ووعيد قال ابن كثير : هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا. (الأعراف: ١٥٨).

وقد أرسل النبى – صلى الله عليه وسلم – كتبه إلى ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم ، كتابيهم وأميهم ، امتثالاً لأمر الله له بذلك . وروى البخارى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : «أُعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى ، نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا، وأحلت لى الغنائم وأُعطيت الشفاعة، وأُرسل كل نبى إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[١٤٣].

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

المراد بالذين يكفرون بآيات الله هم اليهود خاصة .

بغير الحق : بغير شبهة لديهم .

القسط : العدل .

فبشرهم بعذاب أليم : البشارة والبشرى الخبر السار تتبسط له بشرة الوجه، واستعمالها فى الشر جاء على طريق التهكم والسخرية .

حبطت أعمالهم : بطلت أعمالهم الحسنة، فضاع ثوابها .

التفسير :

٢١ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

إن الذين ينكرون آيات الله فيكفرون بما يجب الإيمان به ، ويقتلون أنبياءهم بغير جريمة تقتضى القتل، ويقتلون الواعظين المذكرين الذين يأمرونهم بالعدل من صفوة الناس ، فأنذرهم يا محمد بعذاب شديد الإيلام، والمراد بهم اليهود ، فإنهم قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، وقتلوا حزقيال عليه السلام ، قتله قاض يهودى لما نهاه عن منكر فعله، وزعموا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام.

روى ابن جرير عن أبى عبيدة بن الجراح قال : « قلت: يا رسول الله، أى الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبيا ، أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ الآية : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ . . . . (١٤٤).

ثم قال « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثناعشر رجلاً من عباد بنى إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعًا من آخر النهار » (١٤٥).

« و الصفات المذكورة فى الآية توحى بأن التهديد كان موجهًا لليهود فهذه سمتهم فى تاريخهم يعرفون بها حتى ذكرت، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهًا للنصارى كذلك فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية

المسيح عليه السلام ، وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط . كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع .. وكثير ما هم فى كل زمان .. » (١٤٦).

٢٢ - أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِين .

اسم الإشارة هنا مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى الضلال وبعد منزلتهم فى فظاعة الحال ، والموصول بما فى حيز صلته خبره، أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة، الذين بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر فى الدارين (١٤٧) أما فى الدنيا فإبدال المدح بالذم، والثناء باللعن والخزى، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل وأخذ الأموال منهم غنيمة، والاسترقاق لهم ، إلى غير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم ، وأما حبوط أعمالهم فى الآخرة ، فإبدال الثواب بالعذاب الأليم.

وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِين . ينصرونهم من عذاب الله .

وقد دلت الآية على عظم حال الآمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله، لأنه قرن ذلك بالكفر بالله تعالى وقتل الأنبياء .

قال الحاكم : وتدل على صحة ما قيل ، أنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه ، وإن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين ، وقد روى أبو داود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (١٤٨).



﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

الم تـر : استفهام لتعجيب النبى - صلى الله عليه وسلم - من حالهم .

أوتوا نصيبا من الكتاب : أعطوا حظا منه ، والكتاب : اسم جنس لكل كتاب سماوى، والمقصود من النصيب التوراة والإنجيل.

وهم معرضون : وهم منصرفون.

أياما معدودات : يقصدون بها أيام عبادتهم للعجل.

وغرهم : وأطمعهم.

ما كانوا يفترون : ما كانوا يكذبون من أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات.

ووفيت كل نفس ما كسبت : وأعطيت كل نفس جزاء ما عملته من خير أو شر وافيا.

التفسير :

٢٣ - **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ** .

أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال :

دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيت المدراس - مدرسة اليهود لدراسة التوراة - على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله . فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه . قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم فأنزل الله الآية [١٤٩].

والخطاب فى قوله تعالى : **أَلَمْ تَرَ** . لكل من تتأتى منه الرؤية أو للنبى - صلى الله عليه وسلم - ، والاستفهام للتعجيب من حالهم ، أى ألم تر إلى هؤلاء الذين تستحق أن تعجب لهم من اليهود ، كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذى يؤمنون به إذا لم يوافق أهواءهم ؟ وهذا دأب أرباب الديانات فى طور انحلالها واضمحلالها، ومن المفسرين من ذكر أن الآية إشارة إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، لما زنا منهم اثنان فحكم عليهما بالرجم، فأبوا، وقالوا: لا نجد فى كتابنا إلا التحميم [١٥٠] ، فجىء بالتوراة فوجد فيها الرجم، فرجما، فغضبوا فشنع عليهم بهذه الآية.

أخرج البخارى فى كتاب التفسير ، سورة آل عمران باب **قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم : « كيف تفعلون بمن زنا منكم ؟ » قالوا نحممهما ونضربهما، فقال لهم : « لا تجدون فى التوراة الرجم؟» فقالوا لا نجد فيها شيئًا ، فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم ، **فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ، ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم، فقال: ما هذه الآية ؟ فلما رأوا ذلك قالوا هى آية الرجم فأمر بهما فرجما قريبًا من موضع الجنائز عند المسجد[١٥١]

قال بعض المفسرين . ومن ثمار هذه الآية ، أن من دعى إلى كتاب الله تعالى وإلى ما فيه من شرع وجب عليه الإجابة، وقد قال العلماء رضى الله عنهم : يستحب أن يقول: سمعاً وطاعة، لقوله تعالى : **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** . (النور ٥١)، والمقصود من الفريق الذى تولى منهم : علماؤهم ، فهم الذين كانوا يديرون النقاش والكلام مع الرسول - صلى الله عليه وسلم.

٢٤ - ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

المعنى :

ذلك : إشارة إلى التولى والإعراض.

بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ : أى بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم ، وبسبب هذا القول الذى رسخ اعتقادهم له ، فلم يبالوا معه بارتكاب المعاصى والذنوب

وخلاصة ذلك أنهم استخفوا بالعقوبة واستسهلوها، اتكالا على اتصال نسبهم بالأنبياء واعتمادًا على مجرد الانتساب إلى هذا الدين ، واعتقادا أن هذا كافٍ فى نجاتهم.

ومن استخف بوعيد الله تزول من نفسه حرمة الأوامر والنواهى ، فيقدم بلا مبالاة على انتهاك حرمات الدين، ويتهاون فى أداء الطاعات، وهكذا شأن الأمم حين تفسق عن دينها ولا تبالى باجتراح السيئات ، وقد ظهر ذلك فى اليهود ثم فى النصارى ثم فى المسلمين ، فإن كثيرًا من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم المرتكب لكبائر الإثم والفواحش ، إما أن تدركه الشفاعات، أو تنجيه الكفارات، وإما أن يمنح العفو والمغفرة إحسانًا من الله وفضلاً. فإن فاته ذلك عذِّب على قدر خطيئته ، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة. وأما المنتسبون إلى سائر الأديان فهم خالدون فى النار مهما كانت أعمالهم. والقرآن قد ناط أمر الفوز والنجاة من النار بالإيمان الذى ذكر الله علاماته وصفات أهله ، وبالعمل الصالح والخلق الفاضل ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن. كما جعل المغفرة لمن لم تحط به خطيئته . أما الذين صار همهم إرضاء شهواتهم ولم يبق للدين سلطان على نفوسهم ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والمراد بالأيام المعدودات هى أربعون يومًا، وهى مدة عبادة اليهود العجل.

وقال الشيخ محمد عبده : إنه لم يثبت فى عدد هذه الأيام شىء ا هـ. والسياق يفيد اعتقاد اليهود بأنهم لا يعذبون إلا مدة قليلة ، لزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وخدعهم فى دينهم ما كانوا يفترونه من هذا الزعم الذى لا نصيب له من الصحة.

٢٥ - فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ .

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ : أى فكيف يصنعون إذا جمعناهم للجزاء فى يوم لا شك فى مجيئه.

وفى هذا الاستفهام تهويل لما سيكون ، واستعظام لما أعد لهم ، وأنهم سيقعون فيما لا حيلة فى دفعه والخلاص منه.

وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها بتعليلاتهم وأباطيلهم تطمع بما لايكون .

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ . أى ورأت كل نفس ما عملت من خير أو شر محضرا لا نقص فيه ثم جوزيت عليه وكان منشأ سعادتها أو شقائها، ولا يفيدهم الانتماء إلى دين معين أو مذهب خاص. إذ لا امتياز لشعب على شعب وإن تسمَّى بعضهم بشعب الله، ولا بين الأشخاص وإن لقبوا أنفسهم بأبناء الله فإن

الجزاء إنما يكون من جنس العمل فى ذلك اليوم : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . (آل عمران :٣٠).



﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾

المفردات :

اللهم : أصله يا الله، فحذف (يا) وعوض عنها الميم وشددت لكونها عوض عن حرفين ، ولا تجمع الميم مع (يا) إلا شذوذًا كقول الشاعر:

إنى إذا ما حدث ألما أقول يا اللهم يا اللهما

مالك الملك : الملك - بضم الميم وفتحها وكسرها - معناه الاحتواء . أى الحيازة مع القدرة على التصرف. مأخوذ من : ملك الشىء يملكه : احتواه قادرًا على حرية التصرف فيه. وهو بهذا المعنى يطلق على : ملك الله وملك غيره ، ومعنى : مَالِكَ الْمُلْكِ : صاحب السلطان والتصرف المطلق.

بيدك الخير : بقدرتك منح الخير ومنعه.

تولج الليل في النهار : الولوج الدخول ، والإيلاج : الإدخال، ويراد به زيادة زمان الليل فى النهار ، فيطول الليل ويقصر النهار وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ معناه عكس المعنى السابق.

وتخرج الحى من الميت : أى وتكون الأحياء من المواد الأولية التى لا حياة فيها: كالهواء والماء والغذاء والتراب.

وتخرج الميت من الحى : وتجعل الحى يموت ، فتخرجه بذلك من جنس الأحياء.

سبب النزول :

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك : أنه لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود: هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم ؟ هم أعز وأمنع من ذلك . ألم يكف محمدًا مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى غير ذلك فى سبب النزول.

سياق الآية :

بينت الآيات السابقة أن الدين عند الله الإسلام وناقشت أهل الكتاب فى إحجامهم عن الإيمان بالنبى محمد - صلى الله عليه وسلم - بغيا وحسدا مع علمهم بصدقه ومعرفتهم بأمارات نبوته، ثم بينت هذه الآية أن الملك لله يؤتيه من يشاء من عباده .

٢٦ - ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ .

أى أنت يا ربنا سبحانك لك السلطان الأعلى والتصرف التام فى تدبير الأمور وإقامة ميزان النظام العام فى الكائنات ، فأنت تؤتى الملك من تشاء من عبادك إما تبعا للنبوة كما وقع لآل إبراهيم ، وإما بالاستقلال بحسب السنن الحكيمة الموصلة إلى ذلك واتباع الأسباب الاجتماعية بتكوين القبائل والشعوب، وتنزع الملك ممن تشاء بانحراف الناس عن الطريق السوى الحافظ للملك من العدل وحسن السياسة وإعداد القوة بقدر المستطاع، كما نزعه من بنى إسرائيل وغيرهم بظلمهم وفسادهم.

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ : فى الدنيا والآخرة ، بأسباب العزة والكرامة.

﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ : أن تذله فى إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة.

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ : اى بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك تتصرف فيه قبضًا وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : فقدرتك لا حدود لها ، وعطاؤك غير منقوص ، وأنت قادر على أن تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء .

من كتب التفسير :

١ - جاء فى تفسير أبى السعود :

روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما خط الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخبره فجاء عليه السلام وأخذ منه المعول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكأن مصباحاً فى جوف بيت مظلم ، فكبر وكبر معه المسلمون وقال: أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب. ثم ضرب الثانية فقال : أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب الثالثة فقال : أضاءت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كلها فأبشروا . فقال المنافقون : ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزلت هذه الآية : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ . . . (١٥٢)

٢ - جاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

الملك - بضم الميم - فى حق اللّه تعالى هو - على ما قاله المحققون - صفة قائمة بذاته تعالى ، متعلقة بما سواه ، تعلق التصرف التام ، المقتضى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ، ولا يصح إطلاقه- بهذا المعنى - على غير اللّه تعالى .

وهو أخص من الملك - بكسر الميم - فإنه صفة تقتضى الاستيلاء والتسلط على شىء بطريق مشروع، وتجعله صاحب الحق فى التصرف فيه ، من غير نظر إلى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ، ولهذا يصح إطلاقه على غير اللّه تعالى .

٣ - جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة تعليقًا فى الهامش على قوله تعالى : تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ . هو ما يأتى :

« دورة الحياة والموت هى معجزة الكون وسر الحياة نفسها والسمات الرئيسية فى هذه الدورة أن الماء وثانى أكسيد الكربون والنتروجين والأملاح غير العضوية فى التربة تتحول بفضل طاقة الشمس والنباتات الخضراء وأنواع معينة من البكتيريا إلى مواد عضوية هى مادة الحياة فى النبات والحيوان ، أما فى الشق الثانى من هذه الدورة فتعود هذه المواد إلى عالم الموت فى صورة نفايات الأحياء ونواتج أيضها وتنفسها .

ثم فى صورة أجسامها كلها عندما تموت وتستسلم لعوامل التحلل البكتيرى والكيماوى التى تحيلها إلى مواد غير عضوية بسيطة مهيأة للدخول فى دورة جديدة من دورات الحياة ، وهكذا فى كل لحظة من الزمان يخرج الخالق القدير حياة من الموت وموتًا من الحياة، وهذه الدورة المتكررة لا تتم إلا فى وجود كائن أودعه اللّه سر الحياة كبذرة النبات مثلاً.

والآية الكريمة تذكر أولى الألباب بالمعجزة الأولى وهى خلق الحياة من مادة الأرض - لإخراج الميت من الحى وهذا هو الإعجاز بعينه .

٢٧ - تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

يطيل اللّه الليل فى بعض فصول السنة . بإضافة جزء من النهار إليه ، ويطيل النهار فى بعض فصولها، بزيادة جزء من زمان الليل فيه ، ويخرج الحى من المواد الأولية الميتة التى خلق منها ، كالماء والتراب وبعض عناصر الهواء، ويخرج الميت من الحى بأن يفقده أسباب الحياة فيموت ويعود إلى أصله ، ويرزق من يشاء رزقه بغير حساب أى رزقًا واسعًا بغير تضييق عليه.

وكما يرزق من يشاء بغير حساب ، يضيقه على من يشاء لحكمة تقتضيه؛ ولم يذكر ذلك فى الآية لعلمه من أمثاله فيما سبق ، ولأن من يملك الإعطاء يملك المنع.

ويرى بعض المفسرين : أن إخراج الحى من الميت ، معناه إخراج الجنين من النطفة ، أو الفرخ من البيضة ، وإن إخراج الميت من الحى ، معناه إخراج النطفة من الحيوان أو البيضة من الدجاجة.

ولكن هذا الرأى لا يقبل إلا على سبيل التشبيه ، بجعل النطفة - أو البيضة بجانب الحيوان الذى يتكون منها- كالشىء الميت ، لعظم الفرق بينهما ، أما على الحقيقة فلا، لأن النطفة مليئة بالكائنات الحية المتحركة، كما يتبين ذلك تحت آلة التكبير - المجهر، ومثلها البيضة .

وكذا القول بأن المراد من الميت الذى يخرج من الحى : النطفة أو البيضة التى يخرجها الله من الحيوان، لا يصح أن يقبل إلا على سبيل المجاز، لما قدمناه.

وقال الحسن فى معنى الآية : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن، فحمل الحياة والموت على المجاز، وروى هذا التفسير عن أئمة أهل البيت .

ويمكن تفسيرها مجازًا بمعنى : يخرج الطيب من الخبيث ، والخبيث من الطيب ، والعالم من الجاهل ، والجاهل من العالم ، والذكى من البليد والبليد من الذكى ، وإلى غير ذلك قال القفال ، والكلمة محتملة لكل ما ذكر ، أما الكفر والإيمان فقد قال تعالى :

أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا . (الأنعام : ١٢٢).

يريد كان كافرا فهديناه فجعل الموت كفرا والحياة إيمانًا ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء وجعلها قبل ذلك ميتة فقال :

يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . (الروم:٥٠).

وقال سبحانه : فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . (فاطر: ٩).

وقال عز شأنه: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (البقرة: ٢٨).



﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾

المفردات :

أولياء : أصدقاء ، أو أنصار.

من دون المؤمنين : متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين.

فليس من الله فى شىء : فليس من دين الله فى شىء.

إلا ان تتقوا منهم تقاة : إلا لتقوا أنفسكم وتحفظوها مما يتقى ويحذر منهم .

المصير : المرجع .

سبب النزول :

روى عن ابن عباس ، قال : كان الحجاج بن عمرو ، وكهمس بن أبى الحقيق ، وقيس بن زيد والكل من اليهود - يباطنون نفرا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير ، وسعد بن خيثمة لأولئك النفر :

اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم، فأنزل الله هذه الآية .

التفسير :

٢٨ - لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ...

تقرر الآية أن موالاة الكافر خطر على من والاه، وأنها لا تكون إلا عند الضرورة ، لاتقاء ضرر يكون من ناحيته ، على ألا تبلغ الموالاة درجة المباطنة بخفايا المؤمنين .

والموالاة تطلق لغة على الحب والصداقة والمباطنة بالأسرار ، وتطلق على النصرة وكلا المعنين تصح إرادته، ولهذا لا يحل للمؤمنين أن يوالوا الكافرين، بأى معنى من معانى الموالاة، ومن يفعل ذلك فليس من دين الله فى شىء وقد يذكر ذلك صريحًا فى قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة:٥١).

وقد تكرر النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين فى عديد من آى القرآن لخطورتها على كيانهم فهم دائمًا يتربصون بهم الدوائر ، ويبغونهم الفتنة، وفى المسلمين سمّاعون لهم ، وهم المنافقون وضعاف النفوس.

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ... (الممتحنة :١).

وقال عز شأنه : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (النساء : ١٤٤).

فعلى المؤمنين أن يحذروا موالاتهم حتى يأمنوا شرهم ، عليهم أن يقصروا موالاتهم على المؤمنين، لا يتجاوزونهم إلى الكافرين لغرض من الأغراض، إلا أن يتقوا أو يحفظوا أنفسهم من ضرر من شأنه أن

يتقى ويحذر. فإذا اضطر المسلمون لموالاتهم دفاعًا عن الوطن، أو المال أو العرض ، فلهم ذلك فى حدود الضرورة.

وأجاز المحققون من العلماء : الاستعانة بالكفار، بشرط الحاجة والوثوق .. أما بدونها فلا تجوز .

واستدل لذلك ، بأن النبى - صلى الله عليه وسلم -، استعان بيهود بنى قينقاع ، ورضخ لهم [١٥٣] واستعان بصفوان بن أمية فى هوازن.

على أن بعضهم ذكر أن الاستعانة المنهى عنها ، هى استعانة الذليل بالعزيز، أما غيرها فلا.

جاء فى تفسير القاسمى :

واعلم أن الموالاة التى هى المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار لا تجوز، فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة ، وفى ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخاف فجواب ذلك أن المراد موالاتهم فى الدين ، وفيما فيه تعظيم لهم.

فإن قيل فى سبب نزول الآية : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - منع عبادة بن الصامت من الاستعانة باليهود على قريش [١٥٤] وقد حالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اليهود على حرب قريش ، وفى هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم.

وقد ذكر الراضى أنه يجوز الاستعانة بالفساق على حرب المبطلين ، قال : وقد حالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب ، وحد - صلى الله عليه وسلم - الحلف بينه وبين خزاعة. قال الراضى بالله : وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام ، وقد استعان على عليه السلام بقتلة عثمان . ولعل الجواب والله أعلم أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها، ويحمل على هذا استعانة الرسول - صلى الله عليه وسلم - باليهود ، وممنوعة مع عدم الحاجة أو خشية مضرة منهم ، وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت.

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . حال . أى متجاوزين المؤمنين إليهم ، استقلالا أو اشتراكا ، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة.

وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ . أى ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله فى شىء تقع عليه اسم الولاية . يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً. وهذا أمر معقـــول ، فإن مـــوالاة الولى وموالاة عدوه متنافيان [١٥٥].

إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً أى تخافوا منهم محذورا ، فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه ، روى البخارى فى كتاب الأدب ، باب المداراة مع الناس . عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال: «إنا لنكشر[١٥٦] فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم». [١٥٧].

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ : أى ذاته المقدسة فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى المنهى فى القبح. وفى إضافة تحذيرهم إلى نفسه وإلى ذاته العلية، إيذان ببلوغ المنهى عنه منتهى الخطورة.

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

محضــرا : يحضره ملائكة الله فى الصحف.

أمدا بعيدا : غاية أو مسافة بعيدة.

التفسير :

٢٩ – قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هذه الآية واضحة الصلة بما قبلها ، وهى توحى بأن صلاتٍ متعددة من القرابة أو التجارة أو غيرهما ، كانت تربط بين معسكر المسلمين ومعسكر الكافرين.

وتبين هذه الآية أن الله مطلع وشاهد لما يخفيه الإنسان وما يظهره، وقد شمل علم الله كل ما فى السموات والأرض، فقد أحاط بكل شىء علما، وهو على كل شىء قدير.

والآية فيها تحذير واضح من موالاة المؤمنين للكافرين ، وتهديد بأن الله عالم بخفايا النفوس، ومطلع على الظاهر والباطن.

٣٠ – يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . .
تعرض الآية مشهدا من مشاهد القيامة ، وهو يوم الحساب والجزاء، وفى هذا اليوم يقف الإنسان وجهًا لوجه أمام عمله الذى قدمه فى الدنيا ، فالخير شاخص أمام صاحبه، يفرح به وتشتد سعادته.

وتجد كل نفس أيضًا : ما عملته من سوء وشر فى الدنيا محضرا يوم القيامة فى صحائفها لتساء به، وتتمنى حين تراه لو أن بينها وبينه مسافة بعيدة بعد المشرقين .

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ . يخوفكم الله من نفسه إن خالفتم ما كلفكم به، ومن رأفة الله ورحمته هذا التحذير وهذا التذكير ، وهو دليل على إرادته الخير والرحمة بالعباد.

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾

التفسير :

قال القرطبى : روى أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، والله إنا لنحب ربنا ، فأنزل الله عز وجل : قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .

وقال محمد بن جعفر بن الزبير : نزلت فى نصارى نجران وذلك أنهم قالوا : « إنما نعظِّم المسيح حبًا لله تعالى وتعظيمًا له » فأنزل الله الآية ردا عليهم . رواه محمد بن إسحاق.

والمعروف أن سبب النزول قد يتعدد لنازل واحد من القرآن الكريم ، والعبرة مع هذا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

إن تعاليم الإسلام واضحة، وأوامره واجبة الاتباع وحب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هيامًا بالوجدان، ولكنه التزام بأحكام الشرع ، واتباع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى كل ما جاء به قال - صلى الله عليه وسلم - « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » (١٥٨).فقد أتم الله الدين ، وأكمل على المسلمين نعمة الإسلام ، ووجب عليهم الاتباع دون الابتداع ، فمن ادَّعى أن عقله أو رأيه أو حكمه أصوب من حكم الله ، فقد احتكم إلى أحكام الجاهلية ، وخالف منهج القرآن وهدى نبى الإسلام .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (١٥٩).

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » (١٦٠).

وجاء فى تفسير ابن كثير :

هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله - وليس على الطريقة المحمدية - بأنه كاذب فى دعواه، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله.

إن العمل بشرع الله يورث المسلم إخلاصًا وحبا لله ولرسوله ، وأفضل درجات العبادة أن يعبد المؤمن ربه حبا له ، وشوقًا إلى لقائه ورغبة فى مرضاته، وإذا داوم العبد على طاعة الله أحبه الله وغفر ذنبه وهداه إلى الطريق القويم .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- « إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال : « إنى أحب فلانًا فأحبه . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يوضع له القبول فى الأرض. (١٦١)

وإذا أبغض الله عبدًا دعا جبريل فيقول : إنى أبغض فلانًا فأبغضه قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه قال : فيبغضونه. ثم توضع له البغضاء فى الأرض ».

٣٢ - قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .

إن حقيقة الإسلام هى طاعة الله والرسول فى جميع الأوامر والنواهى ، ومن أعرض عن طاعة الله ورسوله فقد أغلق باب الهدى وأعرض عن الإيمان.

والإعراض عن الإيمان ، والنفور من شرع الله يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

« أما لو كان توليه وإعراضه مجرد ترك لما أمر به ، اتباعًا لشهواته - مع اعتقاده أن ذلك حرام ، وأنه مذنب فيما يفعل ، ومقصر فى حقه تعالى - فإن الكفر بالنسبة له كفر للنعمة وعدم قيام بشكرها . والله لا يحب من عصاه بكفر أو فجور » (١٦٢).



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات :

اصطفى	: اختار، والاصطفاء أخذ ما صفا من الشىء.
وآل إبراهيم وآل عمران	: المراد بالآل فيهما من كان من ذريتهما من الأنبياء.
ذريــــة	: الذرية فى أصل اللغة الصغار من الأولاد، ثم استعملت عرفا فى الصغار والكبار، وللواحد والكثير.

التفسير :

٣٣ - إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ .

أى أن الله اختار هؤلاء ، وجعلهم صفوة العالمين ، بجعل النبوة والرسالة فيهم.

فأولهم : آدَمَ . خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شىء وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما فى ذلك من الحكمة.

وثانيهم نوح : وهو الأب الثانى للبشر ، فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلائل البشرية من انقرض ، ونجا هو وأهله فى الفلك العظيم، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ، ثم تفرقت ذريته وانتشرت فى البلاد وفشت فيهم الوثنية . فظهر إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه نبيا مرسلا، ثم تتابع من بعده النبيون والمرسلون ، من ذريته وآله كإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب والأسباط وكان من أرفع أولاده قدرًا، وأنبههم ذكرا آل عمران وهم عيسى وأمه مريم ابنة عمران، وينتهى نسبها إلى يعقوب عليه السلام، وختمت النبوة بولد إسماعيل محمد - صلوات الله وسلامه عليه - المبعوث رحمة للعالمين. وقد دعا إبراهيم ربه أن يبارك له فى ذريته ، وأن يرسل فيهم رسولا يعلمهم هدى السماء، ويرشدهم إلى الخير والمعروف، ومن دعاء إبراهيم رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .(البقرة : ١٢٩).

ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة أبى إبراهيم ». (١٦٣).

عَلَى الْعَالَمِينَ. أى عالمى زمانهم، أى اصطفى كل واحد منهم على عالمى زمانه.

وقد فضلهم الله بما آتاهم من النبوة والكتاب فى معظمهم ، وفى مريم : بحملها وولادتها من غير مماسة بشر، مع طهارتها وانقطاعها لعبادة ربها، وإمدادها فى مصلاها برزق الله فى غير أوانه، واختيارها لتكون أما لعيسى : الذى شاء له مولده أن يكون بغير أب.

٣٤ - ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أى ذرية يشبه بعضها بعضا فى الخير والفضيلة التى كانت سبباً فى اصطفائهم، وهذه الذرية هى التى ذكرها الله فى سياق الكلام عن إبراهيم بقوله : وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ (الأنعام: ٨٤ - ٨٧).

★ ★ ★

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

المفردات :

نذرت لك ما فى بطنى : النذر ما يوجبه الإنسان على نفسه.

محررا : خالصا، أى أوجبت على نفسى أن يكون ما فى بطنى لخدمة بيتك خالصا.

اعيذها بك : أجيرها بك ، وأصل العوذ الالتجاء إلى سواك والتعلق به، يقال عاذ بفلان إذا استجار به.

الرجيم : المرجوم، المطرود من الخير.

التفسير :

٣٥ - إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

امرأة عمران هى حنة بنت فاقوذا ، كما رواه إسحاق بن بشر عن ابن عباس والحاكم عن أبى هريرة .. وكانت هذه السيدة عاقرا لا تلد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان فتحركت نفسها يومًا لأن تكون أما فلاذت بربها ودعته متضرعة أن يهب لها ولدًا، ونذرت إن حقق الله أمنيتها ، أن تجعل ولدها محررًا. أى خالصًا للعبادة وخدمة بيت المقدس عتيقًا من سوى ذلك ، فلا تشغله بشىء من أمورها.

فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . أى تقبل منى قربانى وما جعلت لك خالصًا، والتقبل أخذ الشىء على وجه الرضا.

(قال أبو منصور فى « التأويلات » : جعلت ما فى بطنها لله خالصا لم تطلب منه الاستئناس به ولا ما يطمع الناس فيه من أولادهم ، وذلك من الصفوة التى ذكر الله عز وجل، وهكذا الواجب على كل أحد إذا طلب ولدا أن يطلب للوجه الذى طلبت امرأة عمران وزكريا حيث قال: رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً. (آل عمران :٣٨).

وما سأل إبراهيم : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . (الصافات:١٠٠)

وكقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .(الفرقان :٧٤).
هكذا الواجب أن يطلب الولد، لا مايطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم) - انتهى .

٣٦ - فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مريم

وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أى فلما وضعتها أنثى على خلاف ما كانت تأمله - قالت متحسرة حزينة على فوات رجائها.

رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ . قالت ذلك وهى لا تعلم بمكانة ما وضعته ، والله وحده هو الذى يعلم بشأنها ، وما علق بها من عظائم الأمور ودقائق الأسرار، وقالت فى تحسرها : وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ . فى خدمة بيت المقدس ، فإنها مقصورة على الغلمان دون الإناث فكأنها تقول : ماذا أصنع فى نذرى يارب؟.

وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ . وإنى غير راجعة عما انتويته من خدمتها بيت المقدس، وإن كانت أنثى فإن لم تكن جديرة بسدانته فلتكن من العابدات القانتات ، ومعنى مريم : العابدة.

وقد أطلقت عليها اسم مريم فى اليوم الذى ولدت فيه وهى السنة فى شريعتنا أيضًا .

فقد أخرج الشيخان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ولد لى ولد سميته باسم أبى إبراهيم ». (١٦٤).

وأخرج الشيخان أيضًا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - حمل إليه وليد فحنكه وسماه عبد الله .

وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

وإنى أجيرها بحفظك ورعايتك من الشيطان المطرود من الخير.

روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » (١٦٥). والمراد أن الشيطان يطمع فى إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها، فإن الله تعالى عصمها ببركة هذه الاستعاذة.



﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

المفردات:

فتقبلها : أى قبل مريم - فى النذر - مكان الذكر.

أنبتها : أى رباها تربية طيبة.

وكفلها زكريا : وجعل زكريا كافلا وضامنًا لها، وزكريا من ولد سليمان بن داود عليهما السلام.

المحراب : المحراب هنا هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ،وهو مقصورة فى مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة يكون من فيه محجوبًا عمن فى المعبد.

أنّى لك هذا : أى من أين هذا، والأيام أيام قحط وجدب.

بغير حساب : أى بغير عد ولا إحصاء لكثرته.

التفسير:

٣٧ - **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ** . . . . أى فتقبل مريم من أمها ورضى أن تكون للعبادة وخدمة بيته على صغرها وأنوثتها، وكان التحرير لا يجوز إلا لغلام عاقل قادر على خدمة البيت. :

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . أى رباها تربية حسنة كما يربى النبات فى الأرض ونماها صلاحًا وعفة وسداد رأى.

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا . أى جعل زكريا كافلا لها، لتقتبس منه العلوم والمعارف ولتمضى على سنته من الصلاح، وكان زوج أختها كما ورد فى الصحيح «فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة» ويحيى ابن زكريا عليهما السلام.

وهكذا تهيأت لها البيئة الصالحة كما تهيأت لها الوراثة الصالحة فكانت سيدة نساء العالمين.

كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا . وجد ألوانًا من الطعام لم تكن توجد فى مثل تلك الأحيان.

قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا . ؟ أى من أين لك هذا والأيام أيام جدب وقحط، أو من أين لك هذا ولا كافل لك سواى؟

قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . الله يرزق الناس جميعًا بتسخير بعضهم لبعض، وقد جرى العرف فى كل زمان بإضافة الرزق إلى الله، وليس فى هذا دلالة أنه من خوارق العادات.

ويحتمل أن تكون جملة : **إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** . من كلام الله تعالى وليس من كلامها، سيقت: للإيذان بأنه لا ينبغى أن تعجب من هذا الرزق، فإن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

والرزق قد يكون حسّيا وقد يكون معنويا يشمل الهدى والتقى والبركة والتوفيق لصالح الأعمال. وفى الحديث الشريف.. « ما رزق المرء بعد تقوى الله خيرًا من المرأة الصالحة ».

★ ★ ★







د.عبدالله شحاته





﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

المفردات :

هنالك : أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت، وهنالك يشار به إلى المكان والزمان.

الذرية : الولد، وتقع على الواحد والكثير.

طيبة : الطيب: ما تستطاب أفعاله وأخلاقه.

سميع الدعاء : أى مجيبه.

مصدقًا بكلمة من الله : كلمة الله عيسى عليه السلام، حيث جاء بقوله تعالى (كن) من غير توسط أب.

وحصورا : الحصور الذى لا يباشر النساء، أو هو الذى يمنع نفسه من المعاصى.

أنّى يكون : كيف يحصل لى.

بلغنى الكبر : أدركتنى الشيخوخة.

وامرأتى عاقر : عقيم لا تلد.

آية : أى علامة أعرف بها ميقات الحمل.

الا تكلم الناس : أى لا تقدر على كلامهم من غير آفة.

إلا رمزا : الإشارة بيد أو رأس أو غيرها.

بالعشى : الوقت من الزوال إلى الغروب، وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل.

الإبكار : من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

التفسير:

٣٨ - **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** . أى فى هذا المكان الذى خاطبته فيه مريم بما ذكر دعا ربه بهذا الدعاء.

أو فى تلك الحالة التى شاهدها، قال زكريا فى نفسه إن الذى جاء مريم بهذا الرزق لقادر على أن يصلح لى زوجتى ويرزقنى منها ذرية، فعند ذلك، قام فى المحراب، وابتهل إلى الله تعالى قائلا:

«رب هب لى من عندك ذرية صالحة مباركة، إنك كثير الإجابة لمن يدعوك».

قال علماؤنا: وقفت النبوة فى كتاب الله مرتين تتعلم من الصالحين، الأولى: عندما وقف موسى أمام الخضر يقول له : **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** . (الكهف:٦٦). والثانية: عندما وقف زكريا أمام مريم وسألها: **أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** . (آل عمران:٣٧)، فتعلم زكريا من مريم التبتل إلى الله وإخلاص الدعاء، والتعلم هنا من مشاهدة الحال، أكثر من سماع الأقوال.

٣٩ - **فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ** .

ناداه جبريل عليه السلام وهو من جنس الملائكة كما تقول فلان ركب السفن وهو إنما ركب سفينة واحدة، ويرى ابن جرير وغيره أن المراد جماعة من الملائكة، إذ لا ضرورة تدعو إلى التأويل وبهذا قال قتادة وعكرمة ومجاهد.

نادته الملائكة وهو قائم يصلِّى فى المسجد، أن الله تعالى يبشرك بولد ذكر سماه الله يحيى، وقد أحياه الله من أبوين كبيرين.وحملت البشارة طائفة من البشريات.فهو غلام ذكر.

وهو مؤمن يصدق بعيسى عليه السلام الذى سمى كلمة الله لأن الله خلقه بقوله (كن) فكان، ومعنى تصديقه به إيمانه بأنه رسول الله، وهو بذلك يكون أول من آمن به، ويحيى أكبر من عيسى. ومن صفات يحيى أنه سيكون سيدا، والسيد من يسود قومه، ثم أطلق على كل فائق فى الدين والدنيا، كما قال بعض المحققين. ويمكن أن يجتمع فيه الأمران: الرياسة فى قومه، والتفوق فى الدين فإنه نبى الله، ومن الصالحين.

ومن صفات يحيى أيضًا أنه حصور.. وفسره ابن عباس، بأنه الذى لا يأتى النساء مع القدرة على ذلك، ولعل هذا لأن انهماكه فى العبادة شغله عنهن.

وفسر الحصور بعض المفسرين: بأنه المبالغ فى حصر النفس وحبسها عن المعاصى والشهوات.

ومن صفات يحيى التى بشر بها والده زكريا.

أنه سيكون نبيا من الصالحين.

أى سيوحى إليه إذا بلغ سن النبوة، وسيكون فى أعلى مراتب الصلاح.

وإذا أسند الفعل إلى الملائكة جاز تذكيره بتأويل الجمع كقوله تعالى : وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . (الرعد: ٢٣). وجاز تأنيثه على تأويل الجماعة مثل قوله تعالى:

فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ . والملائكة لا توصف بالذكورة ولا بالأنوثة، فهم عباد مكرمون لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

٤٠ - قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . لما بشرته الملائكة بذلك، وتحقق من البشارة، تعجب من وقوع ذلك مع وجود الموانع، فقد كان عمره (١٢٠) سنة وعمر زوجته ٩٨ سنة وهى عقيم لا تلد فى صباها فكيف تلد فى شيخوختها؟

قال الشيخ محمد عبده :

إن زكريا لما رأى ما رأى من نعم الله على مريم، من كمال إيمانها وحسن حالها، واعتقادها أن المسخر لها، والرازق لما عندها، هو من يرزق من يشاء بغير حساب، أخذ عن نفسه، وغاب عن حسه، وانصرف عن العالم وما فيه، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبته، وإنما يكون الدعاء مستجابًا إذا جرى به اللسان بتلقين القلب حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب.

ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة، وقد أوذن بسماع ندائه واستجابة دعائه سأل ربه عن كيفية الاستجابة وهى على غير السنة الكونية فأجابه بقوله:

قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ : أى الله يفعل ما يشاء مثل ذلك من الأفعال الخارقة للعادة، الخارجة عن القياس.

٤١ - قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا . أى قال: رب اجعل لى علامة تدلنى على الحمل، وقد سأل ذلك استعجالا للسرور، وقيل ليتلقى تلك النعمة بالشكر حين حصولها. قال الله: علامتك، ألا تقدر على مكالمة الناس ثلاثة أيام متوالية من غير آفة.

وتقييد عدم الكلام بالناس، مؤذن بأنه كان غير محبوس عن ذكر الله تعالى، وكان حديثه مع الناس فى هذه المدة مقصورا على الإشارة باليد أو الرأس أو نحوهما وهذا معنى : إِلاَّ رَمْزًا . وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكره تعالى شكرًا على ما أنعم به عليه، وقيل: كانت عقوبة منه تعالى بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه.

وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا : أى ذكرا كثيرا.

وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ : أى سبح الله ونزهه عما لا يليق به فى وقت العشى - من الزوال إلى الغروب - وفى وقت الإبكار - من الفجر إلى الضحى.

والمراد من العشى والإبكار جميع الأوقات، والذكر: يتناول ما كان باللسان والقلب.

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

إن الله اصطفاك : قبلك واختارك لخدمة بيت المقدس وكان ذلك خاصا بالرجال.

وطهرك : من الأدناس، أو طهرك بالإيمان عن الكفر وبالطاعة عن العصيان.

واصطفاك على نساء العالمين : اختارك عليهن، بأن تكونى أما لعيسى من غير أب، - وجعلك وإياه آية للعالمين، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

اقنتى لربك : داومى على طاعته.

واسجدى : واخضعى.

واركعى مع الراكعين : الركوع الانحناء والمراد لازمه وهو التواضع والخشوع فى العبادة.

يلقون أقلامهم : أى الأقلام التى يكتبون بها التوراة أو السهام والأزلام التى يضربون بها القرعة ويقامرون بها.

يختصمون : يتنازعون فى كفالتها.

التفسير :

٤٢ - وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . الملائكة هنا يمكن أن تطلق على جبريل بدليل قوله تعالى فى سورة مريم: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . (مريم:١٧).

ويجوز أن يكونوا جماعة من الملائكة قالت لمريم:

يا مريم، إن الله اختارك لخدمة بيته، ولم يكن يخدمه قبلك إلا الرجال، وطهرك من الأدناس حسية كانت أو خلقية أو اعتقادية، وبرأك من العيوب واختصك بولادة نبى دون أن يمسك رجل، فكنت فريدة فى ذلك بين نساء العالمين لطهرك وفضلك. أو فضلك على نساء أهل زمانك، كما فضل آسية امرأة فرعون على نساء أهل زمانها، وفضل الله خديجة زوج النبى على نساء أهل زمانها، وفضل الله فاطمة بنت محمد على نساء أهل زمانها، وقد ورد ذلك فى الحديث الشريف.

٤٣ - يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . وقالت الملائكة لمريم:

داومى على طاعة ربك واخضعى له، وصلى مع المصلين، وقد أمرها الله بذلك حتى لا يحدث لها فتور أو غفلة. بعد ما علمت مكانتها عند الله تعالى.

٤٤ - ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ . أى هذه أخبار قصصناها عليك من أخبار مريم وزكريا، لم تشهدها أنت ولا أحد من قومك، ولم تقرأها فى كتاب، بل هى وحى نوحيه إليك على يد الروح الأمين، لتكون دلالة على صحة نبوتك، وإلزاماً للمعاندين الجاحدين.

وصدق الله العظيم وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . (العنكبوت : ٤٨).

وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى وما كنت يا محمد معاينا لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم إذ يلقون أقلامهم أى سهامهم التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم على وجهة القرعة : وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. بسببها تنافسا فى كفالتها مع زوج خالتها زكريا، فكان زكريا يريدها، لأن خالتها معه، ولأنه كان رئيس الأحبار، ويرى أنه أحق بها لذلك. وكان كل واحد من القراء يريدها لأنها ابنة عالمهم، فاقترحوا حلا لهذه المشكلة أن يقترعوا:

وطريقة الاقتراع لم يرد بها خبر صحيح، وقد روى عن قتادة وغيره أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يلقوا أقلامهم، فأيهم ثبت فى جريه الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت [١٦٦].

وأيا كانت كيفية القرعة التى اتفقوا عليها، فإن هذه القرعة كانت سبيلا إلى فوز زكريا عليه السلام بكفالة مريم.

وفى هذه الآية دليل على أن القرعة سبيل مشروع لتمييز الحقوق. والاستهام [١٦٧] ورد فى القرآن فى موضعين، هذا الموضع وقوله تعالى : فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . (الصافات:١٤١). وروى الشيخان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيها خرج سهمها سافرت معه[١٦٨] .

وإنباء القرآن بما وقع فى كفالة مريم من نزاع وخصام ولجوء المتنازعين إلى القرعة، دليل على نبوته - صلى الله عليه وسلم - ، لأن ذلك لا يعلم إلا عن طريق الوحى.

قال تعالى:

وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى ما كنت عندهم فى الحالين، حتى تعلم أمرهم. وإنما أعلمك الله بوحيه.

★ ★ ★

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات :

يبشرك : التبشير، الإخبار بالبشارة وهى الخبر السار، وأطلق عليه ذلك لظهور أثره على البشرة.

المسيح : لفظ معرب وأصله مشيحا، وعيسى معرب يسوع بالعبرانية.

وجيها : صاحب جاه وكرامة.

المهد : المهد هنا فراش الطفل الرضيع.

الكهل : من جاوز الثلاثين إلى الأربعين، وقيل من جاوز الثلاثين إلى إحدى وخمسين سنة. والكهل من وخطه الشيب فى جلال ووقار، وهو بين حالى الغلومة والشيخوخة، ومنه اكتهلت الروضة إذا عمها النوار.

ولم يمسسنى بشر : المس هنا، كناية عن الجماع.

تمهيد :

بعد أن ذكر قصة مريم أردفها بذكر قصة عيسى وقد ذكر هنا طَرفًا من القصة، وفى سورة مريم نجد جانبًا من القصة يناسب جو السورة ويؤكد ما فيها، وهنا نجد جانبًا آخر، مما يؤكد أن القصص فى القرآن يأتى لعدة أغراض منها.

١ - بيان قدرة الله تعالى.

٢ - تأكيد ما تهدف إليه الآيات السابقة على القصة.

٣ - تحذير الكفار والطغاة من مصارع السابقين.

٤ - تثبيت المؤمنين عن طريق استلهام مضمون القصة ومحتواها.

التفسير :

٤٥ - إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ.

المعنى :

اذكر يا محمد، حين قالت الملائكة لمريم: يامريم، إن الله يخبرك بخبر يَسُرُّكِ، هو: أنه سيمن عليك بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم ذى جاه وشرف فى الدنيا بما يظهره الله على يديه من المعجزات، وبما اتصف به من الصلاح والتقوى، وذى جاه فى الآخرة بظهور صدقه وعلو درجته ومن المقربين إلى الله والناس، المحبوبين لديهم.

ويلحق بالآية ما يأتى:

١ - المراد من الملائكة هنا جبريل عليه السلام، لقوله تعالى فى سورة مريم فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا وذكر بلفظ الجمع لأنه رئيسهم.

٢ - إطلاق لفظ كلمة على عيسى عليه السلام، لأنه خلق بغير أب بمقتضى كلمة التكوين المعبر عنها بقوله سبحانه إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) وكما قال سبحانه إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (آل عمران : ٥٩). وبما أن كُن كلمة، فلذا سمى (كلمة).

وقد خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شىء خلق بكلمة التكوين، لأنه لما فقد فى تكوينه، وحمل أمه به، ما جعله الله سببا للحمل فى العادة، وهو تلقيح ماء الرجل للمرأة، أضيف إلى الله وأطلقت الكلمة على هذا المكون إيذانا بذلك، بخلاف الأشياء فإنها تنسب فى العرف إلى الأسباب العادية.

٣ - المسيح لقب لعيسى عليه السلام، وهو من الألقاب ذات الشرف، كالفاروق لعمر، وهو لقب عبرى ومعناه القائم على عبادة الله، ومع كونه لقبًا، فقد صرحت الآية بأنه اسم له والألقاب إذا اشتهرت صارت أسماء.

٤ - قال القاسمى :

اسم الوليد الذى يميزه لقبًا الْمَسِيحُ وعلمًا عِيسَى معرب يسوع ، ويسوع بالسين المهملة كلمة يونانية معناها (مخلص) ويرادفها يشوع بالمعجمة، إلا أنها عبرانية، والمسيح بمعنى الممسوح أو المدهون. قال البقاعى، وأصل هذا الوصف أنه كان فى شريعتهم من مسحه الإمام بدهن القدس فكان طاهرًا متأهلا للملك والعلم والولايات الفاضلة مباركًا، فدل سبحانه على أن عيسى عليه السلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يمسح.

٤٦ - وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ .

وبشرتها الملائكة بأنه يكلم الناس طفلا فى المهد مثلما يكلمهم وهو رجل ذو جلال ووقار فكلامه فى كلتا الحالين كلام رصين، مفيد نافع، ومن كلامه فى طفولته ما نطق به عقب ولادته : قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . (مريم:٣٠ - ٣٢).

أما كلامه فى كهولته فهو كلام الوحى والرسالة، والكهل من وخطه الشيب، أو من جاوز الثلاثين إلى الأربعين أو الخمسين.

قال الأعرابى: يقال للغلام مراهق، ثم محتلم ثم يقال تخرج وجهه، ثم اتصلت لحيته، ثم مجتمع، ثم كهل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، قال الأزهرى، وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكمال قوته.

وَمِنَ الصَّالِحِينَ . أى ومعدودا من الصالحين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين.

٤٧ - قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ .

تلقت مريم البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة، واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذى يحير عقل الإنسان.

ومن أين لى ولد ولم يتصل بى بشر، والمولود لا يولد إلا من نكاح أو من سفاح وأنا لم أتزوج زواجًا حلالا ولست من أهل البغى والسفاح.

وفى سورة مريم : قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . (مريم : ٢٠ - ٢١).

لقد بلغها جبريل أن الله يفعل ما يشاء ولو خالف القياس بدون معاناة ولا صعوبة، ولا يحتاج تحقيق المراد إلى قوله تعالى «كن» بل يكفى أن يريده الله فيتحقق فى الحين الذى أراده سبحانه فيه، والأمر بكن محمول - عند الأكثرين - على أنه تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى مراده بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور به، من غير امتناع ولا توقف، وأجاز بعضهم: أن يكون ذلك على الحقيقة، بأن يتعلق كلام الله النفسى: الذى هو بمعنى كن، على ما أراد الله تكوينه، فيكون ويحدث.

★ ★ ★

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

المفردات :

الأكمه : من ولد أعمى.

الأبرص : من بجلده بقع بيضاء تخالف لون سائره.

التفسير :

٤٨ - وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ .

فى جملة ما بشرت به الملائكة مريم عن ولدها عيسى المنتظر أن الله تعالى يعلّمه الكتابة بالقلم كما قاله ابن عباس وابن جريج أو يعلمه الخط والنظر فى الكتب والعلم الصحيح ويفقهه فى التوراة، ويعلمه أسرار أحكامها، وقد كان المسيح عليمًا بها يرشد قومه إلى أسرارها ومغازيها، وكذلك يعلمه الإنجيل الذى أوحى به إليه.

وتعليم المسيح : الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ صالح لأن يكون موهبة إلهية، ولأن يكون بمعلم، روى أنه لما ترعرع أسلمته أمه إلى المعلم، ولكن لا ندرى ماذا علمه المعلم، ولعله علمه ما تضمنته الآية من الكتابة والتوراة، أما الإنجيل فقد أنزله الله عليه، والحكمة يراد بها وضع الشىء فى موضعه، أو حسن التصرف، وحسن الفهم والاستنباط، وهى أقرب إلى الموهبة، ويمكن أن تنمى بالجد والعمل، قال تعالى : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ من يشاءُ ومن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ سورة .(البقرة : ٢٦٩).

٤٩ - وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ.

لقد أرسل الله المسيح رسولا إلى بنى إسرائيل، وهذا يؤذن بخصوص بعثته إليهم، روى أن الوحى أتاه وهو ابن ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين ثم رفع إلى السماء.

أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ . أى ويجعله الله رسولا إلى بنى إسرائيل، يخبرهم: أنى قد جئتكم ببرهان من ربكم على نبوتى هو أنى أنشئ لكم من الطين تمثالا كهيئة الطير وشكله، فأنفخ فيه فيكون بعد النفخ طيرًا بأمر الله الذى جعل ذلك معجزة وبرهانًا على أنه أرسلنى إليكم، فإن مثل ذلك لا يقدر عليه البشر، لأنه مما اختص الله به، فإذا أمكن الله بعض عباده من ذلك، فذلك يعتبر تأييدًا من الله له فى دعوى الرسالة.

وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ . وأشفى الأكمه الذى ولدته أمه أعمى فيصير بصيرا، وأشفى من بجِلْده برص، وهو بياض يخالف لون سائر الجلد. وهاتان العلتان أعجزتا الأطباء فى عصر عيسى، وقد كان الطب متقدمًا جدًّا فى عهده، فأراهم الله المعجزة من جنس ما برعوا فيه، وقد جرت السنة أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما اشتهر فى زمنه.

فأعطى موسى العصا واليد البيضاء، حيث كان المصريون قد برعوا فى السحر، وأعطى عيسى من المعجزات ما هو من جنس الطب الذى حذقه أطباء عصّره، وأعطى محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن حيث كان العرب قد برعوا فى البيان واشتهروا بالفصاحة والبلاغة وفنون القول.

وتفيد الآية أن قدرة المسيح على شفاء المرضى كانت بإذن الله، وأن إحياء الموتى كان بإذن الله.

وفى كل معجزة من هذه المعجزات كان المسيح يلجأ إلى الله ويدعوه، فيحقق الله دعاءه، دون ممارسة الوسائل الطبية.

والأمر متعلق بإرادة الله وقدرته والله على كل شىء قدير.

وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ . وأخبركم بما تأكلونه فى بيوتكم، ولم أشاهده، وما تدخرونه للمستقبل من مال وطعام لا سبيل لى إلى عمله.

والمراد: الإخبار بهذين النوعين بخصوصهما، وقيل المراد أنه يخبرهم بالمغيبات.

واقتصر على ذكر هذين الأمرين لحضورهما لديهم فلا يبقى لهم شبهة، ولا شك أن صدقه فيما أخبر به شاهد على صدقه فى دعواه الرسالة إليهم.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إن فى ذلك لحجة ودلالة على صدقى فى دعوى الرسالة إن كنتم مصدقين بآيات الله.

وقد ذكر فى الإنجيل أنه عليه السلام رد بصر أعميين فى كفر ناحوم، وأعمى فى بيت صيدا، ورجل ولد أعمى فى أورشليم، وشفى عشرة مصابين بالبرص فى السامرة، وأبرأ أبرص فى كفر ناحوم، وأقام ابن الأرملة من الموت فى بلدة نايين، وأحيا ابنة جيروس فى كفر ناحوم والعازر فى بيت عينا.

٥٠ - وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . وأرسلت إليكم مصدقًا لشريعة التوراة التى نزلت على موسى ولأبيح لكم بأمر الله بعض ما حرم عليكم من قبل وقد جئتكم بآية من الله على صدق رسالتى فاتقوا الله وأطيعونى.

(والآية تكشف عن طبيعة المسيحية الحقة فالتوراة التى تنزلت على موسى - عليه السلام - وهى تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حجة ذلك الزمان، وملابسات حياة بنى إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر فى فترة من الزمان) - هذه التوراة معتمدة فى رسالة المسيح - عليه السلام -، وجاءت رسالته مصدقة لها مع تعديلات تتعلق، بإحلال ما حرم الله عليهم وكان تحريمه فى صورة عقوبات حلت بهم على معاص وانحرافات، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالا لهم، ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام فيحل لهم بعض الذى حرم عليهم.

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين - أى دين - أن يتضمن تنظيمًا لحياة الناس بالتشريع، وألا يقتصر على الجانب التهذيبى الأخلاقى وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على الشعائر والعبادات وحدها كذلك، فهذا لا يكون دينا، فما الدين إلا منهج الحياة الذى أراده الله للبشر، ونظام الحياة الذى يربط حياة الناس بمنهج الله، ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمَانية عن الشعائر التعبدية، وعن القيم الخلقية، وعن الشرائع التنظيمية، فى أى دين يريد أن يصرف حياة الناس وفق المنهج الإلهى، وأى انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين فى النفوس وفى الحياة، ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراد الله.

(وهذا ما حدث للمسيحية.. فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نحلة بغير شريعة، وعجزت المسيحية عن أن تكون نظامًا شاملا للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية فى حياتهم كلها، ومن بينها النظام الاجتماعى الذى تقوم عليه هذه الحياة، فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح، هى الشريعة المنظمة للحياة، المنبثقة من التصور الاعتقادى فى الله، وهى تصدق بالتوراة وتؤيدها، ولكن العداء بين اليهودية والمسيحية جعل كل فريق يرفض ما عند الفريق الآخر) [١٦٩].

قال تعالى : وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ . (البقرة: ١٤٥).

٥١ - إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . يعلن المسيح حقيقة التوحيد والإيمان بالله وحده هذا الاعتقاد الذى قامت عليه جميع الرسالات السماوية، ويؤيد المسيح عليه السلام أن المعجزات الَّتِى جاءهم

بها لم يجئ بها من عند نفسه، فما له قدرة عليها وهو بشر، إنما جاءهم من عند الله، ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله، ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء، - فما هو برب وإنما هو عبد، وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب، فلا عبودية إلا لله... ويختم قوله بالحقيقة الشاملة.. فتوحيد الرب وعبادته وطاعة الرسول والنظام الذى جاء به هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ .. وما عداه عوج وانحراف وما هو قطعا بالدين.



﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

فلما أحس : أصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس، ويستعار للعلم بلا شبهة وفى الأساس: أحسست منه مكرا، وأحسست منه بمكر، وما أحسسنا منه خيرا، وهل تحس من فلان بخير.

والأنصار : جمع نصير، وهو من يؤيدك وينصرك.

الحواريون : جمع حوارى، وهو الصفى والناصر. يقال: فلان حوارى فلان، خاصته من أصحابه وناصريه.

التفسير :

٥٢ - فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ . فلما شعر عيسى من قومه بنى إسرائيل بالإصرار على الكفر والعناد وقصد الإيذاء، فقد صح أنه لقى من اليهود شدائد كثيرة، فقد كانوا يجتمعون عليه، ويستهزئون به ويقولون له : يا عيسى ما أكل فلان البارحة؟ وما أدخر فى بيته لغد؟ فيخبرهم، فيسخرون منه، حتى طال ذلك به وبهم، وهموا بقتله فخافهم واختفى عنهم، وخرج هو وأمه يسيحان فى الأرض. وفى هذا عبرة وتسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم -.

ولما اشتد الكرب بعيسى، واستيقن بالخطر المحدق اتجه إلى من خلصت نيته من قومه بقوله:

مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ .

وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ . (الصف:١٤).

قال المسيح للمخلصين من قومه وخاصتهم، من ينصرنى ويؤيدنى وأنا متجه إلى الله داعيًا لدينه، لايصرفه عن ذلك صارف ولا يمنعه مانع ؟.

فاستجاب له الخلصاء المتقون.

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ . أى قال خاصة أصحابه وناصريه: نحن أنصار دين الله، والباذلون كل ما فى الوسع فى تأييد دعوتك، وسننضم معك فى نصرة الله وتبليغ دعوته.

آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . أعلنوا إيمانهم وأظهروا استعدادهم للبذل والتضحية، وأشهدوا المسيح بأنهم مسلمون منقادون لكل ما يريده الله منهم.

٥٣ - رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . بعد أن لبوا دعوة عيسى عليه السلام، اتَّجَهُوا إلى الله تعالى قائلين، رَبَّنَا آمنا بما أنزلته على جميع رسلك، واتبعنا الرسول عليه السلام، وامتثلنا ما أتى به من عندك.

فاكتبنا عندك ببركة هذا الإيمان - مع الشاهدين من جميع الأمم: بصدق الأنبياء والمرسلين، ولا تجعلنا من المعاندين المكابرين، الذين ينكرون الحق مع وضوح دليله.

٥٤ - وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . ومكر أولئك القوم الذين علم عيسى كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة.

ومكر الله فأبطل مكرهم فلم ينجحوا فيه، ورفع عليه السلام إلى السماء، وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل.

قال ابن عباس: لما أراد ملك بنى إسرائيل قتل عيسى عليه السلام، دخل عيسى خوخة فيها كوة، فرفعه جبريل عليه السلام من الكوة إلى السماء، فقال الملك لرجل خبيث منهم ادخل عليه فاقتله، فدخل الخوخة فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس فى البيت، فقتلوه وصلبوه، ظنا منهم أنه عيسى.

وقد جاء فى إنجيل برنابا ما يصدق هذا المروى عن ابن عباس وفيه أيضًا:

أن الخبيث هو يهوذا وكان من الحواريين المنافقين، وهو الذى دلهم على مكانه، وذلك أن عيسى جمع الحواريين تلك الليلة، وأوصاهم وقال: ليكفرنَّ بى أحدكم فذهب يهوذا إلى ملك اليهود وأخبره بمكانه، ومكان حوارييه، فلما توجه إليه الملك برجاله ودخلوا عليه البيت لم يجدوه فقد رفعه الله إليه وألقى شبه عيسى على يهوذا فأمر الملك بقتله، فقال له: أنا يهوذا؟ فقال الملك: إن كنت يهوذا فأين عيسى؟ فقال يهوذا: إن كنت عيسى فأين يهوذا؟ فلم يعبأ الملك بهذه المعارضة، وصلبه لشبهه بعيسى. ومن العجيب أن النصارى لا يعترفون بهذا الإنجيل مع أنه وجد بمكتبة بابا روما، وترجم إلى اللغة الإيطالية، ثم إلى الإنجليزية، وغيرهما من لغات العالم، ولم يوجد بالعربية إلا بعد ترجمته من الإنجليزية أخيرا.

مكر الله :

المكر لغة : هو تدبير خفى، يقصد به إضرار من يمكر به ولا يطلق المكر على الله إلا بأسلوب المشاكلة المعروف فى علم المعانى، وهو التعبير عن الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته، وقد أطلق هنا على إنجاء الله لعيسى وانتقامه من المنافق، لوقوعه فى صحبة مكرهم، هكذا قال طائفة من العلماء.

وقال غير واحد : المكر هو التدبير المحكم، وهو ليس بممتنع على الله تعالى وفى الحديث الشريف «رب أعنِّى ولا تعن علىَّ ..... وامكر لى ولا تمكر علىَّ» (١٧٠).

ثم ختم الله الآية بقوله: وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . أى أقواهم، وأشدهم مكرًا ، أو أنه أحسنهم مكرا، لبعد تدبيره عن الظلم.

★ ★ ★

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات :

متوفيك : التوفى: أخذ الشىء وافيًا تامًا ثم استعمل بمعنى الإماتة كما قال تعالى: الله يتوفى الأنفس حين موتها .

ومطهرك من الذين كفروا : بالرفع، أو تطهيره من تهمة أمه بالزنا.

وجاعل الذين اتبعوك : بتصديق ما جئت به.

فوق الذين كفروا : بذلك.

من الآيات : من الحجج الدالة على صدقك.

والذكر الحكيم : والقرآن المحكم المتقن، أو المتصف بالحكمة.

التفسير :

٥٥ - إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

اختلف العلماء فى المراد من التوفى هنا.

١ - فمن العلماء من قال : إنه على حقيقته المعروفة ، وإنه مرتبط بالآية السابقة.

والمعنى : ومكر اليهود بعيسى يريدون قتله، ومكر اللّه فأحبط تدبيرهم، وقال سبحانه وتعالى لعيسى: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ حين يأتى أجلك، ولن أسلطهم عليك ليقتلوك، وقد حقق اللّه وعده له إذ ألقى شبهه على يهوذا فقتلوه ، وأنجى عيسى ورفعه إليه، وسيبقى إلى آخر الزمان ليبلغ شريعة محمد - صلى اللّه عليه وسلم - للناس، ثم يتوفاه بعد ذلك ، كما ورد فى السنة الصحيحة.

فالآية على هذا كناية عن عصمته من الأعداء ، مشفوعة بالبشارة برفعته.

٢ - ومن العلماء من ذهب إلى أن الآية على ظاهرها، وأن التوفى هو الإماتة العادية وأن الرفع بعده للروح، ولا غرابة فى خطاب الشخص وإرادة روحه فالروح هى حقيقة الإنسان ، والجسد كالثوب المستعار يزيد وينقص ويتغير ، والإنسان إنسان بروحه.

والمعنى : إنى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيع عندى كما قال فى إدريس عليه السلام «ورفعناه مكانًا عليا » ونظرنا فى تفسير هذه الآية يحكم علينا أن نشفع القرآن بالسنة الصحيحة التى تفيد أن عيسى عليه السلام قد رفع حيا بدون وفاة، وتفيد أنه سينزل آخر الزمان ليجدد ما درس من شريعة محمد - صلى اللّه عليه وسلم .

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - : « واللّه لينزلن ابن مريم حكمًا عادلاً فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص [١٧١]، فلا يسعى عليها، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » [١٧٢].

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - قال : « كيف أنتم إذا أنزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم » [١٧٣].

وبما أن عيسى سينزل آخر الزمان ، فلابد أن يبقى حيا إلى حين ينزل ويبلغ شرع الرسول محمد - صلى اللّه عليه وسلم - ، إذ لو مات قبل ذلك ، لكان نزوله هذا بعثاً له فى الدنيا ولا بعث إلا فى الآخرة .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن حديث الرفع والنزول فى آخر الزمان حديث آحاد يتصل بأمر اعتقادى ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر، ولايوجد هنا واحد منهما، وقالوا ربما كان المراد بنزول المسيح وحكمه فى الأرض غلبة روحه، وسر رسالته على الناس بالأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها ، والتمسك بقشورها دون لبابها [١٧٤] وسئل الشيخ محمد عبده عن المسيخ الدجال وقتل عيسى له فقال : « إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها،

والأخذ بأسرارها وحكمها، وإن القرآن أعظم هاد إلى هذه الحكم والأسرار ، وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبيّنة لذلك فلا حاجة للبشر إلى إصلاح وراء الرجوع إلى ذلك »(١٧٥) .

ونرى أن الدين لا يؤخذ بالرأى، وأن الحديث الصحيح قاطع الدلالة فى هذا الموضوع فينبغى أن نقبل حكمه وقد مدح الله المؤمنين بأنهم يؤمنون بالمحكم . ويفوضون إلى الله معرفة المتشابه مع الإيمان بما ورد على وجه الإجمال، وتفويض حقيقة المراد إلى الله تعالى .

جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

« لقد أرادوا صلب عيسى عليه السلام وقتله ، وأرادالله أن يتوفاه ، وأن يرفعه إليه، وأن يطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس ودنس ، وأن يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .. وكان ما أراده الله ، وأبطل الله مكر الماكرين »٠

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه ... فهى أمور غيبية تدخل فى المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله ، ولا طائل وراء البحث فيها ، لا فى عقيدة ولا فى شريعة، والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهى بهم الحال إلى المراء، وإلى التخليط، وإلى التعقيد دون ما جزم بحقيقة ، ودون ما راحة بال فى أمر موكول إلى علم الله.

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا . أى أنجيك مما كانوا يريدون بك من الشر، أو مما كانوا يرمونه به من القبائح ونسبة السوء إليه.

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . من إكرام الله لعيسى أنه قد جعل الذين اتبعوه فى الدين وآمنوا به فوق الذين كفروا والمراد أنهم أعلى منهم روحًا وأحسن خلقًا وأكمل أدبًا. وقيل فوقهم فى الحكم والسيادة وإن يكن هذا غير مطرد بالنسبة لليهود والنصارى . والمعروف الذى يحدثنا به التاريخ أن كل جماعة تتمسك بدينها وآدابه وأخلاقه لابد أن تكون فوق الجميع (١٧٦).

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . أى ثم مصيركم إلى يوم البعث ، فأحكم بينكم حينئذ فيما اختلفتم فيه من أمور الدين، وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به. وحينئذ يبين لهم الحق فى كل ما اختلفوا فيه.

٥٦ - **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ .**

المعنى :

فأما الذين كذبوك وهم اليهود أو كفروا بالحق وحادوا عنه، أو جحدوا نبوة المسيح أو جعلوه إلها أو ابنا

لله، كل خارج عن الحق سيقع فى العذاب الشديد فى الدنيا، بالقتل أو الأسر أو الضيق النفسى وعدم الهداية والسعادة. وفى الآخرة ينتظرهم عذاب أشد وأنكى ، وما لهم من ناصرين يدفعون عنهم عذاب الله.

٥٧ - وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

إن الجزاء من جنس العمل، فالكافر ينتظره العقاب فى الدنيا والآخرة والمؤمن ينتظره الثواب فى الدنيا والآخرة. إنه سبحانه يوفى المؤمنين أجورهم فى الدنيا بطمأنينة النفس وهدوء البال وسعة الرزق، والنصر والعون ، يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات ، فالقاعدة الإلهية العامة هى أن كل من آمن بالله وعمل صالحاً ، فإن الله سبحانه وتعالى يكتب له الفوز والحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة. يقول سبحانه فيما يتعلق بالأفراد:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (النحل : ٩٧).

ويقول سبحانه عن الجماعات :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . (الأعراف : ٩٦).

وفى ختام هذه الآية نجد هذه القاعدة الأصلية.

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . فالظلم خروج عن قوانين الفطرة، وجور فى العدل ، ووضع للشىء فى غير موضعه ، والظالم يتعرض لغضب الله فى الدنيا ولعقوبته يوم القيامة.

قال صلى الله عليه وسلم :

«إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (هود : ١٠٢) .

والظالم يتعرض للقصاص العادل فى يوم الجزاء، أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله - صلى الله عيه وسلم - قال : « اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » [١٧٧].

٥٨ - ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ .

أى هذه الأنباء التى أنبأتك بها عن عيسى وأمه مريم وأمها، وزكريا وابنه يحيى، وما قص من أمر الحواريين واليهود من بنى إسرائيل نقرؤها لك على لسان جبريل ، وهو القرآن الحكيم الذى يبين وجوه العبر فى الأخبار والحكم فى الأحكام فيهدى المؤمنين إلى لب الدين وفقه الشريعة ، وأسرار الاجتماع البشرى.

وفيها حجة على من حاجك من وفد نجران، ويهود بنى إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جئتهم به من الحق.

* * *

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

المفردات :

إن مثل عيسى : المثل : الحال الغريبة والشأن البديع.

كن فيكون : أى صر بشرا ، فصار بشرًا، والتعبير بالمضارع بدل الماضى، لتصويره بصورة الحاضر المشاهد، إيذانا بغرابته **فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِين** الامتراء الشك، أو الجدال أى لا تكن من الشاكين ، أو من المجادلين فى شأنه بعد وضوح الحق ، والخطاب لكل مكلف.

حاجك : أى جادلك.

ثم نبتهل : أى ثم ندع الله ، مضارع من الابتهال وهو الدعاء.

وما من إله : ما : نافية ، ومن : لتأكيد الاستغراق المفهوم من النكرة المنفية ، وهى كلمة (إله) .

سبب النزول :

نزلت هذه الآيات على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند حضور وفد نجران ، وكان من جملة شبههم أن قالوا : يا محمد لما سلمت أنه لا أب لعيسى من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى ، وزعموا أن معنى كونه « كلمة الله ، وروح الله » أن الله حل فى أمه، وأن كلمة الله تجسدت فيه فصار إنسانا وإلها، فضرب مثلا بآدم ليرد به على الكافرين والمفتونين .

التفسير :

٥٩ - **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُون** . إن حال عيسى - وصفته العجيبة فى خلقه من غير أب - كحال آدم أبى البشر، أراد الله خلقه من تراب، ثم قال له : صر وكن بأمرى بشرا سويًا: ذا لحم ودم ، وعظام وأعصاب وعقل وإرادة فصار بشراً كما أراده الله.

وتم بذلك خلقه من تراب دون أب أو أم ، فكان بذلك أعجب من خلق عيسى من أم دون أب.

وإذا كنتم أيها النصارى لا تقولون بألوهية آدم، ولا ببنوته لله، فكيف تقولون بألوهية عيسى، أو بنوته لله، وهو دون آدم فى غرابة خلقه، والآية دليل على صحة القياس ، وشرعية النظر والاستدلال. فقد احتج الله عليهم بخلق آدم من غير أب ولا أم ، وحيث لم يقولوا بألوهية آدم. وجب القول بعدم ألوهية عيسى من باب أولى.

٦٠ - الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِين . أى هذا الذى أخبرتك به هو الحق فى شأن عيسى عليه السلام، فدم على يقينك وعلى ما أنت عليه من الاطمئنان إلى الحق والتنزه عن الشك فيه.

والخطاب قد يوجه للنبي، ويراد به كل من يجادل فى شأن عيسى و كل من يخالجه شك فى أمره ، وتظهر فائدة ذلك من وجهين :

١ - أنه إذا سمع - صلى اللّه عليه وسلم - مثل هذا الخطاب ازداد رغبة فى الثبات على اليقين واطمئنان النفس.

٢ - أنه إذا سمعه غيره ازدجر ونزع عما يورث الامتراء، إذ إنه - صلى اللّه عليه وسلم - على جلالة قدره قد خوطب بمثل هذا فما بالك بغيره ؟

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب فى هذه الآية ليس للنبى - صلى اللّه عليه وسلم ، إذ لا يصح أن يكون الرسول شاكا أو مجادلاً بالباطل وإنما الخطاب لمن يجادل فى شأن عيسى ، أو يشك فى أمره .

والمعنى :

الحق فى شأن عيسى، نازل من ربك أيها المجادل فى شأنه فلا تكونن من الشاكين فى أمره ، بعد ما أسفر الصبح لذى عينين ، بهذه الحجة القاطعة لكل ريب. ويصح أن يكون الامتراء بمعنى المجادلة بالباطل، أى فلا تكونن بعد هذا الحق النازل من ربك من المجادلين فيه بالباطل . والخطاب فيه كسابقه لغير الرسول، من المجادلين والشاكين ، أو هو لكل من يتأتى منه الخطاب.

٦١ - فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِين .

الخطاب فى هذه الآية للرسول - صلى اللّه عليه وسلم - لقد بينت الآيات السابقة حقيقة عيسى عليه السلام بما فيه كفاية وغناء لطالب الإيضاح والبيان.

وهنا يوجه اللّه تعالى رسوله الكريم إلى أن ينهى الجدل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة، وحول هذا الحق المبين .. والمعنى ، فمن جادلك فى شأن عيسى بعد هذا البيان فلا تجادلهم فى شىء منه، وأفحمهم وقل لهم : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ . ويضرع كل منا إلى اللّه تعالى ويدعوه أن يجعل لعنته على الكاذبين منا.

وقد حدث أن النبى - صلى اللّه عليه وسلم - لما نزلت هذه الآية أخبر وفد نجران بها ودعاهم إلى اجتماع حاشد ومعهم نساؤهم وأبناؤهم ، ليبتهل الجميع إلى اللّه تعالى أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين .

وحضر الرسول فى الموعد، ومعه الحسن والحسين، وفاطمة وعلي، فلم يجدهم، فقد تشاوروا فيما بينهم. فقالوا للعاقب - وكان صاحب رأيهم : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال : واللّه يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمدًا لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعَنَ قوم نبيا قط فبقى

كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا النبى - صلى الله عليه وسلم- فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، ونتركك على دينك ، وأن نرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا : يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضا. فأمر النبى أبا عبيدة بن الجراح أن يخرج معهم، ويقضى بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه (١٧٨).

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل ، عن الضحاك وابن عباس : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - صالحهم على الجزية ، ومقدارها ألف حُلَّة فى صفر ومثلها فى رجب، ودراهم ، وذلك بعد أن أشار عليهم يهود المدينة بالصلح وعدم الملاعنة وقالوا : هو النبى الذى نجده فى التوراة (١٧٩).

قد يقول قائل: إن الجزية فرضت بعد فتح مكة، ووفد نجران جاء قبلها فكيف يقال إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صالحهم على الجزية ؟ الجواب أن ذلك من باب المصالحة على ترك المباهلة وجاء فرض الجزية بعد ذلك على وفق ما صنعه الرسول ، وقد أجيب بأجوبة أخرى، فارجع إليها إن شئت فى تفسير ابن كثير.

٦٢ - إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم .

إن هذا الذى قصصناه عليك فى شأن عيسى هو القصص الحق المطابق للواقع الذى لا يصح العدول عنه إلى ما عليه النصارى فى شأنه : من أنه الله ،أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة .

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ . فلا شريك له فى ملكه بأى وجه من الوجوه ولا معبود بحق سواه.

إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم . أى الغالب الذى لا يقهر ، المتقن لما يصنعه ويدبره.

٦٣ - فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ .

فإن أعرضوا عن اتباعك فى دينك، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد التى جئت بها ، ولم يجيبوك إلى المباهلة ، فجزاؤهم وعقابهم عند الله وإن الله عليم بحال المفسدين فيجازيهم على فسادهم وإفسادهم . وأظهر فى مكان الإضمار، فلم يقل عليم بهم بل قال عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ لإظهار فسادهم ، واستحقاقهم للعقوبة، وفى هذا تهديد بليغ لهم.

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

المفردات :

أهل الكتاب : اليهود والنصارى.

تعالوا : أقبلوا ووجهوا النظر إلى ما دعيتم إليه .

إلى كلمة : إلى العمل بكلمة، والمراد بها هنا الكلام الآتى بيانه فى الآية الكريمة .

سواء بيننا وبينكم : مستوية عادلة نعمل بها جميعًا ، ولا نختلف فيها .

ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله : الرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى، ويراد به هنا ما له حق التشريع من تحريم وتحليل .

مسلمون : منقادون لله مخلصون له.

تحاجون : تجادلون.

حنيفًا مسلمًا : الحنيف : المائل عن العقائد الزائفة، المسلم : الموحد المخلص لله.

تمهيد :

بين الله فيما سلف أحوال عيسى عليه السلام ، وما يعتوره من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم دعا أهل الكتاب إلى المباهلة فأعرضوا، وبذلك انقطعت محجتهم.

وهنا يدعوهم القرآن إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذى اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعًا، ألا وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فلما أعرضوا أمر النبى أن يقول لهم: اشهدوا بأنا مسلمون.

التفسير :

٦٤ - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . . .﴾

قل يا أهل الكتاب هلموا وانظروا فى مقالة عادلة اتفقت عليها الرسل والكتب، وأمرت بها التوراة والإنجيل والقرآن ثم بين هذه الكلمة فقال :

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ . لا صنمًا ولا كوكبًا ، ولا نارًا ، ولا ملائكة ولا غير ذلك .

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ . فلا يتخذ اليهود عزيرًا ابنا الله ، ولا يتخذ النصارى المسيح ابنا لله ، ولا يقولون إنه ثالث ثلاثة.

وقد حوت هذه الآية وحدانية الألوهية ، ووحدانية الربوبية، وهذا القدر متفق عليه فى جميع الأديان فقد جاء إبراهيم بالتوحيد ، وجاء به موسى وعيسى ، ومحمد خاتم النبيين . وقد جاء فى أسفار العهد القديم، نصوص عديدة، ناطقة بتوحيد الله وتنزيهه عن الشريك (١٨٠).

وقد كان اليهود موحِّدين وفى التوراة يقول الله لموسى « إن الرب إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى ».

ومنبع شقاء اليهود اتباعهم لرؤساء الدين فيما يقررون من الأحكام وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من عند الله . وسار النصارى على هذا المنوال، وزادوا مسألة غفران الخطايا، وهى مسألة كان لها أثر خطير فى المجتمع المسيحى حتى بلغ من أمرها أن ابتلعت الكنائس أكثر أموال الناس ، فقامت طائفة جديدة تطلب الإصلاح وهى فرقة (البروتستانت) وقالت: دعونا من هؤلاء الأرباب، وخذوا الدين من الكتاب ، ولا تشركوا معه شيئًا سواه من قول فلان وفلان .

روى عدى بن حاتم قال : « أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى عنقى صليب من ذهب، فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ فى سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم . فقال : أما كانوا يحللون لكم ويحرمون ، فتأخذون بأقوالهم . قال : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : هو ذلك (١٨١).

ثم قال الله لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم :

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ . أى فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من توحيد الله ، وعدم إشراك غيره معه فى العبادة فاعلموا أنهم لزمتهم الحجة، ولكنهم إن أبوا الحق عنادا فقولوا لهم : أنصفونا ، واشهدوا - معترفين لنا بأننا مسلمون مخلصون لربنا.

وقد ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرسل كتابه إلى قيصر ملك الروم يدعوه للإسلام ، وفيه :

بسم اللّه الرحمن الرحيم ، من محمد رسول اللّه إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فأسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسين :

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . (١٨٢).

٦٥ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى اللّه عنه قال : « اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل اللّه :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ... أى كيف تدَّعون أيها اليهود أنه كان يهوديا وقد كان زمنه قبل أن ينزل اللّه التوراة على موسى ؟.

وكيف تدَّعون أيها النصارى أنه كان نصرانيا ، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟.

وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ.

أى وما أنزلت التوراة على موسى ، ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأحقاب طوال، وقد قالوا: إن بين إبراهيم وموسى سبعمائة سنة ، وبين موسى وعيسى حوالى ألف سنة (١٨٣).

أَفَلا تَعْقِلُونَ . إن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعًا له.

٦٦- هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ .

المعنى :

ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم من أمر موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فعندكم التوراة والإنجيل تعرفون منهما أمرهم، وإن كنتم غيرتم فيها وبدلتم فلماذا تحاجون فى أمر دين إبراهيم، وأنتم لا علم لكم بتفاصيله ولا بما جاء فى صحفه؟.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ. أى واللّه يعلم ما غاب عنكم ولم تشاهدوه ولم يأتكم به الرسل من أمر إبراهيم وغيره مما تجادلون فيه.

٦٧- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ما كان إبراهيم يهوديا كما ادعى اليهود ، ولا نصرانيا كما ادعى النصارى، ولكن – حنيفًا أى مائلاً عن الأديان الباطلة، مسلما: أى على طريقة الإسلام من التوحيد.

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين . الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون أنهم على ملة إبراهيم وهم قريش ومن وافقهم من العرب.

وليس المراد بكونه مسلمًا، أنه كان على مثل ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من الشريعة بالتفصيل ، فإنه يرد على هذا أن هذه الشريعة جاءت من بعده كما كانت التوراة والإنجيل من بعده ، وإنما المراد أنه كان متحققًا بمعنى الإسلام ، الذى يدل عليه لفظه وهو التوحيد والإخلاص لله فى عمل الخير تحقيقًا لقوله سبحانه إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ . (آل عمران : ١٩).

٦٨ - إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

روى عن ابن عباس أنه قال : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أنَّا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، وأنه كان يهوديا ، وما بك إلا الحسد فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ومعنى الآية :

إن أولى الناس بإبراهيم ونصرته وولايته - هم الذين سلكوا طريقة منهاجه فى عصره فوحدوا الله مخلصين له الدين ، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين وهذا النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه ، فإنهم أهل التوحيد الذى لا يشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالشفعاء.

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . بالنصر والمعونة والمحبة.



﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

المفردات :

ودت : ود الشىء أحبه.

طـــائفـــة : جماعة وهم الأحبار والرؤساء.

لويضلونكم : لو بمعنى أن، أى أن يضلوكم.

وما يضلون إلا أنفسهم : الإضلال هنا بمعنى الإهلاك مجازا فالمعنى : وما يهلكون إلا أنفسهم بتمنى إضلالكم، أو بمعنى: الإخراج عن الهدى ، فالمعنى: وما تعود عاقبة الإضلال إلا على أنفسهم، أو بمعنى الخداع ، فهم يخدعونكم، وما يخدعون إلا أنفسهم فى الحقيقة.

وما يشـعرون : وما يفطنون لذلك.

بـآيـات الله : الآيات هنا ما يدل على صدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وأنتم تشهـدون : أى تعلمون ما يدل على صحتها من التوراة والإنجيل.

تلبسـون : تخلطون.

تمهيد:

قال المفسرون : إن اليهود دعوا معاذا وحذيفة وعمارا إلى دينهم فأنزل الله : وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُم . . . . الآية (١٨٤).

وقيل نزلت فى اليهود والنصارى.

ولا شك أنهم كانوا أشد الناس حرصًا على إضلال المؤمنين سواء دعوا بعض الصحابة إلى دينهم أم لا.

وليس الإضلال خاصا بالدعوة ، بل كانوا يلقون ضروبًا من الشك فى النفس ليصدوها عن الإسلام من أغربها ما فى الآية الآتية (٧٢).

والمعنى:

أحبت طائفة من أهل الكتاب أن يهلكوكم بالتكفير والإخراج عن الإيمان ، وما يهلكون إلا أنفسهم بما يفعلون ، وما يفطنون لذلك، لزعمهم أنهم على الحق.

٧٠ - **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ** . لأى سبب تكفرون بما ترونه من البراهين الواضحة الدالة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنتم تشهدون بصحتها بما جاء فى كتبكم من نعته والبشارة به.

أو : لماذا تكفرون بآيات القرآن النازل من عند الله ، وأنتم تعلمون من التوراة والإنجيل ما يدل على صحتها ، ووجوب الاعتراف بها ؟.

٧١ - **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** .

يا أهل الكتاب ، لماذا تسترون الحق بالباطل ، أو تخلطونه به، وذلك بتحريفكم آيات التوراة والإنجيل وسوء تأويلكم لها؟ لماذا تكتمون الحق فى شأن محمد وبشارته الموجودة فى كتبكم ، وأنتم تعلمون أنه حق، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى ؟.

★ ★ ★

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

المفردات :

وجه النهار : أوله ، سمى وجهًا لأنه أول ما يواجهك منه.

أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم : أى كراهة أن يؤتى مثل ما أوتيتم.

أو يحاجوكم عند ربكم : أى يحاجوكم به عند كتاب ربكم بالتحاكم إليه.

التفسير :

٧٢ –وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

سبب النزول :

قال الحسن والسدى : تواطأ اثنا عشر رجلا من أحبار يهود خيبر وقرى عرينة وقال بعضهم لبعض: ادخلوا فى دين محمد أول النهار – باللسان دون الاعتقاد – واكفروا آخره، وقولوا: إنَّا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك ، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك. شك أصحابه فى دينهم ، وقالوا: إنهم أهل كتاب وهم أعلم به فيرجعون عن دينهم إلى دينكم .. [١٨٥] وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : (صلت يهود مع محمد صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرًا منهم ليروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه) [١٨٦]. قال الشيخ محمد عبده : هذا النوع الذى تحكيه الآية مِنْ صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر، وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه فى هذا هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبى – صلى اللّه عليه وسلم – عندما دعاه إلى الإسلام: (هل يرجع عن دين محمد من دخل فيه ؟ فقال أبو سفيان : لا).

وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على باطنه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب .

لطيفة :

قال الرازى : الفائدة من إخبار اللّه تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من وجوه :

الأول : أن هذه الحيل كانت مخفية فيما بينهم وما أطلعوا عليها أحدا من الأجانب ، فلما – أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجزًا.

الثانى : أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين. ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت فى قلب بعض من فى إيمانه ضعف.

الثالث : أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعًا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس.

٧٣ - **وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .**

تواصى اليهود بألا يطلعوا المسلمين على شىء من أسرار كتابهم كالبشارة بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأمارته **وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ** .

من معانى الإيمان فى اللغة الثقة والطمأنينة.

والمعنى : ولا تثقوا إلا بأبناء ملتكم من اليهود . ولا تطمئنوا إلا إليهم . فلا تذيعوا أسرارنا للمسلمين فإن ذلك يفسد علينا تدبيرنا.

وقد انتهى كلام اليهود عند قولهم : **وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ** . كما رجحه الفراء .

قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ . أى قل يا محمد لهؤلاء المتآمرين توبيخًا لهم : إن الهدى هدى اللّه ، فلا يتوقف على إظهاركم ما عندكم من البشائر بنبوة محمد ، والعلامات الدالة عليه ، ولا يزيله كفركم آخر النهار بعد إيمانكم أوله ، فمن أراد اللّه هداه أقنعه بما أيد به رسوله من الآيات البينات ، وأورثه الطمأنينة التامة فى قلبه وحفظه من كيد الكائدين، وكشف له دسائسهم ومؤامراتهم.

ثم أمر اللّه رسوله أن يقول لليهود :

أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ .

وفى الكلام جملة مقدرة يقتضيها المقام، والتقدير أتكيدون هذا الكيد كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أو يحاجوكم به عند ربكم ؟.

وجاء فى تفسير القاسمى :

أَن بمد الألف على الاستفهام فى قراءة ابن كثير وتقديرها فى قراءة غيره ، أى دعاكم الحسد والبغى حتى قلتم ما قلتم ودبرتموه الآن **يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ** من الشرائع والعلم والكتاب.

أو كراهة أن **يُحَاجُّوكُمْ** أى الذين أوتوا مثل ما أوتيتم **عِندَ رَبِّكُمْ** أى بالشهادة عليكم يوم القيامة أنهم آمنوا وكفرتم بعد البيان الواضح فيفضحكم. ا هـ.

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم .

أى قل لهم إن الرسالة فضل من اللّه ومنة واللّه واسع العطاء وهو العليم بالمستحق فيعطيه من هو له أهل. وفى هذا إيماء إلى أن اليهود قد ضيقوا هذا الفضل الواسع بزعمهم حصر النبوة فيهم ، وجهلوا الحكم والمصالح التى لأجلها يعطى النبوة من يشاء.

ويرى بعض المفسرين : أن الآية كلها يمكن أن تكون خطابا من اللّه للمؤمنين على جهة التثبيت لقلوبهم وتنوير بصائرهم، وحفظهم من تشكيك اليهود وتزويرهم فى دينهم.

والمعنى :

ولاتصدقوا - يا معشر المؤمنين - إلا من تبع دينكم أما غيرهم فاحذروهم، قل لهم يا محمد : إن الهدى هدى اللّه أنزله على محمد ، أما ما يقوله أعداء الإسلام فهو من تزويرهم ، فلا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الهدى والحق ولا أن يحاجوكم بما لديهم من دينهم عند ربكم فلا قدرة لهم على ذلك قل إن الفضل بيد اللّه ... إلخ.

وجاء فى تفسير المنار وغيره ، تفسيرات أخرى للآية ، لا تخلو من مآخذ .

٧٤ - يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

أى إن فضله الواسع ورحمته العامة يعطيها بحسب مشيئته لا كما يزعم أهل الكتاب من قصرها على الشعب المختار من بنى إسرائيل ، فهو يبعث من يشاء نبيا ويبعثه رسولا، ومن اختصه بهذا فإنما يختصه بمزيد فضله وعظيم إحسانه، لا بعمل قدمه، ولا لنسب شرفه، فاللّه لا يحابى أحدا، لا فردا ولا شعبًا ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرًا.



﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

تأمنه : من أمنته بمعنى ائتمنته ، ويقال أمنته بكذا أو على كذا.

قنطار : المراد به هنا العدد الكثير أو المال الكثير، كما أن المراد بالدينار العدد القليل.

ليس علينا فى الأميين سبيل : يعنون بالأميين العرب، بجهلهم وقتئذ بالكتابة والقراءة.

سبيل : مؤاخذة وذنب، ومعنى كلامهم: ليس علينا فيما نأخذه من أموالهم مأخذ ولا حساب.

التفسير :

٧٥ - **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ . . .**

هذه الآية من أظهر الأدلة على سماحة القرآن ، فقد تحدثت الآيات السابقة عن أهل الكتاب ، والكلام هنا موصول عنهم والآية تنصفهم، وتذكر أن منهم أمناء يؤدون الأمانة مهما كثر مقدارها، ومنهم خونة يجحدون الأمانة مهما قل عددها.

فمن الأمناء عبد اللّه بن سلام استودعه عربى قرشى ألفًا ومائتى أوقية ذهبًا - حين كان ابن سلام على يهوديته - فلما طلبها القرشى أداها إليه كاملة، ومن الخونة رجل اسمه فنحاص بن عازوراء استودعه رجل آخر من قريش دينارًا فجحده، ثم بينت الآية السبب فى هذا السلوك فقالت : **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيل** أى ليس علينا إثم فى أكل أموالهم فلا حساب ولا عقاب فى أكل أموال العرب.

وخلاصة رأيهم - أن كل من ليس من شعب اللّه المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه اللّه له بل هو مبغض عنده محتقر لديه، فلا حقوق له ولا حرمة لماله، فكل ما يستطاع أخذه منه فلا ضير فيه، ولا شك أن هذا من الصلف والغرور والغلو فى الدين واحتقار المخالف وهضم حقوقه.

روى ابن جرير أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم فى الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم الثمن فقالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم، فرد اللّه عليهم بقوله :

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُون . وهم إذ يقولون هذا - يكذبون على اللّه تعالى - عن عمد وعلم بأنهم كاذبون . لأن ما جاء من عند اللّه فهو فى كتابه ، والتوراة التى بين أيديهم ليس فيها خيانة الأميين ولا أكل أموالهم بالباطل.

أخرج عبد الرزاق عن أبى صعصعة بن يزيد أن رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا بذلك بأس ، قال ابن عباس هذا كما قال أهل الكتاب : **لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيل** . إنهم إذا أدَّوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم [١٨٧].

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب **لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيل** قال نبى اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - « **كذب أعداء اللّه** ، ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » [١٨٨].

ويستفاد من الآية ما يأتى :

١ - لا يحل لمسلم أن يخون أحدا ولو خالفه فى الدين.

٢ - لا يصح لمسلم أن يتصف بالخيانة مع من خانه.

٣ - قال القرطبى : فى الآية رد على الكفرة الذين يحرمون ويحللون غير تحريم الله وتحليله ، ويجعلون ذلك من الشرع.

٤ - استدل أبو حنيفة بالآية على ما ذهب إليه من مشروعية ملازمة الغريم بقوله تعالى : لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا أى بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص حقك.

ومن هدى السنة ما رواه أبو داود والترمذى والحاكم والطبرانى والبخارى فى التاريخ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « **أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك** »[١٨٩].

والله تعالى يقول : وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا . (المائدة : ٨).

ولا نستطيع أن نبرح هذه الآية حتى نؤكد إنصاف القرآن لأهل الكتاب فهو لم يجردهم جميعًا من الأمانة أو الإيمان ، ومن هذا الإنصاف قوله تعالى :

لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . (آل عمران :١١٣).

ثم يقول سبحانه :

٧٦ - بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . أى بلى عليكم فى الأميين سبيل وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات، فمن أقرضك مالا إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل، أو ائتمنك على شىء وجب عليك الوفاء به وأداء الحق له فى حينه دون حاجة إلى الإلحاف فى الطلب أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحتمت الشريعة.

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبًا لذاته، بل العبرة عندهم بالمعاهدة ، فإن كان إسرائيليا وجب الوفاء له ، ولا يجب الوفاء لغيره.

وقد أمر القرآن بالوفاء بالعهد والأمانة قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود .

- ومدح الله إبراهيم الخليل بقوله : وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى . (النجم : ٣٧).

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » [١٩٠].

وروى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خَصْلَةٌ من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » [١٩١] وفى رواية « ثلاث من كن فيه كان منافقًا خالصًا إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان » [١٩٢].

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

المفردات :

يشتـرون : يستبدلون.

بعهـد الله : بأمر الله المؤكد.

ثمناً قليـلاً : عوضًا قليلا.

لا خلاق لهم : لا نصيب لهم.

ولا يزكيهـم : ولا يطهرهم.

التفسير :

٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِى الآخِرَة ... .

سبب النزول :

ذكرت لهذه الآية أسباب نزول عديدة .

نذكر منها : ما أخرجه أصحاب الكتب الستة وغيرهم ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها حق امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان ».

فقال الأشعث بن قيس : فىَّ والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى ، فقدمته إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم - : ألك بينة ؟ قلت : لا . فقال لليهودى: احلف . فقلت : يا رسول الله إذًا يحلف فيذهب مالى . فأنزل الله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ... . الآية [١٩٣].

وما أخرجه ابن جرير ، عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف، وحيى بن الأخطب : حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، وحكم الأمانات وغيرهما ، وأخذوا على ذلك الرشوة.

والمعنى :

إن الذين يستبدلون بما عاهدهم الله عليه ، من بيان نعت محمد وعدم كتمانه، ويتغاضون عن أيمانهم الكاذبة الفاجرة، بالأثمان القليلة من أعراض الدنيا الزائلة – مهما عظمت – أولئك لا نصيب لهم فى ثواب الآخرة، ولاحظ لهم فى نعيمها.

وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ كلامًا فيه لطف بهم.

وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بعين رحمته تعالى .

وَلا يُزَكِّيهِمْ أى يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة. بل يأمر بهم إلى النار. ولهم عذاب أليم على الكتمان، واستبدالهم عهد الله ، والحلف زورا، واستحلالهم أخذ المقابل على التزوير.

قال القرطبى : وقد دلت هذه الآية والأحاديث على أن حكم الحاكم لا يحل المال فى الباطن بقضاء الظاهر، إذا علم المحكوم له بطلانه .

وفى حديث صحيح عن أم سلمة، قالت : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إنكم تختصمون إلىَّ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار.. فليأخذها أو ليتركها » (١٩٤).

★ ★ ★

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

يلوون ألسنتهم بالكتاب : يميلونها بالكتاب، عدولا به عن الحق تحريفًا أو تأويلاً.

واللى : الميل . يقال : لوى برأسه إذا أماله. والكتاب التوراة والإنجيل.

التفسير :

٧٨ – **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** .

روى الضحاك عن ابن عباس : أن الآية نزلت فى اليهود والنصارى جميعًا . وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل ، وألحقوا بكتاب الله تعالى ، ما ليس منه .

والمعنى :

وإن من أهل الكتاب الخائنين ، جماعة من علمائهم : يحرفون كلام الله ، ويميلون به عن القصد، لتظنوا- أيها المسلمون - حينما تسمعونهم : أن ما حرفوه هو من صميم كتابهم الذى أنزله الله على رسولهم . وما هو - فى الحقيقة - من الكتاب ، بل من كلامهم ويؤكدون نسبته إلى الكتاب بقولهم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ بل من عند أنفسهم . ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بنسبته إليه ، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم عليه - سبحانه- يكذبون، وكما وقع التحريف فى القراءة ، وقع فى تأويل النصوص فى الكتابة .

ولهذا ترى التناقض والتكاذب والتهافت بين نسخها .

فمن يقرأ الأناجيل الأربعة يجد الاختلاف بينها واسع النطاق. وبخاصة : فيما تورده عن صلب المسيح عليه السلام ، وكذلك التوراة.

وأما احتجاج الرسول بقوله : ﴿ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . (آل عمران : ٩٣).

فيحمل على أن رسول الله كان يعلم ببقاء بعض ما يفى بالغرض سالمًا عن التغيير . فإنهم لم يغيروا جميع ما فى التوراة : إما لجهلهم بدلالة ما بقى عى المقصود ، أو لصرف الله إياهم عن تغييره.

★ ★ ★

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

المفردات :

والحكم : أى الحكمة . وهى إصابة الحق .

ربانيين : منسوبين إلى الرب سبحانه . والألف والنون يزادان للمبالغة كثيرًا كلحيانى العظيم اللحية، ورقبانى الغليظ الرقبة. والمراد من الربانى : العالم الفقيه ، الراسخ فى علوم الدين . وقيل : الحكيم التقى.

بعد إذ أنتم مسلمون : منقادون مستعدون للدين الحق .

التفسير :

٧٩ - مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ .

لا يزال الكلام متصلاً مع وفد نجران ، فإنه روى : أن السورة - كلها- إلى قوله : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ... نزلت بسببهم .. ذكره القرطبى .

وروى ابن إسحاق وغيره، عن ابن عباس رضى اللّه عنهما، قال : قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام- أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له : الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد ؟ . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « معاذ اللّه أن نعبد غير اللّه أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثنى ، وما بذلك أمرنى » فأنزل اللّه تعالى الآية (١٩٥).

وأخرج ابن أبى حاتم قال : كان ناس من يهود : يتعبدون الناس - من دون ربهم بتحريفهم كتاب اللّه عن موضعه . فقال : مَا كَانَ لِبَشَرٍ ... الآية .

وأيا كان سبب النزول ، فمعنى الآية : ما صح وما استقام لبشر اصطفاه ربه لتبليغ الرسالة إلى خلقه ، وأعطاه الكتاب الذى يرشد الناس إلى عبادة ربهم ، وأعطاه الحكمة - أى حسن التصرف فى الأمور - وأعطاه النبوة العاصمة من الخطأ، ثم يتنكر لربه الذى اختاره لهداية خلقه فيقول للناس : كونوا عبادًا لى إشراكًا مع اللّه أو إفرادا: متجاوزين توحيد اللّه إلى ما طلبته منكم . ولكن يقول لهم : كونوا علماء عاملين، كاملين فى العلم والعمل ، لأنكم تعلمون الناس الكتاب وتدرسونه ، فأولى بكم أن تتبعوه ولا تحيدوا عنه .

والتعبير بلفظ (ثم) لاستبعاد حصول ذلك القول من الرسول .

وإذا كان لا يصح لبشر آتاه اللّه الكتاب والحكمة والنبوة : أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه فلا يصح له أن يدعوهم إلى عبادة غيره من باب أولى .

وبهذه الآية حصل الرد البليغ من اللّه تعالى على النصارى الذين ألهوا المسيح وعبدوه، وعلى اليهود الذين ألهوا عزيرا وقدسوه، وعلى من زعم أن محمدا - صلى اللّه عليه وسلم - ، يقصد بنبوته : أن يدعو الناس إلى عبادته ، وعلى الأحبار الذين يتعبدون الناس من دون ربهم : بتحريفهم كتاب اللّه عن موضعه لمصلحتهم.

وخلاصة الرد : أن رسل اللّه برآء مما يصنعه أتباعهم . فإنه لا يعقل أن يأمروهم بهذا الكفر. وذلك هو ما يقوله عيسى عليه السلام ، لربه لما يسأله : أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ . ثم قال : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ

أنت عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد . (المائدة : ١١٦ ، ١١٧).

والآية توجب على أهل العلم أن يقرنوه بالعمل، حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها .

٨٠ - **وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا . . .**

ولا يَأْمُرَكُمْ : بالنصب ، معطوف على **يَقُولَ** فى الآية السابقة، داخل معه فى حيز ما لا يجوز على الرسل.

المعنى :

ما كان لبشر آتاه اللّه الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس كونوا عبادا لى من دون اللّه ولا أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا.. أيليق به - وهو رسول اللّه - أن يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مخلصون منقادون لربكم؟

ومن قرأ : **وَلا يَأْمُرُكُمْ** بالرفع ، فعلى الاستئناف .

والمقصود من القراءتين واحد . وهو استحالة حدوث ذلك من الرسول .

وإذا كان سبب النزول وفد نجران . فلا إشكال فى قوله تعالى لهم : « بعد إذ أنتم مسلمون » فإن الإسلام يراد منه حينئذ ، والاستعداد للدين الحق، إرخاء للعنان ومجاراة لهم.

وقيل إن سبب نزول الآيتين ، ما أخرجه عبد بن حُميد عن الحسن قال :

بلغنى أن رجلاً قال : يا رسول اللّه ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ؟ أفلا نسجد لك ؟ قال : « لا . ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون اللّه تعالى »(١٩٦). وعلى هذا ، فالإسلام على ظاهره.

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) ﴾

المفردات :

ميثاق النبيين : الميثاق ، العهد الموثق المؤكد .

لما آتيتكم : اللام موطئة للقسم . وما : بمعنى الذى . كما نقله سيبويه عن الخليل. أى للذى آتيتكموه. وقيل: إن ما شرطية بمعنى إن . وهو الظاهر .

وحكمة : أى نبوة . سميت حكمة، لأنها منبعها .

إصرى : عهدى وميثاقى .

التفسير :

٨١ - وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .

واذكر يا محمد ، لأهل الكتاب ، كيف أخذ الله العهد على النبيين جميعًا : لئن آتيتكم من كتاب تبلغونه لأممكم، وحكمة - أى نبوة ورسالة إليهم - ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتصدقن بأنه مرسل من عندى إلى الناس ، ولتنصرنه بالتبشير به ، وحض أممكم على أن تؤمن به ، إذا بعث إليهم وتنصره، تؤيده فيما جاء به ؟.

قال تعالى لهم بعد أخذ الميثاق عليهم : هل أقررتم بالإيمان به ونصرته وأخذتم على ذلكم عهدى وقبلتموه لتنفذوه وتعملوا به ؟. قالوا : أقررنا ووافقنا. قال الله تعالى : فليشهد بعضكم على بعض بهذا الإقرار ، وأنا معكم من الشاهدين على إقراركم وشهادة بعضكم على بعض .

والمراد من الرسول الذى يجيئهم مصدقا لما معهم : كل رسول يعاصرهم أو يأتى بعدهم فالآية الكريمة، تفيد : أن الله تعالى ، أخذ الميثاق على الأنبياء : أن يصدق بعضهم بعضا ويؤيده ولا يعارضه ، ويوصى باتباعه . فإن دين الجميع واحد . قال صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء بنو علات [١٩٧] أمهاتهم شتى ودينهم واحد »[١٩٨]

وبعموم الرسول ، أخذ سعيد بن جبير وقتادة وطاووس والسدى والحسن . وهو ظاهر الآية . قال طاووس: أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء : أن يؤمن بما جاء به الآخر.

ومن العلماء من قال : المراد من الرسول ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الأرجح ، وبه قال الإمام على رضى الله عنه . فقد أخرج عنه ابن جرير قال : « لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده ، إلا أخذ عليه العهد فى محمد - صلى الله عليه وسلم : لئن بعث - وهو حى - ليؤمنن به ولينصرنه .- ويأمره فيأخذ العهد على قومه ».

وسواء أكانت الآية عامة فى تأييد جميع الرسل بعضهم لبعض، وحث أممهم على اتباعهم ، أم خاصة بتأييدهم لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، ونصرته بحث أممهم على تأييده إن بعث - فالغرض من الاية : أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - وقد أيده الله بالمعجزات المحققة لرسالته وجاء مصدقاً لما مع الأنبياء قبله فهو مؤيد من المرسلين قبله، وأن على أهل الكتاب المعاصرين له : أن يؤمنوا به ، امتثالاً لما جاء عنه فى كتب رسلهم . فإن كتب المرسلين توصى بالإيمان بكل رسول .

والقرآن الكريم جرى على هذا المنهج قال تعالى : قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . (البقرة : ١٣٦) .

٨٢ - فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ :

أى فمن أعرض عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بعد هذا الميثاق والإقرار والشهادة فأولئك هم الخارجون فى الكفر إلى أفحش مراتبه، المستحقون لأشد العقاب.

ولما كان دين الأنبياء واحدًا، ودين محمد هو دين الأنبياء جميعًا - أتبع هذا التهديد قوله :

★ ★ ★

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

المفردات :

أسلم : دان بالإسلام . أو انقاد وخضع .

والأسباط : الأسباط ، الحفدة . والمراد بهم هنا : ذرية يعقوب عليه السلام . فهم حفدة لأبيه إسحاق وجده إبراهيم.

ومن يبتغ : ومن يطلب .

التفسير :

٨٣ – أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُون :

سبب النزول :

ذكرالواحدى فى سبب النزول ، عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : أن أهل الكتابين اختصموا إلى رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – ، فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه . فقال – صلى اللّه عليه وسلم – : « كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم » فغضبوا وقالوا : واللّه ما نرضى بقضائك ، ولا نأخذ بدينك. فأنزل اللّه هذه الآية (١٩٩) .

وعلى أى حال كان سبب النزول ، فالكلام – فى هذه الآية – مع أهل الكتاب الذين استمسكوا بدينهم ، ونازعوا فى الإسلام ، وأعرضوا عنه.

فبعد أن أخبرهم اللّه تعالى أنه أوصى الأنبياء بتأييده ونصرته ، وأنذر من تولى عنه ، ووبخهم على إعراضهم ، وأنكره عليهم – قال ما معناه :

أيتولى هؤلاء عن الإسلام إلى أديانهم المحرفة المنسوخة ، فيبغون بذلك دينا غير دين اللّه : كيف يطلبون غير دينه سبحانه وتعالى ، وقد استسلم وخضع له – من فى السموات والأرض طائعين وكارهين : فمشيئة اللّه نافذة فيهم ، وقدره جار عليهم ، أحبوا ذلك أم كرهوا . فالصحيح مستسلم لقدر اللّه ، محب لما وهبه اللّه من صحة . والعليل منقاد لقدر اللّه بمرضه طوعًا وكرهًا ..

وهكذا كل أقدار اللّه تجرى فى خلقه ، فيخضعون لها ، وإن جرت على غير ما يحبون ويشتهون . فما شاءه اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن .فكيف يتمرد أهل الكتاب على دين هذا الإله القوى الفعال ، ويكفرون به، مع أنهم إليه يرجعون مقهورين ، فيحاسبهم على طغيانهم وكفرهم .

وتحتمل أن يكون المراد به : ما يشمل العقلاء وغيرهم ، ويكون المعنى: ولمشيئته تعالي، خضع وانقاد جميع الكائنات فى السموات والأرض: طائعة أو مسخرة. كما فى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ (الحج : ١٨).

٨٤ - قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ :

لما بيَّن اللّه تعالى : أنه أخذ الميثاق على كل نبى : أن يؤمن بغيره من الأنبياء ، وأنه لا يصح لأهل الكتاب أن يكفروا بدين اللّه الذى أنزله على محمد - وهو ممن أخذ اللّه الميثاق على الإيمان بهم ودينهم - لما بين اللّه هذا كله - أمر نبيه محمدا- صلى اللّه عليه وسلم -، أن يؤمن بمن سبقه من الأنبياء وألا يفرق فى الإيمان بين أحد من رسله ، ليكون فى الإيمان بهم ، كما كانوا فى شأن إخوانهم الأنبياء ، وهو خاتمهم.

المعنى :

قل يا محمد ، معبرًا عن نفسك، وعن المؤمنين : آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا من القرآن العظيم آمنا باللّه وما أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأنبياء من أبنائه وَالأَسْبَاطِ من كتب وما أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ من التوراة والإنجيل ، وما أعطى سائر الأنبياء من ربهم من مختلف الكتب : لا نُفَرِّقُ بينهم، فلا نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض كما فعل اليهود إذ كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد - صلى اللّه عليه وسلم ، ونحن له منقادون : نطيعه فيما أمرنا به ، وننتهى عما نهانا عنه.

٨٥ - وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

ومن يطلب دينا غير دين الإسلام يتدين به : عقيدة وعملاً ، فلن يقبله اللّه منه ، لأنه غير ما شرعه اللّه لخلقه . وإذا كان اللّه لا يقبل دينا غير الإسلام - فكل من دان بغيره ، يكون فى الآخرة من الخاسرين ، لأنه محروم الثواب ، خالد فى العقاب.

روى أحمد فى مسنده عن النبى صلى اللّه عليه وسلم : « والذى نفسى بيده، لو أصبح فيكم موسى بن عمران ، ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم »[٢٠٠] .

وروى أبو يعلى ، والبزار ، وأورده ابن كثير : « لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا اتباعى » وفى رواية : « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى ».

★ ★ ★

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

المفردات :

لعنة الله : أى الطرد من رحمته.

ولا هم ينظرون : أى ولا هم يمهلون. فعذابهم مستمر. أو لا ينظر إليهم، ولا يعتد بهم.

التفسير :

٨٦ - **كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِين .**

سبب النزول :

أخرج عبد بن حُميد وغيره، عن الحسن : أنهم - أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - فى كتابهم وأقروا وشهدوا أنه حق. فلما بعث من غيرهم، حسدوا العرب على ذلك فأنكروا. وكفروا بعد إقرارهم.

المعنى :

أى سبيل لأن يهدى الله قومًا كفروا بمحمد ، بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ، امتثالاً لما جاء فى كتبهم، وعلموا أن الرسول محمد حق حينما رأوه بعد مبعثه - مطابقًا لما جاء عنه فى كتبهم ، وجاءتهم الآيات الواضحات والمعجزات الشاهدات بصدقه : والله لا يهدى القوم الظالمين لأنفسهم بكفرهم، ما داموا مصرين على عنادهم وحسدهم للرسول ، على ما آتاه الله من فضله.

٨٧ ، ٨٨ - **أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُون .**

بعد أن بين الله شناعة الكفر بعد الإيمان ، ووضح أن شريعة الرسول حق بما أيده الله به من الآيات، أتبعه عقاب أولئك الكافرين. وذكر أن : أولئك الذين كفروا - بعد ما جاء هم الرسول مؤيدا بالآيات والمعجزات بعد ما عقدوا العزم على الإيمان به حين يبعث - يلعنهم الله - ويطردهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة، وتطلب لهم الطرد من رحمة الله ، ويلعنهم الناس أجمعون ، من أهل الإيمان أتباع الحق، خالدين فى اللعنة - أو فى جهنم - التى هى مقر الملعونين : لا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم يمهلون بأن يؤخر عنهم العذاب من وقت لآخر ، بل العذاب موصول مستمر.

ويجوز أن يكون معنى : وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ولا ينظر الله إليهم نظر رحمة، لا يعتد بهم . فهم مهملون متروكون فى عذابهم.

وهذه الآية وما قبلها وما بعدها إلى قوله تعالى : وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ - وإن نزلت فى أهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد مبعثه، مع أنهم كانوا مجمعين على الإيمان به حين يبعث- لكنها عامة الحكم فى كل من يكفر بعد الإيمان ، فتشمل المرتدين بعد الإسلام.

٨٩ - إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

يعنى : أى من تابوا من بعد كفرهم، وأصلحوا ما أفسدوه بالندم والإقبال على الطاعة بعد الإدبار عنها فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ، لأن الله عظيم الغفران، بليغ الرحمة، وذلك من عظيم كرمه، ووافر رحمته.

وقيل : معنى أصلحوا : دخلوا فى الصلاح . كما يقال : أصبحوا : دخلوا فى الصباح، وعلى هذا يكون الفعل لازمًا غير متعد، بخلافه على المعنى السابق فهو متعد.

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

المفردات :

وأولئك هم الضالون : الذين أخطأوا طريق النجاة.

ولو افتدى به : معطوف على شرط مقدر يقتضيه المقام. والتقدير : لو أنفقه فيما يراه خيرا فى الدنيا ولو افتدى به فى الآخرة.

لن تنالوا : لن تصيبوا ولن تدركوا.

البر : الخير والإحسان .

مما تحبون : بعض ما تحبون فلا ينفقونه كله.

التفسير :

٩٠ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ .

تمهيد :

علم اليهود بنبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – قبل أن يبعث وذلك من خلال بشارات الأنبياء به ، فلما بعثه الله رسولاً نبيا من نسل إسماعيل جحدوا نبوته حقدا وحسدا.

قال الشيخ محمد عبده :

كان اليهود يعرفون بشارات الأنبياء بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ، وكانوا عازمين على اتباعه إذا جاء فى زمنهم ، وانطبقت عليه العلامات ، وظهرت فيه البشارات ، ثم أنهم كفروا به وعاندوه، بعد مجيئه بالبينات لهم، وظهرت الآيات على يديه ، والله لا يهدى أمثال هؤلاء الضالين (٢٠١) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وشهادتهم أن الرسول حق ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا بمقاومة الحق وإيذاء الرسول والصد عن سبيل الله بالكيد والتشكيك ، وبالحرب والكفاح، وبالتمادى فى الكفر والمعاصى.

لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ : لأن الشر قد تغلغل فى نفوسهم وتمكن فيها الكفر فإذا أرادت التوبة وجدت من الموانع ما يحول بينها وبين قبول الحق والحير .

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ عن طريق الحق ، المخطئون سبيل النجاة.

قال الحافظ أبو بكر البزار عن عكرمة عن ابن عباس : أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنزلت هذه الآية:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ (٢٠٢).

وقد اختار الطبرى رأى قتادة وعطاء والحسن فى أن هذه الآية نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفرًا بمحمد والقرآن وبالذنوب التى اكتسبوها.

وقال أبو العالية : نزلت فى اليهود والنصارى ، كفروا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – بعد إيمانهم بنعته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم

وعلماء القرآن يذكرون أن سبب نزول الآية قد يتعدد، ويعبر عنه بتعدد السبب والنازل واحد.

وسواء أكان سبب النزول اليهود وحدهم، أو اليهود والنصارى، أو تكرر الردة من بعض الناس، فإن الآية بعمومها تشمل كل من يكفر بعد إيمان ، فيدخل فى حكمها من ارتد عن الإسلام.

وظاهر الآيات يخالف ما صرح به القرآن فى غير موضع كقوله سبحانه وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ . (الشورى : ٢٥) . والجواب أن التوبة لمن أناب إلى الله ورجع إليه صادقًا فى حياته وهو متمتع بصحته وقوته.

أما الذين يصرون على الكفر، ويزدادون كفرًا، والذين يلجون فى هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة وينتهى أمد الاختيار ويأتى دور الجزاء، هؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة.

قال تعالى : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . (النساء : ١٧-١٨).

وروى أحمد والترمذى وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٢٠٣).

من تفسير القاسمى :

« وقد أشكل على كثير من المفسرين قوله تعالى لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ مع أن التوبة مقبولة عند الجمهور ، فأجابوا بأن المراد عند حضور الموت.

قال الواحدى : فى الوجيز: لن تقبل توبتهم لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت وتلك التوبة لا تقبل .

وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أى لا يتوبون ، وقيل لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقا، لارتدادهم وازديادهم كفرا . وبقى للمفسرين وجوه أخرى هى فى التأويل أبعد مما ذكر .

ولا أرى هذه الآية إلا كآية النساء :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا. (النساء : ١٣٧)

وكلتاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت ردته لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحاق وأحمد ، وذلك لرسوخه فى الكفر.

وقد أشار القاشانى إلى أن هذه الآية مع التى قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان :

قسم رسخت هيئة استيلاء النفوس الأمارة على قلوبهم فيهم وتمكنت، وتناهوا فى الغى والاستشراء ، وتمادوا فى البعد والعناد حتى صار ذلك ملكة لا تزول.

وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصر على قلوبهم رينا، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا فأشار إلى القسم الأول بقوله ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ إلى آخره ، وإلى الثانى بقوله إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا - انتهى (٢٠٤).

٩١ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ

تشير هذه الآية إلى مشهد من مشاهد القيامة حيث يرى الكافر ما أعد له من العذاب الشديد فيتمنى أن يفتدى نفسه من النار بملء الأرض ذهبًا ، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (المائدة : ٣٦).

وروى الشيخان والإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديًا؟ قال : فيقول: نعم ، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم ألا تشرك بى شيئًا فأبيت إلا أن تشرك » (٢٠٥).

وقدر الزمخشرى الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا .. ا هـ . فإذا رفضت الفدية فى هذه الحالة كان تنبيها على أن ثم أحوالا أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة.

وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم.

ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى فى يدى هذه (٢٠٦).

وقال ابن كثير : من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قربة.

كما سئل النبى – صلى الله عليه وسلم – عن عبد الله بن جدعان – وكان يقرى الضيف ويفك العاني، ويطعم الطعام – هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا إنه لم يقل يومًا من الدهر : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين»(٢٠٧).

وفى ختام الآية نجد هذا الوعيد .

أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ أولئك المصرون على الكفر حتى ماتوا ، لهم عذاب شديد الإيلام «وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ يدفعون العذاب عنهم أو يخففونه كما كانوا ينصرونهم فى الدنيا إذا حاول أحد أذاهم أو إيقاع المكروه بهم.

٩٢ – لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

فى هذه الآية استئناف خطاب للمؤمنين سيق لبيان ما ينفعهم ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم ، أى لن تبلغوا حقيقة البر ، وتلحقوا بزمرة الأبرار بناء على أن تعريف البر للجنس ، أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى وهو ثوابه وجنته إذا كان للعهد . حتى تنفقوا فى سبيل الله تعالى مما تحبون ، أى تهوونه ويعجبكم من كرائم أموالكم . وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .. أى شىء تنفقونه فى سبيل الله طيباً أو خبيثاً فالله مجازيكم به بحسب ما يعلم من نيتكم ، ومن موقع ذلك فى قلوبكم، فرُب منفق مما يحب لا يسلم من الرياء ، ورب فقير معدم لا يجد ما يحب فينفق منه ، ولكن قلبه يفيض بالبر ، ولو وجد ما أحبه لأنفقه أو أكثره.

وفى الآية حث على إنفاق الجيد، وإخلاص النية ، وابتغاء وجه الله والدار الآخرة.

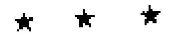
وقريب من هذه الآية قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ . (البقرة: ٢٦٧).

وروى الشيخان عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، موضع ، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس : فلما أنزلت هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالى إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله . فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « بخ بخ . ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت . وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين ». قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه [٢٠٨].

وفى الصحيحين أن عمر قال : يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندى من سهمى الذى هو بخيبر ، فما تأمرنى به قال : « احبس الأصل وأسبل الثمرة » [٢٠٩].

وروى الحافظ أبو بكر البزار أن عبد الله بن عمر قال : حضرتنى هذه الآية ، ذكرت ما أعطانى الله ، فلم أجد شيئًا أحب إلى من جارية لى رومية ، فقلت: هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله، لنكحتها، يعنى تزوجتها، فأنكحتها نافعًا (مولى كان يحبه كأحد أولاده).

وآثار السلف فى الإيثار وبذل المال ابتغاء مرضاة الله كثيرة ...



وسلام على المرسلين ... والحمد لله رب العالمين

تم تفسير **الجزء الثالث** ، ويليه تفسير **الجزء الرابع** إن شاء الله تعالى

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم

(الجـــزء الثالث)

خـــرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس ٦ .

رواه البخارى فى بدء الوحى (٢) وفى بدء الخلق (٣٢١٥) ومسلم فى الفضائل (٢٣٣٣) والترمذى فى المناقب (٣٦٣٤) والنسائى فى الافتتاح (٩٣٣ ، ٩٤٣) وأحمد (٢٤٧٢٤ ، ٢٥٦٦٦) و مالك فى الموطأ (٤٧٤) من حديث عائشة. وانظر كتاب "علوم الدين الإسلامى" للدكتور عبد الله شحاتة، وفى أوله موضوع (الوحى والقرآن).

(٢) انظر العقائد النسفية وشرحها للسعد : ص ٤٤٦ ، وقد ورد ذكر (١٨) ثمانية عشر نبيا فى سورة الانعام المكية ليذكر الله المشركين أن إرسال الرسل سنة الله فى خلقه، وهى نعمة الله على عباده، قال تعالى: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام ٨٣ - ٨٨) .

(٣) لا تفضلوا بين أنبياء الله ٧ .

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٥) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٣) من حديث أبى هريرة بلفظ : بينما يهودى يعرض سلعته أعطى بها شيئًا كرهه فقال لا والذى اصطفى موسى على البشر... فقال لم لطمت وجهه فذكره فغضب النبى ﷺ حتى رئى فى وجهه ثم قال لا تفضلوا بين أنبياء الله .. الحديث .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى جـ ١ صفحة ٢٧٧ .

(٥) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٩٧ .

(٦) أنا سيد ولد آدم ولا فخر ٩

رواه مسلم فى الفضائل (٢٢٨٧) وأبو داود فى السنة (٤٦٧٣) وأحمد (١٠٥٨٩) من حديث أبى هريرة. رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٤٨) وفى المناقب (٣٦١٥) وابن ماجه فى الزهد (٤٣٠٨) وأحمد (١٠٦٠٤) من حديث أبى سعيد. ورواه أحمد (٢٥٤٢ ، ٢٦٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

(٧) فى ظلال القرآن جـ ١ صفحة ٢٨٢ .

(٨) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٨ .

(٩) وانظر يا أخى إلى الحرب التى تثور بين هذا القطر وذلك من أقطار المسلمين وتراق فيها الدماء بسبب تحكم الأهواء ، مع قول النبى الأمين «إذا التقى المؤمنان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار».

(١٠) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٨ ـ ١٣ .

(١١) أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى ١٢ .

رواه البخارى فى التيمم (٣٣٥) وفى الصلاة (٤٣٨) ومسلم فى المساجد (٥٢١ ، ٥٢٣) والنسائى فى الغسل (٤٣٢) وفى المساجد (٧٣٦) والدارمى فى الصلاة (١٣٨٩) وأحمد (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم فى المساجد (٥٢٣) والترمذى فى السير (١٥٥٣) وابن ماجه فى الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥ ، ٧٣٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبى هريرة . ورواه أبو داود فى الصلاة (٤٨٩) والدارمى فى السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبى ذر ورواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس. ورواه أحمد (٧٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٢٣٦) من حديث أبى موسى رضي الله عنه .

(١٢) لكل شئ سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة ١٣ .

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٢٨٧٨) من حديث أبى هريرة . قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم شعبة فى حكيم بن جبير وضعفه . قلت : وذكره السيوطى فى الدر وزاد نسبته لسعيد بن منصور ومحمد بن نصر وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب .

(١٣) تفسير القرطبى جـ ١ صفحة ١٠٢ .

(١٤) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٢١ .

(١٥) تفسير الألوسى جـ ٣ صفحة ٩ .

(١٦) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٤٢٨ بتلخيص .

(١٧) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٠٢ .

(١٨) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٧٦ .

(١٩) أى آية فى كتاب الله أعظم .. ليهنك العلم أبا المنذر ١٦ .

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٨١٠) وأبو داود فى الصلاة (١٤٦٠) ، وأحمد (٢٠٧٧١) من حديث أبى بن كعب رضي الله عنه .

(٢٠) إن أعظم آية فى القرآن آية الكرسى ١٦ .

يشير إلى حديث أبى بن كعب المتقدم .

(٢١) أعظم آية فى القرآن ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ١٦ .

ذكره السيوطى فى الدر وقال : وأخرج ابن مردويه والشيرازى فى الألقاب والهروى فى فضائله .

(٢٢) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٨٠ .

(٢٣) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣١١ .

(٢٤) تفسير الفخر الرازى .

(٢٥) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٩٠ .

(٢٦) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣١٤ .

(٢٧) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٩٧ .

(٢٨) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٠٨ .

(٢٩) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ٤٤ .

(٣٠) بارك الله لك فيما أمسكت ٢٨ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة . قال الهيثمى فى المجمع : رواه البزار من طريقين إحداهما متصلة عن أبى هريرة والأخرى عن أبى سلمة مرسلة ، قال ولم نسمع أحدا أسنده من حديث عمر بن أبى سلمة إلا طالوت بن عباد ، وفيه عمر بن أبى سلمة وثقه العجلى وأبو حيثمة وابن حبان وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجالهما ثقات .

(٣١) رضيت عن عثمان فارض ٢٨ .

ذكره الهندى فى الكنز (٣٢٨٤١) ونسبه لأبى نعيم وابن عساكر . عن أبى سعيد رضي الله عنه .

(٣٢) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣١٦ .

(٣٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ٤٩ .

(٣٤) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣١١ .

(٣٥) حاشية تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣١١ للشيخ أحمد بن المنير .

(٣٦) الكلمة الطيبة صدقة ٣١ .

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٨٩) ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) وأحمد (٨٠٥٩ ، ٢٧٣٠٠ ، ٢٧٤٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣٧) تفسير القرطبي جـ ٣ صفحة ٣٠٩ .

(٣٨) تفسير الفخر الرازي جـ ٧ صفحة ٤٩ .

(٣٩) ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ٣٤ .

رواه مسلم في الإيمان (١٠٦) والنسائي في الزكاة (٢٥٦٣ ، ٢٥٦٤) وفي البيوع (٤٤٥٨) وفي الزينة (٥٣٣٣) وأبو داود في البيوع (٤٠٨٧) وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٨ ، ٢٠٨١١ ، ٢٠٨٩٥ ، ٢٠٨٩٩ ، ٢٠٩٢٥ ، ٢٠٩٧٠ ، ٢١٠٢٤) والدارمي في البيوع (٢٦٠٩) من حديث أبي ذر . ورواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٩) وفي الشهادات (٢٦٧٢) وفي الأحكام (٧٢١٢) وفي التوحيد (٧٤٤٦) ومسلم في الإيمان (١٠٧) والترمذي في السير (١٥٩٥) والنسائي في الزكاة (٢٥٧٥) وفي البيوع (٤٤٦٢) وأبو داود في البيوع (٣٤٧٤) وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٧) وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٠) (٧٣٩٣ ، ٩٨٦٦ ، ٩٨٦٧) من حديث أبي هريرة بلفظ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم ورجل منع فضل ماء فيقول الله اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك .

(٤٠) لا يدخل الجنة مدمن خمر ٣٤ .

قال السيوطي في الدر : وأخرج الطبراني وابن مردويه فذكره من حديث ابن عباس . والحديث بهذا النحو روى عن غيره من الصحابة فرواه والنسائي في الأشربة (٥٦٧٢) وأحمد (٦٥٠١ ، ٦٨٤٢) والدارمي في الأشربة (٢٠٩٣ ، ٢٠٩٤) من حديث عبد الله بن عمرو . ورواه أحمد (١٠٨٨٣ ، ١١٣٧٢) أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣١٣ .

(٤٢) تفسير القرطبي جـ ٢ صفحة ٢١٨ .

(٤٣) ورد في تفسير ابن جرير عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، وورد في تفسير ابن كثير . وفي مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني جـ ١ صفحة ٢٤٠ . وانظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، الحزب الخامس صفحة ٤٦٠ وفيه أيضاً الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٤٤) ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ٣٨ .

رواه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم في الزكاة (١٠١٠) وأحمد (٧٩٩٢) من حديث أبي هريرة. ورواه أحمد (٢١٢١٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٤٥) لا حسد إلا في اثنتين ٣٨ .

رواه البخاري في العلم (٧٣) ، وفي الزكاة (١٤٠٩) ، وفي الأحكام (٧١٤١) وفي الاعتصام (٧٣١٦) ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨) وأحمد (٤٠٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود ورواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٦) وأحمد (٩٨٥٧) من حديث أبي هريرة ، رواه البخاري في التوحيد (٧٥٢٩) مسلم في صلاة المسافرين (٨١٥) والترمذي في البر والصلة (١٩٣٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٩) وأحمد (٤٥٢٦ ، ٦٣٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(٤٦) التفسير الوسيط للقرآن الكريم : تفسير سورتي الفاتحة والبقرة للدكتور محمد سيد طنطاوي جامعة بنغازي ، صفحة ٧٦٩ .

(٤٧) سبعة يظلهم الله في ظله ٤٠ .

رواه البخاري في الأذان (٦٦٠) وفي الزكاة (١٤٢٣) وفي الرقاق (٦٤٧٩) وفي الحدود (٦٨٠٨) ومسلم في الزكاة (١٠٣١) ، والترمذي في الزهد (٢٣٩١) والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠) وأحمد (٩٣٧٣) ومالك في الجامع (١٧٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤٨) صدقة السر تطفئ غضب الرب ٤٠

رواه الترمذي في الزكاة باب ما جاء في فضل الصدقة (٦٥٨) وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه . قال العراقي في تخريج الإحياء أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد كلاهما ضعيف . ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف جدًا .

(٤٩) روى ذلك ابن جرير الطبري في تفسير الآية ، ونقله ابن كثير عنه في تفسير هذه الآية .

(٥٠) لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم ٤١ .

قال السيوطي في الدر : وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال رسول الله ﷺ لا تصدقوا إلا على أهل دينكم . فأنزل الله ﴿ليس عليك هداهم﴾ إلى قوله ﴿وما تفعلوا من خير يوف إليكم﴾ فقال رسول الله ﷺ : تصدقوا على أهل الأديان وقال : وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم﴾ إلى آخرها . فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

(٥١) أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم ٤١ .

قال في المجمع : كتاب الإيمان باب منه : وعن رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أيلج ؟ فقال ﷺ لخادمه : اخرجي إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولي له فليقل السلام عليكم أأدخل ؟ قال : سمعته يقول ذلك فقلت السلام عليكم أأدخل ؟ قال : فأذن أو قال فدخلت فقلت : بما أتيتنا؟ قال : لم آتكم إلا بخير أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له قال شعبة أحسبه قال وحده لا شريك له وأن تدعوا اللات والعزى وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات وأن تصوموا من السنة شهرًا وأن تحجوا البيت وأن تأخذوا من أموال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم قال فقال : هل بقي من العلم شئ لا تعلمه قال : قد علم الله عز وجل خيرًا كثيرًا وإن من الغيب ما لا يعلمه إلا الله عز وجل الخمس ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ قلت عند أبي داود طرف منه . وقد رواه أحمد ورجاله كلهم ثقات أئمة .

(٥٢) تفسير الألوسي جـ ٢ صفحة ٤٥ بتصرف وتلخيص .

(٥٣) تفسير الفخر الرازي جـ ٧ صفحة ٨٣ .

(٥٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ صفحة ٢٢٥ ، بتصرف يسير .

(٥٥) الصفة . بضم الصّاد وتشديد الفاء ، اسم الموضع بناه النبي - صلى الله عليه وسلم - في المسجد النبوي بالمدينة ليأوي إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة لإعلاء كلمة الله .

(٥٦) تفسير القرطبي جـ ٣ صفحة ٣٣٩ .

(٥٧) تفسير الفخر الرازي جـ ٧ صفحة ٨٦ .

(٥٨) اتقوا فراسة المؤمن ٤٥

الترمذي في التفسير (٣١٢٧) وقال : "حديث غريب" .

(٥٩) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣١٨ .

(٦٠) تفسير الفخر الرازي جـ ٧ صفحة ٨٧ .

(٦١) ليس المسكين الذي ترده اللقمة ٤٥ .

البخاري في الزكاة (١٤٧٦) ومسلم فيها (٣٩-١) والنسائي فيها (٢٥٧١) والدارمي فيها ٣٧٩/١ والموطأ في صفة النبي ﷺ ٩٢٢/٢ وأحمد ٣١٦/٢ عن أبي هريرة.

(٦٢) لا تزال المسألة بأحدكم ٤٥ .

مسلم في الزكاة (١٠٤٠) ، وأحمد ١٥/٢ ، ٨٨ . كلاهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٦٣) الا تبايعون رسول الله ... أن تعبدوا الله ٤٥ .

رواه مسلم فى الزكاة باب كراهة المسألة للناس (١٠٤٣) وأبو داود فى الزكاة باب كراهية المسألة (١٦٤٢) والنسائى فى الصلاة باب البيعة على الصلوات الخمس، وابن ماجه فى الجهاد باب البيعة (٢٨٦٧) من حديث عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه .

(٦٤) ما حملك على هذا ... لك ذلك ٤٦ .

ذكره القرطبى فى "الجامع" وقال : وروى عن ابن عباس أنه قال : نزلت فى على بن أبى طالب .. فذكره .

(٦٥) إياك والذنوب التى لا تغفر ٤٨ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج الطبرانى عن عوف بن مالك .. فذكره .

(٦٦) تفسير الألوسى صفحة ٤٩ .

(٦٧) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ٩٦ .

(٦٨) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ١ صفحة ٣٢ .

(٦٩) اللهم إنى أعوذ بك من التردى ٤٩ .

رواه أبو داود فى الصلاة (١٥٥٢) وأحمد (١٥٠٩٧) النسائى فى الاستعاذة (٥٥٣١ ، ٥٥٣٣) من حديث أبى اليسر رضي الله عنه .

(٧٠) الإنصاف على الكشاف لابن المنير جـ ١ صفحة ٣٢٠ من الكشاف .

(٧١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٢١ .

(٧٢) تفسير الألوسى جـ ٣ صفحة ٥٠ .

(٧٣) كل ربا فى الجاهلية موضوع ٥٠ .

رواه مسلم فى الحج فى أثناء حديث طويل فى صفة حجه ﷺ (١٢١٨) والترمذى فى الحج (٨٥٦) رواه فى مناسك الحج (٢٩٣٩) وأبو داود فى المناسك (١٩٠٥) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٧٤) وأحمد (١٤٢٥١) والدارمى فى المناسك (١٨٥٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٧٤) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣٢٧ .

(٧٥) إن الله تعالى يقبل الصدقات ٥٢ .

البخارى فى الزكاة (١٤١٠) وفى التوحيد (٧٤٣٠) ، ومسلم فى الزكاة (١٠١٤) ، وأحمد ٢/٣٣١ ، ٤١٩ ، كلهم عن أبى هريرة . ولفظه : من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب . ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يأخذها بيمينه فيُربيها .

(٧٦) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣٣٠ ، بتصرف يسير .

(٧٧) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ١٠٦ .

(٧٨) من نفس عن غريمه أو محا عنه ٥٥ .

رواه أحمد (٢٢٠٥٣ ، ٢٢١١٧) والدارمى فى البيوع (٢٥٨٩) من حديث أبى قتادة رضي الله عنه .

(٧٩) من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر ٥٥ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج الطبرانى عن أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه » قال الهندى فى الكنز (١٥٤١٨) : عن عاصم بن عبيد الله بن أسعد بن زرارة، وهو منقطع وهذا يدخل فيمن أسند عنه من الصحابة الذين ماتوا فى حياة النبى ﷺ لأن أسعد بن زرارة مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، قال البغوى : بلغنى أنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة وأول ميت صلى عليه النبى ﷺ ودفن بالبقيع وذلك قبل بدر قال الهيثمى فى المجمع : رواه الطبرانى فى الكبير من طريق عاصم بن عبيد الله عن أسعد ، وعاصم ضعيف ولم يدرك أسعد بن زرارة .

(٨٠) من أراد أن تستجاب دعوته ٥٥ .

رواه أحمد (٤٧٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٨١) تفسير الألوسي جـ ٣ صفحة ٥٤ .

(٨٢) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبي جـ ٣ صفحة ٣٤٧ ، وتفسير المنار جـ ٣ صفحة ١٠٦ .

(٨٣) إنما الربا في النسيئة ٥٦ .

البخاري في البيوع (٢١٧٨ ، ٢١٧٩) ومسلم في المساقاة (١٥٩٦) والنسائي في البيوع (٤٥٩٤) وابن ماجه في التجارات (٢٢٥٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٨٤) الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل ٥٦ .

رواه مسلم في المساقاة (١٥٨٧) وأبو داود في البيوع (٣٣٤٩) . كلاهما عن عبادة بن الصامت .

(٨٥) الذهب بالذهب والفضة بالفضة ٥٦ .

رواه البخاري في البيوع (٢١٧٠) ومسلم في المساقاة (١٥٨٦) وأبو داود في البيوع (٣٣٤٨) والترمذي في البيوع (١٢٤٣) وقال :- هذا حديث حسن صحيح ، والنسائي في البيوع (٤٥٥٨) وابن ماجه في التجارات (٢٢٥٣) والدارمي في البيوع ٢/٢٥٨ . كلهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٨٦) تفسير آيات الأحكام بتصرف وتلخيص . للشيخ محمد علي السايس جـ ١ صفحة ١٦٤ .

(٨٧) اجتنبوا السبع الموبقات ٥٦ .

رواه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧ ، ومسلم في الإيمان ح ٨٩ ، والنسائي في الوصايا ح ٣٦٧١ ، وأبو داود في الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٨٨) لعن رسول الله آكل الربا ٥٦ .

رواه مسلم في المساقاة (١٥٩٨) من حديث جابر بن عبد الله . ورواه مسلم في المساقاة (١٥٩٧) عن عبد الله قال لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله قال قلت وكاتبه وشاهديه قال إنما نحدث بما سمعنا، وأبو داود في البيوع (٣٣٣٣) والنسائي في الطلاق (٣٤١٦) وابن ماجه في التجارات (٢٢٧٧) وأحمد (٣٧١٧ ، ٣٧٢٩ ، ٣٧٩٩ ، ٣٨٧١ ، ٤٠٧٩ ، ٤٢٧١ ، ٤٢٧٢ ، ٤٣١٥ ، ٤٣٨٩) والترمذي في البيوع (١٢٠٦) وقال : حديث عبد الله حديث حسن صحيح . ورواه النسائي في الزينة (٥١٠٣) ، وأحمد (٦٣٦ ، ٨٤٦ ، ٩٨٣ ، ١٢٩١ ، ١٣٦٨) من حديث علي . ورواه البخاري في البيوع (٢٠٨٦ ، ٢٢٣٨) ، وفي الطلاق (٥٣٤٧) وفي اللباس (٥٩٤٥ ، ٥٩٦٢) عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال لعن النبي ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله ونهى عن ثمن الكلب وكسب البغي ولعن المصورين . قلت : لفظه : وكاتبه وشاهديه فيه نظر ، والصحيح مع الحديث هو : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله .

(٨٩) من أسلف فليسلف في كيل معلوم ٥٧

البخاري في السلم (٢٢٤٠) ومسلم في المساقاة (١٦٠٤) وأبو داود في البيوع (٣٤٦٣) . كلهم عن ابن عباس .

(٩٠) تفسير القرطبي جـ ٣ صفحة ٣٧٧ .

(٩١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٢٠ .

(٩٢) تعين صانعًا وتصنع لأخرق ، الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله ٦٠ .

رواه مسلم في الإيمان (١٣٦) عن أبي ذر : قال : قلت : يا رسول الله ! أي الأعمال أفضل؟ قال : "الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله" قال قلت : أي الرقاب أفضل؟ قال : "أنفسها عند أهلها ، وأكثرها ثمنًا" قال قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : "تعين صانعًا أو تصنع لأخرق" قال قلت : يا رسول الله ! أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل ؟ قال : "تكف شرك عن الناس ، فإنها صدقة منك على نفسك" .

(٩٣) من كتم علمًا يعلمه ٥٩ .

رواه أبو داود فى العلم (٣٦٥٨) والترمذى فى العلم (٢٦٤٩) وابن ماجه فى المقدمة (٢٦٦) وأحمد (١٠١٠٩ . ١٠٢١٩) من حديث أبى هريرة ، ورواه ابن ماجه فى المقدمة (٢٦٤) من حديث أنس . ورواه ابن ماجه أيضًا فى المقدمة (٢٦٥) من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه .

(٩٤) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٨٥ .

(٩٥) تفسير الألوسى جـ ٣ صفحة ٥٧ .

(٩٦) تفسير القرطبى جـ ٢ صفحة ٣٩٧ .

(٩٧) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٧٧ .

(٩٨) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٤٠٧ .

(٩٩) رهن درعه عند يهودى ٦٤ .

رواه البخارى فى البيوع (٢٢٠٠) وفى الرهن (٢٥٠٩) من حديث عائشة . ورواه البخارى فى الرهن (٢٥٠٨) وابن ماجه فى الأحكام (٢٤٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

(١٠٠) تفسير النسفى جـ ١ صفحة ١٤٢ .

(١٠١) ألا إن فى الجسد مضغة ٦٥ .

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠ ، ومسلم فى المساقاة ح ٢٩٩٦ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٣٩٧٤ ، والدارمى فى البيوع ح ٢٤١٩ .

(١٠٢) إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست ٦٦ .

رواه البخارى فى الأيمان والندور (٦٦٦٤) ، ومسلم فى الأيمان (١٢٧) ، كلاهما عن أبى هريرة .

(١٠٣) إن الله كتب الحسنات والسيئات ٦٦ .

رواه البخارى فى الرقاق ح ٦٠١٠ومسلم فى الإيمان ح ١٨٧ ، وأحمد ح ٢٦٨٤ ، ٣٢٢٨ ، من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

(١٠٤) وقد وجدتموه ... ذاك صريح الايمان ٦٦ .

رواه مسلم فى الإيمان (١٣٢) من حديث ابن مسعود . وأحمد ٢٣٥/١ وأبو داود فى الأدب (٥١١٢) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

(١٠٥) يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه ٦٦ .

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥١٤) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٨) ، وابن ماجه فى المقدمة (١٨٣)، كلهم عن ابن عمر رضي الله عنه .

(١٠٦) تفسير الألوسى ٦٤/٣ .

(١٠٧) يراجع فى هذا الموضوع كتاب الإنسان بين المادية والإسلام وكتاب معركة التقاليد لمحمد قطب .

(١٠٨) ظلال القرآن بقلم سيد قطب المجلد الأول ، طبعة دار الشروق . جـ ١ ص ٣٣٨ .

(١٠٩) نقلاً عن تفسير القاسمى جـ ٣ صفحة ٧٢٨ .

(١١٠) يسروا ولا تعسروا ٦٩ .

رواه البخارى فى الأدب (٦١٢٤) ومسلم فى الأشربة (١٧٣٣) البخارى فى المغازى (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢) عن أبى بردة ، والدارمى فى المقدمة ٧٣/١ عن ابن عمر بنحوه .

(١١١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٣١٢ .

(١١٢) من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ٧١ .

رواه البخاري في المغازي (٤٠٠٨) وفي فضائل القرآن (٥٠١٠ ، ٥٠٤٠ ، ٥٠٥١) ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٧ ، ٨٠٨) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٨١) وأبو داود في الصلاة (١٣٩٧) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٨ ، ١٣٦٩) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

(١١٣) لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر ٧١ .

رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٠) ، والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٧) وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأحمد ٢/٢٨٤ ، ٣٣٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ثلاثتهم عن أبي هريرة .

(١١٤) لكل شئ سنام ، وإن سنام القرآن ٧١ .

تقدم صفحة ٦٣ .

(١١٥) انظر تفسير القاسمي : ١/٧٣٣ .

(١١٦) إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور ٨٠ .

رواه ابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٦) عن القاسم : قال : اسمُ الله الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، في سور ثلاث : البقرة وآل عمران وطه .. وقال السيوطي في الدر : وأخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء والطبراني وابن مردويه والهروي في فضائله والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي أمامة يرفعه قال : اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور : سورة البقرة ، وآل عمران ، وطه . قال أبو أمامة : فالتمستها فوجدت في البقرة في آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي آل عمران ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ (آل عمران الآية ٢) وفي طه ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ (طه الآية ١١١) . وقال أيضًا : وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ الم ﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿طس﴾ قال : هي اسم الله الأعظم . وقال أيضًا : وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي وابن ماجه وابن جرير ، عن فاطمة بنت علي قالت : كان ابن عباس يقول في ﴿كهيعص﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿يس﴾ وأشباه هذا ، هو اسم الله الأعظم . قال المناوي في فيض القدير : وقد اختلف في الاسم الأعظم على نحو أربعين قولاً أفردها المتصف وغيره بالتأليف ، قال ابن حجر وأرجحها من حيث السند الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

(١١٧) تفسير القاسمي جـ ٤ صفحة ٧٤٩ .

(١١٨) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الأزهر الحزب الخامس صفحة ٥١٢ .

(١١٩) هي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية .

(١٢٠) هي إنجيل متى وإنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا .

(١٢١) أبو الأعلى المودودي تفهم القرآن الجزء الأول من الفاتحة إلى آل عمران تعريب أحمد إدريس ٢٠٦ .

(١٢٢) قال أبو السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى سنة ٩٥١هـ في تفسيره ج ٢ صفحة ٦ ما يأتي :

(والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وكلمة في متعلقة بمحذوف وقع صفة لشئ مؤكدة لعمومة المستفاد من وقوعه في سياق النفي ، أي لا يخفى عليه شئ ما كان في الأرض ولا في السماء ، أعم من أن يكون ذلك بطريق الاستقرار فيها أو الجزئية منها وقيل متعلقة بيخفى ، وإنما عبر بهما عن كل العالم لأنهما قطران وتقديم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفي بينهما للدلالة على الطريق من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا) .

(١٢٣) نص الآيات هو : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام ١٥١-١٥٣) .

(١٢٤) تفسير المنار : ١٣٦/٢ وهذه الأربعة ذكرها الرازى فى تفسيره .

(١٢٥) تفسير المراغى : ١٠٠/٣ .

(١٢٦) وهو التفكير العقلى والتدبر فى الآيات .

(١٢٧) د . عبد الله شحاتة ، علوم القرآن ، والتفسير ، دار الاعتصام : صفحة ٢٨٥ .

(١٢٨) الملل والنحل : ١١٨/١ .

(١٢٩) إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله ٨٨ .

رواه مسلم فى العلم (٢٦٦٦) ، وأحمد ١٨٥/٢ .

(١٣٠) يا مقلب القلوب ثبت قلبى ٨٩ .

الترمذى فى القدر (٢١٤٠) وقال : حسن ، وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٣٤) كلاهما عن أنس ، وأحمد ١٨٢/٤ عن النواس بن سمعان والحاكم فى المستدرك ٢٨٨/٢.

(١٣١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم .

(١٣٢) ورد ذلك فى البخارى ، فى كتاب المغازى ، وفى كتاب السير .

(١٣٣) الولد مجبنة مبخلة ٩٤ .

رواه ابن ماجه فى الأدب (٣٦٦٦) من حديث يعلى العامرى فى الزوائد : إسناده صحيح. رجاله ثقات .. وقال الهيثمى فى المجمع : انولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة رواه أبو يعلى والبزار وفيه عطية العوفى وهو ضعيف . إن الولد مبخلة مجهلة مجبنة رواه البزار ورجاله ثقات . إن الولد مبخلة مجبنة وإن آخر وطأة وطئها الله بوج. قلت رواه ابن ماجه غير ذكر بوج. رواه أحمد والطبرانى إلا أنه قال آخر وطأة وطئها رب العالمين ، ورجالهما ثقات .

(١٣٤) لو كان لابن آدم واديان ٩٤

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٣٦) ومسلم فى الزكاة (١٠٨٤) والترمذى فى الزهد (٢٣٣٧) وأحمد (١١٨١٩) عن أنس . ومسلم فيما تقدم (١٠٥٠) من حديث أبى الأسود.

(١٣٥) تفسير القاسمى : ٨٠٦/٤ .

(١٣٦) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة هل رضيتم ٩٧ .

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٤٩) ، ومسلم فى الجنة (٢٨٢٩)

(١٣٧) إن ثلاثة آواهم المبيت إلى غار - حديث أصحاب الغار - ٩٧ .

رواه البخارى فى الإجارة (٢٢٧٢) ، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٤٣) وأبو داود فى البيوع (٣٣٨٧) وأحمد فى مسنده (٥٩٣٧) من حديث ابن عمر .

(١٣٨) ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة ٩٨ .

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥) ، وفى الدعوات (٦٣٢١) ، وفى التوحيد (٧٤٩٤) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨) . ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣)، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦)، وفى الدعوات (٣٤٩٨) ، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٤)، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٦٦) ، وأحمد (٧٤٥٧ ، ٧٥٣٨ ، ٧٥٦٧ ، ٣٧٣٣، ٨٧٥١ ، ٩٩٤٠ ، ١٠١٦٦ ، ١٠٣٧٧ ، ١٠٩٠٢ ، ١١٤٨٢ ، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠) . وأحمد (١٦٣٠٣ ، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم . ورواه أحمد (١٥٧٨٢ ، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى ورواه أحمد (٣٦٦٤ . ٣٨١١ ، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود . ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على رضي الله عنه.

(١٣٩) تفسير القاسمي : ٨٠٩/٤ .

(١٤٠) تفسير القاسمي : ٨١١/٤ .

(١٤١) التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب السادس صفحة ٥٢٦ .

(١٤٢) تفسير أبي السعود : ١٨/٢ .

(١٤٣) أعطيت خمسًا .. جعلت لي الأرض ١٠٢

رواه البخاري في التيمم ح ٣٢٣ ، وفي الصلاة ح ٤١٩ ، ومسلم في المساجد ح ٨١٠، وأحمد ح ٢٦٠٦ ، والنسائي في الغسل والتيمم ح ٤٢٩ ، والدارمي في الصلاة ح ١٢٥٣ ، وفي السير ح ٢٣٥٨ .

(١٤٤) رجلاً قتل نبيا ١٠٣ .

قال السيوطي في الدر : وأخرج أحمد عن ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال " أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل قتل نبيا أو قتله نبي، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين" أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح قال "قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال : رجل قتل نبيا ، أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ إلى قوله ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلاً من عباد بني إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، فقتلوا جميعًا من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله " ذكره في المجمع من حديث ابن مسعود : رواه الطبراني في الكبير وفي الصحيح منه قصة المصور وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف ، وقال في موضع آخر : رواه الطبراني وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات ، ورواه البزار إلا أنه قال وإمام ضلالة، ورجاله ثقات ، وكذلك رواه أحمد ، وذكره من حديث أبي عبيدة وقال : رواه البزار وفيه ممن لم أعرفه اثنان .

(١٤٥) تفسير أبي السعود : ١٩/٢ .

(١٤٦) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٣٨٢/١ مطبعة دار الشروق .

(١٤٧) تفسير أبي السعود : ٢٠/٢ .

(١٤٨) أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ١٠٤ .

رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤٤) والترمذي في الفتن (٢٧٤) وابن ماجه في الفتن (٤٠١١) وأحمد في مسنده (١٠٧٥٩) من حديث أبي سعيد ، وقال الترمذي : حديث غريب ، ورواه النسائي في البيعة (٤٢٠٩) وأحمد في مسنده (١٨٣٤٩ ، ١٨٣٥٦) من حديث طارق بن شهاب، ورواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٢) وأحمد في مسنده (٢١٦٥٤) من حديث أبي أمامة.

(١٤٩) على ملة إبراهيم ودينه ١٠٥ .

قال السيوطي في الدر : أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : جاء رافع بن حارثة، وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حرملة ، فقالوا : يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من حق الله ؟ فقال النبي ﷺ "بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق ، كتمتم منها ما أمرتم أن تبينوا للناس فبرئت من أحداثكم ، قالوا : فإنا نأخذ مما في أيدينا فإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك ، فأنزل الله فيهم ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ إلى قوله ﴿ القوم الكافرين ﴾ ، أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال " دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد : على أي دين أنت يا محمد؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا فقال لهما رسول الله ﷺ : فهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم ، فأبيا عليه ، فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾ إلى قوله ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾.

(١٥٠) جاء في مختار الصحاح مادة ح م م .

(حممه تحميمًا) سخم وجهه بالفحم .

والحميم الماء الحار ، وقد (استحم) أي اغتسل بالحميم هذا هو الأصل، ثم صار كل اغتسال استحمامًا بأي ماء كان .

(١٥١) كيف تفعلون بمن زنا .. رجم اليهوديين ١٠٥

ذكره الهندى فى الكنز (١٣٥٤٩) ونسبه لعبد الرزاق .

(١٥٢) أوَقد رأيت يا سلمان .. أضاءت لى منها قصور الشام ١٠٨

رواه فى المجمع من حديث ابن عباس وقال : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبرى وهما ثقتان . وقال السيوطى فى الدر : وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل من طريق كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده .. فذكره.

(١٥٣) أى أعطاهم مالاً قليلاً فى مقابل معونتهم .

(١٥٤) كان عبادة بن الصامت بدريا نقيبًا ، وكان له حلف من اليهود فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، قال عبادة يا نبى الله، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ... ﴾ الآية .

(١٥٥) ورد هذا المعنى فى تفسير الزمخشرى للآية .

(١٥٦) نكشر : نبش ، ونتبسم .

(١٥٧) إنا لنكشر فى وجوه أقوام ١١٢ .

ذكره البخارى تعليقًا فى الأدب باب المداراة مع الناس قال : ويذكر عن أبى الدرداء : إنا لنكشر فى وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم .

(١٥٨) لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به ١١٤ .

البغوى فى شرح السنة (٢١٣/١) والخطيب فى تاريخ بغداد ٣٦٩/٤ ، وذكر ، ابن رجب الحنبلى حديث ٤١ ، وقال : حسن صحيح ، واستشهد بها المناوى فى فيض القدير وقال : خرجه الحسن بن سفيان وغيره قال ابن حجر ورجاله ثقات وصححه النووى فى الأربعين وذكره الهندى فى كنز العمال (١٠٨٤) ونسبه للحكيم وأبو نصر السجزى فى الإبانة وقال حسن غريب والخطيب عن ابن عمرو .

(١٥٩) من عمل عملاً ليس عليه أمرنا ١١٤ .

رواه مسلم فى الأقضية (١٧١٨) ، وأحمد (٢٤٦٠٤ ، ٢٤٩٤٤ ، ٢٥٦٥٩) من حديث عائشة . وذكره البخارى فى باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع وقال ابن أبى أوفى الناجش آكل ربا خائن وهو خداع باطل لا يحل قال النبى ﷺ : الخديعة فى النار ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد . تعليقًا .

(١٦٠) ثلاث من كن فيه وجد ١١٤ .

البخارى فى الإيمان (١٦ ، ٢١) ، ومسلم فى الإيمان (٤٣) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٨٨) ، كلهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١٦١) إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل ١١٤ .

البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٧) .

(١٦٢) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب السادس صفحة ٥٥٤ بتصرف واختصار .

(١٦٣) أنا دعوة أبى إبراهيم ١١٦ .

رواه أحمد فى مسنده (١٦٧٠٠ ، ١٦٧١٢) من حديث عرباض بن سارية . ورواه (٢١٧٥٨) من حديث أبى أمامة .

(١٦٤) ولد لى ولدًا سميته باسم أبى إبراهيم ١١٧ .

أخرجه مسلم فى الفضائل (٢٣١٥) وأبو داود فى الجنائز (٣١٢٦) وأحمد (١٢٦٠٢).

(١٦٥) كل بنى آدم يمسه شيطان يوم ولادته ١١٧ .

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٣١) ومسلم فى الفضائل (٢٣٦٦) وأحمد (٧٨١٩ ، ٧٨٥٥ ، ٨٠٥٧) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

(١٦٦) تفسير القاسمي : ٨٤٢/٤ .

(١٦٧) الاستهام : إجراء القرعة .

(١٦٨) كان إذا أراد السفر أقرع ١٢٣ .

البخاري في الهبة (٢٥٩٣) وفي الشهادات (٢٦٦١ ، ٢٦٦٨) وفي الجهاد (٢٨٧٩) وفي المغازي (٤١٤١) وفي التفسير (٤٥٧٠) وفي النكاح (٥٢١١) ومسلم وفي فضائل الصحابة باب في فضل عائشة (٢٤٤٥) وفي التوبة (٢٧٧٠) . وأبو داود في النكاح باب في القسم بين النساء (٢١٣٨) وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠) وفي الأحكام باب القضاء بالقرعة (٢٣٤٧) والشافعي في مسنده (٧٨) والدارمي في النكاح (٢٢٠٨) وفي الجهاد (٢٤٢٣) من حديث عائشة ﵂ .

(١٦٩) هذه الأفكار مستقاة من تفسير في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٠٠/١ بتصرف وتلخيص .

(١٧٠) "رب أعني ولا تعن علي" ١٣١ .

الترمذي في الدعوات (٣٥٥١) وأبو داود في الصلاة (١٥١٠) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٠) وأحمد (١٩٩٨) من حديث ابن عباس ﵄ .

(١٧١) القلاص : جمع قلوص . وهي الناقة الشابة .

(١٧٢) "والله لينزلن ابن مريم حكمًا" ١٣٢ .

رواه مسلم في الإيمان (١٥٥) وأحمد (١٠٠٣٢) من حديث أبي هريرة ﵁ .

(١٧٣) كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم" ١٣٢ .

والحديث رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٢) ومسلم في الإيمان (١٥٥)

أي أن عيسى لن يأتي بشرع جديد ينسخ به شريعتنا بل ينزل داعيًا للإسلام الذي نزل على محمد . صلى الله عليه وسلم . وهو دعوة جميع الأنبياء . ومعنى وإمامكم منكم أن قبلة المسلمين ستكون بأيديهم وقائدهم واحد منهم .

(١٧٤) انظر تفسير المنار : ٢٦١/٣ . وقد نقل هذا الكلام أحمد مصطفى المراغي في تفسير المراغي : ٣/ ١٦٩ . ولم ينسبه إلى المنار .

(١٧٥) تفسير المنار ٢٦١/٣ .

(١٧٦) التفسير الواضح د . محمد محمود حجازي : ٦٤/٣ .

(١٧٧) اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات ١٣٤ .

رواه مسلم في البر (٢٥٧٨) من حديث أبي هريرة . وأحمد (٥٦٢٩ ، ٦١٧١) من حديث ابن عمر ﵄ .

(١٧٨) انظر القرطبي . وابن كثير . وقد ورد هذا المعنى في رواية أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح . وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٢٨٩/١ . كما روي في صحيح ومسلم وغيرهما .

(١٧٩) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني : ٢٨٩/١ .

(١٨٠) راجع سفر الخروج فقرة ٦ - ١٦ . وراجع سفر أشعيا فقرة ٩ .

(١٨١) أما كانوا يحلون لهم الحرام ١٣٩ .

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب . وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث .

(١٨٢) من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ١٣٩ .

رواه البخاري في بدء الوحي (٧) وفي الجهاد (٢٩٤١) وفي التفسير (٤٥٥٣) وفي الاستئذان (٦٢٦١) ومسلم وفي الجهاد (١٧٧٣) وأبو داود في الأدب (٥١٣٦) والترمذي في الاستئذان (٢٧١٧) وأحمد (٢٣٦٦) من حديث ابن عباس ﵄ .

(١٨٣) تفسير المراغى : ١٨١/٣ .

(١٨٤) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٢٧٤ .

(١٨٥) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٢٧٤ .

(١٨٦) تفسير المنار وانظر لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ففيه روايات أخرى فى سبب نزول الآية .

(١٨٧) تفسير ابن كثير .

(١٨٨) " كذب أعداء الله " ١٤٦ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ .. فذكره .

(١٨٩) " أد الأمانة إلى من ائتمنك " ١٤٦ .

أبو داود فى البيوع (٣٥٣٥) والترمذى فى البيوع (١٢٦٤) وقال : «هذا حديث حسن غريب» .

(١٩٠) " لا إيمان لمن لا أمانة له " ١٤٧ .

رواه أحمد فى مسنده (١١٩٧٥ ، ١٢١٥٧ ، ١٢٧٨٧ ، ١٣٢٢٥) من حديث أنس بن مالك .

(١٩١) " أربع من كن فيه " ١٤٧ .

رواه البخارى فى الإيمان (٣٤) ومسلم فى الإيمان (٥٨) عن عبد الله بن عمرو .

(١٩٢) " ثلاث من كن فيه كان منافقًا .. آية المنافق ثلاث " ١٤٧ .

يشير إلى رواية : آية المنافق ثلاث ، أخرجها البخارى فى الإيمان (٣٣) وفى الشهادات (٢٦٨٢) وفى الوصايا (٢٧٤٩) وفى الأدب (٦٠٩٥) ومسلم فى الإيمان (٩٥) والترمذى فى الإيمان (٢٦٣١) وأحمد (٨٤٧٠) .

(١٩٣) " من حلف على يمين هو فيها فاجر " ١٤٧ .

رواه البخارى فى المساقاة (٢٣٥٧) وفى الخصومات (٢٤١٧) وفى الرهن (٢٥١٦) وفى الشهادات (٢٦٦٧ ، ٢٦٧٠ ، ٢٦٧٣ ، ٢٦٧٧) وفى التفسير (٤٥٥٠) وفى الأيمان والنذور (٦٦٥٩ ، ٦٦٧٦) ، ومسلم فى الأيمان (١٣٨) وأبو داود فى الأيمان (٣٢٤٣) والترمذى فى البيوع (١٢٦٩) وفى التفسير (٢٩٩٦) وابن ماجه فى الأحكام (٢٣٢٣) وأحمد (٣٥٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(١٩٤) "إنكم تختصمون إلىّ " ١٤٨ .

رواه البخارى فى الشهادات (٢٦٨٠) ، ومسلم فى الأقضية (١٧١٣) ، وأبو داود فى الأقضية (٣٥٨٣) ، والترمذى فى الأحكام (١٣٣٩) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجه فى الأحكام (٣١٧) ، ومالك فى الموطأ ٧/٢ .

(١٩٥) "معاذ الله أن نعبد غير الله " ١٥٠ .

قال السيوطى فى الدر : أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى .. فذكره .

(١٩٦) " لا ولكن أكرموا نبيكم " ١٥١ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : " بلغنى أن رجلاً " .

(١٩٧) أى بنو ضرات .

(١٩٨) الأنبياء بنو علات ١٥٢ .

رواه مسلم فى السلام باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥) وأبو داود فى السنة (٤٦٧٥) بلفظ : الأنبياء أولاد علات ، وليس بينى وبينه نبى ، ورواه البخارى فى الأنبياء (٣٤٤٢) ، ومسلم فى الفضائل (٢٣٦٥) عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(١٩٩) كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم ١٥٣ .

ذكره القرطبى فى الجامع .

(٢٠٠) والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ١٥٤ .

رواه أحمد (١٥٤٣٧ ، ١٧٨٧١) من حديث عبد الله بن ثابت . وذكره الهندى فى الكنز (١٠١١) ونسبه لابن سعد وأحمد والحاكم فى الكنى والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن ثابت الأنصارى . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جرير الجعفى وهو ضعيف .

(٢٠١) تفسير المنار : ٢٩٩/٢ .

(٢٠٢) أخرجه البزار ، قال ابن كثير فى إسناده جيد .

(٢٠٣) إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ١٥٧ .

الترمذى فى الدعوات (٣٥٣٧) وقال : "حديث حسن غريب" ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٥٣) وقال البوصيرى فى الزوائد : "فى إسناده الوليد بن مسلم ، وهو مدلس ، وقد عنعنه . وكذلك مكحول الدمشقى" ، وأحمد ١٣٢/٢ ، ١٥٣ كلهم عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢٠٤) تفسير القاسمى جـ ٤ صفحة ٨٨٥ بتصرف واختصار .

(٢٠٥) يقال للرجل يوم القيامة : أرأيت إن كان مالك ما على الأرض ١٥٨ .

رواه البخارى فى الأنبياء باب : قول الله تعالى (٣١٥٦) وفى الرقاق باب : من نوقش الحساب عذب (٦١٧٣) وباب : صفة الجنة والنار (٦١٨٩) ومسلم فى صفة القيامة باب طلب الكافر الفداء (٢٨٠٥) وأحمد فى مسنده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢٠٦) تفسير القاسمى : جـ ٤ صفحة ٨٨٨٨ بتصرف .

(٢٠٧) إنه لم يقل يومًا من الدهر : رب اغفر لى ١٥٩ .

رواه مسلم فى الإيمان باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٣٦٥) عن عائشة قالت " قلت يا رسول الله : إن ابن جدعان ، كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟ قال " لا ينفعه ، إنه لم يقل يومًا : ربِّ اغفر لى خطيئتى يوم الدين «وكذلك رواه أحمد» .

(٢٠٨) بخ بخ ذلك مال رابح ١٦٠ .

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٦١) وفى الوصايا (٢٧٦٩) وفى التفسير (٤٥٥٥) وفى الأشربة (٥٦١١) ومسلم فى الزكاة (٩٩٨) وأحمد (١٢٠٣٠) ومالك فى الجامع (١٨٧٥) والدارمى فى الزكاة (١٦٥٥) «وبير حاء » روى بكسر الباء وفتحها وفتح الراء وضمها مع المد والقصر وهو اسم حديقة بالمدينة . وفى الفائق أنها فيعلى من الرجاء وهو الأرض الظاهرة وفى كتاب فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب بير (حاء) وهو تصحيف وتحريف .

(٢٠٩) أحبس الأصل وأسبل الثمرة ١٦٠ .

رواه النسائى فى الأحباس (٣٦٠٣ ، ٣٦٠٤ ، ٣٦٠٥) وابن ماجه فى الأحكام (٢٣٩٧) وأحمد (٥٩١١ ، ٦٤٢٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهم جميعًا .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء الثالث

محتويات الكتاب

﴿ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

المفردات :

حِـــلا : أى حلالا، وهو مصدر نعت به ؛ ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، كما قال تعالى : (لا هنّ حِلٌّ).

إسرائيل : هو يعقوب عليه السلام ، وبنوه : ذريته.

افترى على الله الكذب : أى اختلقه، والفرية هى الكذب.

حنيفا : أى مائلا عن العقائد الباطلة، فالحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة . والجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال.

المعنى الإجمالى :

اعترض اليهود على استباحة المسلمين بعض الأطعمة كلحوم الإبل وألبانها ، وادَّعوا أن ذلك حرمته شريعة إبراهيم ، فرد الله سبحانه دعواهم ببيان أن تناول كل المطعومات كان مباحاً لبنى يعقوب من قبل نزول التوراة إلا ما حرمه يعقوب على نفسه لسبب يختص به فحرموه على أنفسهم.. وأمر الله نبيه أن يطلب منهم أن يأتوا من التوراة بدليل يثبت أن شريعة إبراهيم تحرم ذلك إن كانوا صادقين ، فعجزوا وأفحموا.

التفسير :

جاء فى تفسير النيسابورى [1] ما يأتى :

بعد أن قرر سبحانه الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد توجيه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب فى هذا الباب أجاب عن شبهة للقوم ، وتقرير ذلك من وجوه :

أحدها : أنهم كانوا يعوّلون فى إنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ (٢) ، فأورد عليهم أن الطعام الذى حرّمه إسرائيل على نفسه كان حلالاً ثم صار حراما عليه، وعلى أولاده وهو النسخ، ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا السؤال زعموا أن ذلك كان حراما من لدن آدم، ولم يحدث نسخ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزامًا لهم، وتفضيحا، ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميا، فامتنع أن يعرف هذه المسألة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر من السماء.

وثانيها : أن اليهود قالوا له إنك تدَّعى أنك على ملة إبراهيم فكيف تأكل لحوم الإبل، وألبانها وتفتى بحلها مع أن ذلك كان حراما فى دين إبراهيم ، فأجيبوا بأن ذلك كان حلالا لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إلا أن يعقوب حرمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة فى أولاده فأنكروا ذلك فأمروا بالرجوع إلى التوراة .

وثالثها : لما نزل قوله تعالى : فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . (النساء : ١٦٠). وقوله : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ . (الأنعام : ١٤٦) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إنما حرم عليهم كثير من الأشياء جزاء لهم على بغيهم وظلمهم غاظهم ذلك واشمأزوا وامتعضوا من قِبَل أن ذلك يقتضى وقوع النسخ (٣) ومن قِبَل أنه تسجيل عليهم بالبغى والظلم وغير ذلك من مساويهم فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه وما هو إلا تحريم قديم فنزلت : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٤).

من إشارات الآية :

يمكن أن نلحظ فى هذه الآية بيانا لخصال اليهود وعنادهم ولجاجتهم فى الخصومة، ويتضح ذلك من الآتى:

١ - لقد أنكروا النسخ وقالوا هو شبيه بالبداء وذلك لا يليق بالله تعالى ، والبداء هو أن تعمل عملا أو تقرر رأيا ثم يبدو لك أن الأفضل ترك هذا العمل، أو تغيير هذا الرأى، وهذا أمر يليق بالمخلوق لقصر رأيه وتبدل أفكاره وحكمه، ولا يليق بالخالق، ومن هنا أنكروا النسخ.

وقد بين القرآن أن من سنة الله التدرج فى التشريع ومراعاة مصالح الناس واختيار ما يناسب مراحل حياتهم ، فقد أمر المسلمين بالصبر فى مكة، ثم أمروا بالجهاد فى المدينة، وحرمت الخمر على مراحل، وأبيح زواج المتعة فى أول عهد المسلمين بالإسلام، وعند خروجهم للجهاد، ثم حرّم زواج المتعة وهو الزواج المؤقت.

وهكذا نجد أن من حكمة الله نسخ الأحكام وتبديلها بما هو أنسب لعباده ، قال تعالى : مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ١٠٦).

٢ - نلحظ عناد اليهود ومكابرتهم حيث ادعوا أن تحريم لحوم الإبل وألبانها قديم من عهد الرسل السابقين، فكذبهم الله تعالى .

٣ - ادعى اليهود أن التوراة حرمت عليهم لحوم الإبل وألبانها اتباعا لطريقة إسرائيل حيث حرمها على نفسه ثم حرمت على ذريته وأبنائه متابعة لأبيهم ، فطلب الله منهم أن يأتوا بالتوراة إن كانوا صادقين.

(وبالرجوع إلى التوراة فى مظان هذا الموضوع، لم نجد فيها أساسا لدعواهم أن ذلك التحريم شرعه الله فى أى عهد من عهود النبوات، ولا لدعواهم أن التحريم انتقل إليهم من الشرائع السابقة، ولا لدعواهم أن الله حرمها عليهم بتحريم يعقوب لها على نفسه، ولقد كان اليهود يدّعون أن ذلك شرع قديم ، ولكن الرسول كشف الغطاء عن الحق فبهتوا وبان لهم - بذلك - أنهم فى ضلالهم يعمهون) [٥].

فى أعقاب الآية :

قد يقول إنسان : إن الله تعالى قد مدح اليهود وأثنى على إيمانهم ووصفهم بصفات طيبة، مثال ذلك آيات كثيرة وردت فى القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . (البقرة : ٤٧). والجواب أن الله مدح اليهود عندما آمنوا بموسى واتبعوا تعاليم التوراة ودفعوا تكاليف الإيمان فكان كل هذا سببا فى مدحهم والثناء عليهم وتفضيلهم على أهل زمانهم، ثم لما حرفوا التوراة، واعتدوا فى السبت، واتهموا مريم فى شرفها، وظهر منهم العدوان والعناد وإنكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد استحقوا عقاب السماء ؛ ولذلك لعنهم الله وغضب عليهم واستحقوا عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة.

ونجد آيات كثيرة فى القرآن الكريم تشير إلى هذا ، مثل قوله تعالى : فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . (المائدة : ١٣). وقوله عز شأنه : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . (المائدة : ٧٨ ، ٧٩).

٢ - من مسند الإمام أحمد :

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : حضرت عصابة من اليهود نبى الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنها لا يعلمهن إلاّ نبى ، قال سلونى ما شئتم. قالوا أخبرنا: أى الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم . [٦](أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن إسرائيلَ مرض مرضا شديدا وطال سقمه، فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الأشياء إليه، وأحب الطعام إليه ، وكان أحب الطعام إليه لُحْمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها فقالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد عليهم [٧] .. إلى آخر الحديث.

وتفيد الآثار أن يعقوب عليه السلام اشتكى مرضا فنذر لله تعالى لئن شفاه الله من هذا المرض ليحرّمن على نفسه لحوم الإبل وألبانها أو عروقها .

قال ابن جرير الطبرى : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول ابن عباس الذى رواه الأعمش عن حبيب عن سعيد عنه أن ذلك العروق ولحوم الإبل لأن اليهود مجمعة إلى اليوم على ذلك من تحريمها كما كان عليه من ذلك أوائلها.

ويرى الشيخ محمد عبده : أن المراد بإسرائيل فى قوله تعالى : إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ . هو شعب بنى إسرائيل.

وتابعه على هذا الرأى السيد رشيد رضا فى تفسير المنار حيث قال :

والمتبادر عندى أن المراد بما حرمه إسرائيل على نفسه : ما امتنعوا من أكله وحرموه على أنفسهم، بحكم العادة والتقليد لا بحكم من الله ، كما يعهد مثل ذلك فى جميع الأمم ، ومنه تحريم العرب للبحيرة والسائبة (٨) وغير ذلك مما حكاه القرآن عنهم . ا هـ.

وعند التحقيق ترى أيها القارئ أن رأى الشيخ محمد عبده مرجوح لا راجح ، و خصوصا إذا عرفنا أسباب نزول الآية وما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن سبب نزولها.

وفائدة قوله تعالى : مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ . أنه لو كان اللّه شرع له ولبنى إسرائيل ذلك لذكر فى التوراة، لأنه سابق على نزولها على موسى .

٩٤ - فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . فمن اختلق الكذب من بعد قيام الحجة وظهور البينة فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . لأنفسهم بالكفر، ولمن أضلوهم بالإغواء.

وما فى الآية من تهديد ينتظم كل من افترى الكذب على الله بعد ما تبين له الحق، واليهود داخلون فى ذلك بالأولى .

٩٥ - قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . أى يا محمد قل لليهود- بعد ظهور كذبهم فيما زعموا.

ظهر صدق الله فى كل ما أخبر به على لسان نبيه، وفيما شرعه القرآن ، وإن الله لصادق فى كل حين، ولكن المناسبة هنا حاضرة لتقرير هذه الحقيقة .

فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فاتبعوا ملة إبراهيم فقد كان على الحنيفية السمحة. ودين إبراهيم هو الأصل ، وعليه كان يعقوب، وهو دين محمد فلئن أرادوا الصدق حقا فعليهم بدين إبراهيم، وعليهم إذن أن يدينوا بالإسلام الذى ترجع جذوره إلى ملة إبراهيم ، وأن يتوجهوا إلى البيت الذى بناه، والذى هو أول بيت خصص للعبادة.

لقد جاء إبراهيم برسالة الإسلام ، وجاء الرسل بهذه الرسالة السامية، ثم جاء القرآن بالرسالة الإسلامية واضحة بينة كاملة تامة.

كما قال تعالى : قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (الأنعام : ١٦١).

وقال تعالى : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين (النحل : ١٢٣).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

المفردات :

أول بيت : أول موضع لعبادة الله وحده.

وضع للناس : خصص لعبادتهم.

بكة : من أسماء مكة، وبكة علم على البلد الحرام، وقيل بكة : للبيت ، ومكة البلد، أصله من البَكّ وهو الازدحام.

آيات بينات : دلائل واضحات.

مقام إبراهيم : أى محل قيام إبراهيم، وهو الحجر الذى قام عليه لما ارتفع بناء البيت، أو هو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

آمنا : أى أوجب الله الأمان لمن يأوى إليه فلا يعتدى عليه بقتل أو أذى.

حج : بالكسرة هو لغة فى مصدر حج يحج.

سبب النزول :

روى عن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل فأنزل اللّه هذه الآية [٩].

التفسير :

إن أول بيت أقيم لعبادة الله وحده، هو البيت الحرام بمكة، فقد بناه إبراهيم عليه السلام – بأمر الله، وعاونه فى البناء ولده إسماعيل، وأمر الله أن يؤذن فى الناس بالحج إليه، قال تعالى : وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . (الحج : ٢٧).

قال النيسابورى فى تفسيره :

والبيت الحرام أول بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة.

واعلم أن الغرض الأصلى من ذكر هذه الأولية، بيان الفضيلة وترجيحه على بيت المقدس ، ولا تأثير لأولية البناء فى هذا المقصود و إن كان الأرجح ثبوت تلك الأولية أيضًا ..

ومن فضائل البيت الحرام أن الآمر ببنائه الرب الجليل والمهندس جبريل وبانيه الخليل، وتلميذه ابنه إسماعيل ، ومنها أنه محل إجابة الدعوات ومهبط الخيرات والبركات ومصعد الصلوات والطاعات.

ومن فضائل البيت الحرام أن الطيور تترك المرور فوق الكعبة وتنحرف عنها ألبتة إذا وصلت إلى محاذاتها.

ومنها أن الحيوانات المتضادة فى الطباع لا يؤذى بعضها بعضا عنده كالكلاب والظباء.

ومن فضائل البيت أمن سكانه فلم ينقل ألبتة أن ظالما هدم الكعبة أو خرب مكة بالكلية، وأما بيت المقدس فقد هدمه بختنصر بالكلية، وقصة أصحاب الفيل الذين صدهم الله عن البيت الحرام معروفة مشهورة (١٠) .

ومن بركات البيت الحرام قدوم الناس إليه من مشارق الأرض ومغاربها ومعهم خيرات الأرض، استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . (إبراهيم : ٣٧).

ومن بركات البيت الحرام: أنه مكان لأكبر عبادة جامعة للمسلمين وهى فريضة الحج ، وإليه يتجه المسلمون فى صلاتهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم.

الوضع والبناء :

أخرج الشيخان ، واللفظ لمسلم ، عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول بيت وضع فى الأرض ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عامًا، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة ، فصل (١١).

قال ابن القيم فى زاد المعاد تعقيبًا على هذا الحديث، قد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال : معلوم أن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى ، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام ، وهذا من جهل القائل، فإن سليمان كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام بعد بناء جده إبراهيم للكعبة بهذا المقدار أى بأربعين عاما (١٢).

أولية زمان شرف ومنزلة :

ذهب بعض المفسرين إلى أن أولية البيت الحرام زمانية بالنسبة إلى وضع البيوت مطلقًا. فقالوا إنّ الملائكة بنته قبل خلق آدم، وإن بيت المقدس بنى بعده بأربعين عاما. قال الشيخ محمد عبده : إذا صح الحديث فلا شيء فى العقل يحيله ولكن الآية لا تدل عليه ولا يتوقف الاحتجاج بها على ثبوته.

وبيت المقدس المعروف الذى انصرف إليه الإطلاق قد بناه سليمان بالاتفاق. والمعروف أنه تم بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل ميلاد المسيح عليه السلام (١٣).

وذهب آخرون إلى أنه أول البيوت فى الشرف والرفعة ، (وعن على أن رجلاً قال له : هو أول بيت؟ قال : لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة) (١٤).

(هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما بُلِّغ على أنه دين، والموضوعات المروية فى بناء الكعبة كثيرة، ولا حاجة إلى إضاعة الوقت فى ذكرها وبيان وضعها) (١٥).

من تفسير الفخر الرازى :

قال الفخر الرازى : فى اتصال هاتين الآيتين بما قبلهما وجوه ، الأول : أن المراد منهما الجواب عن شبهة أخرى من شبهات اليهود فى إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود فى نبوته وقالوا : إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال ، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر ، وقبلة جملة الأنبياء، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلا، فأجاب الله عنه بقوله : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ .. فبين سبحانه أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف ، فكان جعلها قبلة أولى .. (١٦).

والمراد بالأولية أنه أول بيت وضعه الله لعبادته فى الأرض، وقيل : المراد بها كونه أولا فى الوضع وفى البناء ، ورووا فى ذلك آثارًا ليس فيها ما يعتمد عليه (١٧).

لَلَّذِي بِبَكَّةَ بكة لغة فى مكة عند الأكثرين، والباء والميم تعقب إحداهما الأخرى كثيرا ومنه ضربة لازم وضربة لازب ، وقيل : مكة البلد، وبكة موضع المسجد، وفى الصحاح بكة اسم مكة.

وأما اشتقاق بكة فمن قولهم بكه إذا زحمه ودفعه، وعن سعيد بن جبير سميت بكة لأنهم يتباكُّون فيها أى يزدحمون فى الطواف ، وهو قول محمد بن على الباقر ومجاهد وقتادة، قال بعضهم : رأيت محمد بن على الباقر يصلى ، فمرت امرأة بين يديه فذهبت أدفعها، فقال : دعها فإنها سميت بكة لأنه يَبُكُّ بعضهم بعضا، تمر المرأة بين يدى الرجل وهو يصلى ، والرجل بين يدى المرأة وهى تصلي، ولا بأس بذلك فى هذا المكان ، ويؤكد هذا قول من قال : بكة موضع المسجد لأن المطاف هناك وفيه الازدحام.

وقيل : سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها ، لم يقصدها جبَّار بسوء إلا اندقت عنقه ..) (١٨). مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ أى كثير الخير والبركة والنماء والزيادة لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب .

قال : صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » (١٩).

وفى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال قتادة : إن الله بكَّ به الناس جميعًا ، فيصلى النساء أمام الرجل ولا يفعل ذلك ببلد غيرها، وقال شعبة عن إبراهيم : بكة البيت والمسجد، وقال عكرمة: البيت وما حوله بكة وما وراء ذلك مكة، وقال مقاتل بن حيان : بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة.

وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة : (مكة ، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم القرى، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والحاطمة، والرأس، والبلدة، والبنية ، والكعبة).

وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . أى هو بذاته مصدر هداية، لأنه قبلتهم ومتعبدهم وفى استقباله توجيه للقلوب والعقول إلى الخير، ولعله لا تمر ساعة من ليل أو نهار وليس فيه أناس يتوجهون إلى ذلك البيت يصلون ، فأى هداية للعاملين أظهر من هذه الهداية؟ [٢٠].

قال النيسابورى فى تفسيره :

(ولو استحضر العاقل فى نفسه أن الكعبة كالنقطة، وصفوف المتوجهين إليها فى الصلوات فى أقطار الأرض وأكنافها ، كالدوائر المحيطة بالمركز، ولاشك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية، وقلوبهم قدسية، وأسرارهم نورانية، وضمائرهم ربانية، علم أنه إذا توجهت تلك الأرواح الصافية إلى كعبة المعرفة، واستقبلت أجسادهم هذه الكعبة الحسية اتصلت أنوار أولئك الأرواح بنوره، وعظم لمعان الأضواء الروحانية فى سره) [٢١].

٩٧ - فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . . . الآية ، أى فى البيت دلالات واضحات على أنه من بناء إبراهيم عليه السلام.

منها : مقام إبراهيم . وهو الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت . أو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

ومنها : وجوب الأمن لداخله استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ، بقوله : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا . . (البقرة : ١٢٦).

ومنها : وجوب الحج إليه استجابة لنداء إبراهيم ، كما فى قوله تعالى : وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . (الحج : ٢٧).

وكما ثبت هذا بالقرآن، فهو ثابت أيضا تاريخيا. ومعروف بالتواتر لدى العرب جيلا بعد جيل.

ومع دلالة هذه الآيات البينات على أولية البيت الزمنية، فهى - كذلك - أدلة واضحة على فضله وعلو شأنه.

وقد عرضت الآية فرضية الحج بقوله تعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

والحج : أحد الأركان الخمسة للإسلام . فمن استطاعه لزمه، وندب إليه تعجيله. والاستطاعة: تكون بوجود الزاد والماء والراحلة، والقدرة البدنية، وأمن الطريق.

والمقصود من الزاد : ما يكفيه من الطعام مدة سفره فى حجه، زائدا على نفقة من تلزمه نفقته ممن يعول. والمراد من الراحلة: وسيلة الانتقال أيا كانت .

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

أى ومن أنكر الفريضة أو تهاون فيها، فوبال ذلك عائد عليه وحده، لأن الله سبحانه غنى عن العالمين. فلا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ .(النمل : ٤٠).

وفى أسلوب الآية وختامها بقوله تعالى :

ومن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ما يدل على أهمية فريضة الحج وعظيم منزلتها عند الله، وأنه فريضة لا يحل لأحد أن ينكرها، وإلا كان كافرا بشريعة الله. كما لا يجوز له أن يتكاسل عنها، حتى لا يكون كافرًا بنعم الله عليه، غير شاكر له على أفضاله.



﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾

المفردات :

بآيات الله	: المراد بها، الآيات الدالة على نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ومنها آيات القرآن الكريم.
شهيد	: مشاهد لما تعملون ، رقيب عليه.
تصدون عن سبيل الله	: تمنعون الناس عن طريقه، وهو الإسلام.
تبغونها عوجا	: تريدونها معوجة.
وأنتم شهداء	: تشهدون بأنها سبيل مستقيمة.
يعتصم بالله	: يستمسك بدينه.

التفسير :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. . الآية .

المعنى : أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يوبِّخ كفار أهل الكتاب على كفرهم بما جاء به من الحق، فقال تعالى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. . الآية .

وإنما دعاهم بقوله : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ للمبالغة فى تقبيح كفرهم، فإن من كان على بينة من كتاب الله : تَهدِى إلى الحق- يكون كفره أشد قبحاً من غيره. فقد جاء فى كتابهم من الأمارات الواضحة، ما يشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وضحة نبوته، إذ كانوا يتحدثون بذلك قبل بعثه. فلما بعث ، تفرقوا واختلفوا.

وقد ختمت الآية بقوله عز وجل : وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . لتشديد التوبيخ، وتأكيد الإنكار عليهم، وتهديدهم على هذا الكفر القبيح :

٩٩ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ .. . الآية.

وهذا أمر آخر من الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم ، بتوبيخهم على الإضلال ، إثر أمره إياه بتوبيخهم على الضلال.

وتكرير الخطاب يَا أَهْلَ الْكِتَابِ . لتأكيد المبالغة فى التوبيخ، لأن ذلك العنوان- كما يستدعى منهم الإيمان بما هو مصدق لما معهم- يستدعى منهم كذلك، دعوة الناس إليه، وترغيبهم فيه. فصدهم عنه- بعد كفرهم به، وهم يعلمون أنه حق - فى أقصى مراتب القبح، وأبعد درجات الجحود ، إذ لم يكتفوا بكفرهم وضلالهم، بل أمعنوا فى الإضلال وأوغلوا فى الفتنة، فاحتالوا لفتنة المسلمين ، وصد من يريد الإسلام عن الدخول فيه. وادّعوا أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم ليست فى كتبهم، ولا وجدت البشارة به عندهم.

ثم أفصح عن غايتهم من جحودهم وكفرهم، فقال سبحانه من قائل : تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أى تريدون أن تكون سبيل لله معوجة، وأنتم تشهدون أنها لا تحوم حولها شائبة اعوجاج.

ثم ختم الآية بقوله تعالى : وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وفى هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى.

ولما كان كفرهم صريحا ظاهرا، ختمت الآية الأولى بشهادة الله تعالى على ما يعملون.

ولما كان صدهم للمؤمنين ، بطريق السر والخفية، ختمت الآية الثانية بما يحسم حيلتهم من إحاطة علمه- سبحانه وتعالى - بأعمالهم.

١٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ .

كان اليهود فى المدينة يكوّنون طابورا خامسا يثيرون الفتن والقلاقل، ويشيعون الفرقة فى صفوف المسلمين ، وكان لليهود فى الجاهلية قوة وقدرة مالية، فكانت لهم زراعة وثروة ومنزلة فى المدينة المنورة ، وكانت تسمى (يثرب) فلما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، ووحَّد صفوفهم وجمع كلمتهم وانتقلت سيادة المدينة وزعامتها إلى جماعة المسلمين ، وقد ألهب ذلك نيران الحقد والبغض فى نفوس اليهود، فأنكروا رسالة النبى صلى الله عليه وسلم : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . (النمل : ١٤).

وكان شيوخ اليهود يضرمون نيران العداوة والفتنة بين الأوس والخزرج من أهل المدينة .

وقد ورد فى تفسير الطبرى والنيسابورى وغيرهما، كما ورد فى أسباب النزول للسيوطى، وأسباب النزول للواحدى أن سبب نزول هذه الآية محاولة اليهود تفريق صفوف المسلمين .

قال زيد بن أسلم : مر شاس بن قيس اليهودى وكان شيخا قد غبر [٢٢] فى الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، فمر على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم فى الإسلام بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة [٢٣] بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شابا من اليهود كان معه، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكرهم بعاث وما كان فيه ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل فتكلم القوم عند ذلك ، فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين أوس بن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس، وجابر بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه : إن شئت رددتها جذعا، وغضب الفريقان جميعا وقالا : ارجعا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة ، وهى حرة، فخرجوا إليها فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، أتدَّعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ـ الله الله. فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، فأنزل الله عز وجل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . يعنى الأوس والخزرج إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . يعنى شاسا وأصحابه يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . قال جابر ابن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلينا بيده، وأصلح الله تعالى ما بيننا ، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوما أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم [٢٤].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ

أى إن استمعتم إلى ما يلقيه بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس ولنتم لهم، لا يكتفون بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم ، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنيتكم القديمة وكفرهم بالله بعد إيمانكم.

وقد وصف - سبحانه - الذين يحاولون الوقيعة بين المؤمنين بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب، إنصافا لمن لم يفعل ذلك منهم.

ونعتهم بأنهم أُوتُوا الْكِتَابَ . للإشعار بأن تضليلهم متعمد وبأن تآمرهم على المؤمنين مقصود، فهم أهل كتاب وعلم، ولكنهم استعملوا علمهم فى الشرور والآثام.

وقوله : يَرُدُّوكُم . أصل الرد الصرف والإرجاع، إلا أنه هنا مستعار لتغيير الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير ، كقول الشاعر :

فرد شعورهن السود بيضا

ورد وجوههن البيض سودا

أى يصيروكم بعد إيمانكم كافرين، والكاف مفعوله الأول وكافرين مفعوله الثانى .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حسدا مِّن عند أنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . (البقرة : ١٠٩).

١٠١ - وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

أى : كيف يتصور منكم الكفر أو يسوغ لكم أن تسيروا فى أسبابه ، وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضة طرية صباح مساء ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين ظهرانيكم ، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم ، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر.

وهذا كقوله تعالى : وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . (الحديد : ٨).

قال ابن كثير : وكما جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوما : « أى المؤمنين أعجب إيمانا ؟ قالوا : الملائكة ، قال وكيف لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن، قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قالوا : فأى الناس أعجب إيمانًا ؟ قال : قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفا فيؤمنون بما فيها ».

وقوله : وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ . جملتان حاليتان من فاعل تَكْفُرُونَ . وهو ضمير الجماعة، وهاتان الجملتان هما محط الإنكار والاستبعاد.

أى أن كلا من تلاوة آيات الله وإقامة الرسول فيهم وازع لهم عن الكفر، ودافع لهم إلى التمسك بعرى الإيمان.

قال قتادة : أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر.

وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . أى ومن يستمسك بدين الله - وهو الإسلام ، ويلتجئ إلى الله فى كل أحواله ويتوكل عليه حق التوكل، فقد هدى إلى الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف.

قال الطبرى ، وأصل العصم المنع، فكل مانع شيئا فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به، ولذلك قيل للحبل عصام، وللسبب الذى يتسبب به الرجل إلى حاجته عصام، وأفصح اللغتين إدخال الباء كما قال عز وجل : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .

وقد جاء اعتصمته كما قال الشاعر :

إذا أنت جازيت الإخاء بمثله

وآسيتنى ثم اعتصمت حباليا

فقال : اعتصمت حباليا ولم يدخل الباء، وذلك نظير قولهم تناولت بالخطام وتناولت الخطام، وتعلقت به وتعلقته (٢٥).

وفى ختام الآية نجد أنها محتملة لمعنيين :

المعنى الأول : أن الكفر بعيد عنكم ، ولا يتأتى منكم الكفر لأن الوحى ينزل عليكم والرسول بينكم. وفى هذاالمعنى ما يومئ إلى إلقاء اليأس فى قلوب هذا الفريق من اليهود من أن يصلوا إلى ما يبتغونه من تفريق المؤمنين ، لأن الوحى والنبى عصمة لهم.

المعنى الثانى : استفهام إنكارى عن احتمال كفرهم مع أن معهم أسباب الإيمان.

قال ابن جرير الطبرى : يعنى بذلك جل ثناؤه :

وكيف تكفرون أيها المؤمنون بعد إيمانكم بالله وبرسوله، فترتدوا على أعقابكم وأنتم تتلى عليكم آيات الله يعنى حجج الله عليكم التى أنزلها فى كتابه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيكم رسوله حجة أخرى عليكم لله، مع آى كتابه ، يدعوكم جميع ذلك إلى الحق ويبصركم الهدى والرشاد ، وينهاكم عن الغى والضلال.

يقول لهم - سبحانه وتعالى - فما وجه عذركم عند ربكم فى جحودكم نبوة نبيكم وارتدادكم على أعقابكم ورجوعكم إلى أمر جاهليتكم (٢٦).

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

المفردات :

حق تقاته : أى حق تقواه.

بحبل الله : أى بالإسلام أو القرآن. استعار له كلمة الحبل حيث إن التمسك به سبب النجاة ، كما أن التمسك بالحبل سبب السلامة.

ولا تفرقوا : أى ولا تتفرقوا، حذفت إحدى التاءين تخفيفا.

فألف : أى فجمع.

شفا حفرة : الشفا طرف الشىء وحرفه مثل شفا البئر وشفا حفرة. ومنه يقال فلان أشفى على الشىء إذا أشرف عليه، كأنه بلغ شفاه أى حده وحرفه.

التفسير :

١٠٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ .

التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقيل التقوى : هى ذوبان الحشا لما سبق من الخطا.

وقيل تقوى الله : هى ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

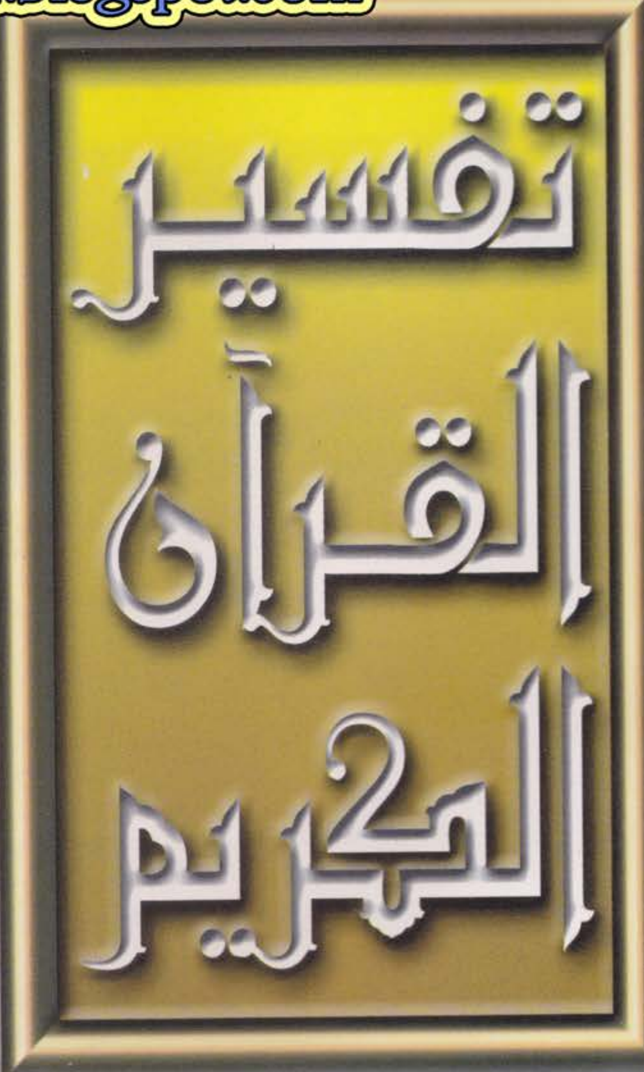
ومعنى الآية : راقبوا الله تعالى، وأطيعوا أمره واجتنبوا مخالفته، بحيث يطاع ولا يعصى، ويذكر ولا ينسى، ويشكر ولا يكفر به.

وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . أى لا تقابلوا ربكم إلا وأنتم على حالة الإسلام الصحيح.

والمراد : داوموا على التخلق بأخلاق الإسلام لأن من شب على شىء شاب عليه، ومن شاب على شىء مات عليه، ومن مات على شىء بعث عليه.









د.عبدالله شحاته





دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت : ٣٥٤٢٠٧٩

فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

المكـــتـبـــة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩١٧٩٥٩ }

إدارة التســويق والمعرض الدائم { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣ }

قال الزمخشرى فى الكشاف : وَلَا تَمُوتُنَّ . معناه ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، وذلك كأن تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تأتنى إلا وأنت على حصان، فأنت لا تنهاه عن الإتيان، ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التى شرطت عليه فى وقت الإتيان.

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة نسختها الآية الكريمة : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . (التغابن : ١٦). والجمهور على أنها غير منسوخة.

قال النيسابورى :

لما حذر الله المؤمنين من فتن أهل الكتاب أمرهم بمجامع الطاعات ومعاقد الخيرات فأولها لزوم سيرة التقوى.

وعن ابن عباس : لما نزلت يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِه . هو أن يطاع فلا يعصى طرفة عين، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى، أو هو القيام بالواجبات كلها والابتعاد عن المحارم بأسرها، وأن لا يأخذه فى الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين ، شق ذلك على المسلمين فنزلت فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . والجمهور على أنها غير منسوخة لأن معنى حق تقاته واجب تقواه، وكما يحق أن يتقى ، وهو أن يجتنب جميع معاصيه.. فلم يبق فرق بين الآيتين [٢٧].

والمراد من قوله تعالى: فاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته . هو عين المراد من قوله تعالى: فاتَّقُوا اللَّهَ مَا استطعْتمْ. (التغابن : ١٦). لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

والاستثناء مفرغ فى قوله : وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . أى لا تموتن على حالة من الأحوال إلا على هذه الحالة الحسنة التى هى حال المداومة على التمسك بالإسلام وتعاليمه وآدابه.

١٠٣ - واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا .. الآية.

أى : كونوا جميعًا مستمسكين بكتاب الله وبدينه وبعهوده، ولا تتفرقوا كما كان شأنكم فى الجاهلية.

ثم يذكر الله المسلمين بنعمته عليهم، نعمة تأليف القلوب ورأب الصدوع، والارتفاع على حزازات الصدور، والتفانى فى غاية أسمى من الشخصيات الزائلة والأمجاد الفارغة، والفخر بالعصبيات والأنساب.. وإنها لمعجزة تلك التى تحوّل شتات العرب إلى وحدة، وعداوتهم إلى مودة، وتربط على قلوبهم هذا الرباط الذى لم تشهد له البشرية من قبل أو من بعد نظيرا.

(والنص هنا يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط (القلب) فلا يقول : فألف بينكم ، إنما ينفذ إلى المكمن العميق فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ . وهو تعبير مصور مقصود.

كذلك يرسم النص صورة لما كانوا عليه ، بل مشهدا حيا متحركا يتملاه الخيال ويتوقع فى كل لحظة حركة كانت ستكون لو لم تدركهم معجزة الإيمان ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ . . فيتصور الخيال هؤلاء الأناس على شفا حفرة من النار، ويظل يتوقع حركة السقوط المتوقعه، حتى تتم حركة الإنقاذ المفاجئة) (٢٨).

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ . أى بمثل هذا البيان الواضح ، يبين الله لكم سائر آياته ، لكى تثبتوا على الهدى، وتزدادوا فيه اعتصاما وقوة.

والقرآن حافل بالدعوة إلى الوحدة والاخوة والتماسك والتكافل والتراحم، والتحذير من الفرقة و العداوة والبغضاء والسخرية والاستهزاء.

وبمثل هذا الهدى الإلهى، والتوجيه النبوى رأينا وحدة لم يعرف التاريخ لها نظيرا، وحدة الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وحدة الألفة والمودة على الدين الجديد والنور الجديد والدعوة الإسلامية الخالدة .

قال تعالى : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (الأنفال : ٦٣).

روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى »(٢٩).

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »(٣٠).

١٠٤ - ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التى تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والمراد بالخير ما فيه صلاح للناس دينى أو دنيوى.. والمراد بالمعروف ما حسنه الشرع وتعارف العقلاء على حسنه. والمنكر ضد ذلك.

والمعنى : ولتكن منكم أيها المؤمنون طائفة قوية الإيمان عظيمة الإخلاص، تبذل أقصى طاقتها وجهدها فى الدعوة إلى الخير الذى يصلح من شأن الناس، وفى أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التى توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة، وفى نهيهم عن المنكر الذى يأباه شرع الله وتنفر منه الطباع الحسنة.

وقد دلت الآية على أن الأمة يجب عليها أن تخصص طائفة منها تقوم بالدعوة إلى الله ، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ . وهذا لا يعفى سائر أفراد الأمة من القيام بهذا الواجب كل بحسب طاقته .

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أى وأولئك القائمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هم الكاملون فى الفلاح والنجاح.

(وقال بعض العلماء : وفى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها وركن مشيد من أركانها وبه يرتفع سنامها ويكمل نظامها) (٣١).

وقد أورد الحافظ ابن كثير بعض الأحاديث النبوية الشريفة فى الدعوة إلى المحافظة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقيام كل فرد من الأمة بهذا الواجب بحسب قدرته وطاقته .

وهذان حديثان نبويان من تفسير ابن كثير :

١ - جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ». وفى رواية : «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» (٣٢).

٢ - وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجب لكم » (٣٣).

وجاء فى كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة تحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها ما يأتى :

(أ) روى الشيخان عن جرير بن عبد الله قال : بايعت النبى ﷺ على السمع والطاعة، فلقننى : فيما استطعت والنصح لكل مسلم (٣٤).

(ب) روى أبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى : عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال: « يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . (المائدة : ١٠٥) وإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » (٣٥).

(جـ) روى الترمذى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله (٣٦).

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

المعنى الإجمالى :

حثت الآيات السابقة على لزوم الوحدة والجماعة ، ودعت إلى الاعتصام بحبل الله، وتخصيص طائفة من الهداة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهنا تحذر الآيات من الفرقة ، وتدعو إلى الاعتبار بالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وما ينتظرهم من عذاب عظيم ، فى ذلك اليوم الذى تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه .

التفسير :

١٠٥ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

احذروا الفرقة والاختلاف ، واعتبروا بمن سبقكم من الأمم ، وهم اليهود والنصارى، حيث تفرق كل منهما فرقا مختلفة يكفّر بعضها بعضا، وأختلفوا باستخراج التأويلات الزائغة، وكتم الآيات الناطقة، بسبب ما أخلدوا إليه من حطام الدنيا، ولقد كان تفرقهم هذا واختلافهم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ . أى الآيات والحجج والبراهين الدالة على الحق، والداعية إلى الاتحاد والوئام لا إلى التفرق والاختلاف.

والاختلاف المنهى عنه فى هذه الآية، إنما هو الاختلاف فى الأصول، أما الاختلاف فى الفروع ، الناشئ عن الاجتهاد فى فهم النصوص ، فأمر ثبت فى عهد رسول الله ﷺ وأقره ، ومن ثم كان للمجتهد المخطئ أجر كما أن للمصيب أجرين، لأن الاختلاف فى الفروع أفسح المجال للرخص ، والمسلمون بحاجة إليها (٣٧).

ومن الأحاديث التى ذمت الخلاف، ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن أبى عامر (عبد الله بن لُحى) قال: حججنا مع (معاوية بن أبى سفيان) ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الأهواء - كلها فى النار إلا واحدة - وهى الجماعة - وأنه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب (٣٨) بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » (٣٩).

ثم ختم الله سبحانه الآية ببيان سوء عاقبة المتفرقين والمختلفين فى الحق فقال : وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أى وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة لهم عذاب أليم بسبب تفرقهم واختلافهم الباطل.

(فأنت ترى القرآن الكريم قد نهى عن التفرق والاختلاف بأبلغ تعبير وألطف إشارة، وذلك بأن بيَّن لهم حسن عاقبة المعتصمين بحبل الله دون أن يتفرقوا ، وما بشر به- سبحانه - المواظبين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أنهم هم المفلحون الفائزون .

ثم بين لهم سوء عاقبة التفرق والاختلاف الذى وقع فيه من سبقهم من اليهود والنصارى، وكيف أنه ترتب على تفرقهم واختلافهم أن كفَّر بعضُهم بعضاً، وقاتل بعضهم بعضا، ورمى بعضهم بعضا بالزيغ والضلال، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فلهؤلاء المتفرقين والمختلفين العذاب العظيم) [٤٠].

١٠٦ - يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

المراد ببياض الوجوه ، بهجتها وسرورها وبسواد الوجوه حزنها وكآبتها.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ . (القيامة :٢٢-٢٥).

وقوله سبحانه : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ . (الزمر : ٦٠).

وقوله عز شانه : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ . (عبس : ٣٨ - ٤٢).

قال الزمخشرى فى تفسيره : (البياض من النور والسواد من الظلمة : فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه ، وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب، نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمة الباطل وأهله) [٤١].

وذهب بعض العلماء إلى أن السواد والبياض محمولان على حقيقتهما ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك هذه الحقيقة، فوجب الحمل على ذلك .

جاء فى تفسير النيسابورى :

وفى أمثال هذه الألوان للمفسرين قولان :

أحدهما : وإليه ميل أبى مسلم أن البياض مجاز عن الفرح والسواد عن الغم وهذا مجاز مستعمل قال تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل : ٥٨) .

ولما سلم الحسن بن على الأمر إلى معاوية قال له رجل : يا مسوِّد وجوه المؤمنين.

ولبعض الشعراء فى الشيب قوله :

يا بياض القرون سودت وجهى

عند بيض الوجوه سود القرون

وثانيهما : أن السواد والبياض محمولان على ظاهرهما، وهما النور والظلمة إذ الأصل فى الإطلاق الحقيقة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته وسعى النور بين يديه وبيمينه ، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكمده واسودت صحيفته وأحاطت به الظلمة من كل جانب.

قالوا والحكمة فى ذلك أن يعرف أهل الموقف كل صنف فيعظمونهم، أو يصغرونهم بحسب ذلك، ويحصل لهم بسببه مزيد بهجة وسرور أو ويل وثبور.

وقد اختار الفخر الرازى أن التعبير القرآنى فى الآية محمول على المجاز لا على الحقيقة . فقال

وهذا مجاز مشهور،قال تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل: ٥٨).

ويقال لفلان عندى يد بيضاء، وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه: ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل.. ويقال لمن وصل إليه مكروه: أربد وجهه واغبرّ لونه، وتبدلت صورته ، وعلى هذا فمعنى الآية : أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه، فإن رأى ما يسره ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك اذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة عليه اسود وجهه بمعنى أنه يشتد حزنه وغمه [٤٢].

ومن الطرائف ما روى أن شخصين أحدهما أبيض والآخر أسود تقابلا، فقال الاسود:

ألم تر أن سواد العين لا شك نورها

وأن بياض العين لا شىء فاعلم

وأن سواد المسك لا شىء مثله

وأن بياض اللفت حمل بدرهم

فقال الأبيض :

ألم تر أن بيــاض البــدر لا شيء مــثله
وأن ســـواد الفـــحم حـــمل بدرهم
وأن رجـــال الله بيض وجـــوهـهم
وأن ســود الوجــوه مــأواهم جــهنم

وهي مغالطة من الأبيض لأن سواد أهل النار ليس سواد الخلقة ولكنه سواد الظلمة والمعصية.

وفي الأثر (كم من وجه صبيح ولسان فصيح وجسم مليح غدا بين أحشاء النار يصيح).

وكان زعيم المنافقين حسن الهيئة جميل الصوت ، يجيد تزويق الكلام فقال فيه القرآن : وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . (المنافقون : ٤).

وقد ورد في هدى النبوة « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

ومما تقدم يتضح أن الراجح في سواد الوجوه وبياضها ، هو أنهما محمولان على المجاز لا على الحقيقة، وأن بياض الوجه لا يقرّب صاحبه إلى الله، وأن سواد الوجه لا يبعد صاحبه عن الله ، وإنما يقرّب الإنسان من الله العمل الصالح ، ويبعده عن الله العمل الطالح.

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

أي أما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم - على سبيل التوبيخ أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بسبب كفركم.

والاستفهام في قوله تعالى : أَكَفَرْتُم . للتوبيخ والتعجب من حالهم . قال الآلوسي : والظاهر من السياق أن هؤلاء هم أهل الكتاب ، وكفرهم بعد إيمانهم ، هو كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الإيمان به قبل مبعثه، وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما وجب عليهم من الإقرار بالتوحيد حين أشهدهم على أنفسهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ . (الأعراف : ١٧٢). ويحتمل أن يراد بالإيمان ، الإيمان بالقوة والفطرة ، وكفر جميع الكفار كان بعد هذا الإيمان لتمكنهم بالنظر الصحيح، والدلائل الواضحة، والآيات البينة من الإيمان بالله- تعالى- وبرسوله صلى الله عليه وسلم [٤٣].

وقوله : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . أي فادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب وآلامه بسبب استمراركم على الكفر وموتكم عليه.

١٠٧ - وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى وأما الذين ابيضت وجوهم بركة إيمانهم وعملهم الصالح فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ، أى ففى جنته ونعيمها لأنها محل الرحمة ومكانها هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. أى خلودا أبديا سرمديا فى نعيم لا يحد بحد ولا تبلغ العقول مداه.

ومما تقدم نجد أن الناس فريقان يوم القيامة.

كفار اسودت وجوههم ، ومؤمنون ابيضت وجوهم. وقد ذكر بعض العلماء أن الذين اسودت وجوههم يوم القيامة هم الخوارج لأنهم كفروا بعد إيمانهم .

وقال آخرون : عنى بذلك كل من كفر بالله بعد الإيمان.

وقال آخرون بل الذين عنوا بقوله أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . هم المنافقون ، كانوا أعطوا كلمة الإيمان بألسنتهم وانكروها بقلوبهم وأعمالهم.

قال ابن جرير الطبرى - بعد أن ذكر هذه الآراء.

وأولى الأقوال التى ذكرناها فى ذلك بالصواب القول الذى ذكرناه على أبى بن كعب، أنه عنى بذلك جميع الكفار، وأن الإيمان الذى يوبخون على ارتدادهم عنه هو الإيمان الذى أقروا به يوم قيل لهم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شهدنا . (الأعراف : ١٧٢). وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميع أهل الآخرة فريقين أحدهما سوداء وجوهم، والآخر بيضاء وجوهم ، فمعلوم إذا لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان أن جميع الكفار داخلون فى فريق من اسود وجهه، وأن جميع المؤمنين داخلون فى فريق من ابيض وجهه.

١٠٨ - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ . هذه الحقائق التى تتصل بعذاب الكافرين ونعيم المؤمنين أو هذه الآيات البينات والحجج الواضحات نَتْلُوهَا عَلَيْكَ . يا محمد بِالْحَقِّ . أى محقين عادلين فيما بيناه من جزاء للعباد حسب أعمالهم وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ . أى ليس بظالم لهم، بل هو الحكم العدل الذى لا يجور، لأنه القادر على كل شىء، العالم بكل شىء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه.

١٠٩ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ .

أى الجميع ملك له وحده : خلقا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا.

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ . يئول التصرف فى شئون الدنيا والآخرة فيحكم بالحق والعدل، والحق يقتضى أن يكون لكل عمل جزاؤه، وأن يكون لكل شىء وزنه، وألا يترك الناس سدى، وألا يكون الخير والشر سواء.

★ ★ ★

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

المفردات :

امة	: الأمة : الجماعة .
الفاسقون	: الخارجون عن طاعة الله .
يولوكم الأدبار	: يعطوكم ظهوركم منهزمين .
ضربت عليهم الذلة	: أحيطوا بالذلة كما تحيط الخيمة بمن ضربت عليه، والمراد بالذلة: الهوان والصغار .
ثقفوا	: وجدوا .
بحبل	: بعهد .
باءوا	: رجعوا .
المسكنة	: الضعف والحاجة الناشئة عن فطرة فيهم .

١١٠ - كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. الآية.

والمعنى :

وجدتم خير أمة أخرجت للناس لأنكم تأمرون بالمعروف أى بالقول أو الفعل الجميل المستحسن فى الشرائع والعقول وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ . أى كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ويأباه أهل الإيمان القويم، والعقل السليم (٤٤).

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. أُخْرِجَتْ .. إنه لتعبير يلفت النظر، لفظ أخرج، وبناؤه للمجهول.. وهو يكاد يشى باليد الخفية المدبرة، تخرج هذه الأمة إخراجا، وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب، ومن وراء الستار السرمدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله .

إنها للفظة تصور حركة خفية المسرى، لطيفة الدبيب، حركة تخرج على مسرح الوجود أمة .. فيا لها من يد قادرة مدبرة، تشى بها لفظه مصورة معبرة [٤٥].

والخطاب فى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : كُنتُمْ للمؤمنين الذين عاصروا النبى صلى الله عليه وسلم ولمن أتى بعدهم واتبع تعاليم الإسلام إلى يوم الدين .

جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال ابن عباس فى قوله تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال فى الآية : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . أى خيارا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. . (البقرة : ١٤٣).

وفى مسند أحمد وجامع الترمذى من رواية حكيم بن معاوية عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل» [٤٦] وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذى.

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات ، بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبى قبله ولا رسول من الرسل [٤٧].

وقد ساق ابن كثير فى تفسيره أحاديث كثيرة فى فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ونقل منها الأستاذ محمد على الصابونى خمسة عشر حديثا نبويا شريفا فى كتاب (مختصر تفسير ابن كثير) منها ما رواه البخارى ومسلم، ومنها ما رواه الإمام أحمد ومنها ما روى فى كتب السنن. وسننقل منها هذا الحديث الشريف :

روى مسلم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عرضت علىَّ الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط والنبى ومعه الرجل والرجلان والنبى وليس معه أحد، إذ رفع لى سواد عظيم، فظننت أنهم أمتى فقيل : هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت، فإذا سواد عظيم ، فقيل : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما الذى تخوضون فيه ؟) فأخبروه فقال : (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكَّاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم، قال : (أنت منهم) ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : سبقك بها عكَّاشة) [٤٨].

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

لقد بين الحق سبحانه وتعالى سبب أفضلية هذه الأمة فقال : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . وهم ثلاث ركائز :

الأمر بالمعروف : والدعوة إلى الخير والكمال والسير على الصراط المستقيم .

والنهى عن المنكز : والتحذير من الفعل القبيح والسلوك المستهجن والنهى عن ارتكاب الفواحش ، واقتراف المعاصى.

والإيمان بالله : اليقين الجازم بوجوده وطاعته ، وإخلاص العبادة له، والتمسك بأمره والبعد عما نهى عنه.

والآية الكريمة وسام علوى لهذه الأمة إذا قامت بدورها وأدت واجبها وأطاعت خالقها واهتدت بسنة نبيها ورسولها.

فهل وعت الأمة الإسلامية هذا التنويه ؟.

إن واقع المسلمين الملىء بالضعف والهوان والفسوق والعصيان، والأثرة والتنازع والاختلاف، والتخلف والتأخر، وضعف الهمم والعزائم . كل هذا يدمى قلوب المؤمنين الصادقين .

ولا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : (إيمان صادق وعمل مخلص وتحمل تبعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر).

قال ابن كثير : بعد أن ساق طائفة من الأحاديث النبوية فى فضل الأمة المحمدية - : فهذه الأحاديث فى معنى قوله تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .

فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح. كما قال قتادة : بلَّغنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فى حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . ثم قال : (من سره أن يكون من هذه الأمة فيؤد شرط الله فيها) رواه ابن جرير.

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم .

أى وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ . بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم : أى لكان إيمانهم خيرا لهم فى دنياهم وآخرتهم، ولنالوا الخيرية التى ظفرت بها الأمة الإسلامية، ولكنهم لم يؤمنوا فامتنع الخير فيهم، لامتناع الإيمان الصحيح منهم .

مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ أى قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، كعبد الله ابن سلام وأضرابه.

وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . أى المتمردون فى الكفر، الخارجون عن الحدود.

١١١ - لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ .

سيقت هذه الآية لتطمئن المؤمنين الصادقين ، بأن هؤلاء الفاسقين من أهل الكتاب لن يستطيعوا إلحاق أى ضرر بالغ بهم، ما داموا معتصمين بدينهم ، وكل ما يستطيعون أن يلحقوه بهم لا يتعدى أن يكون ضررا يسيرا كالطعن، والشتم ، والسخرية والتهديد والوعيد.

وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ .

بشرت الآية المسلمين بثلاث بشارات :

الأولى : انهم فى مأمن من الضرر البليغ من جهة أهل الكتاب .

الثانية : أن أهل الكتاب لو قاتلوهم، فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم .

الثالثة : أن أهل الكتاب لن يحرزوا نصرا على المؤمنين، ولن تكون لهم شوكة أو قوة للأخذ بثأرهم بعد هزيمتهم أمام المؤمنين .

جاء فى تفسير ابن كثير ، وهكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة : (بنى قينقاع) (وبنى النضير) (وبنى قريظة) ، كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام ، كسرهم الصحابة فى غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين. ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم بملة الإسلام ، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام .

١١٢ - ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ...

إن هؤلاء اليهود أحاطت بهم الذلة فى جميع أحوالهم أينما وجدوا وحيثما حلوا إلا فى حال اعتصامهم بعهد من اللَّه أو بعهد من الناس.

وقال الشيخ محمد عبده : إن حالهم معكم أن يكونوا أذلاء مهضومى الحقوق رغم أنوفهم، إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ . وهو ما قررته شريعته لهم، إذا دخلوا فى حكمكم من المساواة فى الحقوق والقضاء وتحريم إيذائهم وهضم شىء من حقوقهم ، وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ . هو ما تقتضيه المشاركة فى المعيشة من احتياجهم إليكم واحتياجكم إليهم فى بعض الأمور، أى فهذا القدر المستثنى من عموم الذلة لم يأتهم من أنفسهم وإنما جاءهم من غيرهم (٤٩) .

وأجاز بعض المفسرين : أن يراد من حبل الناس، لجوءهم إلى قوة غالبة فى الأرض من غير المسلمين، يستظلون بحمايتهم ، ويستمدون منهم العون والقوة، كما هو شأنهم فى هذا الزمان (٥٠).

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ . أى رجعوا به مستحقين له : وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ . أى فرضت عليهم والصقت بهم، فاليهودى يشعر فى نفسه - دائماً- بالفقر، وإن كان موسرا غنيا، وبالضعف وإن كان قويا.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ .

(يكشف القرآن الكريم عن سبب هذا القدر المكتوب على أهل الكتاب، فإذا هو الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق، المنبعثان بدورهما عن العصيان والاعتداء، وإذن فهو الجزاء العادل، إنه الذلة فى مقابل التمرد، والمسكنة فى مقابل التطاول، والهزيمة فى مقابل الاعتداء .. جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد) (٥١).

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . أى ذلك الكفر، والقتل للأنبياء ، كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر على حدود الله.

وتلك طبيعة اليهود دائمًا: تمرد على الدين، واعتداء على حرمات الله وحقوق عباده.

وقد ارتكب اليهود هذه القبائح وهم عالمون بجرمهم مخالفون لشرع الله عن تعمد وإصرار.

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره هنا . قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا، ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم (٥٢).

خاتمة :

إن الله تعالى لا يحابى أمة من الأمم ولا شعبا من الشعوب، لقد نصر المؤمنين عندما كانوا أهلا للنصر، لقد مكنهم الله فى الأرض وأورثهم عروش الأكاسرة والقياصرة، وأذل لهم اليهود وهم شعب غليظ الرقبة، وفتح لهم البلاد ومكنهم من العباد، فلما أعرض المسلمون عن هدى الله وشرعه، مكن منهم عدوهم جزاء وفاقا لأعمالهم.

ومن هنا نعلم أن الشرط فى نفى ضرر اليهود الذى يؤثر فى الأمة الإسلامية هو أن تكون مؤمنة بربها حق الإيمان، متبعة لهدى رسولها محمد صلى الله عليه وسلم .

جاء فى تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى :

فإن قال قائل : ولكن اليهود قد انتصروا على المسلمين، وأقاموا لهم دولة فى بقعة من أعز بقاع البلاد الإسلامية وهى فلسطين، فهل تخلف وعد الله ؟.

والجواب على ذلك أن وعد الله - تعالى - ما تخلف ولن يتخلف، وقد حققه - سبحانه - لأسلافنا الصالحين الذين آمنوا به حق الإيمان ، ولكن المسلمين فى هذا العصر هم الذين تغيرت أحوالهم، فقد فرَّطوا فى دينهم. وأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات وتفرقوا شيعا وأحزابا، وتنكبوا الطريق القويم، ولم يباشروا الأسباب التى شرعها الله تعالى لبلوغ النصر، ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية .. فلما فعلوا ذلك تبدل حالهم من الخير إلى الشر ، ومن القوة إلى الضعف، وسلَّط الله عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم (٥٣). لأن الله تعالى : لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ. (الرعد : ١١) . وإذا عاد المسلمون

إلى أمر ربهم وتعاليم دينهم علا عليهم المجد والعز والرفعة والنصر. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. (الحج : ٤٠).

★ ★ ★

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

المفردات :

قائمة : مستقيمة عادلة، من أقمت العود فقام، على معنى : استقام.

آناء الليل : ساعاته وأوقاته .

ويسارعون فى الخيرات : يبادرون إليها، ويتنافسون فيها .

فلن يكفـروه : فلن يحرموا ثوابه، وحسن الجزاء عليه، والأصل فى الكفر: الستر ، أى : لن يحجب عنهم ذلك الأجر .

١١٣ - لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

أى ليس أهل الكتاب متساوين فى الكفر وسوء الأخلاق بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له، لم تتركه كما تركه الأكثرون من أهل الكتاب وضيعوه.

والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب، أولئك الذين أسلموا منهم واستقاموا على أمر الله وأطاعوه فى السر والعلن.

(كعبد الله بن سلام) و (وأسد بن عُبيد) و (ثعلبة بن شعبة) و (النجاشى ومن آمن معه من النصارى)، فهؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، ولم يفرقوا بين أنبياء الله ورسله ، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم.

روى عن قتادة أنه كان يقول فى الآية : (ليس كل القوم هلك قد كان لله فيهم بقية) وروى عن ابن عباس أنه قال فى الأمة القائمة (أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه) [٥٤].

قال الإمام محمد عبده : هذه الآية من العدل الإلهى فى بيان حقيقة الواقع وإزالة الإبهام السابق، وهى

دليل على أن دين الله واحد على السنة جميع الأنبياء، وأن كل من أخذه بإذعان وعمل فيه بإخلاص فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو من الصالحين (٥٥).

مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ.

أى مستقيمة عادلة من قولك : أقمت العود فقام بمعنى استقام.

واختار ذلك الزمخشرى فى الكشاف.

ورجح بعض المفسرين أن معناها موجودة ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له غير مضطربة فى التمسك به.

كما فى قوله تعالى : إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا .

أى ملازمًا لمطالبته بحقك.

ومنه قوله تعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ . اى ملازما له (٥٦).

وفى ذلك تعريض بالمنحرفين عن الحق، بأنهم لا يعدّون من أهل الوجود ، وإنما حكمهم حكم العدم، وفى مثلهم قال الشاعر :

خلقوا وما خلقوا لمكرمـــة فكأنهم خلقـوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سمـاح يد فكأنهم رزقوا وما رزقــوا

يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

أى يقرءون القرآن حال صلاتهم من الليل.

والمعنى الإجمالى للآية : ليس أهل الكتاب متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح، بل منهم قوم سلموا منها، وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله آناء الليل وأطراف النهار .

وآناء الليل أى أوقاته وساعاته ، والمراد بها صلاة العشاء، أو الصلاة بين المغرب والعشاء، أو الصلاة فى منتصف الليل، وهو الوقت الذى غارت فيه النجوم ونامت العيون وبقى الله الواحد القيوم .

قال الطبرى فى تفسير الآية ، وهذه الأقوال التى ذكرتها على اختلافها متقاربة المعانى ، وذلك أن الله تعالى ذكره وصف هولاء القوم بأنهم يتلون آيات الله فى ساعات الليل وهى آناؤه ، وقد يكون تاليها فى صلاة العشاء تاليا لها آناء الليل، وكذلك من تلاها فيما بين المغرب والعشاء، ومن تلاها جوف الليل، فكل تال له ساعات الليل غير أن أولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال : عنى بذلك تلاوة القرآن فى صلاة العشاء لأنها صلاة لا يصليها أحد من أهل الكتاب (٥٧).

وقد نقل الفخر الرازى فى هذه الآية قولين :

(**الأول**) : أن المراد بهذه الأمة القائمة عبد الله بن سلام وأصحابه من المسلمين.

(**الثانى**) : كل من أوتى الكتاب من أهل الأديان ، أى يتلون ما عندهم من مناجاة الله ودعائه والثناء عليه عز وجل وهى كثيرة فى كتبهم ، وقد رجح الرأى الثانى الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا فى تفسير المنار.

ونقل صاحب المنار نقلاً من زبور (مزامير) داود عليه السلام:

كقوله فى المزمور السادس والثلاثين (٥ - يارب فى السموات رحمتك، أمانتك إلى الغمام ٦ - عدلك مثل جبال الله وأحكامك لجة عظيمة ، ٧ - ما أكرم رحمتك يا الله، فبنو البشر فى ظل جناحيك يحتمون ٨ - يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم، ٩ - لأن عندك ينبوع الحياة بنورك نرى نورا، ١٠ - أدم رحمتك للذين يعرفونك وعدلك للمستقيمى القلب).

وقوله فى المزمور الخامس والعشرين : (١ - إليك يا رب أرفع نفسى . ٢ - يا إلهى عليك توكلت، فلا تدعنى أخزى، لا تشمت بى أعدائى . ٣ - أيضا كل منتظريك لا يخزون، ليخز الغادرون بلا سبب. ٤ - طرقك يارب عرّفني، سبلك علمنى ، ٥ - دربنى فى حقك علمنى، لأنك أنت إله خلاصى ...).

وأمثال هذه الأدعية والمناجاة كثيرة جدا ، وإذا رآها العربى البليغ غريبة الأسلوب، فليذكر أنها ترجمة ضعيفة وأن قراءتها بلغة أهل الكتاب أشد تأثيراً فى النفس من قراءة ترجمتها هذه [٥٨].

أما السجود الذى أسنده إليهم ، فهو إما عبارة عن صلاتهم ، وإما استعمال له بمعناه اللغوى وهو التطامن والتذلل كما فى قوله تعالى فى خطاب مريم : وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . (آل عمران : ٤٣) .

١١٤ - يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ .

تستمر هذه الآية فى رسم صورة وضيئة لمن آمن من أهل الكتاب.

فقد آمنوا إيمانا عميقا بالله وباليوم الآخر ، وعملوا بمقتضى هذا الإيمان فأمروا بالمعروف وأرشدوا الناس إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونهوا عن المنكر، وحذروهم من الكفر، وسارعوا إلى فعل الخيرات، منتقلين فى كل أعمالهم من خير إلى خير، وهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين.

قال الفخر الرازى : واعلم أن وصفهم بالصلاح فى غاية المدح، ويدل عليه القرآن والمعقول.

أما القرآن فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء فقال بعد ذكر إدريس وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم : وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ . (الأنبياء : ٨٦).

وذكر حكاية عن سليمان أنه قال : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ . (النمل : ١٩).

وأما المعقول ، فهو أن الصلاح ضد الفساد ، وكل ما لا ينبغى أن يكون فهو فساد سواء كان ذلك فى العقائد أو فى الأعمال، فإذا كان الصلاح معناه الأمثل والأفضل، كان الصلاح دالا على أكمل الدرجات (٥٩).

من تفسير الطبرى :

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

يعنى بقوله عز وجل : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ : يصدقون بالله وبالبعث بعد الممات ويعلمون أن الله مجازيهم بأعمالهم، وليسو كالمشركين الذين يجحدون وحدانية الله ويعبدون معه غيره، ويكذبون بالبعث بعد الممات، وينكرون المجازاة على الأعمال والثواب والعقاب، وقوله: ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ . أى يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به ، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ . أى وينهون الناس عن الكفر بالله وتكذيب محمد وما جاءهم به من عند الله، يعنى بذلك أنهم ليسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناس بالكفر وتكذيب محمد فيما أتاهم به من عند الله. ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ . أى يبتدرون فعل الخيرات خشية أن يفوتهم ذلك. ثم أخبر جل ثناؤه أن هؤلاء الذين هذه صفتهم من أهل الكتاب، هم من عداد الصالحين ، لأن من كان منهم فاسقا فقد باء بغضب من الله لكفره بالله وآياته، وعصيانه بربه، واعتدائه فى حدوده (٦٠).

١١٥ - ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (٦١).

أى : ما يقدمونه من أفعال الخير، لن يضيع عند الله ثوابه، ولا ينقص جزاؤه، وإنما سيجازيهم الله عليه بما هم أهل له من ثواب جزيل وأجر كبير بدون أى نقصان أو حرمان .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ . أى لا يخفى عليه عمل الأتقياء ، ولا يذهب لديه أجر من أحسن عملا.

(فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة. وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق، وأنهم يتلون آيات الله آناء الليل وأطراف النهار، وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله فى صلواتهم وسجودهم ، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأنهم يأمرون بالمعروف، وأنهم ينهون عن المنكر وأنهم يسارعون فى الخيرات ، وأنهم من الصالحين.

ثم بشرهم سبحانه ، بحسن الجزاء، لأن الله عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملا) (٦٢).

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

سياج الأمم ، وأساس رفعتها وتفوقها، وقانون بقائها التناصح والتواصى بالحق والصبر، وقد مدح الله أمة الإسلام بأنها خير أمة إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة : الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والإيمان

بالله، ومدح طائفة من **أهل الكتاب بثباتهم على الحق، الأمر** بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل **ترك الأمر بالمعروف والنهى** عن المنكر.

أخرج أبو داود **فى سننه عن عبد الله بن مسعود قال : قال** رسول الله صلى الله عليه وسلم - : إن أول ما دخل النقص على بنى **إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول** له : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، **ثم يلقاه من الغد على حالة فلا يمنعه** ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، **ثم قال - صلى الله عليه وسلم** - : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة : ٧٨، ٧٩).
ثم قال : كلا والله : لتأمرن ، ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا - أى ولتحملنه على اتباع الحق حملا - أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم (٦٣).



﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

المفردات :

حرث قوم : زرعهم .

صِرٌّ : برد شديد .

التفسير :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

اختلف المفسرون فى المراد بالذين كفروا، فقيل : هم بنو قريظة والنضير من اليهود ، وقيل : هم مشركو قريش عامة، وقيل : هم أبو سفيان ورهطه خاصة، وقيل : إن الكلام فى الكفار عامة لعموم اللفظ فهو على إطلاقه ويدخل فيه اليهود وكذا مشركو مكة دخولاً أوليا، قالوا: إنهم كلهم كانوا يعتزون بكثرة الأموال ويعيّرون النبى ﷺ وأتباعه بالفقر ويقولون: لو كان محمد على الحق ما تركه ربه فى هذا الفقر، وقيل: هم المنافقون (٦٤).

والمعنى :

إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به ، واغتروا بأموالهم وأولادهم فى الدنيا، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا - ولو يسيرا - من عذاب الله، الذى سيحيق بهم يوم القيامة بسبب كفرهم وجحودهم.

وليس المراد : خصوص الأموال والأولاد، بل كل ما يعتبره الإنسان وسيلة قوة ومنعة، وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر ، لأن الإنسان- فى الغالب - يدفع عن نفسه بالفداء بالمال ، أو الاستعانة بالأولاد.

وقد حكى القرآن غرور المترفين بالأموال والأولاد فقال سبحانه : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . (سبأ : ٣٤-٣٥) . فأخبرهم الله تعالى بأن الكافر لا ينفعه شىء من ذلك فى الآخرة، ولا مخلص له من العذاب ولا محيص عنه.

وأُوْلَئِكَ المتصفون بالكفر أَصْحَابُ النَّارِ أهلها الملازمون لها هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لا يبرحونها أبدا .

قال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. (فاطر : ٣٦).

وقال سبحانه : وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (المائدة : ٣٧).

١١٧ - مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

قال أكثر المفسرين : الصر : البرد الشديد.

وفى الصحاح : الصِّر بالكسر برد يضر بالنبات والحرث.

وقيل : الصِّرُّ : السموم الحارة، وعن ابن عباس فِيهَا صِرٌّ أى نار. وعلى القولين الغرض من التشبيه حاصل سواء كان بردا مهلكا أو حرا محرقا (٦٥).

وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا . شَيْئًا منصوب على أنه مفعول أى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا من الإغناء والدفع، وتنكير شَيْئًا للتقليل .

وفى تفسير ابن كثير صِرٌّ أى برد شديد، وقال عطاء : برد وجليد، أو فيها صِرٌّ . أى نار ، وهو يرجع إلى القول الأول، فإن البرد الشديد، ولاسيما الجليد يحرق الزرع والثمار كما يحرق الشىء بالنار .

وترسم الآية مشهدًا حسيا ينبض بالحركة، يصور ضياع أعمال الكافرين، وذهاب ما ينفقون فى حياتهم الدنيا من أموال.

قال النيسابورى : **والظاهر أن الضمير فى ينفقون عائد** إلى جميع الكفار ، وذلك أن إنفاقهم إما أن يكون لمنافع الدنيا فلا **يبقى له أثر فى الآخرة، فى حق المسلم فضلاً** عن الكافر ، وإما أن يكون لمنافع الآخرة، فالكفر مانع عن الانتفاع به، **ولعلهم كانوا ينفقون فى الخيرات كالإحسان** إلى الضعفاء والأرامل راجين خيرا كثيرا فى المعاد لكنهم إذا قدموا **الآخرة رأوا كفرهم مبطلا لآثار** تلك الخيرات، فكان كمن زرع زرعا وتوقع منه نفعا كبيرا فأصابته جائحة **فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف.**

ولعلهم كانوا ينفقون **فيما ظنوه خيرا وهو معصية كإنفاق الأموال** فى إيذاء الرسول ﷺ وفى تخريب ديار المسلمين.

ولا يبعد أيضا تفسير الآية بخيبتهم فى الدنيا فإنهم أنفقوا أموالا كثيرة فى تجهيز الجيوش والإغارة على المسلمين ، **وتحملوا المتاعب ، ثم انقلب الأمر عليهم** وأظهر الله الإسلام وأعز أهله، فلم يبق مع الكفار من ذلك **الإنفاق إلا الحيرة والحسرة، وقيل:** المراد بالإنفاق ههنا هو جميع أعمالهم التى يرجون الانتفاع بها فى الآخرة (٦٦).

وجاء فى ظلال القرآن :

(وننظر فإذا نحن أمام حقل تهيأ للإخصاب ، ثم إذا العاصفة تهب ، إنها عاصفة باردة ثلجية، تحرق هذا الحرث بما فيها من صر - واللفظة ذاتها كأنما هى مقذوف يلقى بعنف فيصور معناه بجرسه النفاذ - وإذا الحرث كله مدمر خرب.

إنها لحظة تمّ فيها كل شىء، تم فيها الدمار والهلاك، وإذا الحرث كله يباب.. ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا فى هذه الدنيا، ومثل ما بأيديهم من نعم الأموال والأولاد.. كله إلى هلاك وفناء دون ما متعة حقة ، ودون ما جزاء (٦٧).

وقوله تعالى : أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . أى أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصى فدمرته ، وأهلكت ما فيه من ثمار، وهم أحوج ما يكونون إلى هذا الزرع وتلك الثمار.

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ . بإحباط الأجر وذهاب الثواب على ما أنفقوا وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان أو بترك النظر فى الآيات البينات بعد ما ظهرت لهم، أو بالجحود بعد النظر ونهوض الحجة (٦٨).

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

المفردات :

بطانة : بطانة الرجل، خاصته وموضع سره. مأخوذ من بطانة الثوب . من دونكم: من غير ملتكم.

لا يالونكم خبالا : لا يقصرون ولا يدخرون وسعا فى إنزال الخبال بكم . والخبال: الشر والفساد .

ودوا ما عنتم : العنت : المشقة . والمعنى : هم تمنوا ما يشق عليكم .

البغضاء : الحقد والكراهية.

بذات الصدور . بما انطوت عليه القلوب من الأسرار. فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى.

التفسير :

١١٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ... الآية .

بعد أن بين الله أحوال المؤمنين والكافرين ، حذَّر المؤمنين من موالاة الكافرين، وجعلهم موضع ثقتهم، باطلاعهم على بواطن أمورهم فقال :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً .

أى : لا تتخذوا من غير المسلمين أصفياء: تجعلونهم مواضع سركم ومشورتكم، لأنهم لا يدخرون وسعا فى إلحاق الشر والفساد بكم.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ . أى : أحبوا أن يقع بكم ما يشق عليكم من أنواع المحن والبلاء فى شئون دينكم ودنياكم.

قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . أى : قد ظهرت الكراهية من أفواههم، على فلتات ألسنتهم . وما تُخفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . وما تنطوى عليه صدورهم من الحقد والكراهية لكم أكبر مما ظهر على أفواههم.

قد أوضحنا لكم الآيات الدالة على شديد بغضهم لكم. فلا توالوهم إن كنتم من ذوى العقول الواعية، فإن مقتضى العقل السليم: ألا يتخذ الإنسان أحدا من غير ملته صفيا له ومحل ثقة.

وفى هذا البيان ما يقطع عذرهم ، إذا ما خالفوا عن أمر ربهم، واتخذوا أولياءهم من أعدائهم.

١١٩ - هَا أَنتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ... الآية .

لما نهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين ، وبين أنهم يبغضونهم ولا يدخرون وسعا فى خبالهم، عقب ذلك بما يؤكد وجوب الانتهاء عن موالاتهم. فقال :

هَا أَنتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ .

أى : أنكم تخلصون لهم، وتودونهم ، وترجون لهم الخير. ولكنهم لا يحبونكم ، ولا يرغبون إلا فى خباكم وفسادكم ، ثم إنكم - إلى جانب حبكم لهم - تؤمنون بكل ما أنزل من الكتب السماوية ، وبالرسل الذين أنزلت عليهم.

وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا . نفاقا لكم وخداعا حتى تستبطنوهم وتخبروهم بأسراركم، فيستغلوا مودتكم فيما ينفعهم ، وفيما يجلب الخبال فيكم .

وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ :

أى : إذا فارقوكم ، وخلصوا إلى أنفسهم، عضوا أناملهم من الغيظ حسرة وأسفا، حيث لم يجدوا إلى التشفى والنيل منكم سبيلا.

وعض الأنامل فى الآية، كناية عن شدة الغيظ.

قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .

أى : قل لهم يا محمد : موتوا بغيظكم من بقائنا على الإسلام ، فإن الله متم نعمته ومكمل دينه، ومعل كلمته، ولو كره الكافرون.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . فيعلم ما تنطوى عليه ضمائرهم، وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد. ويكفى المسلمين شره، ويجازيكم عليه.

١٢٠ - إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ... الآية.

المعنى : إن نالكم خير- ولو كان قليلا - أحزنهم ، وإن نزلت بكم مصيبة فادحة يفرحوا بها ويشمتوا بكم.

وَإِن تَصْبِرُوا . على عداوتهم وكيدهم . وَتَتَّقُوا . الله فى كل أموركم : بفعل الواجبات وترك المنهيات. ومن ذلك ترك محبتهم وإطلاعهم على أسراركم.

لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا . أى لا ينال منكم مكرهم وحيلهم التى يدبرونها لكم شيئا قليلا من الضرر، بحفظ الله الذى وعد به، ما دمتم تتقون الله وتخشون عقابه.

إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ . من الكيد لكم ، ومحاولة إلحاق الأذى بكم.

مُحِيطٌ . لا يعزب عنه من ذلك شىء .

ومقتضى علمه تعالى بما يعملون : أن يحاسبهم ويجزيهم عليه.

وقرئ بتاء الخطاب تَعْمَلُونَ . والخطاب للمؤمنين.

والمعنى : إن الله محيط بما تعملونه، أيها المؤمنون ، من الصبر والتقوى وسائر الطاعات. والإذعان لما نهاكم عنه من مودة من ليس على دينكم ، وإطلاعهم على أسراركم .

وفيه إشارة إلى أن الامتثال مدعاة للغلب والفوز والانتصار، وأن المخالفة عن أوامر الله، سبيل الندامة والهلاك (٦٩).



﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾

المفردات :

غدوت : أصل الغدو، الذهاب أول النهار، ثم استعمل فى مطلق الخروج .

همت طائفتان منكم ان تفشلا : أشرفتا على الهزيمة .

تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال : تنزلهم الأماكن المناسبة للقتال.

ببدر : بدر، اسم لمكان بين مكة والمدينة كانت به الغزوة المعروفة باسمه .

وانتم اذلة : قليلو العدد والعدة .

من فورهم : أى من ساعتهم.

مسوِّمين : مسومين بكسر الواو المشددة، متخذين سمة، أى علامة تميزهم، وبفتحها، بمعنى معلَّمين من الله تعالى.

١٢٠ آية :

نلحظ أن سورة آل عمران تحدثت عن وحدانية الله وجلاله وعن مظاهر قدرته ورحمته، وعن جوانب من قصة آل عمران، وعن الشبهات التى ساقها اليهود وألوان الحرب النفسية وساقت للمؤمنين من التوجيهات والعظات ما يهدى قلبوهم ويصلح بالهم ويكفل لهم النصر على أعدائهم من خلال ١٢٠ آية فى بداية السورة .

٦٠ آية :

ثم تحدثت سورة آل عمران ، عن جوانب متعددة من غزوة أحد فى حوالى ٦٠ آية من الآية ١٢١ إلى الآية ١٨٠.

قصة غزوة أُحد

كانت غزوة بدر من الغزوات المشهورة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد انتصر أتباعها انتصارا مؤزرا على كفار قريش...

وصمم المشركون على أن يأخذوا بثأرهم من المسلمين، فجمعوا جموعهم، وخرجوا فى جيش كبير، ومعهم بعض نسائهم حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال فى القتال ..

ووصل مشركو قريش ومعهم حلفاؤهم إلى أطراف المدينة فى أوائل شوال من السنة الثالثة ، وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف رجل.

واستشار النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فى شأن هؤلاء المشركين الزاحفين إلى المدينة .

فكان رأى بعضهم - ومعظمهم من الشباب - الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة

وكان من رأى فريق آخر من الصحابة ، استدراج المشركين إلى أزقة المدينة ومقاتلتهم بداخلها، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يميل إلى رأى هذا الفريق إلا أنه آثر الأخذ برأى الفريق الأول الذى يرى أصحابه الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، نظرا لكثرة عدد القائلين بذلك.

ثم دخل النبى - صلى الله عليه وسلم - بيته ، ثم خرج منه وقد لبس آلة حربه، وشعر بعض المسلمين أنهم قد استكرهوا النبى - صلى الله عليه وسلم - على القتال ، فأظهروا له الرغبة فى النزول على رأيه، إلا أنه لم يستجب لهم ، وقال كلمته التى تعلم الناس الحزم وعدم التردد : « ما ينبغى لنبى لبس لأمَته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج. فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس. وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه ... » (٧٠).

ثم خرج النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ألف مقاتل من المسلمين حتى نزل قريبا من جبل « أحد » إلا أن « عبد الله بن أبى بن سلول » انسحب فى الطريق بثلث الناس محتجا بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يأخذ برأيه، بل أخذ برأى غيره.

وعسكر المسلمون بالشعب من أحد ، جاعلين ظهرهم إلى الجبل، ورسم النبى - صلى الله عليه وسلم - الخطبة لكسب المعركة، فجاءت خطة محكمة رائعة. فقد وزع الرماة على أماكنهم وكانوا خمسين راميا، وقال لهم: انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا نؤتين من قبلكم ».

وفى رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لهم : «احموا ظهورنا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا. وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا» [٧١].

وأخيرا التقى الجمعان، وأذن النبى - صلى الله عليه وسلم - لأتباعه أن يجالدوا أعداءهم، وأظهر المسلمون أسمى صور البطولة والإقدام، وكان شعارهم فى هذا الالتحام « أمت أمت ».

وما هى إلا جولات فى أوائل المعركة، حتى ولى المشركون المسلمين الأدبار، ولم يغن عن المشركين شيئاً ما كانت تقوم به نسوتهم من تحريض واستنهاض للعزائم.

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله - تعالى - نصره ، وصدق وعده، فحثوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها.

ورأى الرماة الهزيمة وهى تحل بقريش ، فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم، وحاول أميرهم « عبد الله بن جبير» أن يمنعهم عن ترك أماكنهم عملاً بوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أن معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة ليشاركوا فى جمع الغنائم والأسلاب ...

وأدرك خالد بن الوليد - وكان مشركا - أن ظهور المسلمين قد انكشفت بترك الرماة لأماكنهم، فاهتبل الفرصة على عجل، واستدار بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين فأحدق بهم، وأخذ فى مهاجمتهم من مكان ما كانوا ليظنوا أنهم سيهاجمون منه، فقد كانوا يعتمدون على الرماة فى حماية ظهورهم ..

وعاد المشركون المنهزمون إلى مقاتلة المسلمين، بعد أن رأوا ما فعله « خالد » ومن معه.

واضطربت صفوف المسلمين للتحول المفاجئ الذى حدث لهم، إلا أن فريقا منهم أخذ يقاتل ببسالة وصبر.. واستشهد عدد كبير منهم وهم يحاولون شق طريقهم ..

وأصيب النبى - صلى الله عليه و سلم - خلال ذلك بجروح بالغة، وأشيع أنه قد قتل إلا أنه - صلى الله عليه وسلم - جعل يصيح بالمسلمين : إلىَّ عباد الله، إلىّ عباد الله .. فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا، ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين ..

ومرت على المسلمين ساعة من أحرج الساعات فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد كان المشركون يهاجمون النبى - صلى الله عليه وسلم - بعناد وحقد، وكان المسلمون مستميتين فى الدفاع عن رسولهم وعن أنفسهم.

وكان لهذه الاستماتة آثارها فى تراجع المشركين ، وقد ظنوا أنهم قد أخذوا بثأرهم من المسلمين ..

وخشى النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يكون تراجع المشركين من أجل مهاجمة المدينة، فقال لعلى بن أبى طالب: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة. فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها.

قال على : فخرجت فى آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل واتجهوا إلى مكة.

وعندما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه - : قل له : نعم بيننا وبينك موعد.

وانتهت غزوة أُحد باستشهاد حوالى سبعين صحابيا من بينهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع ... وغيرهم من الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

التفسير :

١٢١ - وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

واذكر لهم يا محمد ليعتبروا ويتعظوا وقت خروجك مبكرا من حجرة زوجك عائشة إلى غزوة أحد.

تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ . أى تنزلهم وتسوّى لهم بالتنظيم والترتيب مواطن وأماكن للقتال بحيث يكونون فى أحسن حال وأكمل استعداد لملاقاة أعدائهم.

وتشير الآية إلى ما فعله النبى - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه قبل أن تبدأ المعركة، فقد اهتم بتنظيم صفوفهم، وبرسم الخطة الحكيمة التى تكفل لهم النصر.

فجعل للجيش ميمنة وميسرة، وجعل الرماة على ظهر الجبل، وأمر الجيش كله ألا يتحرك للقتال إلا عندما يأذن له بذلك.

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أى سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم ونياتكم وأعمالكم، فيجازى كل إنسان على حسب قوله ونيته وعمله. والمقصود من هذه الجملة غرس الرهبة فى قلوب المؤمنين، حتى لا يعودوا إلى مثل ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد، حيث خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٢٢ - إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(الهم) : هو حديث النفس واتجاهها إلى شىء معين دون أن تأخذ فى تنفيذه، فإذا أخذت فى تنفيذه صار إرادرة وعزما وتصميما.

تَفْشَلا : من الفشل وهو الجبن والخور والضعف، يقال فشل يفشل فشلا فهو فشل أى جبان ضعيف القلب.

والمعنى : اذكر يا محمد حين همت طائفتان - وهما بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج، أن تفشلا وتضعفا وتجبنا عن القتال، وتتبعا عبد الله بن أُبى ابن سلول عندما انخذل بثلث الناس وقال : يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٢).

وعن ابن عباس قال : أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم الرشد فثبتوا .. والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ، كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردّها صاحبها إلى الثبات والصبر، ويوطنها على احتمال المكروه ... ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها ولاية الله (٧٣).

وعلى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

التوكل هو الاعتماد على الله تعالى بعد الأخذ فى الأسباب ، فإذا لم يأخذ الإنسان فى الأسباب كان تواكلا لا توكلا.

أى وعلى الله وحده لا على غيره فليكل المؤمنون أمورهم، بعد اتخاذ الأسباب التى أمرهم- سبحانه - باتخاذها ، فإنهم متى فعلوا ذلك تولاهم سبحانه بتأييده ورعايته .

إن حديث القرآن فى سورة آل عمران عن غزوة أحد استمر قرابة ستين آية، ولم يسر القرآن فى أحداث الغزوة حسب ترتيب خروجها وأحداثها. بل حسب مشيئة الحق سبحانه فى أن ينتزع منها العبرة والعظة، ويصوّر الجوّ الذى صاحبها، وبذلك تتحول الغزوة إلى نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات، والنتائج والاستدلالات، يبدأ السياق منها، ثم يستطرد حولها ثم يعود إليها ثم يجول فى أعماق الضمائر، وفى أغوار الحياة، ويكرر هذا مرة بعد مرة، والقرآن بهذا يأسو جراح المؤمنين ويثبت إيمانهم ، ويشحذ عزائمهم ، ويتخلل ذلك تربية وتعليم وبيان لسنن الله ونواميسه، وبهذا كان القرآن كتاب الحياة، أنشأ أمة وأقام دولة وربّى أجيالاً. وصنع ضمائر وحرّك همما وعزائم ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ . (النمل : ٨٨).

١٢٣ - وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

تشير الآية إلى معركة بدر وكانت يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٢هـ، وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذلّ الشرك وأهله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، فيهم فارسان وسبعون بعيرا، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه ، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف، فى سوابغ الحديد والعدة الكاملة، والخيول المسوَّمة (٧٤)، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله.

وقرية بدر لا تزال إلى الآن فى الطريق بين مكة والمدينة، وهى أقرب إلى المدينة منها إلى مكة. وقد زرت هذه القرية وشاهدت مكان المعركة، واستشعرت فضل الله وعونه ومدده الذى أمدَّ به المؤمنين فى غزوة بدر، فنصرهم على عدوِّهم ، مع قلة المسلمين وقلة عدتهم، وكثرة عدوهم واستكمال عدته، ولو تمت أمور هذه الغزوة بمقاييس القوة والاستعداد - دون التوكل على الله - لكان النصر لقريش دون المسلمين، ولكن النصر جرى على سنة الله من نصر المؤمنين المتقين الصابرين المتوكلين على الله ، قال تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ .

وليس المراد بالذل أنهم كانوا ضعاف النفوس، أو كانوا راضين بالهوان.. وإنما المراد أنهم كانوا قليلى العدة والعدد، فقراء فى الأموال وفى وسائل القتال.

قال تعالى فى آية أخرى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا . (التوبة : ٢٥).

وقال الإمام أحمد عن سماك قال : سمعت عياضاً الأشعرى قال : شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء، وقال عمر : إذا كان قتالا فعليكم أبو عبيدة، فكتبنا إليه أنه قد جأش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا أنه قد جاء فى كتابكم تستمدوني، وإنى أدلكم على من هو أعز نصرا، وأحصن جندا، الله عز وجل فاستنصروه، فإن محمد صلى الله عليه وسلم قد نصر فى يوم بدر فى أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي، هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى. قال : فقاتلناهم فهزمناهم، أربع فراسخ، وأصبنا أموالا كثيرة (٧٥).

فَاتَّقُوا اللَّهَ . فى الثبات والصبر وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . أى لعل الله أن ينعم عليكم بالنصر فتشكروه عليه.

١٢٤ - إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ .

المعنى : اذكر يا محمد إذ تقول للمؤمنين يوم بدر : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف منزلين من الله، لتثبيتكم وتقوية قلوبكم على أعدائكم ، وإن أنتم توكلتم عليه وصبرتم .

قال ابن كثير: اختلف المفسرون فى هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أُحد على قولين أحدهما أن قوله تعالى : إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ . متعلق بقوله : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ .

والقول الثانى : يرى أصحابه أن هذا الوعد متعلق بقوله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ... . وذلك يوم أحد.

(والقول الأول قول أكثر المفسرين لأن الكلام متصل بقصة بدر ، ولأن العدة والعدد يوم بدر كانا أقل وكان الاحتياج إلى المدد أكثر » (٧٦).

١٢٥ - بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ .

بَلَىٰ . أى نعم ، يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من الله، ولكنه سبحانه يعدكم بأنكم إِن تَصْبِرُوا . على قتال أعدائكم، وعلى كل ما أمركم الله بالصبر عليه وَتَتَّقُوا . الله وتخشوه وتجتنبوا معاصيه وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا . أى ويعاجلكم المشركون مسرعين ليحاربوكم، وقد أعددتم أنفسكم لقتالهم، إذا فعلتم ذلك - يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة ، معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات مخصوصة.

فى أعقاب الآية :

إذا كان الله تعالى قد أمد المؤمنين بالملائكة فى بدر فهل كانت وظيفتهم القتال مع المؤمنين؟ أو كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فقط ؟.

يرى كثير من العلماء أن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين .

قال القرطبى : تظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت .

ويرى فريق آخر من العلماء أن الملائكة ما قاتلت مع المسلمين يوم بدر، وإنما أمد الله المؤمنين بالملائكة لتثبيت نفوسهم وتقوية قلوبهم، ولتخذيل المشركين وإلقاء الرعب فى قلوبهم.

قال صاحب تفسير المنار :

ليس فى القرآن الكريم نص ناطق بأن الملائكة قاتلت بالفعل، وإنما جاء ذكر الملائكة فى سياق الكلام عن غزوة بدر فى سورة الأنفال، على أنها وعد من الله تعالى بإمداد المؤمنين بألف من الملائكة.

وفسر هذا الإمداد بقوله عز وجل :

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . (الأنفال : ١٢) .

قال ابن جرير الطبرى فى معنى التثبيت :

« يقول قووا عزمهم، وصححوا نياتهم، فى قتال عدوهم من المشركين ».

وقيل : كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم.

ونقل صاحب المنار نقولاً كثيرة فى تفسير هذه الآية، وفى تفسير سورة الأنفال رجح فيها أن معونة الملائكة للمؤمنين كانت معنوية وأن الملائكة لم تباشر القتال (٧٧).

وقال النيسابورى :

أجمع أهل التفسير وأرباب السير أنه تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار، وعن ابن عباس أنه لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر، وفيما سواه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون ولا يضربون، ومنهم من قال : إن نصر الملائكة بإلقاء الرعب فى قلوب الكفار، وبإشعار المؤمنين بأن النصر لهم.

هل هذه مناقشة مجدية :

فى كتب التفسير الكبرى مثل تفسير الطبرى والنيسابورى وفخر الدين الرازى وتفسير المنار، نجد نقاشا قويا بحجج وأسانيد وأدلة عقلية ونقلية حول موضوعين :

الأول : هل أمدّ الله تعالى المؤمنين فى غزوة بدر بهذا العدد المذكور فى الآية ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة آل عمران ؟.

فبعض المفسرين يرى أن الله أمدّ المؤمنين فى بدر بخمسة آلاف من الملائكة، وقال آخرون : لم يزد المدد على ألف من الملائكة.

الموضوع الثانى : هل باشرت الملائكة القتال بنفسها، أم اقتصرت مهمتها على تثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين ؟ .

والذى يطمئن إليه القلب أن الله تعالى أمد المؤمنين ، وإن ذلك كان من أسباب النصر.

أما النقاش فى عدد الملائكة يوم بدر وهل كان ألفا أو خمسة آلاف؟ والنقاش فى عمل الملائكة يوم بدر، فهو لون من ألوان التَّرف العقلى. إنّ الملائكة من عالم الغيب ويكفينا كتاب الله، ويكفى المسلم أن يعتقد بأن الله أوحى للملائكة بأن تثبت المؤمنين وتساعدهم فى اكتساب النصر، ولا يضير المسلم أن يجهل عدد الملائكة التى تنزّلت، ولا يزيد فى يقينه أن يعتقد أن الملائكة باشرت القتال ، أو اقتصرت مهمتها على التثبيت ، وآراء الفريقين تحتملها النصوص ، ولا نريد أن نرجح رأى فريق ، بل نحن أقرب إلى التسليم والتفويض وقولنا : آمنَّا به كُلٌّ من عند ربِّنَا .

★ ★ ★

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

المفردات :

فينقلبوا خائبين : فيرتدوا منقطعى الآمال.

يكبتهم : الكبت : شدة الغيظ، أو وهن يقع فى القلب.

ليقطع طرفا : لينقص فريقا من الكافرين بالقتل والأسر.

التفسير :

١٢٦ - وما جعلَهُ اللّهُ إلاّ بُشْرَىٰ لَكُمْ ولِتطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النّصْرُ إلاّ من عند اللّه العزيز الحكيم .

أى وما جعل الله الإمداد بالملائكة ولا الوعد به ، إلا بشارة لكم بالنصر، وتطمينا لقلوبكم حتى تثبتوا أمام عدوكم ، وليس النصر إلا من الله وحده فهو العزيز الذى لا يغلب ، الحكيم الذى يفعل كل ما يريد فعله حسبما تقتضيه حكمته ، فالمدد بالملائكة أو غيرها سبب ظاهر ، والسبب الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى .

(ولقد حرص القرآن فى كثير من آياته على تثبيت هذا المعنى فى قلوب المؤمنين ، حتى لا يعتمدوا على الأسباب والوسائل التى بين أيديهم ويغتروا بها دون أن يلتفتوا إلى قدرة خالق الأسباب والوسائل، فإنهم إذا اغتروا بالأسباب والوسائل، ونسوا خالقها أتاهم الفشل من حيث لم يحتسبوا وكان أمرهم فرطا) [(٧٨)].

والمؤمن الحق قويّ الإيمان بربه، واثق بقدرة خالقه، فهو سبحانه يقول للشىء كن فيكون ، لكنه سبحانه جعل للنصر أسبابا، وجعل لهذا الكون نواميس وقوانين، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب مع اليقين الجازم بقدرة القادر، فعلينا بطاعة الله وامتثال أمره واجتناب نهيه، فمن أطاع الله أطاعه كل شىء يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا إن تنصُرُوا الله ينصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامكُمْ . (محمد : ٧).

١٢٧ - ليَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذينَ كفَرُوا أَوْ يكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ .

إن النصر من عند الله ، وقد نصر الله المؤمنين فى بدر، وهو سبحانه حكيم فى إنزاله النصر ، وحكمة هذا النصر أن ينقص جانبا من الذين كفروا ويستأصلهم بالقتل ، وينقص من أرضهم بالفتح ، ومن سلطانهم بالقهر ، ومن أموالهم بالغنيمة.

أَوْ يَكْبِتَهُمْ ويذلهم ويغيظهم غيظا شديدا بسبب ما نزل بهم من هزيمة، فيعودوا إلى ديارهم منكسرين مدحورين، فقد كانوا يقصدون إطفاء نور الإسلام فخاب قصدهم ، وطاش سهمهم ، وعادوا وقد فقدوا الكثيرين من وجوههم وصناديدهم ، أما الإسلام فقد ازداد نوره تألقا، وازداد أتباعه إيمانا على إيمانهم ، ورزقهم الله النصر المبين.

١٢٨ - لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

كانت الحرب سجالا بين المؤمنين والكافرين ، وأرسل النبى ﷺ سبعين قارئا لتعليم القرآن لبعض القبائل ، فقتلهم المشركون ، وقد اشتد حزن الرسول ﷺ لموت القراء ودعا على المشركين [٧٩].

وقد حدث مثل ذلك فى غزوة أحد، عندما لحقت الهزيمة بالمسلمين وأصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجراح فى وجهه الشريف، وسال الدم منه فقال : « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل » فأنزل الله لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ [٨٠].

وتفيد الأحاديث الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو فى صلاة الصبح بعد الركوع، إذا قال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ، فيدعو بنجاة المستضعفين فى مكة، وربما دعا على المشركين الذين يقتلون المسلمين ويعذبونهم ، روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم ، حتى أنزل الله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

والآية تشير إلى حكمة إلهية عليا يريد الله تحقيقها فى هذا الكون، وهى أن يدفع المؤمنون ضريبة الإيمان بالجهاد والكفاح واحتمال الابتلاء ، قال تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ . (هود : ١١٨، ١١٩).

وقال عز شأنه أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . (العنكبوت : ٢، ٣).

أو تشير الآية إلى أن وظيفة الرسول البلاغ ، قال تعالى : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ . (القصص :٥٦). وقال سبحانه : فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ . (الرعد : ٤٠).

روى ابن كثير عن محمد بن إسحاق فى قوله لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ . أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم.

والمعنى : أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل ، وله حكمة يريد تحقيقها ، وليس لك يا محمد من التصرف فى أمر عبادى شىء، بل الأمر لله، فإما أن يتوب عليهم بالإيمان، أو بتوجيههم للاعتبار ، فإن انتصار المسلمين قد يكون فيه للكافرين عظة وعبرة، فيقودهم إلى الإيمان والتسليم، فيتوب الله عليهم من كفرهم ويختم لهم بالإسلام والهداية.

أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

أو يعذبهم بنصرة المسلمين عليهم أو بأسرهم، أو يعذبهم بالقتل والخزى والعذاب يوم القيامة، لأنهم ظلموا أنفسهم حين حرموها من النظر والاعتبار والهداية، وأصروا على الكفر واستحبوا العمى على الهدى وما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل : ٣٣).

وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى : **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** . جملة معترضة بين المتعاطفات فى الآيتين ١٢٧ ، ١٢٨ وتقدير الآيتين هكذا :

(ولقد نصركم الله ببدر ليهلك طائفة من الذين كفروا بالقتل والأسر، أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم فى الدنيا والآخرة بسبب ظلمهم ، وليس لك من أمرهم شىء إنما أنت رسول من عند الله تعالى مأمور بإنذارهم وجهادهم).

وقد رجَّح هذا الوجه صاحب الكشاف فقال :

وقوله : **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** . اعتراض، والمعنى : أن الله مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شىء، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم.

وقيل إن **أَوْ** . بمعنى (إلا أن) كقولك : لألزمنك أو تقضينى حقي، على معنى : ليس لك من أمرهم شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتشفى منهم (٨١).

١٢٩ - **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .**

سيقت هذه الآية لتأكيد ما تقدم ، من أن الأمر كله بيد الله وحده .

ومعنى الآية :

إن لله جميع ما فى السماوات وما فى الأرض ملكا وتصرفا وتدبيرا، لا ينازعه فى ذلك منازع ولا يعارضه معارض ، وهو سبحانه يغفر لمن يشاء أن يغفر له من المؤمنين فلا يعاقبه على ذنبه، فضلاً منه وكرما، ويعذب من يشاء أن يعذبه عدلا منه، ومغفرته أقرب ورحمته أرجى لأنه كثير المغفرة والرحمة.

وتلحظ أن الآيات السابقة من الآية ١٢٢ إلى الآية ١٢٩ ، قد افتتحت الحديث عن غزوة أحد باستحضار بعض أحداثها، وبتذكير المؤمنين بما همَّ به بعضهم قبل أن تبدأ المعركة، ثم بتذكيرهم بمعركة بدر وما تم لهم فيها من نصر مؤزَّر، منحه الله لهم مع قلتهم وضعفهم، حتى يعرفوا أن النصر ليس بكثرة العَدَد والعدة ، وإنما النصر يأتى مع صفاء النفوس ونقاء القلوب ومضاء العزائم، والطاعة التامة لله ورسوله ، ثم تحدثت الآيات عن حكمة إلهية عليا فى هذا الكون ، وبينت أن بيد الله سبحانه وتعالى الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير .



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

المفردات :

الربا : هو ربح المال ، يقال ربا المال يربو رباء أى زاد، وأربى الشىء على الشىء أى زاد عليه.

أضعافا مضاعفة : أى زيادات مكررة، وأضعافا جمع ضعف، وضعف الشىء: مثله الذى يصير به اثنين.

مضاعفة : فيه إشارة إلى تكرار التضعيف مرة بعد مرة.

التفسير :

١٣٠ - يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

من شأن القرآن أن يعنى بتربية المؤمنين وإرشادهم وتعليمهم ، وفى الآية السابقة دروس وعبر من غزوة أحد وغزوة بدر ، وفى الآيتين ١٣٠ ، ١٣١ دروس فى تحريم الربا وتحذير من عقاب آكله.

وهى سنة القرآن فى تخوّن المؤمنين بالموعظة، والأمر والنهى والترغيب والترهيب، والانتقال بالنفس البشرية من خبر إلى أمر إلى نهى .. رغبة فى حمل النفس على تقبل الأوامر ، واجتناب النواهى ، والتزام الطاعة.

قال الإمام الرازى :

لما شرح الله عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم فى أمر الدين وفى أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والترهيب ، فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعافًا مُّضَاعَفَةً .. (٨٢).

وكان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم - مثلاً - إلى أجل فإذا حل الأجل، ولم يكن المدين واجدا لذلك المال، قال : زدنى فى المال حتى أزيد فى الأجل، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله : أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً (٨٣).

(وكان يهود المدينة من أشهر المتعاملين بالربا، فنهى الله سبحانه المؤمنين أن يرتكبوا هذه الفعلة النكراء، فإن الربا يجتث مال الفقير ، ويضيع جهده ، ويزيد فى ثراء الأغنياء مع الدعة والراحة.. وهو الذى يقطع أواصر المودة والتعاطف بين الناس) (٨٤).

وقد سبق الحديث عن الربا فى الآية ٢٧٥ ، ٢٧٦ من سورة البقرة . وفيهما ما يدل على تحريم الربا قليله وكثيره ، عاجله وآجله وأن ليس للدائن سوى رأس ماله .

قال تعالى : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . (البقرة :٢٧٥، ٢٧٦).

وقد ابتدأ سبحانه الآية التى نفسرها بقوله :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا .. .

لبيان أن الربا ليس من شأن المؤمنين وإنما هو من سمات الكافرين الفاسقين .

وإذا كان الكافرون يستكثرون من تعاطى الربا فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذا الفعل القبيح، وأن يتحروا الحلال فى كل أمورهم .

وخصه بالنهى لأنه كان شائعا فى ذلك الوقت ، ولأنه - كما يقول القرطبى - هو الذى أذن فيه بالحرب فى قوله تعالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . والحرب يؤذن بالقتل ، فكأنه يقول لهم : إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم (٨٥).

والمراد من الأكل الأخذ، وعبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد به ، ولشيوعه فى المأكولات مع ما فيه من زيادة التشنيع.

والربا معناه الزيادة، والمراد بها هنا تلك الزيادة التى كانت تضاف على الدين.

قال الإمام ابن جرير: عن عطاء قال : كانت ثقيف تداين بنى المغيرة فى الجاهلية، فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون .

وقال ابن زيد : كان أبى - زيد بن ثابت - يقول : إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف. يكون للرجل على الرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له « تقضينى أو تزيدنى » (٨٦).

وقوله : أَضْعَافًا حال من الربا، وقوله : مُضَاعَفَةً . صفة له .

والأضعاف جمع ضعف. وضعف الشىء مثله ، وضعفاه مثلاه، وأضعافه أمثاله.

وهذا القيد وهو قوله : أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً . ليس لتقييد النهى به، أى ليس للنهى عن أكل الربا فى هذه الحالة وإباحته فى غيرها ، بل هذا القيد لمراعاة الواقع، ولبيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استئصال المال ، ولتوبيخ من كان يتعاطى الربا بتلك الصورة البشعة .

وقد حرم الله - تعالى - أصل الربا ومضاعفته ، ونفر منه تنفيرا شديدا، فقال تعالى : الَّذِين يأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِك بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّما الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحل اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . . .

وهذا النوع من الربا الذى نهى الله تعالى عنه هنا بقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافا مُضاعفة، هو الذى يسمى عند الصحابة والفقهاء بربا النسيئة، أو ربا الجاهلية ، وقد حرمه الإسلام تحريمًا قاطعًا، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « ألا إن ربا الجاهلية موضوع - أى مهدر - وأول ربا أبدأ ربا عمى العباس بن عبد المطلب » (٨٧).

وقال الإمام أحمد بن حنبل : إن ربا النسيئة يكفر من يجحد تحريمه .

ويقابل هذا النوع من الربا، ربا البيوع وهو الذى ورد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول فيه : « البر بالبر مثلا بمثل يدا بيد ، والذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد . والشعير بالشعير مثلا بمثل يدا بيد . والتمر بالتمر مثلا بمثل يدا بيد . والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى » (٨٨).

وقد اتفق العلماء على أن بيع هذه الأصناف لابد أن يكون بغير زيادة إذا كانت بمثلها كقمح بقمح، ولابد من قبضها. وإذا اختلف الجنس كقمح بشعير جازت الزيادة، ولابد من القبض فى المجلس، والتأخير يسمى ربا النساء، والزيادة المحرمة تسمى ربا الفضل.

وللفقهاء فى هذا الموضوع مباحث طويلة؛ ليرجع إليها من شاء فى مظانها. ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بأمر المؤمنين بخشية الله وتقواه فقال : وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

أى: واتقوا الله بأن تجعلوا بينكم وبين محارمه ساترا ووقاية، لعلكم بذلك تنالون الفلاح فى الدنيا والآخرة.

ثم حذرهم - سبحانه - من الأعمال التى تفضى بهم إلى النار فقال :وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

أى: صونوا أنفسكم ، واحترزوا من الوقوع فى الأعمال السيئة كتعاطى الربا وما يشابه ذلك ، لأن فى هذه الأعمال السيئة ما يؤدى بكم إلى دخول النار التى هيئت للكافرين .

وفى التعقيب على النهى عن تعاطى الربا بتقوى الله وباتقاء النار، إشعار بأن الذى يأكل الربا يكون بعيدا عن خشية الله وعن مراقبته ، ويكون مستحقاً لدخول النار التى أعدها الله تعالى للكافرين والفاسقين عن أمره.

قال صاحب الكشاف : كان أبو حنيفة إذا قرأ هذه الآية :وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . يقول : هى أخوف آية فى القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه (٨٩).

ثم بعد هذا التحذير الشديد للمؤمنين من ارتكاب ما نهى الله عنه، أمرهم - سبحانه - بطاعته وطاعة رسوله فقال : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

أى أطيعوا الله فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه، وأطيعوا الرسول الذى أرسله إليكم ربكم لهدايتكم وسعادتكم ، لعلكم بهذه الطاعة تكونون فى رحمة من الله ، فهو القائل وقوله الحق : إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . (الأعراف : ٥٦).

وفى ذكر طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقترنة بطاعة الله تعالى تنبيه إلى أن طاعة الرسول طاعة لله . فقد قال تعالى : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . (النساء : ٨٠).

★ ★ ★

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٞ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

المفردات :

أعدت : هيئت.

السراء : الرجاء واليسر.

الضراء : الشدة والعسر.

الكاظمين الغيظ : الممسكين عند امتلاء نفوسهم به. فلا ينتقمون ممن غاظهم. وأصل الكظم: شد فم القربة عند امتلائها. والغيظ: هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر .

فاحشة : الفاحشة ، كل ما عظم قبحه من الذنوب.

يصروا : يقيموا.

التفسير :

١٣٣ - وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. الآية .

لما حذر الله فى الآيات السابقة ، من الأفعال المستتبعة للعقاب ، عقبه بالحث على الأفعال المستتبعة للثواب، فقال : وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . أى : بادروا وسابقوا إلى كل ما يحقق لكم مغفرة ربكم لذنوبكم، ويوصلكم إلى نيل مرضاته، ودخول جنته الواسعة. وذلك يكون بإقبالكم على طاعته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . أى : كعرضها . وليس المراد التحديد، وإنما هو كناية عن غاية سعتها، وعظيم رحبها بما هو - فى تصور المخاطبين - أوسع الأشياء وأرحبها. وخص العرض بالذكر- مع أنه دون الطول - للمبالغة فى البسط والسعة، ويطلق العرض أيضًا على السعة.

ويجوز أن يراد منه هذا المعنى هنا .

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . أى هيأها الله لعباده الذين يتقون عذابه، بامتثال أوامره واجتناب محارمه.

ثم وصف الله عباده المتقين ، ببعض صفاتهم التى تؤهلهم لمغفرته، ودخول جنته فقال:

١٣٤ - الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ .. الآيــة .

أى فى اليسر والعسر ، والفرح والحزن، والمنشط والمكره.

والمراد : أنهم ينفقون فى كل أحوالهم، فهى دائرة بين السراء والضراء. وهذه هى الصفة الأولى.

وإنما ابتدئ بالإنفاق ، لأن الجود بالمال - وبخاصة فى حال العسرة والشدة - من أشق الأمور على النفوس.

وفيه أقوى الأدلة على الإخلاص ، لأن حاجة المسلمين إلى الإنفاق - آنذاك بل وكل آن - كانت أشد، لمجاهدة العدو، ومواساة المسلمين .

ولأن النهى عن الربا يستدعى بديلا عنه . ولذلك يقترن النهى عن الربا - فى القرآن - بالحث على الصدقة.

وحذف مفعول يُنفِقُونَ . ليعم كل ما يصلح للإنفاق ، أو لأن المراد وصفهم بالإنفاق دون نظر إلى ما ينفقون كما تقول : فلان يعطى ويمنع . لا تقصد إلاّ وصفه بالإعطاء والمنع.

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ.

صفة ثانية . وكظم الغيظ : حبسه وكتمه مع القدرة على إمضائه. والغيظ : هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر . والفرق بينه وبين الغضب - على ما قيل - أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام ألبتة، ولا كذلك الغيظ. والغيظ أصل الغضب. وكثيراً ما يتلازمان .

وكظم الغيظ من أجمل الأخلاق وأنبلها وأحبها إلى الله.

وفى الحديث الشريف : « من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، ملأ الله جوفه أمنا وإيمانا »(٩٠).

وعبر فى الصفة الأولى بالفعل المضارع يُنفِقُونَ. قصد الإرادة أن يجحدوا الإنفاق من آن لآخر.

وعبر بالكاظمين وهو اسم فاعل : لقصد الثبات والاستمرار على ضبط النفس.

وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .

هذه صفة ثالثة، جاءت على اسم الفاعل، للدلالة على الثبات والدوام أيضًا.

والعفو : ترك عقوبة من يستحق العقوبة من الناس ، لذنب جناه. وهو أكمل من كظم الغيظ ، لأن الغيظ، مجرد ضبط النفس، ولا يلزمه الإغضاء عن الإساءة.

أما العفو ، فيقتضى تناسى الإساءة واعتبارها كأن لم تكن .

وفى الحديث الصحيح : « .. وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا »(٩١).

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

أى كل المحسنين، ويدخل فيهم ، من تقدم ذكرهم .

والحب : ميل القلب إلى المحبوب .

والمراد به - فى الآية - ما يلزم عنه من الثواب والرضوان.

والمعنى : أن الله يرضى عن المحسنين جميعا، ويجازيهم على إحسانهم أحسن الجزاء.

والإحسان يشمل : إتقان العمل ، والإتيان به على الوجه الأكمل.

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٩٢).

ويشمل أيضًا : إيصال النفع إلى الغير، ودفع الضرر عنه .

ولا يكمل الإحسان حتى يكون خالصا لوجه الله : لا ينتظر المحسن مكافأة عليه ، ولا يكون مكافأة على إحسان سابق وصل إليه .

وفى الحديث الشريف : « ليس الواصل بالمكافئ » (٩٣). والمراد بالواصل : المحسن .

وقال الثورى : الإحسان : أن تحسن إلى من أساء إليك . فأما من أحسن إليك ، فإنه متاجرة كنقد السوق: خذ منى وهات .

ولمكانة الإحسان عند الله، أثاب عليه بأعلى أنواع الثواب ، وهو محبته سبحانه وتعالى - كما قال فى ختام الآية : واللَّهُ يُحبُّ الْمُحْسنينَ .

١٣٥ - وَالَّذين إِذَا فَعَلُوا فَاحشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لذُنُوبهمْ وَمَن يَغْفرُ الذُّنُوب إِلاَّ اللَّهُ وَلم يصروا علىٰ ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

هذه هى الصفة الرابعة من صفات المتقين . عطفت على ما قبلها . وقوله تعالى : وَاللَّهُ يُحبُّ الْمُحسنين . جملة متوسطة بين المعطوف والمعطوف عليه : مشيرة إلى ما بينهما من التفاوت فى الفضل. فإن درجة الأولين من التقوى أعلى، وحظهم أوفى.

ويجوز أن يكون وَالَّذين إِذَا فَعَلُوا فَاحشَةً . معطوف على الَّذينَ يُنفقُونَ في السَّرَّاء وَالضَّرَّاء . فكأنه لما ذكر الصنف الأعلى من المتقين وهم : المتصفون بتلك الأوصاف الجميلة - ذكر من دونهم فقال : وَالَّذين إِذَا فَعَلُوا فَاحشَةً .

أى أتوا بمعصية تفاقم قبحها، وعظم شرها وخطرها.

أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .

أى جنوا على أنفسهم بارتكاب أى ذنب من الذنوب الكبائر أو الصغائر.

ذَكَرُوا اللَّهَ .

أى تذكروا عظمته وجلاله، وحقه فى أن يعبد ولا يعصى ، وأنه الذى يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات .

فَاسْتَغْفَرُوا لذُنُوبهمْ . عقب تذكرهم لله.

والمراد بالاستغفار : الإقلاع عن الذنب ، والندم على فعله ، والعزم على عدم معاودته ، ورد المظالم لأصحابها.

أما التوبة بمجرد اللسان ، فتلك توبة الكذابين.

وفى مثل هذه التوبة الكاذبة، يقول بعض العارفين : استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار.

وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ .

أى لا أحد يقبل توبة التائبين ، ويعفو عن العاصين، غيره سبحانه .

وفى هذا دعوة منه تعالى إلى الالتجاء إليه، وطلب عفوه ومغفرته، لأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ، ولا حيلة للمذنب إلا طلب فضله سبحانه والتماس رحمته .

وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا . هذا عطف على فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ .

وجملة : وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ . متوسطة بين المتعاطفين .

ومعنى وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا . أنهم لا يقيمون على معصية من المعاصي: كبيرة كانت أم صغيرة. بل يرجعون إلى الله ويتوبون إليه من قريب.

وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أن من تاب تاب الله عليه ، وأن إقامتهم على الذنب - ولو كان صغيرًا- قبح ، لا يليق بمؤمن ، لأن الصغيرة لا تبقى صغيرة مع الإصرار كما أن الإصرار على الذنب يتنافى مع الاستغفار.

قال صلى الله عليه وسلم : « ما أصر من استغفر » (٩٤).

١٣٦ - أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

أُولَٰئِكَ. أى الموصوفون بما تقدم من الصفات .

جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ . أى جزاؤهم على هذه الصفات التى تحلوا بها : ستر خطاياهم ، وعدم مؤاخذتهم عليها.

وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . أى تجرى من تحت قصورها الأنهار المختلفة التى ذكرها الله فى قوله: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (محمد : ١٥).

وهذه الجنات ، ضمن تلك الجنة : التى أخبر سبحانه ، أن عرضها السموات والأرض.

خالدين فيها .أى ماكثين فيها ، لا يخرجون منها أبدا . كما قال سبحانه : وما هم منها بمخرجين .(الحجر : ٤٨).

ونعم أجر العاملين . ذلك المذكور من المغفرة والجنات .



﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾

المفردات :

خلت : مضت.

سنن : السنن، الطرائق ، والمراد منها عقوبات الأمم المكذبة.

موعظة : الموعظة ، التذكير بما يرقق القلب من : مرغبات فى الطاعة، ومنفرات عن المعصية.

تهنوا : تضعفوا.

الأعلون : المتفوقون بالدين، الظاهرون على العدو.

مس : المس ، الإصابة.

قرح : القرح ، الجرح ، أو ألمه.

نداولها : نجعلها متبادلة. فنجعل الغلبة لهؤلاء مرة، ولهؤلاء مرة أخرى.

وليمحص : لينقى ويخلص .

ويمحق : يسحق ويهلك.

التفسير :

١٣٧ - قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

يشبه أن تكون هذه الآيات فى التعقيب على غزوة أحد، ولعل إنساناً يتساءل عن سر هزيمة المؤمنين أو

تعرضهم للبلاء ، وعن سر انتصار الكفار أو حصولهم على المال والغنى والسلطان فى هذه الدنيا . فبين سبحانه فى هذه الآية ما يجيب على هذا التساؤل:

والمراد بالسنن هنا : وقائع فى الأمم المكذبة أجراها الله تعالى على حسب عادته، وهى الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمره .

والمعنى : أنه قد مضت من قبل زمانكم طرائق سنها الله تعالى ، فالحق يصارع الباطل، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنَّه - سبحانه - من سنة فى النصر والهزيمة .

وقد جرت سننه فى خلقه أن يجعل العاقبة للمؤمنين الصادقين، وأن يملى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فإن كنتم فى شك من ذلك : **فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** .

أى فسيروا فى الأرض متأملين متبصرين ، فسترون الحال السيئة التى انتهى إليها المكذبون من تخريب ديارهم وبقايا آثارهم .

قالوا : وليس المراد بقوله **فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ** . الأمر بذلك لا محالة ، بل المقصود تعرف أحوالهم، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير فى الأرض، كان المقصود حاصلاً (٩٥).

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

المقصود بهذا التعبير ، تصوير حالة هؤلاء المكذبين التى تدعو إلى العجب وتثير الاستغراب وتغرس الاعتبار والاتعاظ فى قلوب المتأملين.

لأن هؤلاء المكذبين مكَّن الله لهم فى الأرض، ومنحهم الكثير من نعمه، ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم الله بسبب طغيانهم.

فهذه الآية وأشباهها من الآيات، تدعو الناس إلى الاعتبار بأحوال من سبقوهم، وإلى الاتعاظ بأيام الله، وبالتاريخ وما فيه من أحداث، وبالآثار التى تركها السابقون فإنها دليل واضح وشاهد يتحدث كما قال الشاعر :

تلك آثارنا تدل علينا

فانظروا بعدنا إلى الآثار

١٣٨ - **هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** .

اختار الطبرى وبعض المفسرين أن تكون الإشارة فى هذه الآية راجعة إلى ما تقدم ذكره من بيان سنن الله وقوانينه فى النصر والهزيمة . والمعنى : هذا الذى أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة ، فيه بيان للناس من العمى ، وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين (٩٦).

أما ابن كثير فقد ذهب إلى أن اسم الإشارة يعود إلى القرآن الكريم فقال :

هذا بيانٌ للنّاس . يعنى القرآن فيه بيان الأمور على جليّتها .

وهُدى وموعظةٌ لِلمُتّقين . يعنى القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم .

وموعظةٌ. أى زاجر عن المحارم والمآثم (٩٧).

لّلمتّقين . الذين طلبوا الحقّ وسلكوا طريقه.

وقد رجح الأستاذ سيد قطب أن المراد بهذه الآية هو القرآن الكريم فيقول :

والسنن التى يشير إليها السياق فى الآية السابقة هى :

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ ، ومداولة الأيام بين الناس حتى لا تدوم على حال ، والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان مدى الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للكافرين « إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها ... وهؤلاء العرب الذين وجّه إليهم القول أوّل مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم – قبل القرآن – لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشّاملة لولا هذا القرآن الذى أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا، إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة، فضلا عن الربط بين سكان هذه الأرض، فضلاً عن الربط بين السنن التى تجرى وفقها الحياة جميعا ... فها هو ذا القرآن ينقلهم من عزلة القبيلة، وارتجال الفكرة، إلى رابطة البشرية واطراد السنّة، وهى نقلة بعيدة، لم تنبع من عوامل البيئة، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة. بل حملتهم إليها، وارتقت بهم إلى مستواها فى نصف جيل ، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير إلا بعد قرون وقرون .

هَذَا بيانٌ لّلنَّاس وَهُدًى وموْعظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .

أجل هذا بيان للناس ، للناس كافة، فهو نقلة بشرية بعيدة ما كانوا ببالغيها لولا هذا البيان الهادي، الذى لا يهتدى به ولا يتعظ إلا الذين تفتحت أرواحهم، وأرهفت مداركهم ، بذلك الشعور العميق الهادى المنير : شعور التقوى فى نفوس المتقين (٩٨).

١٣٩ – وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

(الوهن) هو الضعف وأصله ضعف الذات، قال تعالى حكاية عن زكريا : قال رب إني وهن العظم مني ... (مريم : ٤) . أى ضعف جسمى ، وهو هنا مجاز عن خور العزيمة، وضعف الإرادة، وانقلاب الرجاء يأسا والشجاعة جبنا واليقين شكا ؛ ولذلك نهوا عنه.

و الحزن ألم نفسى يصيب الإنسان عند فقد ما يحبّ أو عدم إدراكه، أو عند نزول أمر يجعل النفس فى هم وقلق.

والقرآن هنا يأسو جراحهم ويمسح أحزانهم، ويبعث فى نفوسهم القوة والعزيمة والأمل والرجاء فيقول لهم:

لا تضعفوا ولا تجبنوا ولا تيأسوا من رحمة الله وفضله، ولا تحزنوا لما أصابكم من جراح وآلام وقتلى.

وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ. عقيدتكم أعلى من عقيدتهم ، ومكانكم فى الأرض أعلى من مكانهم، فلكم وراثة الأرض التى وعدكم الله.

إن كُنتُم مُؤْمنين . جملة شرطية ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

أى إن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا بل اعتبروا بمن سبقكم، ولا تعودوا لما وقعتم فيه من أخطاء، فإن الإيمان يوجب قوة القلب، وصدق العزيمة ، والصمود فى وجه الأعداء ، والإصرار على قتالهم حتى تكون كلمة الله هى العليا.

١٤٠ - إن يمسسْكُمْ قَرْحٌ فقدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتلْكَ الأَيَّامُ نُداوِلُها بين النَّاس ... الآية.

القرح بالفتح والضمّ الجراح والآلام.

والمعنى :

إن تكونوا - أيها المؤمنون - قد أصابتكم الجراح من المشركين فى غزوة أحد فأنتم قد أنزلتم بهم من الجراح فى غزوة بدر مثل ما أنزلوا بكم فى أحد، ومع ذلك فإنهم بعد بدر قد عادوا لقتالكم، فأنتم أولى أن تتماسكوا بسبب إيمانكم ويقينكم، وقيل : إن المعنى إن كانت قد أصابتكم الجراح فى أحد فقد أصيب القوم بجراح مثلها فى المعركة ذاتها .

قال الزمخشرى : والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى ألا تضعفوا . ونحوه وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . (النساء : ١٠٤).

وقيل : كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩٩).

وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .

نُدَاوِلُهَا من المداولة وهى نقل الشىء من واحد إلى آخر.

والمعنى : إن الدنيا هى دول بين الناس ، لا يدوم سرورها ولا غمُّها لأحد، ومن أمثال العرب : الحرب سجال ، والأيام دول.

إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، فيتبين المؤمنون ويمتازون من المنافقين المستورين .

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .

والله يعلم هؤلاء وهؤلاء ، ولكن انكشافهم يجعل هذا العلم متعلقًا بأعمالهم بعد أن كان متعلقاً بنواياهم ، والإسلام يعتبر العمل دائماً ويحاسب عليه فهو هنا يجرى على قانونه.

ومداولة الأيام وتوالى الشدة والرخاء وسيلة عملية لا تخطئ، ومحك صادق لا يظلم ، والرخاء فى هذا كالشدة، فكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحلّ، والنفس المؤمنة حقا، تصبر للضراء، ولا تستخفها السراء ، ويقينها أن ما أصابها من خير أو شر فبإذن الله.

جاء فى التفسير الوسيط :

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .

أى وتلك الأيام نداولها بين الناس لوجوه من المصالح وضروب من الحكم، وليعلم الله المؤمنين المتميزين، علما مقترنا بالواقع .

والمراد بالعلم هنا : العلم التنجيزى بالواقع، وهذا لا ينافى علمه بهم قديما . والمقصود أنه يبرز - فى الواقع - ما سبق فى علمه عنهم قديمًا من تمييزهم بإيمانهم عن سواهم ، ليجزى كل بما عمل، لا بما علمه الله أزلا فى شأنه (١٠٠). وذلك هو المقصود بقوله تعالى : مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . (آل عمران : ١٧٩) .

وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ . بيان لحكمة أخرى من مداولة الأيام بين الناس. والشهداء جمع شهيد. أى وليختار أناسا منكم يكرمهم بالشهادة فى الدفاع عن الدين. قال القرطبى : وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ . أى يكرمكم بالشهادة، أى ليقتل قومًا منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم.

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء المختارين يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويجعلهم كذلك شهداء على الناس . قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ . (التوبة : ١١١) . وجميع المؤمنين الصادقين سيكونون شهداء على الأمم السابقة يوم القيامة، كما قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . (البقرة : ١٤٣).

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . أى والله لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم ونفاقهم وتخاذلهم عن نصرة الحق، وإنما يحب المؤمنين الثابتين على الحق، المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء دين الله ونصرة شريعته .

١٤١ - **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .**

التمحيص : الاختبار والابتلاء، والتطهير ، والمعنى : ولقد فعل سبحانه ما فعل فى غزوة أحد، لكى يظهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم، ولكى يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم ويطردهم.

فالآيات قد ذكرت أربع حكم لما حدث للمؤمنين فى غزوة أحد ، وهى تحقق علم الله وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم بالشهادة ، وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين ، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدا رويدا.

١٤٢ - **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ .**

أَمْ . هنا أفادت الانتقال من الكلام السابق إلى الكلام اللاحق ، واستبعاد أن يظنوا دخول الجنة بدون جهاد وصبر عليه.

والمعنى : بل أظننتم أن تدخلوا الجنة، ولما يتحقق جهاد المجاهدين منكم، وصبر الصابرين عليه ، فيعلم الله ذلك واقعًا دالاً على صدق الإيمان ، مستتبعا لدخول الجنان ..

وكلمة لَمَّا وإن أفادت نفى ما بعدها من الجهاد والصبر، ولكنها تفيد توقع حصولهما منهم ، وقد وقعا فعلا فى الغزوات التى تلت أحد (١٠١).

قال الطبرى : المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولما يتبين لعبادى المؤمنين، المجاهدون منكم فى سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم فى ذات الله من ألم ومكروه (١٠٢).

ويصح أيضًا أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، ويكون المعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة جميعا ولما يميز الله المجاهدين منكم والصابرين من غيرهم (١٠٣).

والآية الكريمة تشير إلى أن الطريق إلى الجنة ليس سهلاً يسلكه كل إنسان ، وإنما هو طريق محفوف بالمكاره والشدائد، ولا يصل إلى غايته إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا (١٠٤).

وجاء فى تفسير المنار : والجهاد هنا أعم من الحرب للدفاع عن الدين وأهله وإعلاء كلمته، ومن الجهاد جهاد النفس الذى روى عن السلف التعبير عنه بالجهاد الأكبر، ومن أمثلته مجاهدة الإنسان لشهواته ولا سيما فى سن الشباب ، وجهاده بماله وما يبتلى به من مدافعة الباطل ونصرة الحق.

قال الإمام محمد عبده : .. إن لله فى كل نعمة عليك حقا، وللناس عليك حقا، وأداء هذه الحقوق يشق على النفس ، فلابد من جهادها يسهل عليها أداؤها ، وربما يفضل بعض جهاد النفس، جهاد الأعداء فى الحب فإن الإنسان إذا أراد أن يبث فكرة صالحة فى الناس أو يدعوهم إلى خيرهم من إقامة سنة أو مقاومة بدعة أو النهوض بمصلحة فإنه يجد أمامه من الناس من يقاومه ويؤذيه إيذاء قلما يصبر عليه أحد، وناهيك بالتصدى لإصلاح عقائد العامة وعادتهم ، وما الخاصة فى ضلالهم إلا أصعب مراسا من العامة.



﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

المفردات :

تمنون : أى ترغبون.

المـوت : المراد به هنا، القتال . وقيل : وهو على حقيقته ، طلبا للشهادة.

تلقـوه : أى تلقوا سببه، وهو القتال.

رأيتموه : أى رأيتم الموت، برؤية من يموت فى الحرب.

خـلت : مضت.

ومن ينقلب على عقبيه : من يرتد عن دينه أو ينهزم.

التفسير :

١٤٣ - وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ .. الآية.

هذا خطاب من الله تعالى ، عاتب فيه الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الخروج من المدينة إلى أحد للقاء المشركين، الذين نزلوا عنده قادمين من مكة، لقتال المسلمين انتقاماً ليوم بدر.

ولما التقى الجمعان انهزم فريق منهم ، ولم يثبتوا أمام المشركين. وكان هؤلاء هم الذين ألحوا فى الخروج ، ممن لم يشهدوا بدرا، وتمنوا أن يحضروا مع النبى صلى الله عليه وسلم لينالوا به شرف الشهادة إن ماتوا ، أو أجر الجهاد وكرامة المجاهدين إن رجعوا كأصحاب بدر.

وقد عرف مما جاء فى غزوة أحد : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان - أول الأمر - يميل إلى البقاء فى

المدينة، حتى إذا هاجمها كفار مكة، صدهم المسلمون متحصنين بها .. الرجال يضربونهم بالسيوف والسهام. والنساء والصبيان يقذفونهم بالحجارة ، وبكل ما تصل إليه أيديهم ، لولا موقف الملحِّين.

والمعنى : ولقد كنتم تحبون الموت فى سبيل الله، وترغبون فى الشهادة من قبل أن تلقوه، وأنتم بالمدينة.

فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . أى فقد تحققت أمنيتكم ، إذ استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لرغبتكم وأذن لكم بلقاء عدوكم، فرأيتم الموت الذى تمنيتموه حين سقط شهداؤكم.

وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. فما بالكم لم تثبتوا فى قتال عدوكم ، ولو صبرتم لما هزمتم .

١٤٤ - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. الآية.

لما التقى الجمعان فى أحد، ظهر المسلمون على المشركين فى أول اللقاء وجعلوا يتعقبونهم ويجمعون الغنائم فى إثرهم، ولكن الرماة الذين أمرهم الرسول بحماية ظهور المسلمين - أثناء قتالهم - رأوا المسلمين منتصرين على المشركين: يتعقبونهم ويجمعون غنائمهم. فتركوا أماكنهم ليشاركوا إخوانهم فى جمع الغنائم مخالفين أمر الرسول فيما فعلوا . فانتبه المشركون لما فعل الرماة، فاحتلوا مكانهم فوق الجبل، وجعلوا ينضحون المسلمين بالنبل. واستطاعوا بذلك أن ينالوا من المسلمين ، حتى رمى ابن قميئة الرسول عليه السلام بحجر فشج رأسه، وكسر رباعيته . ثم أقبل يريد قتله، فدافع عن النبى مصعب بن عمير فقتله ابن قميئة - وهو يرى أنه قتل رسول الله - فصاح قائلاً. قتلت محمدا، وصرخ بها صارخ، فسمعها المسلمون، فسرى الوهن فى نفوس كثير منهم، حتى قال بعض المستضعفين : ليت عبد الله بن أُبى يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان.

وقال ناس من المنافقين : لو كان نبيا - حقا - لما قتل .. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

والتقى أنس بن النضر ، بالمنهزمين من المسلمين، فقال لهم : يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد حى لا يموت ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا كراما على ما مات عليه .

وشاء الله أن يحفظ رسوله لأمته، وأن يظهر كذب ابن قميئة .

فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلىَّ عباد الله . وكان حوله - حينئذ - أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة بن عبيد الله ، وجماعة من المسلمين ، فأقبل المنهزمون بعد ما سمعوا صوته عليه السلام ، فأنزل الله عتابًا للمنهزمين وما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. إلى نهاية الآية فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْن ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . (آل عمران : ١٤٨).

والمعنى : وما محمد إلاّ رسول كسائر من مضى قبله من الرسل : مهمته التبليغ وإلزام الحجة. وسيمضى إلى ربه كسائر من مضى من الأنبياء **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** . (الأحزاب : ٦٢) . **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** . (الزمر : ٣٠) .

أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .

أى توليتم مدبرين من القتال ، منهزمين أمام الكفار، أو ارتددتم عن دينكم، كما وقع من بعض المنافقين.

وعلى كل : فالمراد ، أنه لا ينبغى أن تجعلوا وفاة الرسول - بموت أو قتل - سببا فى توليكم منهزمين عن قتال الكفار وجهادهم، استبعادًا لقتله . فقد مضى من قبله أمثاله من الرسل. وما كان موتهم أو قتلهم سببا فى ارتداد أتباعهم عن دينهم ، ولا فى تخليهم عن جهاد أعدائهم.

وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا . هذا وعيد من الله لكل من تهتز عقيدته ، أو يفر من المعركة أمام أعداء الإسلام.

والمعنى : ومن يدبر عن دينه لأى سبب ، أو ينهزم أمام الكافرين ولا يستبسل فى الدفاع عن دينه ووطنه. **فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ** . بما فعل من توليه مدبرا **شَيْئًا** . أى أقل ضرر . وإنما يضر نفسه : بتعرضها لسخط الله . وازدراء الناس له، كما يضر قومه، فإن الله سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين.

وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . أى وسيجزى الله من شكروه بصبرهم على دينهم ولقاء عدوهم، جزاء يليق بكرمه. ومن ذلك النصر على الأعداء وحسن ثواب الآخرة.

والتعبير بقوله : **وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِين** . يفيد أن جزاءهم متوقع قريبًا ، فإن السين للتقريب ، وقد حقق الله وعده، ونصرهم فيما استقبلوه من غزوات. وما عند الله فى الآخرة أعظم وأكرم .

★ ★ ★

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

المفردات :

بإذن الله	: أمره وقضائه.
مؤجــــلا	: مؤقتا بوقت معلوم.
وكأين من نبى	: وكثير من الأنبياء.
ربيـــــون	: منسوبون إلى الرب بالتقوى والصلاح مفرده ربىّ.
وهنــــوا	: الوهن، شدة الضعف فى القلب.
استكانوا	: ذلوا وخضعوا لما يريد بهم عدوهم.
وإسرافنا فى أمرنا	: أى تجاوزنا الحد فى ارتكاب الكبائر.

التفسير :

١٤٥ - **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ .**

الحياة بيد الله ، والموت بيد الله ، وفى الآية تعريض بمن خارت قواهم يوم أحد، وضعفت عزائمهم ، وانكسرت نفوسهم حين أشيع أن النبى قد مات. فبين القرآن أن النبى بشر يبلغ عن الله الرسالة، ويؤدى الأمانة ويدركه الموت .

قال ابن كثير : **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه** (١٠٥). أى لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفى المدة التى ضربها الله له، ولهذا قال : **كِتَابًا مُّؤَجَّلاً** . كقوله : **وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ** . (فاطر : ١١) . وكقوله : **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ** . (الأنعام:٢).

وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام لا ينقص من العمر والإحجام لا يزيد فيه ، كما قال ابن أبى حاتم عن حبيب بن ظبيان : قال رجل من المسلمين وهو (حجر بن عدى): ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة - يعنى دجلة - وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً . ثم أقحم فرسه دجلة، فلما أقحم الناس ، ورآهم العدو قالوا : ديوان .. فهربوا.

كتابا مُّؤَجَّلاً . أى كتب لكل نفس أجلها، كتابا مؤقتا بوقت معلوم ، لا يتقدم ولا يتأخر، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم فى لقاء العدو، فالجبن لا يزيد فى الحياة، والشجاعة لا تنقص منها، والحذر لا يدفع القدر، والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك.

وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا . أى من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها ، وليس له فى الآخرة من نصيب.

وفيها تعريض بمن خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرماة، الذين تركوا أماكنهم جريا وراء الغنائم ، فلم يحصلوا منها شيئا، بل فقدوها وفقدوا أرواحهم وعزتهم وكرامتهم ، وكان فعلهم هذا من أسباب هزيمة المسلمين فى غزوة أحد.

وحصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة، لأنها مبذولة للبر والفاجر.

قال تعالى من كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ . (الشورى : ٢٠).

وقال تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . (الإسراء : ١٨).

وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا . ومن يرد بعلمه وجهاده ثواب الآخرة، وما ادخره الله فيها لعباده المتقين من أجر جزيل، أعطيناه الأجر كاملاً، مع ما قسمنا له فى الدنيا.

وسَنَجْزِي الشَّاكِرِين .أى سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة، بحسب شكرهم وعملهم.

جاء فى تفسير المنار : ولا تتسين التقاليد الشائعة، قارئ هذه الآيات عن سنن الله التى أثبتها فى كتابه، فيظن أن عطاءه تعالى ، وتفضيله لبعض الناس على بعض يكون جزافا، بل الإرادة تجرى على السنن التى اقتضتها الحكمة وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ . (الرعد : ٨) . ولإرادة الإنسان دخل فى تلك السنن والمقادير ، ولذلك

قال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ﴾ . ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ﴾ . فاعرف قيمة إرادتك واعرف قبل ذلك قيمة نفسك، فلا تجعلها كنفوس الحشرات التى تعيش زمنا محدودا، ثم كأن لم تكن شيئا مذكورا (١٠٦).

* * *

الإرادة تصغر الكبير ، وتكبر الصغير، وترفع الوضيع وتضع الرفيع، وبها تتسع دائرة وجود الشخص، حتى تحيط بكرة الأرض، بل تكون أكبر من ذلك بما يتبوأ من منازل الكرامة، فى عالم العقول والأرواح، وإذا كان يريد بعلمه دار البقاء فإن وجوده يكون كبيرًا بحسب كبر إرادته، وواسعًا بسعة مقصده، وبذلك تعلو نفسه على نفوس من أخذوا إلى الشهوات ، وكان حظهم من علمهم كحظ الحشرات، وغيرها من الحيوات: أكل وشرب وفساد وبغى من القوى على الضعيف (١٠٧).

وهذه الآية الكريمة : يجوز أن تكون خاصة بأهل أحد، وأن تكون عامة لهم ولغيرهم، وهو أرجح، فإنها من القواعد العامة فى الدين.

١٤٦ - ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

إن كثيرًا من النبيين الذين خلوا قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم، المنتسبين إلى الرب تعالى فى وجهة قلوبهم وفى أعمالهم، المعتقدين أن النبيين والمرسلين هداة ومعلمون ، لا أرباب معبودون.

﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . أى ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح، وبعضهم من القتل، وإن كان المقتول هو النبى نفسه، لأنهم يقاتلون فى سبيل الله وهو ربهم ، لا فى سبيل شخص نبيهم .

﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ . عن الجهاد

﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ . أى ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم .

قال قتادة : ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ . أى : وما تضعضعوا لقتل نبيهم ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ . أى ما ارتدوا عن نصرتهم ولا دينهم (١٠٨).

* * *

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .أى يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال فى سبيل الله.

جاء فى ظلال القرآن :

(كم من نبى قاتل معه أبرار أتقياء كثيرون ، فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والقتل والجراح، وما ضعفت قواهم عن الاستمرار فى الكفاح، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء.. وهذا هو اللائق بالمؤمن التقى البار، الذى يكافح عن عقيدة، ويكافح فى سبيل الله.

وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعضع قواهم، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون ولا يستسلمون للشدائد و الأعداء (١٠٩).

* * *

وتلحظ أن ترتيب الأوصاف جاء فى نهاية الدقة، بحسب حصولها فى الخارج ، فإن الوهن الذى هو خور فى العزيمة، إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذى هو لون من الاستسلام والفشل، ثم تكون بعدهما الاستكانة، التى يكون معها الخضوع لكل مطالب الأعداء، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة فى حياته ، كان الموت أكرم له من هذه الحياة .

* * *

وجاء فى تفسير الكشاف :

(الربيون) : هم الربانيون ، منسبون إلى الرب سبحانه وتعالى ، وقرئ بالحركات الثلاث فالفتح على القياس والضم والكسر من تغييرات النسب : ربيون وربُيون ، وربيون . والرَّبيون نسبة إلى الربّ، وزيادة الألف والنون فيه كزيادتها فى جسمانى.

وقال الزجاج : الربيون الجماعات الكثيرة واحدها ربى .

١٤٧ - وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

ما كان قولهم - فى حال الشدة وملاقاة الأعداء- مع ثباتهم وقوتهم فى الدين ، إلا طلب المغفرة من الله.

وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا . أى وتفريطنا وتقصيرنا فى واجب طاعتك.

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا . أى ثبتنا فى مواطن الحرب، وثبتنا على الصراط المستقيم ، حتى لا تزحزحنا الفتن.

وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . بك ، الجاحدين لآياتك ، المعتدين على أهل دينك .

* * *

والدعاء هنا يعبر عن قلب خاشع ويقين صادق، ورجاء مخلص فى غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام، والنصر على القوم الكافرين.

قال الزمخشرى فى الكشاف :

وقوله : وما كَانَ قَوْلَهُمْ ﴾ (١١٠) ... إلخ . هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم ، مع كونهم ربانيين هضما لها واستقصارا ، والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وخضوع، هو أقرب إلى الاستجابة .

١٤٨ - فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

والفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى أن هؤلاء الربانيين الذين أخلصوا فى الجهاد والدعاء، أعطاهم الله أجر الدنيا ، من النصر والغنيمة وقهر الأعداء، كما أعطاهم حُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ . بأن منحهم رضوانه ورحمته ومثوبته ، والنعيم بدار كرامته ، وهو ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

قال الشيخ محمد عبده - وخص الله ثواب الآخرة بالحسن، لمزيد فى تعظيم أمره، وتنبيه على أنه ثواب لا يشوبه أذى فليس مثل ثواب الدنيا عرضة للشوائب والمنغصات.

* * *

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت تأديباً للمؤمنين ، وتوبيخاً لمن فرط منهم، وتربية وتعليما وتهذيبًا لهم.

* * *

وفى ختام تفسير هذه الآيات الكريمة يمكن أن نستخلص منها الحقائق الآتية :

١ - محمد صلى الله عليه وسلم بشر من البشر، وسيموت كما يموت سائر البشر.

٢ - رسالة محمد (ﷺ) عالمية خالدة لا تموت بموته ، وعلى أتباعه أن يحملوا عبء تبليغ الإسلام رسالة الله إلى البشر .

٣ - الآجال بيد الله، والحذر لا يمنع القدر ، ولن يموت إنسان قبل انتهاء أجله، فلا داعى للجبن والتخاذل، فالجهاد فريضة، والشهيد يبلغ أرفع مراتب الجنات.

٤ - الحق له رجاله على مر التاريخ ، وكثير من الربانيين جاهدوا مع أنبيائهم ، وتحملوا تبعات الإيمان فى ثبات وصدق، ودعاء صادق لله، وقد حقق الله لهم الرجاء فأعطاهم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة .

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾

المفردات :

يردوكم على أعقابكم	: أى يردوكم إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية.
ومأواهم	: المأوى، المكان الذى يرجعون إليه.
مثوى	: مثوى الإنسان ، مكان إقامته الدائمة.
تحسونهم	: أصل معناه ، تبطلون حسهم، والمراد : تستأصلونهم قتلا.
فشلتم	: جبنتم وضعف رأيكم ، وأصابكم الخور فهزمتم.
وتنازعتم	: افترقت كلمتكم ، واختلفتم.
ليبتليكم	: ليختبركم.

التفسير :

١٤٩ - يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ .

* * *

عندما عاد المسلمون من غزوة أحد ، ولم يكتب لهم فيها النصر، حاولت جهات كثيرة أن تثبط عزيمتهم ، وأن تشككهم فى الإسلام.

قال ابن عباس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد، لو كان نبيا ما أصابه فارجعوا إلى إخوانكم، واطلبوا الأمان منهم، وادخلوا فى دينهم، وابعثوا فئة تطلب الأمان لكم من أبى سفيان رأس المشركين يومئذ.

* * *

وقيل : نزلت بسبب قول أهل الكتاب للمؤمنين : لو كان محمد نبيا حقا لما غُلب، ولما أصاب أصحابه ما أصابهم.

جاء فى تفسير الألوسى :

والمراد من الذين كفروا: إمَّا المنافقون لأنهم هم الذين قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم فى أحد، ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم ... وإمَّا أبو سفيان وأصحابه، فالمراد بإطاعتهم الاستكانة لهم وطلب الأمان منهم .. وإمَّا اليهود والنصارى ، لأنهم هم الذين كانوا يلقون الشبه فى الدين ويقولون : لو كان محمد نبيا لما غلبه أعداؤه... وإمَّا سائر الكفار (١١١).

وخصوص السبب لا يمنع إرادة العموم من اللفظ.

قال الطبرى فى التفسير :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا. يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، فى وعد الله ووعيده وأمره ونهيه، إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا . يعنى الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، من اليهود والنصارى، فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه ، فتقبلوا رأيهم ونصحهم.

يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ . يحملوكم على الردة بعد الإيمان ، والكفر بالله وآياته وبرسوله.

فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ . فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذى هداكم الله له ، خَاسِرِينَ . هالكين قد خسرتم أنفسكم ، وضللتم عن دينكم وذهبت دنياكم وآخرتكم (١١٢).

وتلتقى كتب التفسير هنا ، على أن الهزيمة الجزئية التى أصابت المسلمين فى غزوة أحد، كانت مجالا لطمع الطامعين ودسائس الكفار والمنافقين فى المدينة، ممن انتهزوا الفرصة ليثبطوا من عزائم المسلمين، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد، ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الجهاد، لذلك نزل القرآن ينصح المؤمنين بالتماسك والتآزر والصمود، والاستغناء بالإسلام وبالقرآن عن نصيحة الكافرين والمنافقين، وهى قاعدة لا تختص بزمانها ولا مناسبتها ، بل تمتد فى الزمان والمكان ما دام الإنسان .

ثم فتح القرآن لهم باب الأمل والرجاء، وشدد من عزائمهم بتذكيرهم أن الله هو مولاهم وناصرهم ، وهو القوى الذى لا يخذل أولياءه.

١٥٠ - بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

بل الله ناصركم إن امتثلتم أمره، واجتنبتم نهيه، وأعددتم لعدوه ما استطعتم من قوة، وكنتم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

جاء فى تفسير المنار :

بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ . فلا ينبغى أن تفكروا فى ولاية أبى سفيان وحزبه، ولا عبد الله بن أُبى وشيعته ، ولا أن تصغوا لإغواء من يدعونكم إلى موالاتهم ، فإنهم لا يستطيعون لكم نصرا، ولا أنفسهم ينصرون ، وإنما الله هو المولى القادر على نصركم (١١٣).

وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ . أى هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره.

١٥١ - سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ .

تبين هذه الآية سبيلا من سبل النصر ، التى يمنحها الله لعباده المؤمنين ، عندما يأخذون بالأسباب ويستحقون عناية السماء ، فعند الله جنود كثيرة ، وأسلحة متنوعة ، يساعد بها من يستحق المساعدة. منها سلاح الريح ، أرسله على المشركين فى غزوة الأحزاب ، ومنها سلاح الرعب ألقاه فى نفوس المشركين فى أعقاب معركة أحد، حين عزموا أن يعودوا ليستأصلوا شأفة المسلمين ، فقذف الله الرعب فى قلوبهم فانهزموا (١١٤).

ومنها ما يشبه الصواريخ ، ألقاها على أصحاب الفيل فجعلهم كعصف مأكول، أى هالكين كزرع أكلته الماشية. ومن أسلحة الله الملائكة ، أنزلها على المسلمين يوم بدر، وعند الله أسلحة كثيرة وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وما هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ . (المدثر : ٣١) .

والرعب : هو الخوف والفزع.

والسلطان : الحجة والبرهان .

والمعنى : سنملأ قلوب المشركين خوفا وفزعًا، بسبب إشراكهم مع الله آلهة أخرى ، ليس لهم حجة على صحة ألوهيتها ، ومرجعهم الذى يرجعون إليه يوم القيامة هو النار ، وساء هذا المثوى والمستقر للكافرين (١١٥).

وهل هذه الآية خاصة بيوم أُحد، أو هى عامة فى جميع الأزمان، ذكر كثير من المفسرين أنها خاصة بيوم أحد لأن سياق الكلام فى غزوة أحد.

فالكفار فى غزوة أحد قد انتصروا على المسلمين وهزموهم ، ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم، فتركوهم وفروا منهم من غير سبب ، وسار المشركون إلى مكة (فلما كانوا فى بعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً. قتلنا

الأكثرين منهم ثم تركناهم ونحن قادرون ، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم) (١١٦).

وقال بعض المفسرين : الآية غير خاصة بيوم أُحد، بل هى عامة فى كل معركة، يتقابل فيها المؤمنون مع الكافرين ، فيحق الله الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين .

فالآية بيان لسنة إلهية عامة :

إذا كان المؤمنون يتمسكون بمطالب الإيمان ومقتضياته كالمؤمنين السابقين .

قال الإمام محمد عبده :

إذا كان المؤمنون يتمسكون بمطالب الإيمان ومقتضياته كالمؤمنين السابقين ، وإذا كان الكافرون قد جحدوا وعاندوا وكابروا الحق كما فعل الكافرون فى عهد البعثة المحمدية (١١٧).

وبهذا يندفع قول من يقول : ما بالنا نجد الرعب كثيرا ما يقع فى قلوب المسلمين ، ولا يقع فى قلوب الكافرين؟ فإن الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أسلافهم، من الثبات والصبر وبذل النفس والمال فى سبيل الله ، وتمنى الموت فى الدفاع عن الحق، فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم . وإنما رعب المشركين مرتبط بإيمان المؤمنين، وما يكون له من آثار ، فحال المسلمين اليوم لا يقع حجة على القرآن . لأن أكثرهم قد انصرفوا عن الاجتماع على ما جاء به الإسلام من الحق.

فالقرآن باق على وعده ، ولكن هات لنا المؤمنين ولك من إنجاز وعد الله ما تشاء (١١٨) قال تعالى : وعد اللهُ الَّذينَ آمنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذين من قَبلهِم ولَيُمكِّنَنَّ لَهُم دينهم الَّذي ارْتَضَىٰ لَهُمْ . . . (النور : ٥٥) .

١٥٢ - وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ ما أَرَاكُم مَا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلى الْمُؤْمِنِينَ .

تحسونهم : أى تقتلونهم ، يقال حسسته أحسه أى قتلته. وفى المختار، إذ تحسونهم أى تستأصلونهم قتلا. وفى حاشية الجمل : تحسونهم : أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا، من حسه إذا أبطل حسه.

وكان ذلك فى مطلع المعركة حيث بدأ المسلمون يقتلون المشركين ويخمدون حسهم قبل أن يلهيهم الطمع فى الغنيمة عن الطاعة للقائد.

حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا ومنكُم مَّن يريد الآخرة . وهو تقرير لحال الرماة، وقد ضعف فريق منهم عن صد إغراء الطمع فى الغنائم ووقع النزاع بينهم وبين

من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله . وانتهى الأمر إلى العصيان ، بعد ما شاهدوا بأعينهم طلائع النصر منقسمين إلى فريقين : فريق يريد غنيمة الدنيا وفريق يريد ثواب الآخرة .. وما كان لجيش ينقسم على نفسه فى ميدان المعركة هكذا أن يظل فى انتصاره ، وبخاصة أن الخلاف كان على عرض من أعراض الدنيا ، والمعركة معركة عقيدة أولا وأخيرا.

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ . أى صرف قوتكم وبأسكم عن المشركين فانهزمتم وفررتم ، ليكون فى هذا ابتلاء لكم وامتحان بما أصابكم منهم من الكر عليكم والإيقاع بكم .

وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. عفا عما وقع منكم من ضعف أمام شهواتكم ، وعصيان لأمر رسولكم ، وخروج على النظام الذى وضعه لكم ، ثم ما وقع كذلك من فرار وانقلاب عن ميدان المعركة حين قيل إن محمدا قد مات، ومَن يأس من جدوى المقاومة بعد محمد .. وكلها زلات تحسب على المؤمنين ، عفا الله عنكم، فضلاً منه ومنَّة تجاوزا عن ضعفكم البشرى الذى لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .



﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٥٤) ﴾

المفردات :

تصعدون	: تشتدون فى العدو منهزمين.
ولا تلوون على أحد	: ولا تلتفتون إليه لجدكم فى الهرب ، فرارا من الطلب.
أخراكم	: مؤخرة جيشكم.

اثابكم غما بغــم : جزاكم الله غما بالهزيمة بسبب غمكم للرسول بالمخالفة ، أو غما متصلا بغم.

أمنة : أمنا وسلاما.

يغشى : يغطى.

اهمتهم انفسهم : شغلهم الاهتمام بها.

لبرز : لخرج ولظهر.

مضاجعهم : المراد بها مصارعهم فى أرض الموقعة.

وليبتلى : ليختبر وهو العليم.

وليمحص ما فى قلوبكم : وليطهرها من الشبهات وينقيها.

التفسير :

١٥٣ - إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

والصعود : الارتفاع على الجبال والدرج، والصعود أيضًا الذهاب فى صعيد الأرض والإبعاد .

أى اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن كنتم مصعدين تهرولون بسرعة فى بطن الوادى بعد أن اختلت صفوفكم، واضطرب جمعكم، وصرتم لا يعرج بعضكم على بعض، ولا يلتفت أحدكم إلى غيره من شدة الهرب، والحال أن رسولكم - صلى الله عليه وسلم يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ . أى يناديكم فى آخركم أو فى جماعتكم الأخرى أو من خلفكم ، والمراد أن الرسول ﷺ كان يدعو المنهزمين إلى الثبات ، وإلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى معاودة الهجوم عليهم، وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه.

جاء فى نور القرآن ما يأتى :

والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية فى ألفاظ قلائل فهم مصعدون هربا فى اضطراب ورعب ودهشة، لا يلتفت أحد إلى أحد من الهول، ولا يجيب أحد داعى أحد من الذعر- والرسول يدعوهم وهم مصعدون، إنه مشهد كامل فى ألفاظ قلائل.

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذى تركوه فى نفس الرسول بفرارهم غمًّا يملأ صدورهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم يصيبه ما أصابه وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون . ذلك كى يتعلموا ألا يحفلوا بشىء يفوتهم، ولا يحزنوا لأذى يصيبهم . فهذه التجربة التى مرت بهم ، وذلك الندم الذى ساور نفوسهم، وذلك الغم الذى استشعروه فيما فعلوه .. كل أولئك سيصغر فى نفوسهم كل ما يفوتهم من عرض، وكل ما يصيبهم من مشقة ، ويجعلهم أدق تقديرا للأمور كلها خيرها وشرها، بعد هذه التجربة الأليمة لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ . والله المطلع على الخفايا يعلم حقيقة أعمالكم ودوافعكم وتأثراتكم وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

وفى تفسير الجلالين **فَأَثَابَكُمْ** فجازاكم . **غَمًّا** الهزيمة. **بِغَمٍّ** بسبب غمكم للرسول . وقيل الباء بمعنى على أى مضافا على غم .

قالت المعتزلة : وليس الغرض تسليط الكفار على المسلمين ولكن الغرض ألا يبقى فى قلوب المؤمنين اشتغال بغير الله ، ولا يحزنوا بالإدبار ولا يفرحوا بالإقبال.

وقال النيسابورى (١١٩) : (المراد أنكم قلتم لو بقينا فى هذا المكان وامتثلنا وقعنا فى غم فوت الغنيمة، فاعلموا أنكم لما خالفتم أمر الرسول وطلبتم الغنيمة وقعتم فى غموم أخر كل واحد منها أعظم من ذلك، فيصير هذا مانعا لهم من أن يحزنوا على فوات الغنيمة من وقعة أخرى. ثم كما زجرهم على تلك المعصية بزاجر دنيوى زجرهم بزاجر أخروى فقال : **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** . عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم فيجازيكم بحسب ذلك) (١٢٠).

١٥٤ - **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ** . . الآية.

الأمنة - بفتحتين - مصدر كالأمن ، يقال أمن أمنا وأمانا وأمنة. والنعاس ، هو الفتور فى أول النوم .

المعنى الإجمالى :

ثم أسبغ الله عليكم بعد الغم نعمة الأمن ، وكان مظهرها نعاسا يغشى فريق الصادقين فى إيمانهم ، وتفويضهم لله ، أما الطائفة الأخرى فقد كان همهم أنفسهم لا يعنون إلا بها ، ولذلك ظنوا بالله الظنون الباطلة كظن الجاهلية ، ويقولون مستنكرين : هل كان لنا من أمر النصر الذى وعدنا به شىء ؟. قل - أيها النبى - الأمر كله فى النصر والهزيمة لله ، يصرف الأمر فى عباده إن اتخذوا أسباب النصر، أو وقعوا فى أسباب الهزيمة ، وهم إذ يقولون ذلك يخفون فى أنفسهم أمرًا لا يبدونه، إذ يقولون فى أنفسهم : لو كان لنا اختيار لم نخرج فلم نغلب، قل لهم : لو كنتم فى منازلكم وفيكم من كتب عليهم القتل لخرجوا إلى مصارعهم فقتلوا ، وقد فعل الله ما فعل فى أحُد لمصالح جمَّة، وليختبر ما فى سرائركم من الإخلاص ، وليطهر قلوبكم ، والله يعلم ما فى قلوبكم من الخفايا علما بليغا.

النوم فى المعركة :

عندما اشتد خوف المسلمين فى غزوة بدر أرسل الله عليهم النوم فهدأت أعصابهم ، واطمأنت نفوسهم، واشتد يقينهم برعاية الله لهم، ثم أنزل الله المطر فى غزوة بدر فكان نعمة على المؤمنين، حيث ثبتت الأرض من تحتهم ، وتطهروا ، وكان المطر وبالا على المشركين . قال تعالى :

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . (الأنفال : ١١) .

وكان النوم فى غزوة بدر فى ليلة المعركة قبل أن تبدأ .

أما فى غزوة أحد فالراجح أنه كان فى أعقاب المعركة، بعد أن انتهت وأصاب المؤمنين فيها جراح وآلام، فأرسل الله عليهم النوم فهدأ روعهم واستعدوا لملاحقة المشركين فى غزوة حمراء الأسد، ولما علم المشركون بذلك أسرعوا بالعودة إلى مكة .

قال الإمام محمد عبده :

اختلف المفسرون فى وقت هذا النعاس ، فقال بعضهم : إن ذلك كان فى أثناء المعركة، وإن الرجل كان ينام تحت ترسه كأنه آمن من كل خوف وفزع، إلا المنافقين فإنهم أهمتهم أنفسهم فاشتد جزعهم، وحمل بعضهم هذه الآية على آية الأنفال ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ . وإنما هذه فى غزوة بدر . وقد مضت السنة فى الخلق بأن من يتوقع فى صبيحة ليلته هولاً كبيرا ومصابا عظيما- فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه، ويبيت بليلة الملسوع فيصبح خاملا ضعيفا، وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك إذ بلغهم أن جيشا يزيد على ثلاثة أضعاف جيشهم سيحاربهم غدا، وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة، فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق والسهاد ، يضربون أخماسا فى أسداس ، ويفكرون بما سيلاقون فى غدهم من الشدة والبأس، ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس، غشيهم فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده، وأصبحوا على همة ونشاط فى لقاء عدوهم، فالنعاس لم يكن يوم بدر فى وقت الحرب بل قبلها .

وأما النعاس يوم أحد فقد قيل : إنه كان فى أثناء الحرب ، وقيل إنه كان بعدها . وقد اتفق المفسرون وأهل السير على أن المؤمنين قد أصابهم يوم أحد شىء من الضعف والوهن، لما أصابهم يوم أحد من الفشل والعصيان وقتل طائفة من كبارهم وشجعانهم ، فكانوا بعد انتهاء المعركة قسمين :

أقوياء الإيمان : الذين حزنوا وتألموا من التقصير فى أسباب النصر، فأرسل الله عليهم النعاس، راحة لأجسامهم وبلسما لجراحهم، وما من أمة إلا وفيها الأقوياء والضعفاء.

وضعفاء الإيمان : اشتد هلعهم ، ويئسوا من النصر، وسلب الله عنهم عنايته ، فلم يرسل عليهم النوم ، بل شغلهم بأنفسهم فذلك قوله تعالى : ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ . فهذه الطائفة من المؤمنين الضعفاء ولا حاجة إلى جعلها من المنافقين كما قيل [١٢١].

وقال السيد رشيد رضا :

هذا وإن جمهور المفسرين قد جروا على خلاف ما اختاره الأستاذ الإمام فى هذه الطائفة. فقالوا : إن المراد بها المنافقون منهم الذين كانت تهمهم أنفسهم، إذ كان هم المؤمنين محصورا فيما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما وقع لبعضهم من التقصير، وكان فى غشيان النعاس ونزول الأمنة على المؤمنين من دونهم معجزة ظاهرة [١٢٢].

وتحرير الكلام فى هذه المسألة أن الله تعالى بين لنا فى كتابه ثلاث حقائق :

(الحقيقة الأولى) أنه تعالى هو خالق كل شىء والذى بيده ملكوت كل شىء، وبمشيئته يجرى كل شىء، فلا قاهر له على شىء ، وهو القاهر فوق كل شىء.

(الحقيقة الثانية) أن خلقه وتدبيره إنما يجرى بحسب مشيئته .

وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة قال تعالى : قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ .

(الحقيقة الثالثة) أن من جملة سننه فى خلقه وقدره فى تدبير عباده أن الإنسان خلق ذا علم ومشيئة وإرادة وقدرة ، فيعمل بقدرته وإرادته ما يرى بحسب ما وصل إليه علمه وشعوره أنه خير له، والآيات الناطقة بأن الإنسان يعمل وبعلمه تناط سعادته وشقاوته فى الدنيا والآخرة كثيرة جدا.

وإننا نرى الكتاب العزيز يذكر بعض هذه الحقائق الثلاث فى بعض الآيات ويسكت عن الأخرى، لأن المقام يقتضى ذلك - ولكل مقام مقال - ولكنه ينكر على من يجحد شيئًا منها ، ويبين للناس خطأه.

وكذلك الآية التى نحن بصدد تفسيرها تشير إلى بعض هذه الحقائق فى قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّه .[١٢٣]

أى بيده مقاليد الأشياء يقدر ويدبر كيف يشاء ، وقد قضى بأن يخرج المسلمون فى أحد، وأن ينهزموا لحكم يعلمها سبحانه، وليستفيدوا من دروس الهزيمة فلا يفعلوا ما يؤدى إلى مثلها.

لقد كانت غزوة أحد ابتلاء وامتحانًا تميز به طوائف الناس أمام هذا النوع من البلاء.

فمنهم أقوياء الإيمان، وضعفاء الإيمان، والمنافقين.

قال تعالى : وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أى نزل بكم ما نزل من الشدائد فى أحد لتتعوَّدوا تحمل الشدائد والمحن، وليعاملكم - سبحانه - معاملة المختبر لنفوسكم ، فيظهر ما تنطوى عليه من خير أو شر ، حتى يتبين الخبيث من الطيب، وليخلص ما فى قلوبكم من المحن والأدران، فإن القلوب يعتريها بحكم العادة أدران وأمراض من الغفلة وحب الشهوة ، فاقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل بها من المحن والبلاء، ما يكون بالنسبة لها كالدواء لمن عرض له داء.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. أى عليم بأسرارها وضمائرها الخفية التى لا تفارقها ، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ . (آل عمران : ٥). وقال سبحانه : وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . (طه : ٧) .

ومع معرفته سبحانه بكل شىء وإحاطة علمه بالظاهر والباطن فقد اقتضت حكمته أن يمتحن عباده ، وان يختبرهم ليظهر الخبيث من الطيب، ويتبين المؤمن من المنافق. وتظهر الخفايا المستكنة واضحة ظاهرة فى سلوك الناس وتصرفاتهم ، ثم يكون الجزاء من جنس العمل. أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . (آل عمران : ١٤٢) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) ﴾

المفردات :

استزلهم	: أوقعهم فى الزلل بما زينه لهم.
ضربوا فى الأرض	: أوغلوا فيها.
غزى	: جمع غاز. وهو المقاتل.

التفسير :

١٥٥ - إِنَّ الَّذِين تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُم إِنَّ اللَّه غَفُورٌ حَلِيمٌ .

المعنى الإجمالى :

إن الذين انصرفوا منكم عن الثبات فى أماكنهم - يا معشر المسلمين - يوم التقى جمعكم وجمع الكفار للقتال فى غزوة أحد ، إنما جرّهم الشيطان إلى الزلل والخطأ بسبب ما ارتكبوا من مخالفة الرسول . ولقد تجاوز الله عنهم ، لأنه كثير المغفرة واسع الحلم.

الفرار من المعركة :

حذرت آيات القرآن ، وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم من التولى يوم الزحف أى الفرار يوم القتال.

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . (الأنفال : ١٥، ١٦).

* * *

كما أمر القرآن بالثبات والاحتمال والاستعانة بذكر الله ليكون كل ذلك مددا وقوة لنفسية المحارب . قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . (الأنفال : ٤٥-٤٦).

* * *

وفى غزوة أحد . خالف الرماة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتركوا أماكنهم فاضطرب نظام المعركة، وهجم المشركون على بقية الرماة فقتلوهم، وأصابوا المسلمين إصابات بالغة، وقد فرّ بعض المسلمين من المعركة متوجهاً نحو المدينة ، كما أن بعض المسلمين لم يثبت بجوار النبى صلى الله عليه وسلم ، بل فرّ إلى الجبل أو إلى غيره عندما اضطربت الصفوف.

« ولقد حكى لنا التاريخ أن هناك جماعة من المسلمين ثبتت إلى جانب النبى صلى الله عليه وسلم بدون وهن أو ضعف ، وقد أصيب ممن كان حوله أكثر من ثلاثين، وكلهم كان يفتدى النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ويقول وجهى لوجهك الفداء، ونفسى لنفسك الفداء، وعليك السلام غير مودّع »[١٢٤].

قال صاحب المنار :

وهناك وجه آخر فى تفسير هذه الآية ، وهو أن الذين تولوا هم جميع الذين تخلوا عن القتال من الرماة وغيرهم، كالذين انهزموا عندما جاءهم العدوّ من خلفهم ، واستدل القائلون بهذا الوجه بما روى من أن عثمان بن عفان عوتب فى هزيمته يوم أحد، فقال : إن ذلك خطأ عفا الله عنه .

* * *

ولقد قال المفسرون فى صدد جملة بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا . إنها تعنى عصيان رسول الله ، وحب الغنيمة . وكراهية الموت.

* * *

وهذه الآية فيها تحذير للمسلمين من التولى يوم الزحف، وتحذير لهم من طاعة الشيطان ، والاستماع إلى وسوسته ، لأن طاعة الشيطان طريق إلى المعصية والوهن والضعف، ومن سنّة الله أن يعاقب الإنسان حينا فى الدنيا للتعليم والتأديب ، وأن يصفح عنه أحيانا لمعرفته سبحانه بضعف البشر قال تعالى : وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ . (الشورى : ٣٠).

قال الأستاذ محمد عزة دروزة :

ولقد علم الله إخلاصهم وما أصابهم من خسائر فى الأرواح وجروح فى الأجساد ، وحزن وجزع، فاقتضت حكمته أن يغفر لهم زلتهم، وأن يبشرهم بهذه البشرى تهدئة لروعهم، وتضميدا لجراحهم، وأن يكتفى بما وجهه إليهم فى الآيات من عتاب ، وتحذير وتنبيه ، وفى ذلك ما فيه من معالجة ربانية جليلة، للموقف العصيب ، وتأميل فى عفو الله وحلمه وغفرانه فى كل موقف مماثل ، إذا لم تشبه شائبة من سوء نية وخبث طوية[١٢٥].

١٥٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا .. الآية.

هذه الآية تحذير للمؤمنين بأن لا يكونوا كالكفار ، الذين ينسون الله وقضاءه وحكمته ، ويقولون لمن يخرج غازيًا أو سائحًا أو تاجرًا فيموت أو يقتل ، إنه لو لم يخرج لما مات أو قتل.

وذلك جهل منهم بأن الله قدّر الآجال، وأن الضرب فى الأرض أو الغزو، لا يكون سبباً فى الموت أو القتل.

قال الفخر الرازى : وذلك لأن فى انطباع محبة الحياة، وكراهية الموت والقتل، فإن قيل للمرء: إذا تحررت من السفر والجهاد، فأنت سليم طيب العيش، وإن اندفعت إلى أحدهما وصلت إلى الموت والقتل - فالغالب أن ينفر طبعه عن ذلك ، ويرغب فى ملازمة البيت ، وكان ذلك من مكايد المنافقين فى التنفير من الجهاد .

* * *

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ . أى قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة فى نفوسهم ، قال ابن كثير : أى خلق الله هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم.

وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ . فالموت يأتى للقاعد فى بيته متى حان أجله، كما يأتى المجاهد فى حربه كذلك، وربما أصابت المنية القاعد ولم تنزل بالغازى.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أى علمه وبصره نافذ فى جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شىء.

* * *

« ولقد احتوت الآية على قوة نافذة ، من شأنها أن تمد المؤمن بالصبر والرضا والتسليم لحكم الله، والجراة والإقدام، وإيثار ما عند الله على حطام الدنيا، وعدم الاستماع لوسوسة المنافقين ، ومرضى القلوب المماثلة فى كل زمان ومكان » (١٢٦).

١٥٧ - وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

ولئن قتلتم أيها المؤمنون فى الجهاد، أو متم فى أثنائه على فراشكم بدون قتل ، فإن مغفرة الله لكم ورحمته بكم خير من حياة أولئك الكفار المقطوعة صلتهم بالله، الهابطة إلى الأرض، ومما يجمعون فيها من مال ومتاع.

١٥٨ - وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ .

وإنكم لمحشورون إلى الله على كل حال سواء متم ميتة عادية ، أو قتلتم فى الجهاد، فخير إذن أن تلقوا الله وقد نهضتم بتكليف الإيمان، وجاهدتم فى سبيله حتى وافاكم الأجل الموعود ، الذى لا ينقص منه الجهاد .

* * *

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أبلغ ألوان الترغيب فى الجهاد ، من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنها قد بينت أن الحياة والموت بيد الله وحده ، وأنه سبحانه قد يكتب الحياة للمسافر وللغازى، مع اقتحامهما لموارد الحتوف، وقد يميت المقيم والقاعد فى بيته مع حيازته لأسباب السلامة.

وإن الذين يموتون على الإيمان الحق، أو يقتلون وهم يجاهدون فى سبيل الله ، فإن لهم من مغفرة الله ورحمته ما هو خير مما يجمعه الكافرون من حطام الدنيا ، وأن كل من مات أو قتل فمرجعه إلى الله عز وجل وهو سبحانه مطلع وشاهد **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .



﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

المفردات :

لنت لهم : رفقت بهم.

فظا : الفظ، سيئ الخلق.

غليظ القلب : قاسيـــــه.

يخذلكم : يمنع عنكم النصر.

التفسير :

١٥٩ - فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ... الآية.

بيان لعظم حلم النبى صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله به وبهم ، بعد ما كان منهم من مخالفة أمر الرسول وفرارهم ، كما سبق بيانه .

أى : فبسبب رحمة واسعة من الله بك وبهم - وفَّقك الله للصفح عنهم : فلنت لهم ورفقت بهم ، ولم تغلظ عليهم فى الملام . مع أنهم فعلوا ما يقتضى أشد التعنيف . إذ ترك أكثر الرماة أماكنهم فوق الجبل ، واشتغلوا بجمع الغنيمة . فمكَّنوا المشركين من صعوده مكانهم ، وقلب ميزان المعركة لصالحهم. وترتب عليه أن أكثر الجيش فرّ، وترك الرسول فى قلة من أصحابه، فناله من أذى المشركين ما ناله، حتى أرجفوا بقتله.. فكان لين

الرسول معهم - بعد ذلك - رحمة من رحمات الله به وبهم . إذ كان سببا فى بقاء الإسلام ، وجمع قلوب المسلمين.

ولذا قال سبحانه وتعالى :

وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ.

أى : ولو كنت جافى الطبع، قاسى القلب ، فعاملتهم بقسوة، وعنفتهم على ما كان منهم ، وأشحت عنهم غضبا عليهم - لنفرت قلوبهم منك، فتفرقوا عنك ، ولم تستطع أداء رسالتك، وتبليغ دعوتك على وجهها الأكمل.

فلينه صلى الله عليه وسلم معهم - على خطئهم وعفوه عنهم - لم يكن عن ضعف وإنما كان ناشئا عن الرحمة التى فطره الله عليها .

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ .

قال صاحب الكشاف : اعف عنهم فيما يتعلق بحقك ، واستغفر لهم فيما يتعلق بحق الله .

وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ .

أى : فى أمر الحرب وغيره ، من كل أمر له خطر ولم ينزل فى شأنه وحى ، استظهارا برأيهم ، وتطييبا لنفوسهم ، ورفعاً لأقدارهم ، وتقريرا لسنة التشاور فى الأمة الإسلامية .

وقد جاء فى الكشاف : وعن الحسن رضى الله عنه : قد علم الله ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستن به من بعده .

وقيل : كانت العرب ، إذا لم يشاوروا فى الأمر ، شق عليهم ذلك . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه، لئلا يثقل عليهم استقلاله بالرأى دونهم . وكان صلى الله عليه وسلم ، يدرك - تمام الإدراك- ما للمشاورة من أثر فى الوصول إلى الصواب .

وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم » (١٢٧).

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .

أى : فإذا استقر رأيك ، وسكنت نفسك - بعد المشاورة ، فامض الأمر ولا تتردد ، وتوكل على الله فى تنفيذها ما عزمت عليه فإنه هو المعين لك فى أمور الدين والدنيا .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ . عليه فى جميع أمورهم . وإنما يحبهم لأنهم أخلصوا نفوسهم له، وطردوا عنها ما سواه ، إذ لم يروا فى غيره غناء.

وحب الله لهم ، مجاز عن توفيقه وإرشاده لهم فى الدنيا ، وحسن المثوبة فى الآخرة .

والمراد أنه لا ناصر لكم سواه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الأمر كله لله .

وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . أمر للمؤمنين بأن يخصوا الله تعالى بالتوكل عليه ، والثقة به ، فى جميع الأخذ فى الأسباب .

والمراد بالتوكل ، غير التواكل الذى هو ترك الأخذ بالأسباب ، مما يقع فيه كثير من المسلمين ، بناء على خطئهم فى فهم المراد من التوكل . وهذا التواكل محرم شرعا ..



﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

المفردات :

يغل : يخون . فالغلول : الخيانة وأخذ الشىء خفية. وخص - فى الشرع - بالسرقة من المغنم قبل القسمة. وفى قراءة (يُغَل) بضم الياء وفتح العين ، أى ينسب إلى الغلول.

باء بسخط : رجع بغضب شديد من الله.

التفسير :

١٦١ - وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أن يغلّ .. الآية.

أى ما صح وما استقام - عقلا وشرعا - لنبى من الأنبياء أن يخون فى المغانم وغيرها ، أو ينسب إلى الخيانة.

وفى هذا تنزيه لمقامه صلى الله عليه وسلم ، عن جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة ، ومنها قسمة الغنائم، وتنبيه على عصمته عليه السلام . فإن النبوة تنافى ذلك .

والمراد : تنزيه ساحته صلى الله عليه وسلم ، عما ظنه الرماة الذين تركوا أماكنهم يوم أحد ، حرصًا على الغنيمة، وخوفا من أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئًا فهو له .. فيحرموا - فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لهم معاتبًا متعجبًا « ظننتم أنا نغل ؟؟» فنزلت الآية [١٢٨].

وعن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : « اتهم المنافقون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشىء فقد ، فأنزل الله الآية ».

وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. الآية.

أى ومن يخن يأت بما خان فيه يوم القيامة ، يحمله أمام أهل المحشر، ليفتضح أمره.

وقد وردت أحاديث كثيرة فى عاقبة الغلول وجزائه ، وأنه من الكبائر.

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : كان على ثقل [١٢٩] النبى - صلى الله عليه وسلم - رجل يقال له كركرة فمات فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هو فى النار ، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها » [١٣٠].

وقد امتنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من صلاة الجنازة على من غل [١٣١].

ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ .

أى : تعطى كل نفس مكلفة جزاء ما عملت - من خير أو شر - وافيًا تاما، قليلاً كان أو كثيرا.

والغال داخل فى هذا العموم دخولا أوليا.

وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ .

أى : وكل الناس لا يظلمون بنقص فى ثواب ما عملوه من الخير، أو زيادة فى العقاب على ما اقترفوه من الشر إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا . (النساء : ٤٠) .

١٦٢ - أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ .. الآية.

المعنى : أغفلتم عن عدل الله ، فحسبتم أن من اتبع رضوان الله وسعى فى تحصيله : بفعل الطاعات وترك المنهيات ، كمن رجع بغضب شديد من الله عليه ، بسبب الكفر والمعاصي، ومنها الغلول ؟.

أى : لا يستوى من اتبع رضوان الله - بالتزام شريعته ، فاستحق ثواب الله ونعيمه - ومن حاد عنه، فاستحق غضبه وشديد عقابه ، فلا محيد له عنه .

وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ .

أى : مقره ومثواه جهنم : يلقى فيها عذاب الهون ، جزاء تفريطه فى أوامر الله تعالى ونواهيه.

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

أى : وبئس مآله ومرجعه السيىء : جهنم .

١٦٣ - هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ .. الآية .

أى : المتبعون رضوان الله والذين باءوا بسخطه ، ذوو درجات ومنازل متفاوتة فى الثواب والعقاب .

فأصحاب الثواب متفاوتون فى الدرجات . والمستحقون لغضب الله وعذابه، متفاوتون كذلك . والدرجات تكون فى النعيم ، وتكون فى العذاب . يدل على ذلك قوله تعالى :وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا . (الأنعام : ١٣٢) . بعد قوله تعالى : ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ . (الأنعام : ١٣١) .

والمراد بقوله تعالى : عِندَ اللَّهِ . فى علمه تعالى وحكمه.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

أى : بصير بالأعمال التى عملوها من خير أو شر . سيجازيهم عليها : كلا بحسبه من ثواب أو عقاب.

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

المفردات :

مَنَّ : المن، التفضل والإنعام من غير مقابل.

من أنفسهم : من جنسهم.

الكتاب والحكمة : القرآن والسنة.

أنّى هذا : من أين هذا ؟.

التفسير :

١٦٤ - لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. الآية.

أى : أنعم الله تعالى وتفضل على المؤمنين ببعثه الرسول فيهم من جنسهم : عربيا مثلهم : نشأ بينهم . وعرفوا أخلاقه وصفاته.

وإذا كان الرسول إليهم من جنسهم ، كان ذلك أبلغ فى الامتنان . حيث يسهل عليهم مخاطبته ومجالسته ، ومعرفة أمور الدين منه.

وبعثته صلى الله عليه سلم فيهم - وهو منهم - شرف للعرب ، وفخر عظيم لهم . وإن كانت رسالته عامة للعالمين أجمعين وما أرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

يتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ . وهو القرآن ، بعد أن كانوا أهل جاهلية . لم يطرق أسماعهم شىء من الوحى .

ويُزَكِّيهِمْ . أى ويطهرهم مما كانوا فيه من دنس الجاهلية ، وخبيث المعتقدات . حيث دعاهم إلى العقيدة الصحيحة ، والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة .

ويُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .

أى : ويعلمهم القرآن وشرائعه ، وحكمه وأحكامه ، والسنَّة وما اشتملت عليه من بيان لمبهم الكتاب . وتفصيل لمجمله .

وإن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ .

أى : وإنهم كانوا - من قبل بعثته - لفى ضلال ، وإضلال ، واضح الدلالة على الجهالة ، ظاهر لكل من طلع على عاداتهم وأخلاقهم وعقائدهم .

١٦٥ - أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا .. الآية.

كلام مستأنف ، سيق لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة بعد معركة أحد ، إثر إبطال بعض آخر منها .

والمعنى : أفعلتم ما فعلتم من أسباب الهزيمة ولما أصابتكم مصيبة يوم أحد بقتل سبعين شهيدًا منكم قد أصبتم مثليها . يوم بدر بقتل سبعين من كفار قريش وأسر سبعين منهم - لما حدث هذا - قلتم : من أين هذا الذى أصابنا وقد وعدنا الله النصر ؟!

قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ . بسبب عصيانكم أمر رسول الله ، حيث أمركم بالثبات فى مكانكم فعصيتم

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . فهو ينصركم حين تستحقون النصر، ويكتب عليكم الغلبة حين تقصرون فى التزام أسبابه.

وفى ختام الآية بما ذكر : ما يرشد إلى أن الأمر كله بيده جلَّت قدرته ، سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

المفردات :

يوم التقى الجمعان : أى يوم أحد، حيث التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين.

وليعلم : وليظهر ويميز.

نافقوا : النفاق ، إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

فادرءوا عن انفسكم الموت : أى يوم أحد، حيث التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين.

التفسير :

١٦٦ - وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ .. الآية.

أى : وما نزل بكم من استشهاد بعضكم ، يوم التقى الجمعان : جمع المؤمنين بقيادة رسول الله ، وجمع المشركين بقيادة أبى سفيان فَبِإِذْنِ اللَّهِ . أى فكائن بقضاء الله وقدره ، حسبما جرت به سنته فى خلقه وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ . (آل عمران : ١٤٠) .

وفى ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، ومواساة لهم فيما أصابهم. فالمؤمن إذا عرف ذلك ، يرضى ويسلم بما قضاه الله وقدره .

وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : وليظهر المؤمن الصادق من غيره ، وليميز الخبيث من الطيب.

١٦٧ - وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ... الآية.

أى : وليظهر غير الصادقين فى إيمانهم .

وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا .

أى : قيل للمنهزمين مع عبد الله بن أُبىٍّ - رأس المنافقين - تعالوا قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء دينه ونصرة نبيه ، أو دافعوا عن أنفسكم وأموالكم ، إن لم تقاتلوا لوجه الله . وممن قال لهم ذلك : عبد الله بن عمرو ابن حرام .

قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ .

هذا استئناف بيانى ، أى قالوا : لو كنا نعلم أنكم تلقون قتالاً لاتبعناكم وسرنا معكم . أو: قالوا استهزاء: لو نعلم فنون الحرب وأساليبها لاتبعناكم .

ثم كشف الله حقيقة أمرهم فقال :

هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ

أى هم - يوم قولهم ذلك - أقرب للكفر منهم للإيمان، حيث تركوا الجهاد فى سبيل الله ، وقالوا ذلك كاذبين .

وإنما لم يصرح القرآن بحقيقة كفرهم ، لنطقهم بالشهادتين . وهم- فى الواقع - لا إيمان فى قلوبهم .

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

هذه جملة - تبين حال المنافقين الدائمة ، لا فى هذا اليوم فقط. أى أنهم يتكلمون بكلمة التوحيد وليس فى قلوبهم منه شىء، لإضمارهم الكفر والعداوة والبغضاء لأهل الإسلام .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

أى : والله سبحانه عليم بما انطوت عليه صدورهم من الشر والفساد، وبأن ما قالوه بأفواههم ، ليس كائنا فى قلوبهم ، بل مخالفًا له .

١٦٨ - **الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا** .. الآية.

أى : الذين قالوا فى حق إخوانهم فى الدين ، أو ذوى قرابتهم الذين خرجوا مع المؤمنين وقاتلوا ، وقعدوا هم عن مشاركتهم والجهاد معهم .

لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . أى لو أطاعونا فى ترك السير مع الرسول والمؤمنين ، ما قتلوا . كما أننا لم نقتل.

وفى ذلك ما يدل على أن المنافقين ، حرضوا المؤمنين على التخاذل والقعود عن الجهاد .

قُلْ فَادْرَءُوا . أى قل لهم يا محمد : إن كان القعود ينجى من الموت كما تزعمون . فادفعوا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم .

إن كُنتُم صادقِين . فيما تزعمون من أن الموت لم يقع بكم ، لأنكم قعدتم وجبنتم . قال تعالى : قُل لن ينفعكُمُ الفرارُ إن فررتُم مِنَ الموتِ أو القتلِ وإذًا لاَّ تُمتَّعُونَ إلاَّ قليلاً * قُلْ من ذا الَّذي يعْصمُكم مِنَ اللهِ إنْ أراد بكُم سوءا أو أراد بكُم رحْمةً ولا يجدُون لهُم من دُونِ اللهِ وليًّا ولا نصيراً . (الأحزاب : ١٦ ، ١٧).



﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

كانت حياة المسلمين فى المدينة مفعمة بالجهاد والاستشهاد ، كان للمسلمين شهداء فى بئر معونة ، وشهداء فى غزوة بدر ، وشهداء فى غزوة أحد ، وفى غيرها من الغزوات [١٣٢].

وكان المنافقون يثبطون المسلمين عن الجهاد ، ويدعونهم إلى القعود فى المدينة خوفاً من الموت أو القتل. فبينت هاتان الآيتان فضل الشهادة ، ومنزلة الشهداء.

قال الواحدى : الأصح فى حياة الشهداء ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون .

وقد ورد هذا المعنى فى سورة البقرة حيث قال سبحانه :

ولا تقُولُوا لمن يُقْتلُ في سبِيلِ اللهِ أمْواتٌ بلْ أحْياءٌ ولكن لاَّ تشْعُرُون . (البقرة : ١٥٤).

ولقد روى المفسرون أحاديث عديدة فى سياق هذه الآيات ، كتفسير وتوضيح ، وأورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى الحث على الجهاد، ومن أحاديث فضل الجهاد ما يأتى :

روى البخارى عن ابن المنكدر أنه سمع جابرًا يقول : لما قتل أبى جعلت أبكى وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ينهوننى والنبى ﷺ لم ينه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (لا تبكيه - أو ما تبكيه - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع) [١٣٣].

وروى الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا من يبلغ إخواننا أننا

فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا فى الحرب (١٣٤)، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١٣٥).

(قال أبو الضحى نزلت هذه الآية فى أهل أُحد خاصة ، وقال جماعة من أهل التفسير : نزلت الآية فى شهداء بئر معونة ، وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق فى المغازى. وقال آخرون : إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة أو سرور تحسروا وقالوا : نحن فى النعمة والسرور وآباؤنا وأبناؤنا فى القبور ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تنفيسًا عنهم وإخبارًا عن حال قتلاهم) (١٣٦).

والآية تبين منزلة الشهداء فهم فى حياة سارة ونعيم لذيذ ورزق حسن عند ربهم . وهذه الحياة الممتازة ترفعهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم : أموات ، وإن كان المعنى اللغوى للموت - بمعنى مفارقة الروح للجسد فى ظاهر الأمر - حاصلاً للشهداء كغيرهم من الموتى ، إلا أن هذه الحياة البرزخية التى أخبر الله بها عن الشهداء نؤمن بها كما ذكرها الله تعالى ، ولا ندرك حقيقتها لأنها من شؤون الغيب .

قال القرطبى فى تفسير الآية :

(فقد أخبر الله تعالى - فى هذه الآيات عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون ، والذى عليه الكثيرون أن حياة الشهداء محققة ، ثم منهم من يقول : ترد إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون ، كما يحيا الكفار فى قبورهم فيعذبون ، وصار قوم إلى أن هذا مجاز، والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقون للتنعم فى الجنة ، وقال آخرون أرواحهم فى أجواف طير خضر وأنهم يرزقون فى الجنة ويأكلون ويتنعمون ، وهذا هو الصحيح من الأقوال ، لأن ما صح به النقل فهو الواقع ، وحديث ابن عباس نص يرفع الخلاف ..) (١٣٧).

والآية تثبت للشهداء حياة على نحو ما ، نؤمن بها ونفوض معرفة حقيقتها لله ، جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

١٦٩ - ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ . . . ولا تظنن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل هم أحياء حياة استأثر الله بعلمها يرزقون عند ربهم رزقاً حسنا .

١٧٠ - ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ . . . يتألق السرور بالبشر من وجوههم ، بما أعطاهم الله بسبب فضله من مزايا، ويفرحون بإخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا أحياء مقيمين على منهج الإيمان والجهاد ، وبأنه لا خوف عليهم من مكروه، ولا هم يحزنون لفوات محبوب .

ويقول الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى:

(أى أن هؤلاء الشهداء فرحون بما آتاهم الله من فضله ، من شرف الشهادة ومن الفوز برضا الله ، مسرورون بما تبين لهم ، من حسن مآل إخوانهم ، الذين تركوهم من خلفهم على قيد الحياة، لأن الأحياء عندما يموتون شهداء مثلهم، سينالون رضا الله وكرامته ، وسيظفرون بتلك الحياة الأبدية الكريمة كما ظفروا هم بها .

فالمراد بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم : رفقاؤهم الذين كانوا يجاهدون معهم فى الدنيا ولم يظفروا بالشهادة بعد ، لأنهم ما زالوا على قيد الحياة) (١٣٨).

والآيتان من أروع ما يتلى للحث على الجهاد وبيان فضل الشهادة ، وبيان منزلة الشهداء ، وجلال ثوابهم وطيب مقامهم ، ورفعة منزلتهم ، وهى منزلة يتمناها المؤمن الصادق، حياة الشهيد فى جوار ربه يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليقتل فى سبيل الله مرة ومرة ومرة ، لما يرى من فضل الشهادة . إن الشهيد قد قدم روحه ، وضحى بنفسه . فكان له الجزاء الأوفى من جنس عمله ، وكان له حق على الله أن يحفظه من النار وأن يدخله الجنة ، وأن يسكنه فى أعلى منازل الجنان .

جاءت أم حارثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : يا رسول الله : إن حارثة قد قتل فى الجهاد فأخبرنى أهو فى الجنة أم فى النار ؟ فإن كان فى الجنة صبرت وإن كان فى النار بكيت ، فقال ﷺ : اتق الله يا أم حارثة إنها جنان وليست جنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى منها (١٣٩) .

وقد تمثل المؤمنون المعانى الكريمة لهذه الآيات والأحاديث ، فحملوا راية الجهاد فى سبيل الله ، وكان العباد والزهاد والمنقطعون للعبادة فى المساجد يرون أن لهم ثوابا عظيما على عبادتهم ، وكانت هناك مساجلات أدبية بين المتعبدين فى المساجد ، والمجاهدين فى ميادين الحرب .

روى الحافظ ابن عساكر عن محمد بن إبراهيم بن أبى سكينة قال : أملى علىَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس ، وأرسلها إلى الفضيل بن عياض سنة ١٧٠ هـ.

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا
لعلمت أنك فى العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله فى باطل
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
وهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا
قول صحيح صادق لا يكذب

لا يستوى غبار خيل الله فى
أنف امرئ ودخان نار تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا
ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلما قرأ هذه الأبيات الفضيل بن عياض ذرفت عيناه فى المسجد الحرام وقال : صدق أبو عبد الرحمن، فقد صح فى الحديث عن أبى هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله علمنى عملاً أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله ، فقال له الرسول ﷺ : « هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر ؟ » فقال يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « فو الذى نفسى بيده لو طوقت ذلك ما بلغت المجاهدين فى سبيل الله » رواه البخارى (١٤٠).



﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

المعنى الإجمالى :

تتألق وجوه الشهداء بما من الله به عليهم من نعمة الشهادة ، ونعيم الجنة وعظيم الكرامة، وبأنه لا يضيع أجر المؤمنين .

فهذه الآية استئناف مبين لما هم عليه من سرور يتعلق بذواتهم بعد أن بين سبحانه سرورهم بحال الذين لم يلحقوا بهم .

أى أن هؤلاء الشهداء يستبشرون بحال إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، كما أنهم يستبشرون أيضًا لأنفسهم بسبب ما أنعم الله عليهم به من نعم جزيلة - وبسبب ما تفضل به عليهم من زيادة الكرامة وسمو المنزلة، وهذا يدل على أن هؤلاء الشهداء لا يهتمون بشأن أنفسهم فقط ، وإنما يهتمون أيضًا بأحوال إخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا ، وفى ذلك ما فيه من صفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم حيث أحبوا الخير لغيرهم كما أحبوه لأنفسهم .

والآية وإن نزلت فى شهداء غزوة أحد ، إلا أن حكمها عام فى جميع شهداء المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله.

★ ★ ★

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

المفردات :

القرح : الجـــرح.

حسبنا الله : كافينا وحافظنا.

الوكيل : المتصرف ، أو الكافى، أو الكافل.

قصة الآيات :

ورد فى كتب التفسير [١٤١] عدة روايات عن أسباب نزول هذه: منها أنها نزلت فى غزوة حمراء الأسد، ومنها أنها نزلت فى غزوة بدر الصغرى، وتلتقى الروايات على أن حربا نفسية كانت فى أعقاب غزوة أحد، حاول المشركون منها تثبيط همم المسلمين ليكسبوا جولة بدون معركة عسكرية ، ولكن المسلمين المخلصين لبوا نداء الرسول وخرجوا فى طلب المشركين ثم عادوا ظافرين غانمين إذ لم يجدوا عدوا وإنما سجلوا نصرا معنويا.

قال الفخر الرازى :

اعلم أن الله مدح المؤمنين على غزوتين تعرف إحداهما بغزوة حمراء الأسد، والثانية : بغزوة بدر الصغرى، وكلتاهما متصلة بغزوة أحد.

أما غزوة حمراء الأسد فهى المرادة من هذه الآية ، فإن الأصح فى سبب نزولها آن أبا سفيان وأصحابه بعد أن انصرفوا من أحد ، وبلغوا الروحاء ندموا ، وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق إلا القليل فلم تركناهم ؟ بل الواجب أن نرجع نستأصلهم ، فهموا بالرجوع .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة . فندب أصحابه إلى الخروج فى طلب أبى سفيان ، وقال : لا أريد أن يخرج الآن معى إلا من كان معى فى القتال فى أحد.

فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع قوم من أصحابه ، حتى بلغوا حمراء الأسد، وهى مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة، فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فانهزموا . ا هـ.







د.عبدالله شحاته





دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت : ٣٥٤٢٠٧٩

فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

المكتبة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

١٧٢ - الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ .

أى هؤلاء المؤمنون هم الذين أجابوا دعوته، ولبوا نداءه ، وأتوا بالعمل على أكمل وجوهه ، واتقوا عاقبة تقصيرهم ، على ما هم عليه من جراح وآلام أصابتهم يوم أحد، لهم أجر عظيم على ما قاموا به من جليل الأعمال.

١٧٣ - الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

أى هم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعى، ومن وافقه وأذاع قوله : إن أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجموع لقتالكم ، فاخشوهم ولا تخرجوا للقائهم.

روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن الآية نزلت فى غزوة أحد الصغرى، ذلك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد ، يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ذلك بيننا وبينك إن شاء الله ، وهذا مما اعتاده العرب فى حروبهم .

فلما جاء الموعد خرج النبى على رأس فريق من أصحابه حتى بلغ بدرًا فلم يجدوا قريشا ، وشهدوا سوق بدر، وكان لهم فيها ربح تجارى عظيم ، ولم يلقوا كيدا أو سوءا . وابن سعد يذكر وقوع الغزوتين وأسبابهما التى ذكرها المفسرون (١٤٢).

روى أن أبا سفيان خرج فى العام التالى لغزوة أحد، فى جيش من أهل مكة حتى نزل (مجنة) ، من ناحية (مر الظهران) ، فألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له الرجوع ، فلقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال له أبو سفيان : إنى واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر، وأن هذا عام جدب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لى أن أرجع ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأة ، فاذهب إلى المدينة فثبطهم ، ولك عندى عشرة من الإبل ، أضعها فى يدى سهيل بن عمرو فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبى سفيان ، فقال لهم : أتوكم فى دياركم ، فلم يفلت منكم أحد إلا شريد. أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ؟ فكان لكلامه وقع شديد فى نفوس قوم منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لأخرجن ، ولو لم يخرج معى أحد » فخرج ومعه سبعون راكبًا يقولون (حسبنا الله ونعم الوكيل) حتى وافى بدرًا الصغرى فأقام بها ثمانية أيام ، ينتظر أبا سفيان فلم يلق أحدا، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة ، وكان معه ألفا رجل، فسماه أهل مكة جيش السويق، وقالوا لهم : إنما خرجتم لتشربوا السويق.

ووافى المسلمون سوق بدر وكانت معهم نفقات وتجارات ، فباعوا واشتروا أدما وزبيبا فربحوا ، وأصابوا بالدرهم درهمين - وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين.

وفى ذلك يقول الله تعالى : فَزَادَهُمْ إِيمَانًا . أى فزادهم هذا التخذيل إيمانًا بالله ورغبة فى ا لجهاد ، واستعدادا للتضحية، وقالوا فى يقين صادق : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . الله كافينا ، يرد عنا أعداءنا وينصرنا، ونعم الكفيل الله تعالى .

١٧٤ - فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. .

فعاد المسلمون من بدر الثانية بنعمة السلامة مع الرغبة فى الجهاد وفوزهم بثوابه. وقد تظاهرت عليهم نعم الله ، فسلموا من تدبير عدوهم ، وأطاعوا رسولهم ، وربحوا فى تجارتهم ، ونالوا فضل الله عليهم فى إلقاء الرعب فى قلوب عدوهم فلم ينلهم أذى.

وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ. أى حرصوا على فعل ما يرضى الله تعالى عنهم ، من المبادرة إلى فعل الطاعات، ومنها خروجهم لبدر الصغرى، وترك المنهيات ففازوا برضوان الله وتأييده ونصره .

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ أى ذو إحسان عظيم على العباد .

فى أعقاب الآيات :

من المفسرين من ذكر أن الآيات نزلت فى غزوة حمراء الأسد، فى أعقاب غزوة أحد.

ومنهم من ذكر أنها نزلت فى غزوة بدر الصغرى، وهى بعد غزوة أحد بسنة كاملة.

وهناك احتمال أن الآيات نزلت بعد الحادثتين كلتيهما . وقد رجح الأستاذ محمد عزة دروزة أن الآيات نزلت فى غزوة حمراء الأسد الأسد لأنها متكاملة مع ما سبقها.

والمتبادر أن الآيات لم تنزل مستقلة ، وليست منفصلة عن سابقاتها، وكلمة الَّذِين متصلة نظما بكلمة الْمُؤْمِنِينَ التى كانت خاتمة الآيات السابقة ، وأن السلسلة كلها نزلت دفعة واحدة ، عقب أحداث وقعة أُحد ومشاهدها.

والآيات تحتوى صورة رائعة لاستغراق النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته والجهاد فى سبيلها، وعمق إيمان الفئة المؤمنة التى كانت حوله ، وصبرها وتفانيها وقوة روحها واستغراقها فى تأييد النبى وطاعته.. وبخاصة فى الحالة التى نزلت فيها الآيات، حيث خرجوا إلى عدو يزيد عليهم أضعافا كثيرة، ويفوقهم فى الوسائل ، وكانت جراحهم دامية وأجسادهم متعبة بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان مجروحا فى وجهه مشجوجا فى جبهته ، مكسورة رباعيته مكلومة شفته السفلى متوهنا منكبه الأيمن من ضربة أصابته وركبتاه مشجوجتان (١٤٣) . ويزيد فى روعة الصورة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يندب معه إلا الذين شهدوا معركة أحد وقاتلوا فيها ولم ينهزموا . وقد روى أن عددهم كان سبعين (١٤٤) . ومما رواه المفسرون من واقع هذه الصورة خروج الجرحى حرصا على ثواب غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك أن شابا (١٤٥) استشهد أبوه فى المعركة ولم يكن شهدها بنفسه لأن أباه آلى عليه أن يتخلف إلى جانب سبع أخوات له، فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وطلب منه الإذن بالانضمام إليه بعد أن أخبره بعذره الذى منعه من شهود المعركة ، وفى كل هذا عظيم الأسوة والتلقين لكل مسلم فى كل ظرف ومكان(١٤٦).

وفى معنى هذه الآيات قوله تعالى : وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . (الأحزاب : ٢٢).

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

المفردات :

الشيطان	: الشيطان هنا هو شيطان الإنس الذى غش المسلمين ليخذلهم وهو نعيم بن مسعود.
يخوف أولياءه	: أى يخوفكم أنصاره من المشركين.
يسارعون فى الكفر	: أى يسارعون فى نصرته والاهتمام بشئونه والتهوين من شأن المؤمنين وتخويفهم.
حظًا فى الآخرة	: أى نصيبا من الثواب فيها.
اشتروا الكفر بالإيمان	: أى أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان كما يفعل المشترى من إعطاء شىء وأخذ غيره بدلاً منه.
نملى لهم	: الإملاء : الإمهال والتخلية بين العامل وعمله ليبلغ أقصى مداه ، من قولهم : أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء، منه الملأ للأرض الواسعة، والملوان : الليل والنهار.

سياق الآيات :

انتهت غزوة أحد بفوز المشركين ، وأصيب النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بجراح وآلام وانكسار.

عندئذ أظهر بعض المنافقين كفرهم وصاروا يخوفون المؤمنين ويؤيسونهم من النصر والظفر بعدوهم ، ويقولون لهم إن محمدا طالب ملك، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عليه ، ولو كان رسولا من عند الله ما غلب، إلى نحو هذه المقالة مما ينفر المسلمين من الإسلام ، فكان الرسول يحزن لذلك ويسرف فى الحزن، فنزلت هذه الآيات تسلية للرسول الأمين وتربية للمؤمنين.

التفسير :

١٧٥ - إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

بين الله سبحانه للمؤمنين أن أولئك الذين يخوفونكم بأعدائكم لتجبنوا عن لقائهم ليسوا إلا أعوانا للشيطان الذى يخوف أتباعه فيجعلهم جبناء ولستم منهم ، فلا تحفلوا بتخويفهم وخافوا الله وحده إن كنتم صادقى الإيمان قائمين بما يفرضه عليكم هذا الإيمان .

وجاء فى التفسير الحديث :

فى هذه الآية تنبيه وتثبيت للمؤمنين ، فالشيطان يثير فى نفوسهم الخوف من أوليائه، ليقعدهم عن القتال، فعليهم ألا يستمعوا لوساوسه، ولا يخافوهم بل يخافوا الله وحده إن كانوا مؤمنين حقا . ا هـ.

وتفيد الآية أن المؤمن لا يكون جبانا ولا ذليلا ، لأن الموت والحياة بيد الله ، وإذا عرضت للإنسان أسباب الخوف فليستحضر فى نفسه قدرة الله الذى بيده كل شىء، وهو يجير ولا يجار عليه .

إن فى استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف، ويعوِّد نفسه الاستهانة بها بالتمرين والتربية.

إذا عرضت للإنسان أسباب الخوف، فعليه أن يغالبها بصرفها عن ذهنه، وشغله بما يضادها ويذهب بآثارها، وهذا يدخل فى اختيار الإنسان ، وهو الذى نيط به التكليف.

١٧٦ - وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا .

كان للمنافقين مواقف شائنة فى غزوة أُحد ، فقد عاد عبد الله بن أُبى بثلث الناس ، ولما دارت الدائرة على المسلمين فى أحد ، بسبب موقف المنافقين أولا، وبسبب ترك الرماة أماكنهم فوق الجبل لحماية ظهور المسلمين ثانيا ، ورجعوا إلى المدينة ، أظهر المنافقون كثيرا من الشماتة والبغضاء، وقالوا فى حق الذين قتلوا فى المعركة .. لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا . (آل عمران : ١٥٦) .

ولما استعرض الرسول الأمين هذه المواقف الشائنة حزن وتألم، فأنزل الله هذه الآية لتسليته ، أى لا ينبغى يا محمد أن تحزن لمسارعة هؤلاء الضالين فى الكفر ، فإنهم لن يضروا أوليائى بشىء من الضرر . وقد استفاد المسلمون من هذه الغزوة ، إذ عرفوا أعداءهم ، المنبثين فيما بينهم من المنافقين ، فأخذوا حذرهم . يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يجعل لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ . أى حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة بسبب ما أبدوه من أسباب الفرقة والتخذيل والشماتة وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وعقاب أليم فوق عذاب الحرمان من نعيم الجنة .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بأفواهِهم وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا . . . (المائدة : ٤١) .

١٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

والاشتراء فى الآية الكريمة بمعنى الاستبدال ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فقد شبه - سبحانه - الكافر الذى يترك الحق الواضح ، الذى قامت الأدلة على صحته ، ويختار بدله الضلال الذى قامت الأدلة على بطلانه بمن يكون فى يده سلعة ثمينة جيدة فيتركها، ويأخذ فى مقابلها سلعة رديئة فاسدة.

والمعنى إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، لن يضروا دين الله ولا رسوله، ولا أولياءه بشىء من الضرر، وإنما يضرون بفعلهم هذا أنفسهم ضررا بليغا ، ولهم فى الآخرة عذاب مؤلم شديد الإيلام، بسبب إيثارهم الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان والشر على الخير.

١٧٨ - وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ . . .

أى لا يعتقدون الذين كفروا أن إمهالنا لهم ، وعدم تعجيلنا بعقوبتهم ، على كيدهم للإسلام - خير لأنفسهم ، فإن الله يمهلهم ويؤخر عقوبتهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

أى يستدرجهم الله تعالى ويرخى لهم الحبل على الغارب ، ليرتعوا فى مراعى الشر، ثم يستحقون العذاب المهين فى الآخرة مقابل اعتزازهم فى الدنيا بالكفر والمعاصي، والكيد للإسلام والمسلمين والبادئ أظلم.

وفى معنى الآية قوله تعالى : يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ. (المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦) .

وقوله سبحانه : فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ . (القلم : ٤٤).

وقوله عز شأنه : فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . (التوبة : ٥٥) .



﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

المفردات :

ليـذر : ليترك.

يميـز : يفرق ويعزل.

يجتبى : ليترك.

التفسير :

١٧٩ - مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ . . .

أى : ليس من شأن الله تعالى ، ولا من حكمته وسنته فى خلقه ، أن يتركم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه، من اختلاط المؤمن بالمنافق، بل الذى من شأنه وسنته أن يبتليكم ويمتحنكم ، بألوان المصائب والشدائد، حتى يظهر المؤمن الطيب المخلص، ويستبين أمر المنافقين الذين هتكت أستارهم وعرفت أسماؤهم ، وحقيقة نواياهم.

ولم تجر سنة الله بإطلاع أحد من خلقه على شىء من غيبه . قال تعالى : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غيبه أحداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا. (الجن : ٢٦ ، ٢٧) .

فالله تعالى يصطفى من رسله من يريد اصطفاءه فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، كما حدث للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد أطلعه الله على ما دبره له اليهود حين هموا باغتياله، وأطلعه على حال تلك المرأة التى أرسلها حاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى قريش لتخبرهم باستعداد الرسول صلى الله عليه وسلم لحربهم، وأطلعه على أحوال بعض المنافقين فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ . أى أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ، أو داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان بالله ورسوله.

وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ . وإن تصدقوا فى إيمانكم وتتقوا ربكم بالتزام طاعته ؛ يدخلكم الجنة جزاء، ونعم الجزاء إذ هى جزاء عظيم.

★ ★ ★

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

المفردات :

ما آتاهم : أى ما أعطاهم من المال والعلم والجاه.

سيطوقون ما بخلوا به : أى سيلزمون إثمه فى الآخرة كما يلزم الطوق الرقبة ، وقد جاء فى أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة ، إذا جاء بما يسب به ويذم.

ميراث السموات والأرض : أى ما يتوارثه أهلهما من مال غيره.

سنكتب ما قالوا : أى سنعاقب عليه ولا نهمله.

ونقول ذوقوا عذاب الحريق : أصل الذوق وجود الطعم فى الفم ثم استعمل فى إدراك المحسوسات، والحريق المحرق المؤلم ، وعذاب الحريق أى عذاب هو الحريق أى سننتقم منهم.

عهد إلينا : أى أمرنا فى التوراة وأوصانا.

القربان : ما يتقرب به إلى الله من حيوان ونقد وغيرهما ، والمراد من (النار): التى تنزل من السماء.

البينات : هى المعجزات الواضحة.

الزبر : واحدها زبور، وهو الكتاب.

المنير : الواضح.

تمهيد :

كان الكلام فيما مضى فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى سبيل الله بذكر ما يلاقيه المجاهدون من الكرامة عند ربهم فى جنات النعيم .

وهنا شرع يحث على بذل المال فى الجهاد - والمال شقيق الروح - فذكر أشد أنواع الوعيد لمن يبخل بماله فى هذه السبيل ، وأرشد إلى أن المال ظل زائل ، وأن مدى الحياة قصير، وأن الوارثين والموروثين سيموتون ويبقى الملك لله وحده.

ثم ذكر مقالة لليهود قد قالوها ، ثم كذبهم فيها ثم سلَّى رسوله وأبان له أن تكذيبهم لك ليس ببدع منهم بل سبقوا من قبل بمثله من الأنبياء السابقين .

* * *

التفسير :

١٨٠ - وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم . . . .

أى ولا يظنن أحد أن بخل الباخلين بما أعطاهم الله من فضله ونعمه هو خيرًا لهم ، لأنهم مطالبون بشكران النعم ، والبخل بها كفران لا ينبغى أن يصدر من عاقل.

والمراد من البخل بالفضل البخل به فى أداء الزكاة المفروضة ، وفى الأحوال التى يتعين فيها بذل المال كالإنفاق لصد عدو يجتاح البلاد ويهدد استقلالها، ويصبح أهلها أذلة بعد أن كانوا أعزة، أو إنقاذ شخص من مخالب الموت جوعا .

ففى كل هذه الأحوال يجب بذل المال ، لأنه يجرى مجرى دفع الضرر عن النفس.

وليس الذم والوعيد على البخل بما يملك الإنسان من فضل ربه ، إذ إن الله أباح لنا الطيبات لنستمتع بها، ولأن العقل قاض بأن الله لا يكلف الناس بذل ما يكسبون ويبقون عراة جائعين ، ومن ثم قال فى حق المؤمنين المهتدين **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** . (البقرة : ٣) .

وجاءت الآية بطريق التعميم ترغيبًا فى بذل المال بدون تحديد ولا تعيين ، ووكل أمر ذلك إلى اجتهاد المؤمن الذى يتبع عاطفة الإيمان التى فى قلبه ، وما تحدثه فى النفس من أريحية بذل الواجب والزيادة عليه، إذا هو تذكر أن فى ماله حقا للسائل والمحروم .

بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ . أى هو شر عظيم لهم ، وقد نفى أولا أن يكون خيرا ثم أثبت كونه شرا، لأن المانع للحق إنما يمنعه لأنه يحسب أن فى منعه خيرا له ، لما فى بقاء المال فى يده من الانتفاع به فى التمتع باللذات، وقضاء الحاجات ودفع الغوائل والآفات.

سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أى سيجعل ما بخلوا به من المال طوقا فى أعناقهم ، ويلزمهم ذنبه وعقابه، ولا يجدون إلى دفعه سبيلا، كما يقال : طوقنى الأمر أى ألزمنى إياه .

وخلاصة هذا - أن العقاب على البخل لازم لابد منه .

وقال مجاهد : إن المعنى : سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة عقوبة لهم فلا يستطيعون ذلك ، ويكون ذلك توبيخاً لهم على معنى : هلا فعلتم ذلك حين كان ممكنًا ميسورا، ونظير هذا قوله تعالى : وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ . (القلم : ٤٢).

ويرى بعضهم أن التطويق حقيقي، وأنهم يطوقون بطوق يكون سببا لعذابهم فتصير تلك الأموال حيات تلتوى فى أعناقهم . فقد روى البخارى والنسائى عن أبى هريرة قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّل له شجاع (ثعبان) أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بلهزمتيه (شدقيه) يقول أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا الآية » (١٤٧) .

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . أى لله وحده لا لأحد سواه، ما فى السماوات والأرض ما يتورث من مال وغيره ، فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر فى يد ، ولا يسلم التصرف فيه لأحد، إلى أن يفنى الوارثون والموروثون . ويبقى مالك الملك، وهو الله رب العالمين.

فما لهؤلاء القوم يبخلون عليه بملكه، ولا ينفقونه فى سبيله ، وابتغاء مرضاته.

وفى الآية إيماء إلى أن كل ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوة وعلم فإنه عرض زائل، وصاحبه فان غير باق، فلا ينبغى أن يستبقى الفانى ما هو مثله فى الفناء، بل عليه أن يضع الأشياء فى مواضعها التى لها ، وبذا يكون خليفة الله فى أرضه محسنا للتصرف فيما استخلف.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . أى والله لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، ولا ما تنطوى عليه جوانحكم، فيجازى كل عامل بما عمل بحسب تأثير عمله فى تزكية نفسه أو تدسيتها ، ونيته فى فعله كما جاء فى الحديث: « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ».

١٨١ - لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .

أى قد سمع الله قول هؤلاء الكافرين الذين قالوا هذه المقالة، ولم يخف عليه ، وسيجزيهم عليه أشد الجزاء.

وهذا أسلوب يتضمن التهديد والوعيد، كما يتضمن البشارة والوعد بحسن الجزاء فى نحو « سمع الله لمن حمده » ويضمن مزيد العناية وإرادة الإغاثة وإزالة الشكوى فى نحو قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا

وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما . (المجادلة : ١) . إذ سمع الله لعباده يراد به مراقبته لهم فى أقوالهم ، ويلزم من ذلك المعانى التى ذكرناها آنفا.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى : من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا. (البقرة : ٢٤٥) . فقالوا : يا محمد ، أفقير ربك يسأل عباده القرض ونحن أغنياء؟ فأنزل الله لقد سمع الله . الآية .

سنكتب ما قالوا . أى سنعاقبهم على ذلك عقابا لا شك فيه ، إذ يلزم من كتابة الذنب وحفظه العقوبة عليه، وهذا استعمال شائع فى اللغة.

وقتلهم الأنبياء بغير حق . أى قتل سلفهم لهم ، وإنما نسبه إليهم للإشارة إلى أنهم راضون بما فعلوه.

وهذا يدل على أن الأمم متكافلة فى الأمور العامة، ويجب على أفرادها الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره أو النهى عنه ، لئلا يفشو فيها ، فيصير خلقا من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها ، فتستحق العقوبة فى الدنيا بالضيق والفقر، والعقوبة فى الآخرة بتدنيس نفوسها، وأن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطبقه على أحكام الشريعة فيستحسن منها ما تستحسنه ، ويستهجن ما تستهجنه - عد شريكا له فى إثمه ومستحقا لمثل عقوبته.

ونقول ذوقوا عذاب الحريق . أى سننتقم منهم ونقول لهم هذه المقالة.

ذلك أنهم لما قالوا ما قالوا وقتلوا من الأنبياء من قتلوا، فقد أذاقوا المسلمين وأتباع الأنبياء ألوانا من العذاب، وأحرقوا قلوبهم بلهب الإيذاء والكرب، فجوزوا بهذا العذاب الشديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق، كما أذقتم أولياء الله فى الدنيا ما يكرهون .

والخلاصة - ذوقوا ما أنتم فيه ، فلستم بمتخلصين منه، وهذا قول يلقى للتشفى الدال على كمال الغيظ والغضب.

١٨٢ - ذلك بما قدمت أيديكم . أى أن هذا العذاب المحرق الذى تذوقون حرارته بسبب أعمالكم فى الدنيا كقتل الأنبياء، ووصف الله بالفقر، وجميع ما كان منكم من ضروب الكفر والفسوق والعصيان .

وأضاف العمل إلى الأيدى ، من قبل أن أكثر أعمال الإنسان تزاول باليد، وليفيد أن ما عذبوا هو من عملهم على الحقيقة، لا أنهم أمروا به ولم يباشروه .

وأن الله ليس بظلام للعبيد . أى أن ذلك العذاب أصابكم بعملكم ، وبكونه تعالى عادلا فى حكمه وفعله، لا يجور ولا يظلم، فلا يعاقب غير المستحق للعقاب، ولا يجعل المجرمين كالمتقين ، والكافرين كالمؤمنين كما قال : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما

يحكُمون . (الجاثية : ٢١). وقال : أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . (القلم : ٣٥،٣٦). وقال: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . (ص : ٢٨) .

والخلاصة - أن ترك عقاب أمثالكم مساواة بين المحسن والمسيء وضع للشيء فى غير موضعه، وهو ظلم كبير لا يصدر إلا ممن كان كثير الظلم مبالغا فيه .

١٨٣ - الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وفنحاص بن عازوراء وفى جماعة آخرين، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد تزعم أنك رسول الله ، وأنه تعالى أوحى إليك كتابا، وقد عهد إلينا فى التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون للنار دوى خفيف حين تنزل من السماء فإن جئتنا بهذا صدقناك ، فنزلت الآية .

وروى ابن جرير أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة، فإذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلت ما تصدق به.

ودعواهم هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم ، وأكل النار للقربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، فهو وسائر المعجزات سواء، وما مقصدهم من تلك المفتريات إلا عدم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يأت بما قالوه ، ولو أتى به لآمنوا فرد عليهم بقوله :

قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . أى قل موبخا لهم ومكذبا: قد جاءكم كثيرون من قبلى كزكريا ويحيى وغيرهما بالمعجزات الدالة على صدق نبوتهم، وبما كنتم تقترحون وتطلبون ، وأتوا بالقربان الذى تأكله النار ، فما بالكم لم تؤمنوا بهم ، بل اجترأتم على قتلهم ؟ وهذا دليل على أنكم قوم غلاظ الأكباد (وبذلك وصفوا فى التوراة) قساة القلوب لا تفقهون الحق ولا تذعنون له ، وأنكم لم تطلبوا هذه المعجزة استرشادا، بل تعنيتا وعنادا.

وقد نسب هذا الفعل إلى من كان فى عصر التنزيل وقد وقع من أسلافهم لأنهم راضون عما فعلوه، معتقدون أنهم على حق فى ذلك ، والأمة فى أخلاقها العامة وعاداتها كالشخص الواحد، وقد كان هذا معروفا عند العرب وغيرهم، فتراهم يلصقون جريمة الشخص بقبيلته ويؤاخذونها بها.

والخلاصة : أن أسلافكم كانوا متعنتين ، وما أنتم إلا كأسلافكم، فلم يكن من سنة الله إجابتكم إلى ملتمسكم بالإتيان بالقربان، إذ لا فائدة منه.

١٨٤ - فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ . أى فإن كذبوك بعد أن جئتهم بالبينات الساطعة، والمعجزات الواضحة والكتاب الهادى إلى سواء السبيل ، مع استنارة الحجة والدليل - فلا تأس عليهم ، ولا تحزن لعنادهم وكفرهم، ولا تعجب من فساد طويتهم ، وعظيم تعنتهم ، فتلك سنة الله فى

خليقته ، فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بمثل ما جئت به من باهر المعجزات ، وهزوا القلوب بالزواجر والعظات، وأناروا بالكتاب سبيل النجاة فلم يغن ذلك عنهم شيئًا، فصبروا على ما نالهم من أذى وما نالهم من سخرية واستهزاء.

وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وبيان لأن طباع البشر فى كل الأزمنة سواء ، فمنهم من يتقبل الحق ويقبل عليه بصدر رحب ونفس مطمئنة ، ومنهم من يقاوم الحق والداعى إليه، ويسفه أحلام معتنقيه .

فليس بالعجيب منهم أن يقاوموا دعوتك، ولا أن يفندوا حجتك، فإن نفوسهم منصرفة عن طلب الحق، وتحرى سبل الخير.



﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (١٨٥) ﴾

المفردات :

توفون أجوركم : أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة.

زحزح عن النار : نحى عنها.

فـــاز : سعد ونجا.

متـــاع : المتاع : ما يتمتع به مما يباع ويشترى.

الغرور : إصابة الغرة والغفلة ممن تخدعه وتغشه.

التفسير :

١٨٥ - كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . الآية .

كل نفس سيدركها الموت لا محالة ، قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . (الرحمن : ٢٦) . وإنما تعطون جزاء أعمالكم وافيا يوم القيامة، فمن نحى عن النار وأبعد عنها وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السرمدية، والنعيم المخلد، وليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور.

قال ابن كثير : وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة ، وفرغت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم، وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحد مثقال ذرة .

(وليس فى هذه الآية ما يدعو إلى نفض اليد من الدنيا ومتعها وطيباتها والنشاط فيها فى مختلف المجالات ، وإنما هدفها هو التذكير بحتمية الموت ، وحث الناس والمسلمين بخاصة على الاستمساك بحبل الله وتقواه ، والقيام بواجبهم نحوه ونحو الناس ، والاستكثار من العمل الصالح الذى هو وحده النافع المنجى لهم فى الحياة الأخروية) (١٤٨).



﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) ﴾

المفردات :

لتبلون فى أموالكم وانفسكم	: لتختبرن فيها بالإصابة ببعض البلايا.
من عزم الأمور	: من الجد فى الأمور. مأخوذ من عزم الأمر، أى جد فيه.
ميثاق	: الميثاق : العهد.
فنبذوه وراء ظهورهم	: أى طرحوه خلفها. والمقصود : أنهم أهملوه ولم يعملوا به.
واشتروا به ثمنا قليلا	: واستبدلوا بهذا الميثاق ، مقابلا قليلا، من أعراض الدنيا.

التفسير :

١٨٦ - **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .**

أى والله لتختبرن وتمتحنن فى أموالكم بالفقر والمصائب وفى أنفسكم بالشدائد والأمراض والجراح والآلام ، ولتسمعن من اليهود والنصارى وكفار العرب والمشركين أعدائكم الأذى الكثير كالطعن فى دينكم والاستهزاء بعقيدتكم والتفنن فيما يضركم.

وإن تصبروا على تلك الشدائد، وتقابلوها بضبط النفس وقوة الاحتمال ، وتتقوا الله فى الأقوال والأعمال، فإن الصبر والتقوى منكم من عزم الأمور والجد فيها ، وهو فضيلة يتنافس فيها المتنافسون ، وأنتم بها أحق وأولى.

وقد ورد فى القرآن والسنة ما يوضح حقيقة هذه الحياة، ويبين أن الله يمتحن المؤمن بالبلاء والاختبار ، رفعا لدرجته وتكفيرا لسيئاته، وتمييزا للمؤمن من المنافق، قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ . (البقرة : ١٥٥ - ١٥٧).

وقال سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ . (محمد : ٣١).

وروى الترمذى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : (قلت : يا رسول الله أى ، الناس أشد بلاء ؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة) [١٤٩].

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، ويصبرون على الأذى. فهى سنة الدعوات تحتاج إلى بلاء وصبر ومقاومة وصمود ، قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . (البقرة : ١٠٩) .

وفى تفسير ابن كثير حديث طويل رواه البخارى ، عن عروة بن الزبير ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب يعود سعد بن عبادة ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، فمر على مجلس فيه (عبد الله بن أُبى ابن سلول) فدعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله بن أبى : أيها المرء ، إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبدالله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا ، فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود ، فلم يزل النبى ﷺ بخفضهم حتى سكتوا، ثم سار النبى ﷺ حتى دخل على سعد بن عبادة فأخبره بما فعل عبد الله بن أُبى ابن سلول، فقال سعد : يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذى أنزل عليك الكتاب، لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك، ولقد اصطلح أهل المدينة على أن يتوجوه ملكا، فلما ظهر الإسلام غص به ، فذلك الذى فعل به ما رأيت ، فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم [١٥٠].

١٨٧ - ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ .

بشرت التوراة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الإنجيل، وفى الآية تقرير بأن الله قد أخذ عهدا من أهل الكتاب بأن يبينوا للناس ما فى كتبهم ، ويظهروا ما فيها من أحكام الله ، ولا يكتموا ما فيها من الحقائق.

ولكن أهل الكتاب لم يعملوا بذلك العهد بل نبذوه خلف ظهورهم واستبدلوا به شيئًا حقيرًا من حطـام الدنيا ، هو الرياسة الدينية والجاه والمال الحرام ، فبئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة.

قال ابن كثير : هذا توبيخ من الله ، وتهديد لأهل الكتاب ، الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء، أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس، فيكونوا على أهبة من أمره. فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوّضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والاخرة، بالدون الطفيف، والحظ الدنيوى السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم [١٥١].

والآية ، وإن نزلت توبيخا وتهديدا ووعيدا لأهل الكتاب على كتمانهم العلم، وعدم بيان الحق لأغراض دنيوية، ففيها تحذير ضمنى للعلماء عن أن يسلكوا سبيلهم ، فيحل بهم مثل عقابهم، وقد جاء ذلك صراحة فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار » [١٥٢] أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه.



﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

المفردات :

يفرحـون بما أتوا : يفرحون بما جاءوا به نفاقا أو رياء من الأقوال أو الأفعال.

بمفازة من العذاب : بمنجاة منه.

ملك السموات والأرض : سلطانه عليهما خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا.

التفسير :

١٨٨ - لا تَحسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لا يزال الكلام موصولا مع أهل الكتاب : فالآية نازلة فيهم :

أخرج الإمام أحمد، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف : أن مروان بن محمد ، قال : اذهب يا رافع «بوّابه» إلى ابن عباس رضى الله عنه ، فقل له : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل- معذباً، لنعذبن أجمعون . فقال ابن عباس : وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب.

ثم تلا ابن عباس : **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** . وتلا ابن عباس **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** .

وقال ابن عباس : سألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء فكتموه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا كتمانهم ما سألهم عنه .

وروى نحوه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم ..

وقيل: نزلت فى المنافقين : لما رواه البخارى ومسلم وغيرهما - واللفظ للبخارى عن أبى سعيد الخدرى : أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم . خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الغزو ، اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا** الآية.

وعلى هذا ، فالمراد من حب المنافقين أن يحمدوا بما لم يفعلوا : أنهم أرادوا أن يحمدهم المؤمنون بسرورهم الذى أظهروه نفاقا بنصر المؤمنين ، ولم يكن سرورا نابعا من قلوبهم . فاعتبره الله تعالى فى حكم المنفى.

وقد جاء التصريح بسرورهم الظاهر بالنصر، فى رواية طويلة ، لابن مردويه، فى تفسيره ، جاء فيها : وإن كان لهم نصر وفتح ، حلفوا لهم ليرضوهم. ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح.

ولا منافاة بين ما قاله ابن عباس ، وما قاله أبو سعيد الخدري، فى سبب النزول، فالآية عامة فى جميع ما ذكر . وهى - وإن نزلت لهذا السبب الخاص ، أو ذاك ، أو لهما معا - فهى بعموم لفظها، عامة لكل من يأتى بشىء من الحسنات: بظاهره أو بحقيقته ، فيفرح به فرح إعجاب، ويود أن يمدحه الناس بما هو عار عنه من الفضائل. كأن يقولوا فيه : هو صادق فيما قال . أو مخلص فيما فعل. أو عظيم الإحسان والمبرات، أو نحو ذلك مما ليس فيه.

ويدخل فى هذا العموم : من نزلت فيهم الآية ، دخولاً أوليا.

والخطاب فى قوله تعالى : **لَا تَحْسَبَنَّ** للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب.

والمعنى : لا تظنن الذين يفرحون - فرح إعجاب - بما جاءوا به مما ظاهره الخير، وباطنه النفاق أو العجب، أو التجرد عن النية الصالحة، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، بأن يقال : إنهم صادقون، أو مخلصون، أو محسنون ، أو غير ذلك من الصفات الجميلة : التى أرادوا أن تقال فى شأنهم على وجه الحمد والثناء ، وهم منها براء .

فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ فلا تظننهم بمنجاة من العذاب الأخروى، وإن أفلتوا من المؤاخذة الدنيوية.

والمقصود من نهيه صلى الله عليه وسلم : أن يظنهم ناجين من العذاب، هو التنبيه على أنهم معذبون حتما على نياتهم الخبيثة، ونفاقهم الممقوت ، وليس المقصود نهيه حقيقة عن ظنه نجاتهم. فهو « عليه السلام » عليم باستحقاقهم العذاب، ما داموا مصرين على ما هم عليه من الطوية الخبيثة ، طبقًا لما نزل عليه من شرع الله تعالى.

وذكر قوله : فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ . بعد قوله : لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ لتأكيد الوعيد ، لطول الكلام .

أما قوله : بِمَفَازَةٍ فهو المفعول الثانى لـ تَحْسَبَنَّ الأول .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ هذه الجملة قصد بها : أن العذاب الذى لا ينجو منه هؤلاء ، وليسوا منه بمفازة ، هو عذاب بليغ الإيلام فى شدته ومدته ونوعه. وليس عذابا هينا ، يمكن احتماله .

١٨٩ - وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أى : له تعالى « وحده » السلطان فيهما خلقا وتدبيرا، وإحياء لمن فيهما وإماتة ، وتعذيبا وإثابة.

ومن كان كذلك ، لا يقال : إنه فقير ، وبعض عباده أغنياء، كما زعم اليهود ، إذ قالوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . (آل عمران : ١٨١).

ولا يفلت من عقابه من أحب أن يحمد بما لم يفعل، كما فعلوا هم وغيرهم.

وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : فكما قدر على خلق السموات والأرض، يقدر على بعث الخلائق وجزائهم على أقوالهم وأفعالهم ونياتهم : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

المفردات :

الذين يذكرون الله قياما : فى صلاتهم.

وقعودا : فى تشهدهم وفى غير صلاتهم.

وعلى جنوبهم : نياما ، وهى حالات ابن آدم كلها.

ما خلقت هذا باطلا : عبثا ولا لعبا، إلا لأمر عظيم.

التفسير :

١٩٠ - إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .

ذكر الله سبحانه هنا آيتين فقط هما خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار ، لأن المقصود إثارة الانتباه ولفت القلوب والأفئدة إلى بديع صنع الله.

(والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيها مكررا مؤكدًا إلى هذا الكتاب المفتوح، الذى لا تفتأ صفحاته تقلب فتتبدى فى كل صفحة منه آية موحية تستجيش فى الفطرة السليمة إحساسًا بالحق المستقر فى صفحات هذا الكتاب وفى (تصميم) هذا البناء ، ورغبة فى الاستجابة لخالق هذا الخلق، ومودعه هذا الحق ، مع الحب له والخشية منه فى ذات الأوان (وأولو الألباب) : أولو الإدراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، فتتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه وتدرك غاية وجوده وعلة نشأته ، وقوام فطرته ، بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى ونواميس هذا الوجود .. (ومشهد السموات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة ، لو استنقذنا أنفسنا من همود الإلف وخمود التكرار، لاهتزت له مشاعرنا ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يد تنسق، ووراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحكام لابد من ناموس لا يتخلف.. وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعًا، ولا يمكن أن يكون جزافًا، ولا يمكن أن يكون باطلاً [١٥٣]. (ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكونى الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ، ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس ، ولا أن تناسق السموات والأرض مرتكز إلى (الجاذبية) أو غير الجاذبية ، هذه فروض تصح أو لا تصح ، وهى فى كلتا الحالتين لا تقدم ولا تؤخر فى استقبال هذه العجينة الكونية ،

واستقبال النواميس الهائلة الدقيقة التى تحكمها وتحفظها.. وهذه أيا كان اسمها عند الباحثين من بنى الإنسان هى آية القدرة وآية الحق، فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار).

(والسياق القرآنى هنا يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار فى مشاعر أولى الألباب تصويرا دقيقا، وهو فى الوقت ذاته تصوير إيمانى ، يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح فى التعامل مع الكون ، وفى التخاطب معه بلغته، والتجاوب مع فطرته وحقيقته ، والانطباع بإشاراته وإيحاءاته، ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب (معرفة) للإنسان المؤمن الموصول بالله ، وبما تبدعه يد الله) (١٥٤).

عبادة النبى صلى الله عليه وسلم :

ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ الآيات العشر من آخر سورة آل عمران إذا قام من الليل لتهجده. قال البخارى رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنه قال : بت عند خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ . الآيات ، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح (١٥٥).

والآيات واردة فى الأذكار والدعاء، فمن شأن المؤمنين أن يتأملوا فى خلق السموات وارتفاعها واتساعها وجلالها وجمالها ، وفى خلق الأرض وانخفاضها وكثافتها واتضاعها وما فيها من بحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزرع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع . وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر، أو فى تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه بازدياده.

لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته.

لأُوْلِي الأَلْبَابِ أى لأصحاب العقول التامة ، والأفئدة المتفتحة .

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ . فهم يستغرقون فى تذكر خالقهم ، ويذكرونه فى جميع أحوالهم ، وإنما خص الأحوال المذكورة لأنها الأحوال المعهودة التى لا يخلو عنها الإنسان غالبًا ، وليس ذلك لتخصيص الذكر بها (١٥٦).

وقيل المراد بالذكر هنا الصلاة، كما ثبت فى الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك » (١٥٧).

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . يتأملون فى كتاب الكون وفى يد الله المبدعة وهى تحركه وتقلب صفحاته وتبدع نظامه، وهو أمر لا يتيسر إلاّ لأصحاب الفطرة السليمة ، وفى لحظة تمثل صفاء القلب وشفافية الروح وتفتح الإدراك واستعداده للتلقي، كما تمثل الاستجابة والتأثير والانطباع.. إنها لحظة العبادة، وهى بهذا الوصف لحظة اتصال ولحظة استقبال.

فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون مجرد التفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ملهما للحقيقة الكامنة فيها ، ولإدراك أنها لم تخلق عبثا ولا باطلا.

وقد ذم الله الغافلين ومدح أهل الفكر والعبادة بالقلب والتأمل القائلين : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً . أى ما خلقت هذا الخلق عبثا بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، قال تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (المؤمنون : ١١٥، ١١٦).

سُبْحَانَكَ . تنزهت عن أن تخلق هذا الكون باطلاً.

سُبْحَانَكَ . تنزهت عن العبث وأن تخلق شيئًا بغير حكمة.

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . إن قلوبهم المتدبرة، وأفئدتهم المستبصرة، انطلقت مع ألسنتهم بذلك الدعاء الطويل، الخاشع الواجف الراجف المنيب، ذى النغم العذب، والإيقاع المنساب ، و الحرارة البادية فى المقاطع والأنغام.

وقد رأيت أدبهم فى الدعاء فقد بدأوا بتسبيح الله وتنزيهه ثم عقبوا بالدعاء، وفى الحديث الصحيح : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه ، والثناء عليه، ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يدعو بعد بما شاء . رواه أبو داود (١٥٨).

واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى، وأبدانهم فى طاعة الله وقلوبهم فى التفكر فى دلائل عظمة الله ، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله الوقاية من عذاب النار، ويسألونه المغفرة لذنوبهم ، والنجاة يوم القيامة.



﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) ﴾

المفردات :

أخزيته : أهلكته أو فضحته، أو أهنته.

التفسير :

١٩٢ - رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ... الآية .

أى أبعدنا يا ربنا عن عذاب النار فإنك من تدخله النار تكون قد أخزيته أى أهنته وفضحته على رءوس الأشهاد :

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار.



﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

المفردات :

الأبرار : جمع بر . والبر والبار ، هو كثير البر والإحسان.

لا تخزنا : لا تهنا، ولا تفضحنا.. أو لا تهلكنا.

فاستجاب : بمعنى أجاب.

هاجروا : تركوا الشرك أو تركوا الأوطان والعشائر.

التفسير :

١٩٣ - **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ** .

المنادى : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد بن كعب المنادى : هو القرآن .

والمعنى ربنا إننا سمعنا داعيا : يدعو الناس للإيمان بأن آمنوا بربكم فاستجبنا لدعائه وبادرنا إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفرها وتوفنا مع الأبرار ، طلبوا من الله ثلاثة أشياء : غفران الذنوب المتقدمة، وتكفير السيئات المستقبلة ، وأن تكون وفاتهم مع الأبرار بأن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا فى درجاتهم يوم القيامة ، قال تعالى : **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** . (النساء : ٦٩) .

١٩٤ - رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا من حسن الجزاء كالنصر فى الدنيا والنعيم فى الآخرة، جزاء على تصديق رسلك واتباعهم .

أو ربنا وأعطنا من الثواب ما وعدتنا به على ألسنة رسلك.

وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . لا تفضحنا ولا تهتك سترنا يوم القيامة ، بإدخالنا النار التى يخزى من دخلها.

إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . أى لا تخلف ما وعدت به على الإيمان وصالح العمل، فقد وعدت بسيادة الدنيا وسعادة الآخرة.

قال تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ . (النور : ٥٥) .

وقال عزّ شأنه وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (التوبة : ٧٢).

١٩٥ - فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ . . . .

أى فاستجاب لهم ربهم دعاءهم ، لصدقهم فى إيمانهم ، فأجابهم إلى ما طلبوا ووعدهم بتحقيق ما سألوا.

أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم . أى لا أزيل ثواب عمل أى عامل منكم ، بل أكافئه عليه بما يستحقه ، وأعطيه من ثوابى ورحمتى ما يشرح صدره .

مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ . بيان لعامل وتأكيد لعمومه، أى لا أضيع عمل أى شخص عامل، سواء أكان هذا العامل ذكرًا أم أنثى.

بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ . جملة معترضة، لبيان سبب اشتراك النساء مع الرجال ، فى الثواب وجزاء الأعمال الصالحة، فالذكر مفتقر فى وجوده إلى الأنثى ، والأنثى مفتقرة فى وجودها إلى الرجل، ويجوز أن يكون المعنى : بعضكم من بعض فى الطاعة والعمل الصالح ، أى أنتما متماثلان فلا وجه للتفرقة بينكما فى الثواب ، فإن المماثلة فى العمل ، تستدعى المماثلة فى الأجر.

قال ابن كثير : أى جميعكم فى ثوابى سواء .

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا . بأن تركوا أوطانهم إلى أماكن أخرى من أجل إعلاء كلمة الله.

وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ . أى ضايقهم المشركون بالأذى حتى خرجوا فرارًا من ظلم الظالمين أو اعتداء المعتدين.

وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي . من أجل دينى قال تعالى : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. (البروج : ٨).

وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا . وجاهدوا المشركين واستشهدوا. وقد ثبت فى الصحيحين أن القتل فى سبيل الله يكفر كل شىء إلا الدين (١٥٩).

لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . لأغفرنها لهم ، ولأسترنها عليهم .

وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . أى تجرى فى خلالها الأنهار، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثَوَابًا مِنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ . أى لأثيبنهم ثوابا عظيما من عندي، لا يقدر عليه غيري، والله تعالى عنده خير الجزاء، وهذه الجملة تأكيد لشرف ذلك الثواب. ولبيان اختصاصه بالثواب الحسن، كأنَّ كل جزاء للأعمال فى الدنيا لا يعد حسنا ، بجوار ما أعده سبحانه فى الآخرة لعباده المتقين .

والآية كما ترى تعرض نماذج بشرية مخلصة فى الدعاء والعمل، لقد هاجروا من وطنهم، وتحملوا الأذى فى سبيل عقيدتهم ، وأقبلوا على الجهاد والشهادة، فاستحقوا مغفرة لذنوبهم ، وثوابا عظيما من خالقهم ورازقهم.

وقد ذكر المؤرخون أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما خرج من مكة مهاجرًا ، التفت إليها وقال : «يامكة لأنت أحب بلاد الله إلىَّ، ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت » . (١٦٠).

النساء فى القرآن

تفيد الآيات السابقة إخلاص الدعاء من المؤمنين، واشتراك الرجال مع النساء فى الهجرة والإخراج والأذى والقتل والقتال وأن الجنسين متضامنان تضامنًا وثيقًا، ولعل قرن المرأة بالرجل فى هذا المقام وبهذا الأسلوب من أقوى مؤيدات مساواتهما فى الشريعة الإسلامية فى الحقوق والواجبات العامة، ومن أقوى مؤيدات أهلية المرأة فى نظر الشريعة لكل واجب عام، ولقد قرنت الأنثى بالذكر فى مواضع عديدة من القرآن المكى والمدنى.

ففى سورة البروج المكية يقول سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ . (البروج : ١٠).

وفى سورة الأحزاب المدنية يقول سبحانه : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب : ٣٥).

وقد روى الترمذى عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ، لا أسمع الله تعالى ذكر النساء فى الهجرة [١٦١].

فأنزل الله تعالى : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ [١٦٢].

★ ★ ★

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

المفردات :

تقلب الذين كفروا فى البلاد : التقلب : التنقل . والمراد هنا : تنقلهم للتكسب بالاتجار والزراعة وغيرها، وتقلبهم فى النعمة.

متاع قليل : تمتع يسير.

ثم مأواهم : المأوى، محل الإقامة.

المهاد : المكان الممهد.

نزلاً : النزل، ما يقدم للضيف عند نزوله ، أو المنزل. ومنه قول الله تعالى : . . . كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً . (الكهف : ١٠٧) .

التفسير :

١٩٦ - لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ .

الخطاب فى لا يَغُرَّنَّكَ . إما للنبى صلى الله عليه وسلم ، لتثبيته على ما هو عليه من عدم اغتراره بنعمتهم . فكأنه قال له : دم على ما أنت عليه من عدم الاغترار بتقلبهم فى النعمة، وتبسطهم فى المكاسب والمتاجر والمزارع . وهذا كقوله تعالى للرسول : فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . (القلم : ٨) . أى استمر على ما أنت عليه من عدم طاعتهم.

وقيل : الخطاب « وإن كان له صلى الله عليه وسلم » فالمراد به : نهى المؤمنين عن الاغترار بما فيه الكفار من النعيم ، كما يوجه الخطاب إلى رئيس القوم ، والمراد به أتباعه.

وقيل : هو خطاب لكل من يصلح له من المؤمنين.

ذكر المفسرون بأسانيدهم : أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش، فيقولون : إن أعداء الله « تعالى » فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهد ... فنزلت الآية .

والمعنى : لا يخدعك ما هم عليه من سعة الرزق، وإصابة الربح، ورخاء العيش، فتظنه خيرًا متصلاً، ومتاعًا دائمًا.

١٩٧ - مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ .

أى هو مَتَاعٌ قَلِيلٌ .مهما عظم ، فى جانب ما ذكر من ثواب الله للمؤمنين فعما قريب يؤتون ، فينقضى نعيمهم الذى استدرجهم الله به ، ويمسون مرتهنين بأعمالهم السيئة .

ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . ثم إنهم - بعد ذلك التمتع اليسير والتنعم القليل - صائرون إلى عذاب جهنم التى مهدوها وهيئوها لأنفسهم بكفرهم، وساء ما يمهدون لأنفسهم : جهنم.

والتعبير بالمهاد عن النار ، للتهكم بسوء اختيارهم . فإن العاقل لا يهيئ لنفسه مكان عذاب وهوان يقيم فيه.

١٩٨ - لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ .

لما حذر الله المؤمنين من الاغترار بما فيه الكافرون من نعيم فان ، أتبعه بيان حسن عاقبة المؤمنين ، ليزدادوا صبرًا على ما هم فيه من شظف العيش، انتظارا لهذا النعيم المقيم.

والمعنى : هذا حال الذين كفروا ومآلهم الفظيع لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ . بالإيمان والعمل الصالح، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها لا يبرحونها أبدا .

نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ . رزقا كريما من عند الله ، أو منزلا عظيما من عنده .

وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ . أى ما أعده الله لمن أطاعه من النعيم الكثير الدائم، خير للأبرار ، وأبقى مما يتقلب فيه الكفار ، من قليل زائل ، ونعيم حائل ، وحطام فان .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بمَ يرجع ؟ » (١٦٣).

★ ★ ★

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

المفردات :

خاشعين لله : خاضعين له.

لا يشترون : لا يستبدلون.

اصبروا : الصبر، حبس النفس على المكاره.

ورابطوا : المرابطة، الملازمة فى سبيل الله.

التفسير :

١٩٩ - وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أى وإن من اليهود والنصارى لفريقا يؤمن بالله إيمانا حقا، منزها عن الإشراك بكل مظاهره، وما أنزل إليكم من القرآن، وما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، ولا يزالون مع هذا الإيمان خاضعين لله، خائفين من عقابه طالبين رضاه ، لا يستبدلون بآيات الله ، التى أنزلها فى التوراة والإنجيل عوضا قليلاً، هو عرض من أعراض الدنيا الفانية، لأن هذا الثمن المأخوذ قليل حتى ولو بلغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

فالآية وصفتهم بخمس صفات هى :

١ - الإيمان بالله .

٢ - الإيمان بالقرآن .

٣ - الإيمان بالتوراة والإنجيل.

٤ - الخشوع والخضوع لأمر الله .

٥ - عدم التفريط فى أحكام الله، وعدم بيعها بأى عرض من أعراض الدنيا.

وقد ذكر القرآن ما يشبه هذه الآية فى كثير من سوره ، وذلك من إنصاف القرآن، فهو كتاب حق أنزله الله الحق ، وقد نزل بالحق، ليحق الحق ويبطل الباطل.

ويتبادر للذهن أن هذه الآية استهدفت الاستدراك على ما جاء فى الآيتين ١٨٦، ١٨٧ من التنديد بأهل الكتاب، الذين يناوئون الدعوة النبوية، ويؤذون المسلمين ويكتمون ما عندهم من البيّنات.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . (آل عمران : ١١٢،١١٤) .

وفى تفسير الطبرى والطبرسى والخازن وابن كثير ، وغيرهم من المفسرين ، روايات عديدة فى مناسبة نزول هذه الآية وفيمن عنته، منها أنها نزلت فى النجاشى ملك الحبشة ، ومن آمن من قومه بالرسالة النبوية، فإن النبى لما بلغه موت النجاشى دعا إلى الصلاة عليه ، فقال المنافقون : إنه يصلى على رجل من غير دينه، فنزلت هذه الآية ، ومنها أنها نزلت فى عبد الله بن سلام ، أحد أحبار اليهود وغيره من أفراد اليهود، الذين آمنوا بالرسالة المحمدية، ومنها أنها نزلت فيمن آمن بهذه الرسالة من أهل الكتاب عامة .

وذكر المفسرون أن من أسلم من أحبار اليهود لم يبلغ عددهم عشرة وفيهم عبد الله بن سلام وزيد بن سعنة.

وأما النصارى فكانوا كثيرين ، فقد أسلم أربعون من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم.

٢٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا . أى على المشقات والطاعات ، وما ينالكم من المكاره والشدائد.

وَصَابِرُوا . أى غالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الجهاد، لا تكونوا أقل منهم صبرا وثباتا ، والمصابرة باب من الصبر.

وَرَابِطُوا. أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدو بالترصد ولاستعداد لحربهم ، قال تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ . (الأنفال : ٦٠) .

والرباط مأخوذ من ربط الخيل وشدّها .

وليس بلازم أن يكون الرباط بالخيل فى كل حال أو زمان أو مكان ، إذ المقصود رصد حركات العدو، والتأهب لصده عن البلاد الإسلامية ، وليس بلازم أن يكون فى أطراف الإقليم فحسب ، بل فى أى مكان منه، يمكن أن يصل إليه العدوّ، ولو فى قلب الوطن ، ففى هذا الزمان يمكن أن يصل العدوّ بطائرته إلى أماكن متعددة فى وطن عدوّه، فالرباط فى هذه الحالة ، يكون بالإقامة فى كل مكان يظنّ أن يقصده العدوّ، مع التأهب بكافة أنواع الأسلحة المضادة لهجومه أو استطلاعه، واستعمال أحدث أنواع الأجهزة لرصده: أرضا أو بحرًا ، أو جوا.

وجمهور المفسرين (١٦٤) على أن المراد بالرباط فى الآية هو الجهاد فى سبيل الله ، وبعض المفسرين ذهب الى أن المراد بالرباط والمرابطة هو المكث فى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

روى مسلم (١٦٥) والنسائى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » (١٦٦).

وعند التأمل نجد أن الرباط يشمل الجهاد فى سبيل الله – وعلى وجه الخصوص حراسة الثغور وحماية الأماكن التى نتوقع فيها هجوم العدوّ عليها – كما يشمل عمارة المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

على أن إطلاق الرباط على الجهاد أمر معروف مألوف كثير الورود وخاصة أن سياق السورة يرشح هذا المعنى ، لكن من إعجاز القرآن أن الكلمة تشير إلى معنى ، وتستتبع معنى .

* * *

وقد أورد المفسرون طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى فضل الجهاد والرباط . منهم ابن كثير فقد ساق ثمانية أحاديث نبوية شريفة عن فضل الجهاد وثواب المجاهدين عند تفسير الآية ، وقريب من ذلك ورد فى تفسير القاسمى ، والتفسير الحديث .

فضل الجهاد

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله – ﷺ – قال :

تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة (١٦٧) إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش (١٦٨) طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة (١٦٩) وإن كان فى الساقة كان فى الساقة وإن استأذن لم يؤذن له (١٧٠).

* * *

وروى مسلم عن سلمان الفارسى عن رسول الله – ﷺ – قال :

« رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتّان » (١٧١) .

* * *

وقال ﷺ : « حرّمت النار على عين سهرت فى سبيل الله » (١٧٢)

فضل سورة آل عمران

سورة آل عمران تسمى الزهراء أى المضيئة ، وتسمى سورة البقرة الزهراء الأولى وآل عمران الزهراء الثانية.

روى مسلم [١٧٣] والترمذى أن رسول الله - ﷺ - قال : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة ، وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما ضياء ونور، أو كأنهما حزقان [١٧٤] تحاجان عن صاحبهما [١٧٥].

* * *

قافية السورة

إن كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة للآيات . والقارئ فى كتاب بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، يجد أنه يتحدث فى كل لطيفة عن سورة من السور ويقدم للقارئ إحصاء بعدد الحروف الواردة فى ختام آياتها .

والقوافى فى القرآن غيرها فى الشعر ، فهى ليست حرفا متحدا، ولكنها مدّ متشابه مثل (بصير ، حكيم، مبين مريب) أو (أولو الألباب ، الأبصار، النار ، قرار) أو (خفيا، شقيا ، شرقيا ، شيئا).

وتغلب القافية الأولى فى مواضع التقرير، والثانية فى مواضع الدعاء ، والثالثة فى مواضع الحكاية.

وسورة آل عمران ، تغلب فيها القافية الأولى ، ولم تبعد عنها إلا فى موضعين: أولهما فى أوائل السورة وفيه دعاء ، والثانية جوّ الدعاء المنغم المرتّل .

* * *

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى أن رسول الله ﷺ قام من الليل فرفع رأسه إلى السماء، فقال : «سبحان الملك القدوس » (ثلاث مرات) ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها [١٧٦].

وإن السورة تشتمل على أصول العقيدة، وفضائل الجهاد، ومنازل الشهداء، وثواب الصابرين ، وتختم بهذا النشيد السماوىّ فى التأمل والدعاء المنيب الرخىّ، وفى ختام السورة وصية بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى، وهو ختام مناسب لسورة آل عمران وفيها غزوة أحد وحكمة الابتلاء والاختبار .

* * *

والحمد لله رب العالمين

★ ★ ★


سورة النساء



أولاً
الأهداف العامة لسورة النساء

الأهداف العامة

لسورة النساء

سورة النساء سورة مدنية وتسمى سورة النساء الكبرى تمييزًا لها عن سورة النساء الصغرى، وهى سورة الطلاق.

وقد عنيت سورة النساء ببيان أحكام النساء واليتامى، والأموال والمواريث والقتال، وتحدثت عن أهل الكتاب وعن المنافقين ، وعن فضل الهجرة ووزر المتأخرين عنها ، وحثت على التضامن والتكافل والتراحم، وبينت حكم المحرمات من النساء. كما حثت على التوبة ودعت إليها كوسيلة للتطهر ، ودليل إلى تكامل الشخصية، واستعادة الثقة بالنفس والشعور بالأمن والاطمئنان.

وعدد آيات سورة النساء (١٨٦) آية ، وعدد كلماتها (٣٧٤٥) كلمة.

* * *

الوصية بالنساء واليتامى

بينت سورة النساء أن الزواج شركة تعاونية أساسها المودة والرحمة والوفاء والألفة. وسوت السورة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات، ثم بينت أن للرجال درجة على النساء وهى درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل على المرأة وبحكم الكد والعمل فى تحصيل المال الذى ينفقه على الزوجة والأسرة ، وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد أو التسخير وإنما هى زيادة فى المسئولية الاجتماعية.

وقد حث القرآن الزوجة على طاعة زوجها، فيما يجب فيه الطاعة، والاحتفاظ بالأسرار المنزلية والزوجية التى لا ينبغى أن يطلع عليها أحد غير الزوجين، كما أمر الرجل أن يقوم بحق الأسرة وأن ينفق عليها ، وأن يفى بالتزامه نحوها ، وجعل نفقة الرجل على أولاده ورعايته لهم نوعا من الكفاح والجهاد السلمى يثاب المؤمن على فعله ويعاتب على تركه.

اليتامى :

أمرت السورة بعد ذلك برعاية اليتامى والمحافظة على أموالهم وإكرام اليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه. وحذرت السورة من إتلاف أموال اليتامى أو تبديدها، وحثت على القيام بحقوقهم واختبارهم فى المعاملات قبيل سن البلوغ حتى يكون اليتيم متمرنا على أنواع المعاملات والبيع والشراء عندما يتسلم أمواله.

وقد توعدت السورة آكل مال اليتيم بالنار والسعير، والعذاب الشديد، وقد مهدت لهذه الأحكام فى آياتها الأولى فطلبت تقوى الله وصلة الرحم ، وأشعرت أنهم جميعاً خلقوا من نفس واحدة، أى أن اليتيم وإن كان من غير أسرتكم فهو رحمكم وأخوكم فقوموا له بحق الأخوة وحق الرحم، واعلموا أن الله الذى خلقكم من نفس واحدة وربط بينكم بهذه الرحم الإنسانية العامة رقيب عليكم يحصى عليكم أعمالكم، ويحيط بما فى نفوسكم ويعلم ما تضمرون من خير أو شر فيحاسبكم عليه. وبعد هذا التمهيد الذى من شأنه أن يملأ القلوب رحمة، يأمرهم الله بحفظ أموال اليتامى حتى يتسلموها كاملة غير منقوصة ، ويحذرهم من الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة أو عن طريق المخالطة قال تعالى :

وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرا . (النساء : ٢) .

أى لا تخلطوا مال اليتيم بمالكم ليكون ذلك وسيلة تستولون بها على مال اليتيم تحت ستار الإصلاح بالبيع أو الشراء باسم أنه منفعة لليتيم أو بالخلط والشركة باسم أنه أفضل لليتيم .

وقد تحرج أتقياء المسلمين من مخالطة اليتيم فأباح الله مخالطة اليتامى مادام القصد حسنا والنية صادقة فى نفع اليتيم ، والله سبحانه مطلع على السرائر ومحاسب عليها.

وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً (النساء : ٦)

* * *

المال والميـــراث

عنيت سورة النساء وغيرها بشأن المال ، وقد أمرت السورة بالمحافظة على المال واستثماره ، ونهت عن الإسراف والتبذير وأمرت بالتوسط فى النفقة والاعتدال فيها ، ذلك لأن المال عصب الحياة ولأن كل ما تتوقف عليه الحياة فى أصلها وكمالها وسعادتها وعزها من علم وصحة وقوة واتساع عمران ، لا سبيل للحصول عليه إلا بالمال . وقد نظر القرآن إلى الأموال هذه النظرة الواقعية فحذر من تركها فى أيدى السفهاء الذين لا يحافظون عليها ولا يحسنون التصرف فيها ، كما أمر بتحصيلها من طرق فيها الخير للناس ، فيها النشاط والحركة، وفيها عمارة الكون ، أمر بتحصيلها عن طريق التجارة ، وعن طريق الصناعة والزراعة، وسمى طلبها ابتغاء من فضل الله ، كما وصفها نفسها بأنها زينة الحياة الدنيا ومتاعها ، وبلغ من عناية القرآن بالأموال أنه طلب السعى فى تحصيلها بمجرد الفراغ من أداء العبادة المفروضة . قال تعالى :

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ . (الجمعة : ١٠) .

وتحدثت سورة النساء عن المواريث ونصيب كل وارث ، فأمرت أن نبدأ أولاً بتنفيذ وصية الميت وتسديد ديونه، ثم وضعت المبادئ الأساسية للميراث ونستخلص منها ما يأتى :

أولاً : أن مبنى التوريث فى الإسلام أمران : نسبى وهو القرابة ، وسببى وهو الزوجية .

ثانياً : أنه متى اجتمع فى المستحقين ذكور وأناث أخذ الذكر ضعف الأنثى.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن بعض خصوم الإسلام قد اتخذوا التفاوت بين نصيبى الذكر والأنثى مطعنا على الإسلام وقالوا : إن هذا من فروع هضم الإسلام حق المرأة، وهى إنسان كالرجل، وفاتهم أن الذكر تتعدد مطالبه وتكثر تبعاته فى الحياة فهو ينفق على نفسه، وعلى زوجة، وعلى أبنائه. ومن أصول الشريعة أنه يدفع المهر لمن يريد أن يتزوجها ، أما الأنثى فإنها لا تدفع مهرا ويلزم زوجها بنفقتها فى مأكلها ومشربها ومسكنها وخدمها ، وذلك فوق تبعاته العائلية التى لا يلحق الأنثى مثلها.

وبينما نرى بعض التشريعات الوضعية تقضى بحرمان الأنثى بتاتا أو حصر الميراث فى أكبر الأبناء وحده كما كان الحال فى بعض البلاد إلى وقت قريب ، نجد تشريعًا آخر يقضى بمساواتها بالذكر.

ونقارن ذلك بالإسلام فنجد أن منهجه فى التوريث وسط لا إفراط فيه ولا تفريط فهو لم يحرم الأنثى من الميراث بل أعطاها نصيبا مناسبا لظروفها فى الحياة وأعطى أخاها نصيبا مناسبًا لتبعاته فى الحياة ، وهذا هو شأن الإسلام فى أحكامه وشرائعه، فهو يعتمد على الحكمة والعدل لأنه تشريع الحكيم العليم .

* * *

تعدد الزوجات

تحدثت سورة النساء عن تعدد الزوجات فأباحته بشرط العدل بينهن، فإذا خاف الإنسان من عدم العدل فعليه الاقتصار على زوجة واحدة ، فإن ذلك أدعى إلى صفاء الحياة ويسرها وتحقيق الهدف من الزواج وهو المودة والرحمة.

ويرى الإمام محمد عبده أن تعدد الزوجات أمر مضيق فيه كل التضييق فكأن الله - سبحانه - قد نهى عن التعدد.

قال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا . (النساء : ٣).

أى إن خفتم ألا تعدلوا فى نكاح اليتيمات اللاتى تحت وصايتكم، كأن يكون الدافع لكم على الزواج بهن هو الطمع فى مالهن، لا الحب والرغبة فى معاشرتهن، أو كأن تكون فوارق السن بينكم وبينهن كبيرة أو كأن تهضموهن حقوقهن فى مهر أمثالهن.. إن خفتم ألا تعدلوا فى اليتيمات فاطلبوا الزواج من سواهن من النساء.

وبمناسبة الحديث عن الزواج امتد السياق إلى بيان حدود المباح من الزوجات فإذا هو مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ولكن بشرط العدل بينهن، العدل فى المعاملة، وفى الحقوق الظاهرة، أما العدل فى الشعور الباطن فلا قبل به

لإنسان ولا تكليف به لإنسان، ما اتقى فى إظهاره فى المعاملة، وتأثيره على الحقوق المتعادلة ، فإن وجد فى نفسه ضعفا عن ذلك العدل، وخاف ألا يقدر على تحقيقه ، فالحلال واحدة فقط وما سواها محظور.

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً .

والنص الشرطى يحتم هذا المعنى هنا ويعلله بأن ذلك التحديد بواحدة فى هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور.

ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا . أى لا تجوروا وتظلموا .

والظلم حرام فالوسيلة إليه حرام ، واجتناب الظلم واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فإذا كان العدل يتم بترك التعدد ، فالاقتصار على الزوجة الواحدة واجب.

وفى ختام الآية وصية جديدة بالاقتصار على الزوجة الواحدة لأنه أدعى إلى العدل والاستقرار، والبعد عن الظلم وكثرة العيال.

* * *

شبهة تفتضح ، وحجة تتضح

تكلم الأوروبيون بكثير من الكلام المعسول ، فمثلاً (كانتى) يقول : « إن شرف الإنسان أسمى من أن يمتهن أو أن يجعل أداة متعة ».

وفى الواقع هم الذين جعلوا الأخدان أداة متعة فقط ومنعوهن حقوق الزوجية فى النفقة أو الميراث أو إلصاق الولد، بينما الإسلام يحرم اتخاذ الأخدان والخليلات يقول تعالى :

مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . (النساء : ٢٥).

ويقول الرسول ﷺ

« إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات فإذا تزوجتم فلا تطلّقوا ».

نشأ عن كثرة الأخدان وانتشارهن فى أوروبا انتشار الأمراض السرية الفظيعة ، وقلة النسل لأن النسل إما أن يخنق أو تجهض الحامل أو يمنع الحمل، وهل غفل الأوروبيون عن المصير السيئ الذى ينتظرهم إذا استمر الحال، فالكبير يموت والنشء يقتل ؟. تنبهوا لذلك ، فصدرت قوانين تقول مثلا : أبناء الزواج الحر إذا اعترف بهم أبوهم ألحقناهم به فتأخذ الأولاد كل حقوق الأبناء، فهم تفادوا اسم الزوجة فقط، والأبناء منها يتمتعون بكل الحقوق.

وقد ذكر لنا أستاذنا المرحوم محمد عبد الله دراز، أنه شاهد أثر الحروب فى ألمانيا ورأى النساء يطالبن هناك بتعدد الزوجات لتجد المرأة التى مات زوجها فى الحرب من يكفلها وينفق عليها وعلى ما ينجب منها. وذكر لنا أن جمعية تألفت فى ألمانيا تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية فى الزواج والطلاق.

ومع ذلك فالإسلام لم يحرض على تعدد الزوجات بل قال :

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا

وإذا استلهمنا روح النص ومراميه وجدنا أن التعدد رخصة ، وهى رخصة ضرورية لحياة الجماعة فى حالات كثيرة، وهى صمام أمن فى هذه الحالات، ووقاية ليس فى وسع البشرية الاستغناء عنها . ولم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل منها سواء فى حالة إخلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث عقب الحروب والأوبئة التى تجعل عدد الإناث فى الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور أو حالات مرض الزوجة أو عقمها، ورغبة الزوج فى الإبقاء عليها أو حاجتها هى إليه ، أو فى الحالات التى توجد فى الرجل طاقة حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة، أو لا تجد كفايتها فى زوجة واحدة.. وكلها حالات فطرية وواقعية لا سبيل إلى تجاهلها . وكل حل، فيها غير تعدد الزوجات يفضى إلى عواقب أوخم خلقيا واجتماعيا، ضرورة تواجه ضرورة. ومع هذا فهى مقيدة فى الإسلام، باستطاعة العدل والبعد عن الظلم و الجور، وهو أقصى ما يمكن من الاحتياط.



التضامن الاجتماعى

حثت سورة النساء على صدق العقيدة والإخلاص لله فى العبادة، كما حثت على الإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين ، والإحسان إلى الجار ورحمة الفقير، والمحتاج ، ومساعدة الخدم والضعفاء، وحذرت من البخل والكبر والرياء، ونهت عن الكفر والجحود ومعصية الله والرسول . وذلك فى جملة آيات تبدأ بقوله تعالى :

واعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا . (النساء : ٣٦).

وهذه الآية وما بعدها دعوة عملية إلى « الضمان الاجتماعى » ، وتحذير من البخل والشح ، وبيان أن المال مال الله وأن الغنى مستخلف عن الله فى إدارته وتثميره وإنفاقه فى نواحى الخير والبر، وقد فرض الله حقوقًا للفقراء من مال الأغنياء ، فأوجب الزكاة والصدقة وحث على الإنفاق فى سبيل الله. وجعل طرق البر متعددة، منها صدقة الفطر فى عيد الفطر، والأضحية فى عيد الأضحى ، و الهدى فى موسم الحج. وجعل الله موردا لا ينقطع لصلة الفقراء ألا وهو الكفارات التى أوجبها مثل كفارة الظهار، وكفارة اليمين ، وكفارة

صوم رمضان . وفى كثير من الأحيان تكون هذه الكفارات إطعام المساكين أو كسوتهم. كما أوجب الله الوفاء بالنذر ، ولم يجعل الزكاة تطوعا بل جعلها فريضة لازمة يثاب فاعلها ويعاقب جاحدها . ونلحظ أن الزكاة تتفاوت فى نسبتها فتبدأ من ٢,٥٪ وهى زكاة المال وتصل إلى ٢٠٪ وهى زكاة الركاز والمعادن والبترول . وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل كما فى زكاة المال . وزكاة التجارة ، وكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر كما فى زكاة الزراعة وزكاة الركاز.



المحرمات من النساء

انفردت سورة النساء بكثير من أحكام المجتمع ، ولا سيما أحكام الأسرة والزوجية ، كما انفردت ببيان مفصل للمحرمات من النساء، وبدأت ذلك بقوله تعالى :

وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً . (النساء : ٢٢).

ولاشك أن توارد رجل وابنه على امرأة واحدة ، أمر ممقوت تنفر منه الفطر السليمة ، وتمجه الأذواق السليمة .

ثم جاءت بقية السورة ببقية المحرمات فحرمت زواج الإنسان بأمه وبابنته وبأخته من الرضاعة ومن النسب، وحرمت زواج الرجل من بنات الأخ وبنات الأخت والأم من الرضاعة، وحرمت أم الزوجة التى دخل بها زوجها، كما حرمت زواج الإنسان من زوجة ابنه وحرمت الجمع بين الأختين .

الحكمة في هذا التحريم :

إن الزواج وسيلة مشروعة لإمتاع النفس وإنجاب الذرية وتكوين الأسرة ، فإذا أبيح تزوج الإنسان من أقرب الناس إليه كالأم والبنت ، اصطدمت حقوق هؤلاء الأقارب بحقوق الزوجية ، فالأم مثلاً لها حق الطاعة والاحترام ، فلو اتخذها الإنسان زوجة لكان له عليها حق القوامة وحق الطاعة والخضوع . هذا إلى ما هو غنى عن البيان من نفور الإنسان من هذا اللون من المتاع ، فهى بهيمية أى بهيمية أن يتمتع الرجل بأمه، ومثل هذا يقال فى درجات القرابة الأخرى . فالخالة لها ما للأم ، والعمة لها ما للأب، والأخت وبنتها وبنت الأخ ، وابنة الإنسان التى هى قطعة منه ، كل هؤلاء تستقبح الأذواق نكاحهن وافتراشهن، ولا يمكن أن يتصور فى هذا الوضع لو أبيح إلا المفارقات والصعاب، وضعف النسل وسوء المنقلب.

ومثل هذا يقال أيضًا فى نكاح من حرمن من جهة الرضاع، فإن المرضع أم فى الكرامة ولها حق الأم فى وجوب الرعاية ، وليس من شأن الإنسان أن يلتمس منها ما يلتمسه الرجل بالزوجة.

وقد حرمت السورة الجمع بين الأختين ، والجمع بين الأم وابنتها حتى لا تقطع الأرحام، فإن المرأة تغار من ضرتها ، وتفعل الكثير فى سبيل إبعادها عن زوجها . ولو أبيح الجمع بين الأقارب لتشككت المرأة فى أختها

وفى أمها. ولأدركها نوع من الغيرة الشديدة فانقطعت بذلك صلاتها من النسب ، وتعرضت بذلك الأمر إلى خطر شديد. قال تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً . (النساء : ٢٣) .

* * *

مصادر التشريع فى الإسلام (١٧٧)

أمرت سورة النساء بالعدل فى الحكم وأداء الأمانات إلى أهلها. وبيَّنت أن الأمانة والعدالة من أسباب الرقى والتقدم والسعادة فى الدنيا والآخرة .

وبهذه المناسبة ذكرت السورة مصادر التشريع التى يجب أن يرجع إليها المسلمون فى تصرفاتهم وأحكامهم وهى :

(**أولاً**) القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله .

(**ثانيًا**) سنة الرسول قولية كانت أم فعلية ، والعمل بها هو طاعة الرسول.

(**ثالثًا**) رأى أهل الحل والعقد فى الأمة من العلماء وأرباب النظر فى المصالح العامة كالجيش، والزراعة، والصناعة ، والتعليم ، كل فى دائرة معرفته واختصاصه، والعمل به هو طاعة أولى الأمر.

وهذه المصادر فى الرجوع إليها مرتبة على هذا النحو ، فلا نرجع إلى السنة إلا بعد عدم العثور على الحكم فى القرآن، فترجع إلى السنة حينئذ : إما لمعرفة الحكم الذى لم يرد فى القرآن ، أو لبيان المراد مما ورد فى القرآن، ولا نلتجئ إلى رأى أولى الأمر إلا بعد عدم العثور على الحكم فى السنة، وعندئذ نرجع إليهم ليجتهدوا رأيهم، وهذا الاجتهاد هو عنصر « الشورى » الذى عليه أمر المسلمين ، ومتى حاز الاتفاق وجب العمل به ولا يصح الخروج عنه ما دامت وجوه النظر التى أدت إليه قائمة، وهو أساس فكرة الإجماع فى الشريعة الإسلامية، وقد أنتفع به المسلمون كثيرًا ، واتسع به نطاق الفقه الإسلامى ، وبخاصة فيما ليس منصوصا عليه فى كتاب الله وسنة الرسول ، وهو يشمل إعطاء حكم لحادثة مثل حادثة سابقة للاشتراك بينهما فى المعنى الموجب لذلك الحكم، وهذا هو المعروف فى لسان الفقهاء والأصوليين باسم « القياس » وقد بحثوه بحثا مستفيضًا ، بينوا فيه أركانه، وشرائطه، وعلته ، وما ينقضه وما لا ينقضه وما يجرى فيه وما لا يجرى فيه ، وقد تكفلت به كتب الأصول فليرجع إليها من شاء.

الاجتهاد من مصادر التشريع وبابه مفتوح أبدا :

ويشمل أيضًا النظر فى تعريف حكم الحادثة عن طريق القواعد العامة وروح التشريع التى عرفت من جزئيات الكتاب ، وتصرفات الرسول ، وأخذت فى نظر الشريعة مكانة النصوص القطعية التى يرجع إليها فى تعرف الحكم للحوادث الجديدة ، وهذا النوع هو المعروف بالاجتهاد عن طريق الرأى وتقدير المصالح. وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عن أن يخضعوا فى أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله ، ومنحهم حق التفكير والنظر والترجيح واختيار الأصلح ، فى دائرة ما رسمه من الأصول التشريعة، فلم يترك العقل وراء الأهواء والرغبات ، ولم يقيده ، فى كل شىء بمنصوص قد لا يتفق مع ما يجد من شئون الحياة، كما لم يلزم أهل أى عصر باجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار ما اختاروا . وهنا نذكر بالأسف هذه الفكرة الخاطئة الظالمة التى ترى وقف الاجتهاد وإغلاق بابه ، ونؤكد أن نعمة الله على المسلمين بفتح باب الاجتهاد لا يمكن أن تكون عرضة للزوال بكلمة قوم هالهم- أو هال من ينتمون إليهم من أرباب الحكم والسلطان - أن يكون فى الأمة من يرفع لواء الحرية فى الرأى والتفكير ، فالشريعة الإسلامية شريعة عامة خالدة صالحة لكل عصر ولكل إقليم .

وما على أهل العلم إلا أن يجتهدوا فى تحصيل الوسائل التى يكونون بها أهلا للاجتهاد فى معرفة حكم الله الذى وكل معرفته - رأفة منه ورحمة - إلى عباده المؤمنين .

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ . (النساء : ٨٣) .

واقرأ فى هذا الموضوع كله قوله تعالى من السورة :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً . (النساء : ٥٨ ، ٥٩).



القتال وأسباب النصر

عنيت سورة النساء بتنظيم شئون المسلمين الداخلية وحفظ كيانهم الخارجى ، وقد حثت السورة على القتال ودعت إليه حيث يقول الله تعالى : فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٧٤) .

وبينت السورة أهداف القتال فى الإسلام، وهذه الأهداف تنحصر فى رد العدوان وإشاعة الأمن والاستقرار، وحماية الدعوة ، والقضاء على الفتن التى يثيرها أرباب المطامع والأهواء، ومن ذلك نعلم أن الإسلام

حينما شرع القتال نأى به عن جوامح الطمع والاستئثار ، وإذلال الضعفاء، واتخذه طريقا إلى السلام العام بتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة. وليصل المسلمون بالقتال إلى الغاية السامية التى أمر بها الله ، ولفت القرآن أنظار المؤمنين إلى أن للنصر أسبابا ووسائل هى :

١ - **تقوية الروح المعنوية للأمة** فقد نزل القرآن روحا وحياة ومنهجا ورسالة . وتحول العرب بالقرآن إلى أمة عزيزة متمسكة بالحق ثابتة عليه متحملة صنوف الأذى وألوان الاضطهاد . فلما أذن الله لها بالجهاد كانت لها راية النصر فى أكثر معاركها، لأن لها من يقينها وإيمانها ما يكفل لها النصر والغلبة .

٢ - **إعداد القوة المادية وتنظيمها** ، قال تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ . (الأنفال : ٦٠). ويشمل ذلك فنون الحرب وأساليبها ، ومعرفة أحدث أدواتها وكيفية استعمالها.

٣ - **الشكر على النعماء ثقة بأن النصر من عند الله ، فلا ينبغى ان تأخذ المحارب** نشوة النصر فيخرج عن اتزانه بل عليه أن يزداد تواضعًا وخشوعًا لعظمة الله ، ويزيد فى طاعة الله ونصره ، لقوله سبحانه : إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ . (محمد : ٧).

٤ - **الصبر على البأساء ثقة والتزامًا** بأن مع اليوم غدا ، وبأن الأيام دول يوم لك ويوم عليك ، وأن الشجاعة صبر ساعة ، وليس الصبر هنا صبر الذليل المستكين بل صبر المطمئن إلى قضاء الله وقدره والمؤمن بحكمته والمستعد ليوم آخر ينتصف فيه من عدوه . قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (آل عمران : ٢٠٠).

٥ - ومن أسباب **النصر ثقة المؤمن بأن الأجل محدود وان الرزق محدود** فالشجاعة لا تنقص العمر ، والجبن لا يزيده . ومن أسباب النصر طاعة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى : وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ. (آل عمران : ١٢٦).

٦ - ومن أسباب النصر **أخذ الحذر والحيطة والابتعاد عن اتخاذ بطانة** مقربة من المنافقين والملحدين والخونة، قال تعالى : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (النساء : ٨٨).

٧ - **تذكر فضل الجهاد ثواب البذل والتضحية، وعقوبة التثاقل** والفرار من الجهاد، وتذكر ما أعده الله للمجاهدين والمكافحين فى سبيل الحق من عز الدنيا وشرف الآخرة، قال تعالى :

وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . (النساء : ١٠٠) .

★ ★ ★



ثانيًا
تفسير سورة النساء
١ - ٢٣

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

المفردات :

بث : نشر وفرّق ، ومنه وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ . (الغاشية : ١٦) .

الأرحام : جمع رحم وهو فى الأصل مكان تكوُّن الجنين فى بطن أمه ثم أطلق على القرابة.

رقيبا : الرقيب : الحفيظ المطلّع على الأعمال.

المعنى الإجمالى :

يا أيها الناس اتقوا الله ربكم الذى خلقكم وأوجدكم من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها ، ومنهما نشر فى الوجود رجالا كثيرا ونساء، فأنتم جميعا تنتهون إلى تلك النفس الواحدة ، واتقوا الله الذى تستعينون به فى كل ما تحتاجون ، ويسأل باسمه بعضكم بعضا فيما تتبادلون من أمور ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها قريبها وبعيدها، إن الله دائم الرقابة على أنفسكم لا تخفى عليه خافية من أموركم (١٧٨).

فى أعقاب الآية :

١ - الناس جميعًا من أصل واحد ، تجمعهم رحم عامة تربط بين البشر جميعًا ، قال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . . (الحجرات : ١٣).

٢ - ينتهى نسب الناس إلى آدم، وآدم من تراب ، فقد خلق الله آدم من تراب ، ثم خلق حواء من ضلع آدم ليسكن إليها وتكون له سكنًا وأمنا . قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . (الروم : ٢١).

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها، فاستمتع بها وفيها عوج واستوصوا بالنساء خيرا » (١٧٩).

والحديث يكرر الوصية بالنساء ، ويوصى بالصبر والاحتمال والمداراة، لأن المرأة مجموعة من العواطف ، فقد شاء الله أن تكون عاطفة المرأة أكثر من عاطفة الرجل ، لتتحمل المرأة آلام الحمل والولادة والرضاع والكفالة، وأن يكون جانب العقل فى الرجل أكثر ، ليتحمل البحث فى سبيل الرزق ورعاية الأسرة، وبالعقل والعاطفة تتم رعاية الأسرة ، وتلبى حاجة الرجل إلى المرأة ، وحاجة المرأة إلى الرجل.

٣ - جمهور المحدثين والفقهاء على أن الناس جميعًا تناسلت من نفس آدم - عليه السلام - وليس هناك سوى آدم واحد، وقد خلقت حواء من آدم وخلق الناس من آدم وحواء.

٤ - قال الفخر الرازى فى تفسير . وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . والمراد من هذا الزوج هو حواء ، وفى كون حواء مخلوقة من آدم قولان :

الأول : وهو الذى عليه الأكثرون ، أنه لما خلق الله - تعالى - آدم ألقى عليه النوم ، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه، فلما استيقظ رآها ومال إليها وألفها، لأنها كانت مخلوقة من جزء من أجزائه، واحتجوا عليه بقول النبى ﷺ : « إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها وفيها عوج استمتعت بها ».

والقول الثانى : وهو اختيار أبى مسلم الأصفهانى - أن المراد من قوله تعالى : وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . أى من جنسها وهو كقوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا . (النحل : ٧٢).

وكقوله : إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ . (آل عمران : ١٦٤).

وقوله : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... . (التوبة : ١٢٨).

قال القاضى : والقول الأول أقوى ، لكى يصح قوله : خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ . إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة (١٨٠).

٥ - قال صاحب الكشاف : ومعنى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ... أراد بالتقوى تقوى خاصة، وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ربكم الذى وصل بينكم ، حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة ، فيما يجب على بعضكم لبعض ، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه، وهذا المعنى مطابق لمعانى السورة (١٨١).

٦ - من سألك بالله شيئًا فأعطه ما دمت تجد سبيلاً للعطاء، أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن أسدى إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه » (١٨٢).

والحديث فى معنى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ . أى يسأل بعضكم بعضا بالله ، فيقول أسألك بالله كذا.

٧ - حثت الآية على صلة الرحم ، والإحسان إلى الأقارب، وقد تكررت هذه الوصية فى القرآن والسنة ، قال تعالى : وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا . (النساء : ٣٦).

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من سره أن يبسط له فى رزقه، وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » [١٨٣].

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ قال : « الرحم معلَّقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله » [١٨٤].

وأخرج البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها» .

وهذه الأحاديث تلتقى مع الاية فى تأكيد الوصية بالأرحام ، قال تعالى : وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ . أى اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، فمن وصل رحمه وصله الله ، ومن قطع رحمه قطعه الله.

قال تعالى : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . (محمد : ٢٢).

فصلة الرحم سبب البركة وهدوء النفس ، واستقامة الذرية وصلاحها، أما قاطع الرحم فهو مطرود من رحمة الله.

ارحم عباد الله يرحمك الذي
عم البرية فضله ونوالـــــه
فالراحمون لهم نصيب وافـــر
من رحمة الرحمن جل جلاله



﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

المفردات :

وآتوا : المراد بإتيانها أن يحافظوا عليها ولا يتعرضوا لها بسوء، حتى يسلموها لليتامى عند البلوغ والرشد كاملة ، إلا ما صرف منها فى ضرورات اليتامى وحاجاتهم .

اليتامى : جمع يتيم ، وهو من مات أبوه ، واليتامى جمع ذكرا أم أنثى، أما الأيتام فجمع للذكران فقط وخصه الشرع بالصغير دون البلوغ.

ولا تتبدلوا : أى لا تستبدلوا ، يقال تبدل الشىء بالشىء واستبدل به إذا أخذ الأول بدل الثانى ، فالباء داخلة على المتروك.

الخبيث : الحرام .

بالطيب : بالحلال.

حوبا كبيرا : إثمًا عظيما .

التفسير :

٢ - وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا .

المعنى الإجمالى :

وملِّكوا اليتامى ما يستحقون من مال واحفظوه لهم ولا تعطوهم الردىء وتحرموهم الجيد، ولا تأخذوا أموالهم وتضيفوها إلى أموالكم إن ذلك كان إثمًا كبيرا .

من تفسير الآية للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز :

وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ .. .

أمرنا الله بتوصيل مال اليتيم إليه بعد بلوغه ، وبعد أن أمرنا بإعطاء اليتامى أموالهم أكد هذا الأمر تأكيد العليم الخبير بطبائع النفوس الإنسانية وجميع حيلها ، ولو كان القرآن من عند محمد لوجب أن يكون إنسانا عالميا يحيط بكل ما فى الأرض والسماء ، ويغوص إلى خفايا النفوس، ويصل إلى أدق طبائع البشر، وما خفى واستتر من غرائزهم ، وهو الأمى الذى لم يتل من قبله الكتاب ولا خطه بيمينه . ففى هذا التحليل القادم دليل على أن القرآن من عند الله ، وإليك هذا التحليل والتنويع .

قد يتحايل الإنسان على أكل مال اليتيم بأربع حيل :

١ - **الأولى الاستبدال** : بأن يأخذ قطعة أرض من مال اليتيم ويعطيه بدلها، زاعما أن ذلك له أصلح، وهو فى الواقع قد أخذ لنفسه الأحسن ، وهنا يبدو جمال التسمية فى قوله تعالى : وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ فجعل الكثير الحسن من مال اليتيم خبيثًا لأنه حرام ، وحَق الغير ، وأخْذُه ظلم ، فكان خبيثا لا تألفه نفس المؤمن الطاهر ، وجعل القليل من ماله الحلال طيبًا طاهرًا ، لأنه حقه الحلال ، أى ولا تأخذ الكثير الخبيث ، الذى يؤول إلى النار من مال اليتيم ، بدل القليل الطيب الحلال من مالك.

٢ - **الحيلة الثانية أن يقول الوصى :** إنى لا أريد أن أشعره بالوحدة، والانقطاع، فلن أترك ماله على حدة، بل سأضمه إلىَّ ليجد فىَّ أبا رحيما، وفى أبنائى إخوة ، وفى رعايتى لماله شركة ومواساة. ثم يأخذ من مال اليتيم بذلك ما لا حق له فيه أما إذا أردت ضمه إليك مواساة وتعويضا عن أهله ، وكنت صادق النية فى ذلك ، فالله هو الذى يتولى جزاءك. قال تعالى : **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** . (البقرة : ٢٢٠).

٣ - **الحيلة الثالثة : أن يتزوج اليتيمة ذات المال** ، للاستيلاء على مالها بحجة أنها تحت رعايته فقال تعالى : **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا** . أى إن خفتم الجور على اليتيمة فتزوجوا من الآخرين بعدا عن الظلم.

٤ - **والحيلة الرابعة :** هى الإسراف والتبذير في مال اليتيم قبل أن يكبر حقدا عليه أن يسترد ماله عند البلوغ فيصير غنيا والوصى فقير ، فقال سبحانه **فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا** .

هذا هيكل تقريبى أو صورة واضحة عن اليتيم ، وكل ما يمكن من صور التحايل على أكل ماله نهى عنها القرآن وحذرنا منها.

وأحب أن تسيروا فى طريق التفسير بهذا المنوال التربوي، والمنهاج العلمي، والنظر إلى الفكرة ككل، وإلى ما يقصده القرآن كجسم كامل لا يصح بتر أجزائه، بل تتأملوا تفصيلها وتنسيقها (١٨٥).



تعدد الزوجات

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) ﴾

المفردات :

الا تقسطوا : أى ألا تعدلوا ، من أقسط أى عدل، وأما قسط فمعناه ظلم وجار ، قال تعالى : **وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا** . (الجن : ١٥).

فى اليتامى : المراد اليتيمات.

فانكحوا : تزوجوا.

ما طاب لكم : ما حل : أو ما مالت إليه نفوسكم.

مثنى وثلاث ورباع : أى اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا، وأربعا أربعا.

الا تعولوا : ألا تجوروا وتظلموا.

التفسير :

٣ - **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا** .

المعنى الإجمالى :

وإن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة، فعليكم ألا تتزوجوا بها ، فإن الله جعل لكم مندوحة عن اليتامى ، بما أباحه لكم من التزويج بغيرهن، واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعا، إذا وثقتم بالقدرة على العدل، ولكن إن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجين أو الزوجات فعليكم أن تلزموا واحدة فقط، أو استمتعوا بما ملكت أيديكم من الإماء ، وإن زواج الواحدة أقرب إلى العدل، وأبعد عن الظلم والجور.

سبب نزول الآية :

روى البخارى وغيره : « عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضى الله عنها - : أنه سألها عن هذه الآية ، فقالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها، تشركه فى حاله ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينحكوهن إلا أن يسقطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن» . الحديث، رواه البخارى فى كتاب التفسير.

آراء فى تفسير الآية :

١ - **روى الطبرى عن ابن عباس وعكرمة :** أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدما مال على مال يتيمه الذى هو فى حجره فأنفقه أو تزوج به ، فنهوا عن التزوج فوق الأربع.

٢ - **وقال آخرون معنى الآية :** فكما خفتم فى اليتامى أن تجوروا عليهم فكذلك فتخوفوا فى النساء أن تزنوا بهن، ولكن انكحوا ما طاب منهن مثنى وثلاث ورباع ، إذا اطمأننتم إلى تحقيق العدل بينهن وإلا فاقتصروا على الواحدة.

٣ - **وقال آخرون :** وإن خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى ، فكذلك فخافوا فى النساء ، فلا تنكحوا منهن إلا مالا تخافون أن تجوروا فيه منهن من واحدة إلى الأربع . وقد أجاز السيد رشيد رضا أن تكون الآراء السابقة كلها مقصودة للآية فقال : « وقد يصح أن يقال إنه يجوز أن يراد بالآية مجموع تلك المعاني، من قبيل رأى الشافعية الذين يجيزون استعمال اللفظ المشترك فى كل ما يحتمله الكلام من معانيه، واستعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه معا » [١٨٦].

ويقول الأستاذ الدكتور محمد بلتاجى :

« .. ومن هنا معنى الآية يتضمن أمرا إلى أولياء الفتيات اليتامى بالإقساط فيهن عند إرادة التزوج بهن، ثم هو فى نفس الوقت أمر إلى هؤلاء الأولياء بألا يسرفوا على أنفسهم بكثرة الزوجات، فيحملهم ذلك على التعدى على أموال اليتامى ، الذين هم فى رعايتهم وتحت وصايتهم- وقد كان هذا وما سبقه موجودًا عند نزول القرآن الكريم - ثم هو أيضًا أمر إلى المسلمين باتقاء الله فى النساء ، وتجنب الزنا بهن لأن الله - تعالى - أباح التزوج منهن ، فلم يعد بالمسلم حاجة مقبولة إلى الزنا ، ثم هو فى الوقت نفسه أمر إلى المسلمين بوجوب اتقاء الله فى العدل فى النساء عند إرادة التزوج منهن والخشية من ظلمهن فى ذلك ، كما يخاف كل منهم أن يظلم اليتيم إذا كان تحت رعايته، ثم إن الآية بعد كل هذا تشتمل على إباحة تعدد الزوجات بشرط العدل » (١٨٧).

مذاهب فى تفسير الآية

١ - قال بعض أئمة الشيعة والظاهرية : يجوز جمع تسع نساء حيث اعتبروا كلمات (مثنى وثلاث ورباع) معدولة عن اثنين وثلاث وأربع وجمعوا هذه الأرقام ٢+٣+٤= ٩. وهو كلام مرفوض مخالف لما يفيده النص العربى البليغ فإن الطفل هو الذى إذا أراد أن يقول تسعة قال ٢+٣+٤ = ٩، أما القرآن فهو أبلغ أسلوب.

والعمل متواتر من العهد النبوى والخلفاء الراشدين بعدم جواز جمع أكثر من أربع فى عصمة رجل فى وقت واحد ، وهذا العمل مؤيد بالكتاب والسنة والإجماع، وهو الحق الذى يجب الالتزام به والوقوف عنده (١٨٨).

حكمة التعدد

الإسلام دين وسط، وهو شريعة الله العليم الخبير ، وقد كان العرب فى بيئة ذاع فيها التفاخر بالأنساب ، والاعتزاز بكثرة الأبناء، وإهمال شأن المرأة وهضم حقوقها ، فلم يقفوا فى تعدد الأزواج عند حد.

« وقد سلك الإسلام طريقا وسطا هو إباحة التعدد إلى حد محدود (١٨٩) ، لما فى هذا من منافع ، لا ينبغى لمشرع أن يغض الطرف عنها ، ومنها :

١ - أن طبيعة الرجل الجنسية قد تقوى فلا يقنع بامرأة واحدة، فإذا سددنا عليه باب التعدد فتح لنفسه باب الزنا والمخالَّة الداعرة، فتنتهك الأعراض وتضيع الأنساب، وذلك شر عظيم . وفى فتح باب التعدد تمهيد لكثرة النسل الذى تعتز به الأمة ، وإن دينا يحرم الزنا ، ويعاقب عليه أقسى العقوبات ، جدير به أن يفتح باب التعدد، إشباعًا للغريزة ودفعًا للشر ، ورغبة فى كثرة النسل الحلال.

٢ - وقد تكون المرأة عقيما لا تلد ، أو تصاب بما يمنعها من مزاولة الحياة الجنسية ، ويرى الزوج من الوفاء لها ألا يتخلى عنها فى محنتها ، وألا يمنعها عطفه وأنسه ورعايته ، أفليس من الحكمة أن نمكنه من هذا الوفاء، بإباحة التزوج عليها حتى لا نلجئه إلى سلوك طريق آخر ؟

٣ - ولما كان الرجال أكثر من النساء تعرضًا لأسباب الفناء - كان عددهم أقل من عددهن، وخاصة فى أعقاب الحروب ، فإذا لم نبح للرجل أن يعول بالزواج أكثر من واحدة، كانت النساء عرضة للفاقة ، وللاتجار بالأعراض ، والعمل للتخلص من النسل فتقل الأيدى العاملة.

وليس بعجيب أن يكون عدد النساء فى العالم أكثر من عدد الرجال، وأن يباح للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة، ضمانًا لبقاء النوع ، فقد جرت عادة الخالق - سبحانه - أن يخلق من بذور النبات وبويضات الحيوان ملايين البذور والبويضات ضمانا لبقاء أنواعها ، ويكون استئثار المرأة بالرجل حينئذ أثرة ممقوتة ضارة بالجماعة(١٩٠).

فهم خاطئ

ذهب بعض الناس إلى منع تعدد الزوجات مدعيا أن آيتين فى سورة النساء ترشدان إلى ذلك .

الآية الأولى تقول : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ . (النساء : ٣).

والآية الثانية تقول : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾. (النساء : ١٢٩).

بل إنهم عند الاستشهاد بالآية ١٢٩ من سورة النساء هذه استشهدوا بالجزء الأول منها وهو ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ . وقالوا : إن التعدد ممنوع فى القرآن لأن الآية رقم ٣ من سورة النساء اشترطت العدل لإباحة التعدد.

والآية رقم ١٢٩ بينت أن العدل غير مستطاع حتى لمن حرص على تحقيقه بين النساء.

قال الأستاذ أحمد شاكر .. (وزاد الأمر وطم، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التى تنتسب للإسلام، وضعت فى بلادها قانوناً منعت فيه تعدد الزوجات جملة ، بل صرحت تلك الحكومة بأن تعدد الزوجات- عندهم - صار حراما، ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجرىء صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام ، بل إن أحد الرجال الذين ابتلى الأزهر بانتسابهم إلى علمائه ، تجرأ مرة وكتب بالقول الصريح إن الإسلام يحرم تعدد الزوجات ، جرأة على الله وافتراء على دينه (١٩١).

مناقشة :

العلاقات الزوجية متداخلة ، منها ما هو مادى ، ومنها ما هو معنوى ، فالمحبة والهوى القلبى أمور معنوية لا يتحكم فيها الإنسان ، وهى المشار إليها بقول النبى - ﷺ : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » (١٩٢).

أما الأمور المادية مثل الأكل والنفقة والكسوة والمسكن وأشباهها فيمكن العدل فيها بين النساء . وهى التى عناها القرآن ، حين أرشد الرجال إلى العدل فيها ، وبين أن العدل فى ميل القلب أمر غير مستطاع لأن القلوب متقلبة ، وما يسمى القلب قلبا إلا لأنه يتقلب ، ولأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

فإذا اتبع الإنسان هوى قلبه ، مال إلى الزوجة التى يحبها ، وأعطاها حظوظًا مادية زائدة . وترك الأخرى لا تستمتع بمثل هذه الحظوظ المادية . ولذلك وجه القرآن المسلم بأن يعدل فى قسمته بين النساء فى المسكن والمأكل والملبس ، وأمر بالتسوية بينهما ، ونهى عن محاباة المحبوبة، وهجر ضرتها حتى تصير كالمرأة المعلقة، وهى التى هجرها زوجها وتركها بدون طلاق ، فلا هى مطلقة تنتظر الأزواج ، ولا هى متزوجة زوجاً يقر عينها ، ويحسن عشرتها ، ويوفى لها حقها ، ويعدل بينها وبين ضرتها أو ضرائرها ، فى الأمور المادية التى يمكن العدل فيها.

وقد روى الإمام أحمد وغيره أن رسول الله - ﷺ - قال : « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » (١٩٣).

والمراد بالميل هنا الظلم فى القسمة بين الزوجتين ، وتفضيل إحداهما على الأخرى فى النفقة والمسكن والملبس، وهى التى عناها القرآن بقوله : فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ . (النساء : ١٢٩).

وفى ختام الآية فتح القرآن الباب أمام الأزواج ليحاولوا العدل ولينصفوا الزوجة الأخرى ويحسنوا إليها مراعاة لأمر الله واتقاء عقابه وحسابه ، فقال - سبحانه - : وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . (النساء : ١٢٩).

قال الطبرى شيخ المفسرين : وَإِن تُصْلِحُوا أعمالكم - أيها الناس - فتعدلوا فى قسمتكم بين أزواجكم، وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا يستر عليكم ما قد يكون سلف منكم فى ذلك رحيما بكم يقبل توبتكم فيه .

رشيد رضا والتعدد :

يقول الأستاذ رشيد رضا فى موضوع : الإصلاح الإسلامى فى تعدد الزوجات ما يأتى :

قال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا . (النساء : ٣).

العول : الجور ، أى ذلك الاقتصار على امرأة واحدة، أو ملك اليمين أقرب الوسائل لعدم وقوعكم فى الجور والظلم، المانع من تعدد الزوجات لمن خاف الوقوع فيه .

والآية تدل على تحريم التعدد على من يخاف على نفسه ظلم زوجة محاباة لأخرى، وتفضيلاً لها عليها، وعلى تحريمه بالأولى إذا كان عازمًا على هذا الظلم بأن كان يريد أن يضارها لكرهه لها ، ثم قال فى الآية ١٢٩ من سورة النساء أيضًا وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ . فإذا قرنت هذه القضية بقضية فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . أنتجتا وجوب الاقتصار على امرأة واحدة ، ولكنه قال بعدها : فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ .

فعلم به أن غير المستطاع هو العدل فى الحب وأثره من ميل النفس ، فيجب ضبط النفس فى أثـره، وما يترتب عليه من المعاملة المستطاعة ، فى النفقة والمبيت وغيرها ، وهو العدل المشروط فى الأولى .

وهناك ثلاث مسائل قطعية :

الأولى : أن الإسلام لم يوجب تعدد الزوجات ، ولم يندب إليه ، وإنما ذكره بما يدل على أنه قلما يسلم فاعله من الظلم المحرم ، وحكمة هذا وفائدته أن يتروى فيه الرجل الذى تطالبه نفسه به ، ويحاسبها على قصده وعزمه ، وما يكون من مستقبل أمره فى العدل الواجب .

الثانية : أنه لم يحرمه تحريما قطعيا لا هوادة فيه ؛ لما فى طبيعة الرجال وعاداتهم الراسخة بالوراثة فى جميع العالم من عدم اقتصارهم فى الغالب على التمتع بامرأة واحدة - ومن حاجة بعضهم إلى النسل فى حال عقم المرأة أو كبرها أو علة أخرى مانعة من الحمل ، ومن كثرة النساء فى بعض الأزمنة والأمكنة، ولا سيما أعقاب الحرب بحيث تكون الألوف الكثيرة منهن ، أيامى لا يجدن رجالا يحصنونهن وينفقون عليهن، مع وجود الأقوياء الأغنياء القادرين على إحصان امرأتين أو أكثر.

الثالثة : أنه لهذا وذلك تركه مباحا، إلا أنه قيده بالعدد فلا يتجاوز أربعة ، وبالقدرة على العدل والرغبة فيه ، وبهذه الشروط نتقى ضرره ونرجو خيره.

وقد رأينا بأعيننا وسمعنا بآذاننا من أهل عصرنا ، أن من المتدينين المتقين رجلا لم يرزق ولدا من زوجته الأولى ، فخطب زوجة ثانية رزق منها أولاداً وعاش الجميع كعيشة الأخوات فى حجر والدهن، وقد كان هذا هو أكثر حال المسلمين ، فى قرون الإسلام الأولى، ولكنه قل فى هذا الزمن ، بما طرأ على أكثر الشعوب الإسلامية من الجهل بالإسلام، وبحكمه وآدابه فى الزواج. وقد حمل شيخنا الأستاذ الإمام محمد عبده فى سياق تفسيره للآية فى الأزهر ، حملة منكرة شديدة على هذه المفسدة فى مصر ، وقرر أنه يستحيل تربية الأمة تربية صحيحة، مع كثرة هذا التعدد الإفسادى ، الذى صار يجب منعه عملاً بقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » الثابتة فى الحديث [١٩٤] ، وقاعدة تقديم درء المفاسد على جلب المصالح، وهى متفق عليها ، وقد نشرنا أنه أفتى فتوى غير رسمية بأن للحكومة منع التعدد، لغير ضرورة مبيحة لا مفسدة فيها [١٩٥].

ملحق بالتفسير

- ١ -

قام المستشار محمد الدجوى ببحث عن الحالة المدنية لمن تولى مشيخة الأزهر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٩٦٠م.

وأسفر البحث عن أولئك المشايخ الأجلاء ، وعدتهم بضعة عشر شيخا، لم يتزوج واحد منهم بزوجة ثانية، بل اقتصروا على زوجة واحدة، وذلك لأنهم فهموا أحكام الدين ووعوا تعاليمه وتشربوا بروحه.

- ٢ -

يرى الدكتور محمد عبد الله دراز أن أوروبا أباحت تعدد الخليلات والعشيقات ، ثم اباحت للإنسان أن يعترف بنسب أولاده من عشيقته ، فهم تفادوا اسم الزوجة فقط.

ولكن الإسلام حارب اتخاذ الأخدان والخليلات ، فقال سبحانه : **مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ** . (النساء : ٢٥).

وقال عز شأنه **مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ** . (النساء : ٢٤).

- ٣ -

ذهب فريق من العلماء إلى أن التعدد مباح ، لا يتوقف جوازه على شيء وراء أمن العدل، وعدم الخوف من الجور، والقدرة على القيام بواجبات الأسرة القديمة والجديدة، ومن هؤلاء العلماء الأستاذ الشيخ محمود شلتوت، والأستاذ أحمد شاكر، والأستاذ على عبد الواحد وافي، والدكتور محمد بلتاجي.

ومن العلماء من يرى أن الأصل فى الزواج الاقتصار على زوجة واحدة تتحقق بها المودة والرحمة، ويباح التعدد عند الضرورة مثل عقم الزوجة، أو مرضها مرضا شديدا يمنعها من أداء وظيفتها ، ويمكن أن يفهم هذا الرأى من كلام الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ محمد المدنى.

ومن العلماء من يرى أن يكون تعدد الزوجات بإذن القاضي، ومنهم من يرى ترك الناس إلى ضمائرهم ودينهم مع العناية بالتربية الدينية ، وإرشاد الناس إلى آدب الإسلام.



﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

وآتوا : الإيتاء : الإعطاء والمناولة ، أو الالتزام.

صدقاتهن : جمع صدقة بضم الدال ، وهو المهر .

نحلة : أى عطية من غير عوض ، من نحله ينحله نحلة.

هنيئا : أى سائغا من هنأه الطعام يهنؤه أى ساغ له.

مريئاً : أى سائغا، الهنيء ما يلذ للآكل ، والمرىء ما سهل هضمه وحسنت عاقبته ، والمراد أنه لا تبعة ولا عقاب عليه ، أى حلالا طيبًا.

التفسير :

٤ - وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا .

هناك حقوق للمرأة على زوجها، وحقوق للرجل على زوجته ، فمن حقوق المرأة ، المهر وهو الصداق والنفقة ، والعشرة بالمعروف.

ومن حقوق الزوج الطاعة أو القوامة ، والأمانة أو المحافظة على المال والعرض، وحسن العشرة أيضًا .

والآية تأمر الأزواج بإعطاء النساء مهورهن عن طيب خاطر ، فإذا طابت نفس المرأة وتنازلت لزوجها عن شيء من صداقها فلا مانع من أخذه والانتفاع به.

وعلاقة الآية بالحديث عن اليتامى، أنها استطراد فى بيان حق المرأة، وسواء أكانت يتيمة أو غير يتيمة، واحدة أو أكثر ، فيجب أن تأخذ حقها فى الصداق.

والصداق دليل المصادقة، وتحمل المسئولية ، وآية المودة وتوثيق عرى الصلة بين الزوجين كى تدوم الألفة وتعظم المحبة.

والصداق ليس شراء للمرأة ، فمعنى قول الإنسان لفتاة هل ترضين أن تكونى زوجتي؟ أى هل ترضين أن نكوّن شركة أكون أنا مديرها والمسئول عنها ؟ فتقول له جدا أو مزاحا ؟ أو هل أنت صادق فى عرضك؟.

فالصداق دليل مادى على تحمل المسئولية.

ثم أتبع القرآن ذلك بقوله : نِحْلَةً . أى عطية عن طيب نفس وصدق رغبة بدون مقابل أو عوض.

وأهل اللغة يقولون إن النحل بدون مقابل :

وبعض الفقهاء يقول : إن الصداق ثمن البضع ، ونقول لهم : لو أنّى اشتريته يا فقهاء لكنت أستطيع بيعه لآخر ، ثم إن الله سمى المهر صداقا، وجعله نحلة أى هبة وهدية بدون عوض.

لكن القرآن يقول : فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ . (النساء : ٢٤).

بعد أن سماه القرآن صداقا ونحلة، جعله فريضة فرضها الله ، وألزمنا بها كما يلزم الإنسان أجر العامل.

فالزوجة قد استمتعت بزوجها كما استمتع هو بها ، لكن لما كانت المسألة ليست جزاء الاستمتاع المادى ، بل هى حق فرضه الله للمرأة، لأنها قبلت أن تنتقل من بيت أسرتها إلى بيت زوجها، وقبلت أن يكون لزوجها القوامة عليها، وقبلت أن يكون لزوجها الرئاسة والطاعة، لهذا فرض الله لها النفقة والصداق، وجعل ذلك فريضة لازمة، كما يلزم الإنسان أن يعطى الأجر لمن عمل له عملا، قال تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ . (النساء : ٣٤).

فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا .

والضمير يعود على المهر ، أى إذا طابت نفوسهن ورضيت عن طيب خاطر ورغبة صادقة ، أن تتنازل إحداهن لزوجها عن شىء من صداقها، فقد أباح الله له أخذه والانتفاع به ، وأحل له التصرف فيه حلالا طيباً .

ومن دقائق اللغة ، أن القرآن قال : فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا . ولم يقل عقلاً . لأن الرجل قد يحتال على المرأة حتى تهب له شيئاً من الصداق، أو يلوّح لها بالزواج فتترضاه بشىء من الصداق، وتتنازل له بحكم عقلها ، ولكنه تنازل ظاهرى.

يقول الحكيم الترمذى : أى أن عقلها يوازى الأمور ، ويفضل التضحية بالمال لترضية زوجها، فهى موافقته شكلية لا حقيقة.

ولذلك فإن القرآن قال : فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا (١٩٦).

وقال الزمخشرى فى الكشاف فى تفسير الآية :

وفى الآية دليل على ضيق المسالك فى ذلك ، ووجوب الاحتياط، حيث بنى الشرط على طيب النفس: فإن طبن . ولم يقل فإن وهبن أو سمحن إعلاما بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب عن طيب خاطر.

والمعنى : فإن وهبن لكم شيئا من الصداق، وتجافت عنه نفوسهن طيبات ، لا لحياء عرض لهن منكم أو من غيركم ، ولا لاضطرارهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم ، وسوء معاشرتكم ، فكلوه هنيئا مريئا.

الخطاب فى الآية :

الخطاب فى الآية للأزواج ، لأن الضمائر فى الآية السابقة لهم ، وبعض المفسرين يرى أن الخطاب فى هذه الآية للأولياء ، فقد كان الولى فى الجاهلية يزوج ابنته أو أخته ، ويأخذ الصداق لنفسه، فأنزل الله الآية لمنع ذلك . ولا مانع من أن يجعل الخطاب عاما للمسلمين، فيشمل الأزواج والأولياء، فالزوج مطالب بإعطاء المرأة صداقها، والولى مطالب بدفعه لها بعد تسلمه من الزوج ، وللزوجة كامل الحق فى التصرف فى المهر بعد ذلك .

من الأحكام التى تؤخذ من الآية :

١ - لابد فى النكاح من صداق يعطى للمرأة، قال القرطبى : هو مجمع عليه ولا خلاف فيه .

٢ - الصداق ملك المرأة ، ومن حقها أن تتصرف فيه بما شاءت.

٣ - يجوز للمرأة أن تعطى زوجها - برضاها واختيارها - مهرها، أو جزءا، سواء أكان مقبوضًا معينا، أم كان فى الذمة. ويشمل ذلك الإبراء الهبة.

ويرى بعض العلماء أن من حقها الرجوع فيما أعطت، وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه كتب إلى قضاته : إن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأيما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها .



﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

المفردات :

السفهاء : جمع سفيه، والمراد من السفهاء هنا : ضعاف العقول والأفكار الذين لا يحسنون التصرف.

قيامًا : ما تقوم به أموركم، وتصلح شئونكم .

التفسير :

٥ - وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا .

المعنى العام :

ولا تعطوا ضعاف العقول ممن لا يحسنون التصرف فى المال أموالهم التى هى أموالكم ، فإن مال اليتيم وضعيف العقل مالكم، ويعنيكم أمره وإصلاحه حتى لا يضيع المال ، فقد جعله الله قوام الحياة، وأعطوهم من ثمراتها النصيب الذى يحتاجون إليه فى العام، واكسوهم وعاملوهم بالحسنى، وقولوا لهم قولا يرضيهم ولا يؤذيهم ولا يذلهم.

فى أعقاب الآية :

١ - اختلف المفسرون فى تعيين المخاطبين بقوله تعالى : وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .

قال بعضهم المراد بذلك الأوصياء على اليتامى، والمراد من السفهاء اليتامى غير العقلاء.

وقال بعضهم الخطاب فى الآية الكريمة للآباء، والمراد من السفهاء الأولاد الذين يفسدهم المال ويشجعهم على سوء الفعال.

والواقع أن السفهاء تشمل جميع السفهاء ، من صبى ويتيم وزوجة صغيرة ..

فالمسألة ليست خاصة ، بل الآية دستور عام ينادى جميع الناس، حاكمين ومحكومين ، وأوصياء وآباء.

والمراد بالسفهاء كل من لا يحسن المحافظة على ماله لصغره، أو لضعف عقله، لسوء تصرفاته سواء أكان من اليتامى أم من غيرهم.

٢ - يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز :

كأنه يقول المال وإن كان ملكا لزيد وعبيد ، إلا أنه حق للدولة، فالجماعة مسئولة عن إضاعة هذه الأموال، أى الأمر عام ، أيها الولى على الدولة لا تولِّ وزيرا للمالية يبدد الأموال، أيها الرجل المضارب لا تدفع مالك إلى مبدد مبذر.

فالمجموع موزع على المجموع، والغرض منه الوحدة والتكافل [١٩٧].

٣ - عنى الإسلام بالمحافظة على المال وتثميره، وحث القرآن على العمل واكتساب الرزق، وبين أن المال قوام الحياة، فقال : وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا .

وهى من أعجب الأوامر التى تأتى فى دستور روحى، وفيها أعظم وصية لتثمير المال ومراعاة قيمته لأنه مقوم الحياة.

وليس ذلك بغريب عن روح القرآن، فأطول آية منه جمعت بين الكتابة والشهادة، والصادر والوارد فى قوله سبحانه : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا. (البقرة : ٢٨٢).

٤ - قال القرآن : وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .

أى اجعلوا الأموال مكانا لرزقهم وكسوتهم، وذلك بالاتجار فيها، واستثمارها فتكون نفقتهم من غلتها وربحها، لا من أصل المال، وهذا هو سر التعبير فِيهَا ولم يقل : منها .

روى الترمذى أن رسول الله - ﷺ - قال : « ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه ، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة » [١٩٨].

٥ - القول المعروف يرفع الروح المعنوية للسفيه ، ويخلق عنده الأمل فى أن يسترد ماله وصحته وإنسانيته.

والمعروف كلمة عامة تشمل كل ما عرف حسنه ، وكل ما يناسب حال السفيه ، من كلمة حانية أو عطف ومودة ، أو بشاشة ورحمة، أو زرع الأمل والثقة فى المستقبل ، مثل أن يقول : المال مالك ، وما أنا إلا حارس أحفظه لك من الضياع ، وعند الكبر- أو الرشد أو التدبر للأمر - أرده إليك وتصبح أنت كامل التصرف مطلق الحرية، ونحو ذلك من العبارات التى تزيل اليأس والقنوط، وتغرس الأمل والرجاء.

٦ - تفيد الآية وجوب العناية بالأموال وتثميرها ، وتيسيرها إفادة الناس بها ، يقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : (فليس لأحد أن يقول مالى مالى ، هو مالى وحدى لا ينتفع به سواى ، فالمال مال الجميع ، والمال مال الله ينتفع به الجميع عن الطريق الذى شرعه الله فى سد الحاجات ، ودفع الملمات ، وهو ملك لصاحبه يتصرف فيه، لا كما يشاء ويهوى بل كما رسم الله ، وبيَّن فى كتابه، حتى إذا ما أخل بذلك فأسرف وبذر أو ضن وقتر حجر عليه ، أو أخذ منه - قهرًا عنه - ما يرى الحاكم أخذه من مثله) [١٩٩].

٧ - من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب الحجر على السفهاء ، وجوب إقامة الوصى والولى والكفيل على الأيتام والصغار ومن فى حكمهم ، ممن لا يحسنون التصرف [٢٠٠].

★ ★ ★

﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

وابتلوا : الابتلاء: الاختبار والتجربة.

بلغوا النكاح : أى بلغوا سن النكاح ، أو بلغوا الحلم وهو حد التكليف ، وقدر بخمسة عشر عاما .

آنستم : أبصرتم وتبينتم.

رشدا : حسن تصرف فى الأموال.

إسرافا : الإسراف : مجاوزة الحد المعتاد فى التصرف.

بدارا : البدار : المسارعة فى الشىء.

أى لا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبادرين كبرهم ، أى مسرعين فى تبذيرها قبل أن يكبروا فيتسلموها منكم.

فليستعفف : العفة : ترك ما لا ينبغى من الشهوات ، والمراد فليتنزه عن الأكل من مال اليتيم.

التفسير :

٦ - وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . . . الآية.

أى عليكم - أيها الأولياء والأوصياء - أن تختبروا اليتامى، وذلك بتتبع أحوالهم فى الاهتداء إلى ضبط الأمور وحسن التصرف فى الأموال، وبتمرينهم على ما يليق بأحوالهم، حتى لا يجىء وقت بلوغهم إلا وقد صار فى قدرتهم أن يصرفوا أمورهم تصريفا حسنا، فإن تبينتم منهم رشدا بعد البلوغ، وهداية إلى حسن التصرف وحفظ الأموال، فادفعوا إليهم أموالهم، من غير تأخير عن حد البلوغ.

ولا تأكلوها مسرفين فى الأكل، ومبادرين بالأخذ، خشية أن يكبروا فينتزعوها من أيديكم.

ومن كان من الأوصياء على اليتامى غنيا فليتعفف عن الأكل من أموالهم ، وليبالغ فى إعفاف نفسه، وإبعادها عن أخذ شىء من مال اليتيم ، ومن كان فقيرًا فليأخذ من مال اليتيم بقدر حاجته ، من سد الجوع وستر العورة لا يزيد عن ذلك.

فإذا سلمتموهم أموالهم فليكن ذلك أمام شهود ، إثباتا للحق وحماية لأنفسكم، وتأكيدا لحفظ مال اليتيم.

والله من ورائكم هو المحاسب والمراقب ، وكفى به حسيبا ومراقبًا .

فى رحاب الآية :

١ - **عنى القرآن بتربية اليتيم وكفالته ورعايته وتكوين شخصيته** ؛ لأنه فرد من أفراد الأمة والأمة مجموعة أفراد ، وقد أمر فى الآية السابقة بالقول المعروف معه، والتوجيه السديد، وفى هذه الآية حث على التدريب العملى بالاختبار، كأن تسأله أنا اشتريت هذا الثوب كم يساوى؟ فإذا توسم الوصى فيه الخير أعطاه قليلا من المال ليتصرف فيه حتى إذا بلغ الحلم وآنس فيه الرشد دفع إليه المال، وقد علق دفع المال على شرطين، البلوغ والرشد، فإذا رشد وهو صغير لا يدفع إليه حتى يكبر، والكبر وحده لا يكفى بل لابد من الكبر مع الرشاد، والرشد عند كثير من المفسرين يكون فى المال والدين والخلق.

يقول الأستاذ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق :

وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ . يأمر باختبارهم وتدريبهم على التصرف ، والقيام على بعض الشئون لينظر أيحسنون أم يسيئون ؟ فإذا أحسنوا وسعت لهم دائرة الاختبار ، وإذ أساءوا أرشدوا وعلموا ، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو ، وإذ أساءوا أرشدوا وعلموا، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو ، حتى يصلوا إلى درجة الرشد، وتعرف قدرتهم على ضبط الأموال وحسن التصرف، فتسلم أموالهم إليهم ليباشروا شئونها بأنفسهم، ويدخلوا بها فى معترك الحياة [٢٠١].

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ الفاء فى قوله : فَادْفَعُوا . واقعة فى جواب الشرط : فَإِنْ آنَسْتُم . والشرط وجوابه واقع جواب إذا .

* * *

٢ - **سن البلوغ :**

ظاهر الآية يدل على أن أموال اليتامى لا تدفع إليهم إلا إذا بلغوا راشدين.

والبلوغ إما بالاحتلام للذكور ، وبالحيض للإناث، وإما بالسن وهو عند الشافعى والحنابلة ١٥ سنة ، وعند المالكية ١٧ سنة .

وفرق الحنفية بين الذكور والإناث فجعلوه للذكور ١٨ عامًا، وللإناث ١٧ عامًا ، وكل ذلك بالحساب القمرى.

فإذا بلغ غير رشيد فلا يسلم له ماله عند جمهور الفقهاء.

وقال أبو حنيفة : يسلم له إذا بلغ ٢٥ سنة وإن يثبت رشده، لأنه يصلح أن يكون جدا، وهو يستحى أن يحجَر على مثله.

* * *

٣ - أجرة الوصى :

اختلف العلماء حول قوله سبحانه :

وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

١ - منهم من قال إن هذه الآية مع شدتها منسوخة بقوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً** . (النساء : ١٠).

٢ - ومنهم من يرى أن الآية غير منسوخة ولكنها أرشدت الغنى إلى العفة عن مال اليتيم، وأن يقصد بعمله ورعايته وجه الله.

وأباحت للفقير أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه من مال اليتيم قرضا، ثم إذا أيسر قضاه ، وإن مات ولم يقدر على القضاء بأن كان معسرًا فلا شىء عليه [٢٠٢].

وعن عمر : يأخذ الوصى الفقير ما يسد جوعته ، ويوارى سوأته، ثم إذا استغنى رد ما أخذ .

وعن عمر : ألا إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة ولى اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت.

٤ - الوصى له حالتان :

أن يكون وليا فعليا ، يتصرف فى مال اليتيم ويرعى شئونه، محاسبا أو وكيلا، أو راعيا فبقدر ما يؤجر به نفسه يأخذ من مال اليتيم.

أو أنه ما دام سلم نفسه لليتيم يرعى أمره فليأخذ ما يكفيه وما ينفق به على نفسه.

كالقاضى فى مال الدولة فإنه يأخذ المال والمرتب وإن كان غنيا، ورد هذا القول بأن هناك فرقا بين المقامين.

فالقاضى يأكل من مال الدولة وهو مال عام ، والوصى هنا يأكل من مال خاص.

والرأى الأخير أمثل الآراء ، فالوصى إن شغل بمال اليتيم ورعايته فله الأكل بالمعروف زائدا على أجرته إن كان فقيرا، وله الأجر فقط إن كان غنيا.

يقول الإمام فخر الدين الرازى :

اختلف العلماء فى أن الوصى هل له أن ينتفع بمال اليتيم أم لا ؟.

فمنهم من يرى أن للوصى أن يأخذ من مال اليتيم بقدر أجر عمله ... لأن الوصى لما تكفل بإصلاح مهمات الصبي، وجب أن يتمكن من أن يأكل من ماله بقدر عمله قياسا على الساعى فى أخذ الصدقات وجمعها، فإنه يضرب له فى تلك الصدقات بسهم وكذا هنا ..

٥ - الإشهاد عند تسليم المال لليتيم :

أمر الله بالإشهاد عند تسليم أموال اليتامى إليهم، كما أمر بالإشهاد عند كتابة الدين، فقال : وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ . (البقرة : ٢٨٢) .

والإشهاد يكون فى الأمور الهامة ، وفى الأمور المالية بالذات منعا للخصومات والمنازعات ، وإبراء لذمة الأوصياء، ولكى يكون اليتامى على بينة من أمرهم.

وقد ذهب الشافعية والمالكية والحنابلة إلى أن الإشهاد واجب عند تسليم اليتيم ماله ، لقوله تعالى : فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ . وهو أمر وظاهر الأمر أنه للوجوب ، وليس معنى الوجوب هنا أن الوصى يأثم إذا لم يشهد ، بل معناه أن الإشهاد لابد منه فى براءة ذمته، بأن يدفع لليتيم ماله أمام رجلين أو رجل وامرأتين ، حتى إذا دفع المال ولم يشهد ثم طالبه اليتيم فحينئذ يكون القول ما قاله اليتيم بعد أن يقسم على أن الوصى لم يدفع إليه ماله.

ويرى الإمام أبو حنيفة أن الأمر فى قوله تعالى : فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ . للندب، وأن الوصى إذا ادعى ذلك يصدق ويكتفى فى تصديقه بيمينه، لأنه أمين لم تعرف خيانته ، إذ لو عرفت خيانته لعزل.

٦ - ختام الآية :

قال سبحانه : فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا .

يعنى أنكم قد تبرؤون أمام القضاء، ولكن الله دقيق فى حسابه ورقابته لا تخفى عليه خافية فراقبوا الله قبل رقابة القضاء.



المواريث

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾

سبب النزول :

جاء فى تفسير ابن كثير : قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا ، فأنزل الله : لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ .. . . الآية.

أى الجميع فيه سواء فى حكم الله - تعالى - يستوون فى أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلى به إلى الميت من زوجية أو قرابة.

وروى ابن مردويه عن جابر قال : أتت أم كحة إلى رسول الله - ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن لى ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شىء، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

* * *

٧ - لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا .

والمعنى :

للذكور نصيب مما تركه الوالدان والأقربون ، أى مما تركه آباؤهم وأمهاتهم وأقاربهم ، كالإخوة والأخوات، والأعمام والعمات.

وللإناث نصيب مما تركه آباؤهن وأمهاتهن وأقاربهن.

والمقصود من الآية إثبات حق النساء فى الميراث ، سواء أكانوا صغارا أم كبارا وإثبات حق الذكور فى الميراث كبارًا كانوا أم صغارا .

وبهذا، بطل ما كان عليه أهل الجاهلية من توريث البالغين من الرجال فقط ، حيث جعل للجميع حظا ونصيبا فى الإرث.

وكان يكفى أن يقال : لكل واحد نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، ولكنه - تعالى - شاء أن يفصل فيجعل للرجال نصيبا ، وللنساء نصيبا ، مما تركه الوالدان والأقربون ، إيذانا بأصالة النساء فى استحقاق الميراث، ومنعا من صرف هذا المجمل إلى الرجال وحدهم، على ما كانت عليه عادة الجاهلية ، ومبالغة فى إبطال هذه العادة الظالمة .

مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ . سواء أكانت التركة كثيرة أم قليلة ، عقارًا أو منقولاً ، فلا يحق لبعض الورثة أن يستأثر ببعض الميراث دون الآخرين .

وتقديم القليل على الكثير - فى الآية - للتنبيه على وجوب دخوله فى الميراث بين المستحقين ، لأنه مظنة التهاون فيه .

نَصِيبًا مَفْرُوضًا . نصيبًا مقطوعًا فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين ، فلا سبيل إلى التهاون فيه ، بل لا بد من إعطائه لمن يستحقه كاملاً غير منقوص .



﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾

المفردات :

أولو القربى : أصحاب القرابة غير الوارثين.

فارزقوهم منه : فأعطوهم من المال الموروث.

التفسير :

٨ - وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ . ممن لا نصيب لهم فى الميراث ، واليتامى الذين فقدوا العائل والنصير، والمساكين الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم وصاروا فى حاجة إلى العون والمساعدة.

فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ . أى فأعطوهم من الميراث الذى تقتسمونه، شيئًا يعينهم على سد حاجتهم ، وتفريج ضائقتهم.

وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا . أى قولاً لينا جميلا، مثل : وددنا لو أعطيناكم أكثر من هذا ، ومن القول المعروف دعاؤكم لهم بالبركة، وعدم منّكم عليهم.

وليس المراد من حضور ذوى القربى واليتامى والمساكين ، أن يكونوا مشاهدين للقسمة ، جالسين مع الورثة، لأن قسمة الأموال لا تكون عادة عند حضور هؤلاء الضعفاء ، وإنما المراد من حضورهم العلم بهم من جانب الذين يقتسمون التركة ، والدراية بأحوالهم ، وأنهم فى حاجة إلى العون والمساعدة.

ويتعلق بهذه الآية ما يأتى :

١ - يرى بعض العلماء أنه للوجوب ، لأنه هو المستفاد من ظاهر الأمر ، ويرى كثير من العلماء أن هذا الأمر بالإعطاء للندب لا للوجوب ، وأن هذا الندب إنما يحصل إذا كان الورثة كبارا، وأما إذا كانوا صغارا فليس على أوليائهم إلا القول المعروف.

وقد رجح القرطبى كون الأمر للندب لا للوجوب ، (وجمهور فقهاء الأمصار على أن هذا الإعطاء على سبيل الاستحباب) (٢٠٣).

٢ - هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ؟

من العلماء من قال : إن هذه الآية قد نسخت بآية الموارث التى بعدها ، وهى قوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ... .

فجعل الله لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة [٢٠٤].

ومن العلماء من ذهب إلى أن هذه الآية محكمة وليست بمنسوخة، وفى البخارى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : هى محكمة وليست بمنسوخة[٢٠٥].

وفى تفسير القرطبى عن ابن عباس قال : إن ناسا يزعمون أن هذه الآية قد نسخت ، لا ، والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس [٢٠٦].

وعن الحسن كانوا يعطون التابوت والأوانى ، ورث الثياب ، والمتاع الذى يستحى من قسمته .

وعن يحيى بن يعمر [٢٠٧] ثلاث آيات محكمات تركهن الناس [٢٠٨]، هذه الآية ، وآية الاستئذان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ... ﴾ . (النور : ٥٨) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ﴾ . (الحجرات : ١٣) .

ومن المفسرين من رجح أن هذه الآية لا تعارض بينها وبين آية المواريث ، لأن هذه الآية إنما تأمر بما يؤدى إلى التعاطف والتراحم بين الناس ، وهذا أمر لا ينسخ ، بل هو ثابت فى كل زمان ومكان.

ثم إنّ هذه الآية الأمر فيها على سبيل الندب والاستحباب، لا على سبيل الفرض والإيجاب [٢٠٩].



﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

وليخش : الخشية : الخوف والحذر.

قولاً سديدا : عدلا وصوابا.

خلاصة معنى هذه الآية : عاملوا اليتامى بمثل ما تحبون أن يُعامل به أولادكم من بعدكم.

والآية وصية إلى الأولياء برعاية اليتامى رعاية أبوية مخلصة ، فيها الحنان ، والعطف والمحافظة على مال اليتيم ، وقد لمس القرآن شغاف القلوب، قلوب الآباء المرهفة الحساسية ، بتصور ذريتهم الضعاف مكسورى الجناح، لا راحم ولا عاصم كى يعطفهم هذا على اليتامى، الذين وكلت إليهم أقدارهم ، بعد أن فقدوا الآباء ، فربما تعرض أبناؤهم غدا لمثل هذا الموقف ، فليعاملوا اليتامى بمثل ما يرغبون أن تعامل به أبناؤهم من بعدهم.

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . فليتقوا الله فى كل شأن من شئونهم ، وفى أموال اليتامى فلا يعتدوا عليها، وليقولوا لليتيم ما يقوله الوالد لولده ، من القول الجميل ، والهادى له إلى حسن الآداب، ومحاسن الأفعال.

والسديد : المصيب العدل الموافق للشرع.

يقول الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وفى الآية الكريمة ما يبعث الناس كلهم على أن يغضبوا للحق، وأن يأخذوا على أيدى أولياء السوء، وأن يحرسوا أموال اليتامى ، ويبلغوا حقوق الضعفاء إليهم ، لأنهم إن أضاعوا ذلك يوشك أن يلحق أبناءهم وأموالهم مثل ذلك وأن يأكل قويهم ضعيفهم ، فإن اعتياد السوء ينسى الناس شناعته ، ويكسب النفوس ضراوة على عمله [٢١٠].

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

يأكلون فى بطونهم نارا : أى يأكلون ما يؤدى بهم إلى النار ، ليعاقبوا فيها على ما أكلوه.

وسيصلون سعيرا : أى وسيدخلون نارا هائلة ، من صلى النار- بكسر اللام - أى قاسى حرها، والسعير: النار الموقدة ، من سعرت النار أوقدتها.

التفسير :

تحدثت السورة عن اليتيم ، وحذرت من أكل ماله بالباطل ، وكشفت الحيل والألاعيب التى يلجأ إليها الأوصياء: نجد ذلك فى الآية الثانية والثالثة ، والسادسة ، والثامنة والتاسعة من سورة النساء .

وفى هذه الآية العاشرة تأكيد لما سبق ، وتحذير من أكل مال اليتيم ظلما وعدوانا ، وساقت ذلك فى صورة حسية مفزعة ، صورة النار فى البطون ، وصورة السعير فى النهاية ..

« إن هذا المال - مال اليتيم - لهو نار ، وإنهم ليأكلون هذه النار . وإن مصيرهم لإلى السعير ، فهى النار إذن تشوى البطون والجلود ، هى النار إذن من باطن وظاهر .. هى النار مجسمة فى هذا المشهد تكاد تحسها البطون وتكاد تراها الأبصار » [٢١١].

« وقد أكد الله الوعيد فى أكل مال اليتيم ، رحمة من الله - تعالى - باليتامى لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة ، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته ، وكثرة عفوه وفضله ، لأن اليتامى لما بلغوا فى الضعف إلى الغاية القصوى، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى » [٢١٢].

وفى أسباب النزول للواحدى ، وتفسير القرطبى والكواشى ، أن هذه الآية نزلت فى رجل من غطفان يقال له : مرثد بن زيد ، ولى مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله ، فأنزل الله - تعالى - فيه : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا . أى بغير حق إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا . أى المال الحرام الذى يفضى بهم إلى النار :

وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً . أى سيدخلون النار المستعرة ، يقاسون حرها ويشتوون بحريقها.

قال تعالى فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى. (الليل : ١٤ ، ١٥) . تقول : صليت اللحم إذا شويته ، فإن أردت انك أحرقته قلت أصليته (٢١٣).

وللمفسرين فى تفسير قوله تعالى : إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نارا . اتجاهان :

أولهما : أن الآية على ظاهرها ، وأن الآكلين لمال اليتامى ظلما سيأكلون النار يوم القيامة .

واستدلوا بقوله - ﷺ - : « يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا . قيل ، يا رسول الله ، من هم ؟ قال : ألم تر أن الله قال : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا .. (٢١٤).

وثانيهما : أن الكلام على المجاز لا على الحقيقة ، وأن المراد إنما يأكلون فى بطونهم المال الحرام الذى يفضى بهم إلى النار.

وقد أخرج أبو داود والنسائى والحاكم وغيرهم أنه لما نزلت هذه الآية انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه وشرابه ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فأنزل الله تعالى وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ .. . الآية . (البقرة : ٢٢٠) . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم (٢١٥).

قال الفخر الرازى : ومن الجهال من قال : صارت هذه الآية منسوخة بتلك وهو بعيد ، لأن هذه الآية فى المنع من الظلم ، وهذا لا يصير منسوخًا ، بل المقصود أن مخالطة أموال اليتامى إن كانت على سبيل الظلم فهى من أعظم أبواب الإثم كما فى هذه الآية ، وإن كانت على سبيل التربية والإحسان فهى من أعظم أبواب البر، كما فى قوله تعالى : وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ .. (٢١٦). (البقرة : ٢٢٠) .

دعوى باطلة :

يدعى بعض المغرضين أن القرآن لم يهتم بالصغار .. وهذه دعوى باطلة ، فقد عنى القرآن باليتيم وحث على إكرامه ورعايته ليكون عضوا صالحا فى المجتمع . وكانت التربية تتم بالقدوة والأسوة ، وفى سورة لقمان وصايا حكيم لابنه ، وفى آيات كثيرة نجد وصية للآباء برعاية أبنائهم وحسن توجيههم ، ووقايتهم من النار ، وأمرهم بالصلاة ، وكذلك فى السنة المطهرة .

وقد ادعى بعض المغرضين أن التشريع الإسلامى مأخوذ عن التشريع الرومانى ، وهذه دعوى باطلة لما يأتى :

١ - التشريع الرومانى مأخوذ عن الألواح الاثنى عشر ، والتشريع الرومانى فى سوريا وما جاورها نظر إلى العرف السائد فدونه، وكان يرجع إليه كقانون ، وأحيانًا يقضى القضاء بمقتضى العرف بدون قانون . فكيف يؤخذ من تدوين عرف لشريعة نزلت كاملة شاملة.

٢ - علماء الغرب أنفسهم يعترفون بانفراد القرآن الكريم بالحديث عن اليتيم ، وإفاضة القول فى الوصية به ، فالقانون الرومانى يهدف إلى أن يأخذ الوصى نصيب الأسد. بينما القانون الإسلامى على النقيض من ذلك كله ، توصية باليتيم ، وتحذير من أكل ماله بشتى الطرق، ولم يجعل للوصى الحق فى أخذ شىء من المال إلا إ كان فقيرًا فليأكل بالمعروف.

من هدى السنة :

١ - فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (٢١٧).

٢ - روى البخارى وغيره عن سهل بن سعد عن النبى - ﷺ - أنه قال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذا». وقال بأصبعيه السبابة والوسطى ، وأشار وفرج بين أصبعيه السبابة والوسطى(٢١٨).

وكان سلوك النبى الكريم قدوة حسنة فى رعاية اليتامى وكفالتهم، ليكونوا لبنة صالحة لا يحقدون على المجتمع ، ولا يضمرون الشر لمن ظلم، ونجد الوصية باليتيم فى القرآن المكىّ والمدنىّ.

فمن القرآن المكى قوله تعالى : وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً . (الإسراء : ٣٤) .

وقال تعالى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ . (الضحى : ٦-١١) .

ومن القرآن المدنى ، ما ورد فى الآيات العشر الأولى من سورة النساء وفيها وصايا متكررة باليتيم.

ومن القرآن المدنى قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (البقرة : ٢٢٠).

★ ★ ★

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾

المعنى العام للآية ١١ :

يأمركم الله فى شأن توريث أولادكم وأبويكم – إذا متم – بما يحقق العدل والإصلاح ، وذلك بأن يكون للذكر مثل نصيب الأنثيين إذا كان الأولاد ذكورا وإناثا، فإن كان جميع الأولاد إناثا يزيد عددهن على اثنين فلهن الثلثان من التركة، ويفهم من مضمون الآية أن الثنتين نصيبهما كنصيب الأكثر من ثنتين ، وإن ترك بنتا واحدة فلها نصف ما ترك ، وإن ترك أبا وأما فلكل واحد منهما السدس ، وإن كان له ولد معهما ، ولد ذكر أو أنثى فإن لَم يكُن لَهُ وَلَدٌ وورِثَهُ أبَوَاهُ . فقط فلأمه الثلث والباقى للأب ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس والباقى للأب، ولا شىء للإخوة ، تعطى هذه الأنصبة لمستحقيها ، بعد أداء ما يكون عليه من دين وتنفيذ ما وصى به ، هذا حكم الله فإنَّه عدل ورحمة ، وأنتم لا تدرون الأقرب لكم نفعا من الآباء والأبناء، والخير فيما أمر الله ، فهو العليم بمصالحكم الحكيم فيما فرض لكم.

المعنى العام للآية ١٢

للزوج نصف ما تركت الزوجة إن لم يكن لها ولد منه أو من غيره ، فإن كان لها ولد فلزوجها الربع ، من بعد وصية توصى بها أو دين ، وللزوجة - واحدة أو متعددة - الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له منها أو من غيرها ولد ، فإن كان له ولد فللزوجة الثمن ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، وولد الابن كالولد فيما تقدم .

وإن كان الميت رجلاً أو امرأة ولا ولد له ولا والد ، وترك أخا لأم أو أختا لأم ، فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث يستوى فى ذلك ذكرهم وأنثاهم بمقتضى الشركة ، من بعد أداء الديون التى عليه ، وتنفيذ الوصيَّة التى لا تضرّ الورثة ، وهى التى لا تتجاوز ثلث الباقى بعد الدين ، فالزموا - أيها المؤمنون - ما وصاكم به الله ، فإنه عليم بمن جار أو عدل منكم ، حليم لا يعاجل الجائر بالعقوبة [٢١٩].

المواريث فى الإسلام :

نظام المواريث الذى بيَّنه القرآن الكريم أعدل نظام للتوريث عرف فى كل القوانين ، وقد اعترف بذلك علماء القانون فى أوروبا ، وهو دليل على أن القرآن من عند الله ، إذ إنه لم يكن مثله ولا قريب منه معروف عند الفرس ولا عند الرومان ، ولا فى أىّ شريعة أخرى قبله .

وقد اتبع النظم العادلة الآتية :

١ - أنه جعل التوريث بتنظيم الشارع لا بإرادة المالك ، من غير أن يهمل هذه الإرادة ، فقد جعل له الوصية بالمعروف فى الثلث، ليتدارك الإنسان تقصيرا دينيا فاته ، مثل أداء الزكاة ، وإعانة الفقراء والمحتاجين من الأقارب الذين لا يستحقون ميراثا .

٢ - فى توزيع الميراث يعطى الأقرب فالأقرب من غير تفرقة بين صغير وكبير ، ولذلك كان الأولاد أكثر حظا من غيرهم فى الميراث، لأنهم امتداد لشخص المالك ، ولأنهم فى الغالب ضعاف، ومع ذلك لم يستأثروا بالميراث، بل تشاركهم الأم والجدة ، والأب والجدّ وإن كانوا يأخذون نصيبا أقل من الأولاد .

٣ - أنه يلاحظ فى التوريث مقدار الحاجة ، فالأولاد مقبلون على الحياة ؛فلذلك كان نصيبهم أكبر ، والآباء مدبرون عنها ولذلك نصيبهم أقل.

٤ - اتجه الشارع فى الميراث إلى توزيع التركة دون تجميعها ، فلم يجعلها للولد البكر ، ولم يجعلها للأولاد دون البنات ، ولا للأولاد دون الآباء ، ولم يحرم من ليسوا من عود النسب كالإخوة والأعمام وأبناء الأعمام وإن بعدوا ، فالميراث يمتد إلى ما يقارب القبيلة ولكن يأخذ الأقرب فالأقرب.

٥ - لم يحرم المرأة من الميراث كما كان يجرى عند العرب ، بل جعل لها حقا معلوما يتناسب مع واجباتها، فالمرأة إذا كانت بنتا فهى فى كفالة أبيها ، وإذا كانت زوجة فهى فى كفالة زوجها ، وعلى زوجها النفقة عليها وعلى أولاده منها ، فكان من العدالة أن يكون الغنم بالغرم ، وأن يكون ميراث البنت على مقدار النصف تقريباً من نصيب الابن. وهذا من عدالة الإسلام فهو لم يحرم المرأة ، ولم يسوّ بينها وبين الرجل ، بل أعطاها النصف،

وجعل لأخيها ضعف نصيبها ، لأن أخاها سيتزوج ويفتح بيتا وينفق على زوجته وأولاده، أما هى فدورها ونصيبها فى أنها يجب لها المهر والنفقة والكسوة والسكنى ، وكلّ تكاليف الحياة لها ولأولادها فريضة على زوجها . قال تعالى : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ .. . (الطلاق : ٧).

المستحقون للتركة :

تحدثت هاتان الآيتان ١١، ١٢ من سورة النساء عن الميراث ونصيب كل وارث ، كما تحدثت الآية الأخيرة من سورة النساء عن ميراث الكلالة [٢٢٠] ، فإذا انضم إلى هذه الآيات الثلاث، الأحاديث الواردة فى الميراث أدركنا نصيب المستحقين للتركة، وأصحاب الفروض وهم : الزوج، والزوجة والبنات ، وبنات الابن ، والأب والجد الصحيح، والأمّ ، والجدة الصحيحة ، والأخوات الشقيقات والأخوات لأب، والجد مع الإخوة ، وأولاد الأم.

ومن المستحقين للتركة ، العصبة النسبية ، وهم كل من يأخذ ما بقى من التركة بعد إلحاق الفرائض بأهلها، ويجوز جميع التركة عند الانفراد.

ومنهم العاصب بنفسه ، وهو كل ذكر لم يدخل فى نسبته إلى الميت أنثى، ولا يحتاج فى عصوبته إلى غيره، وهو منحصر فى جهات أربع :

١ - جهة البنوة ، كالابن ، وابن الابن وإن نزل.

٢ - جهة الأبوة كالأب والجد وإن علا.

٣ - جهة الأخوّة كالأخ الشقيق وابنه ، والأخ لأب وابنه .

٤ - جهة العمومة كعم الميت الشقيق ، وابنه ، وعمّه لأب وابنه .

* * *

أصحاب الفروض :

أصحاب الفروض كل من له سهم مقدر فى كتاب الله أو سنة رسوله - ﷺ - أو بالإجماع ، وهم اثنا عشر:

الزوجان ، واثنان من الفروع : البنت وبنت الابن.

وأربعة من الأصول : الأب والجدّ، والأم والجدة .

وأربعة من الحواشى وهم : الأخت الشقيقة أو لأب ، أو لأم ، والأخ لأم.

وهذا بيان لنصيب كل وارث من هؤلاء.

١ - الزوج :

للزوج حالان :

١ - أن يأخذ النصف وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوجة مذكرًا أو مؤنثا من هذا الزوج أو من غيره . كالابن وابن الابن والبنت وبنت الابن.

٢ - أن يأخذ الربع عند وجود الفرع الوارث مذكرا أو مؤنثا [٢٢١].

٢ - الزوجـــة :

للزوجة حالان :

١ - أن تأخذ الربع ، وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوج مذكرا أم مؤنثا، من هذه الزوجة أم من غيرها .

٢ - أن تأخذ الثمن عند وجود الفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا [٢٢٢].

٣ - البنـــات :

للبنات ثلاث حالات :

١ - أن يرثن بالتعصيب إذا كان معهن أخ مذكر واحد أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو ما تبقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين.

٢ - أن تأخذ الواحدة النصف إذا لم يكن معها أخ ولا أخت .

٣ - أن تأخذ الثنتان فأكثر الثلثين إذا لم يكن معهن أخ لهن [٢٢٣].

٤ - بنات الابن :

لبنات الابن ست حالات ، الثلاث التى للبنات عند عدم البنات والأبناء ويزاد عليها ما يأتى :

١ - أن تحجب بالبنتين إلا إذا كان بحذائها أو أنزل منها غلام فإنه يعصبها وتأخذ معه ما بقى .

٢ - أن تحجب بكل غلام أعلى منها درجة، فبنت الابن تحجب بالابن... وبنت ابن الابن تحجب بابن الابن وهكذا.

٥ - الأب [٢٢٤] :

للأب ثلاث حالات :

١ - أن يأخذ السدس بالفرض فقط ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المذكر وإن نزل وحده أم مع غيره.

٢ - أن يأخذ السدس بالفرض ، ثم يأخذ بالتعصيب ما يبقى من أصحاب الفروض، وذلك عند وجود الفرع الوارث المؤنث دون المذكر .

٣ - أن يرث بالتعصيب فقط ، وذلك إذا انعدم الفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا ، والأب لا يحجب من الميراث بحال.

٦ - الجدُّ الصحيح :

هو كل أصل مذكر لا تدخل فى نسبته إلى الميت أنثى كأبى الأب، وأبى أب الأب، فإن دخل فى نسبته إلى الميت أنثى كأبى الأم وأبى أم الأب، فهو الجد الفاسد، وهو من ذوى الأرحام .

و الجد الصحيح كالأب عند عدم الأب.

٧ - الأم [٢٢٥] :

للأم ثلاث حالات :

١ - أن تأخذ سدس التركة إذا كان للميت فرع وارث مذكر أو مؤنث ، أو كان له أكثر من واحد من الإخوة أو الأخوات من أى نوع .

٢ - أن تأخذ ثلث التركة إذ لم يكن للميت فرع وارث ، ولا أكثر من واحد من نفس الأخوة أو الأخوات ، لا من فروعهم .

٣ - أن تأخذ ثلث الباقى بعد نصيب أحد الزوجين ، إذا كان معها الأب وأحد الزوجين، وليس معها فرع وارث ، ولا جمع من الإخوة والأخوات .

٨ - الجدة الصحيحة :

هى كل أصل مؤنث لا يدخل فى نسبته إلى الميت جد فاسد ، فإن دخل فى نسبته إلى الميت جد فاسد، كأم أبى الأم ، فهى الجدة الفاسدة ، وهى من ذوى الأرحام .

وتأخذ الجدة السدس، وتحجب بالأمّ، سواء أكانت الجدة أبوية أم أمية وتحجب الأبوية بالأب.

٩ - الأخوات الشقيقات :

للأخوات الشقيقات خمس حالات :

١ - أن تأخذ الواحدة النصف إذا انفردت.

٢ - أن تأخذ الثنتان فأكثر الثلثين عند عدم الأخ الشقيق .

٣ - أن يرثن بالتعصيب بالغير ، إذا كان مع الواحدة أو الأكثر أخ شقيق أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو ما بقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين.

٤ - أن يرثن بالتعصيب مع الغير ، وذلك إذا كان مع الواحدة أو الأكثر بنت أو بنت ابن أو أكثر، فلهن ما يبقى بعد أصحاب الفروض.

٥ - أن يحجبن بالفرع الوارث المذكر، وهو الابن وإن نزل.

١٠ - الأخوات لأب :

هن كالأخوات الشقيقات عند فقدهن بإجماع العلماء ، قياسا على بنات الأبناء مع بنات الصلب.

فللأخوات لأب الأحوال الخمسة التى للشقيقات والأخ لأب معهن كالأخ الشقيق مع الشقيقات .

١١ - أولاد الأم [٢٢٦] :

لأولاد الأم ثلاث حالات :

١ - أن يأخذ الواحد السدس إذا انفرد مذكرا كان أم مونثا.

٢ - أن يأخذ الاثنان فأكثر الثلث : يقسم بينهم بالتساوى ، سواء أكانوا ذكورًا فقط أم إناثا أم ذكورا وإناثا .

٣ - الحجب بالفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا، وبالأصل الوارث المذكر أبا أو جدا، ولا يحجبون بالأم وإن كانوا يدلون بها .

* * *

مبادئ فى التوريث :

نستطيع أن نستخلص من آيات المواريث المبادئ الآتية :

١ - مبنى التوريث فى الإسلام أمران : نسبى وهو القرابة ، وسببى وهو الزوجية.

٢ - متى اجتمع فى المستحقين ذكور وإناث، أخذ الذكر ضعف الأنثى، إلا فى الإخوة الأم ، فإنهم يستوون فى النصيب ، لأنهم يدلون إلى الميت بالأم . وهم سواء فى الانتساب إليها .

٣ - الأبناء و الزوجان والأبوان لا يسقطون فى أصل الاستحقاق ، وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم فى كمية المستحق.

٤ - لا إرث للإخوة والأخوات مع وجود الأبوين ، وإن كانوا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس ، لأن وجود عدد من الإخوة يثقل كاهل الأب. فاستحق زيادة فى الميراث لرعايتهم وكفالتهم.

٥ - يجب تقديم حقوق الميت على تقسيم التركة ، قال تعالى : مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ . وقد تكررت فى الآيتين ١١و ١٢ من سورة النساء أربع مرات لتنبيه الأذهان إلى وجوب العناية بأمرين قبل تقسيم التركة.

الأول : أداء الديون التى على الميت .

الثانى : تنفيذ وصيته فى حدود ثلث ماله .

٦ - لا ينبغى للإنسان أن يسىء إلى ورثته حين مشارفته الموت ، بالوصية لمن ليس محتاجًا إليها، أو الإقرار بما ليس ثابتا عليه ، وورثته فى حاجة إليه ، يرشد إلى هذا قوله تعالى : غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ. وقوله: وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ . أى يوصيكم الله أن تنفذوا أحكامه وأن تبعدوا عن الإضرار بالورثة ، أو حرمان البنات ، أو تفضيل بعض الأولاد على بعض ، أو منع بعض العصبة من أخذ حقوقهم ، تحت ستار البيع والشراء، أو تحت ستار الوصية أو الاعتراف بالديون .

وجدير بالمؤمن ألا يختم حياته بوزر عظيم، يفرط بسببه فى تنفيذه الأحكام التى فرضها الله ، فالله عليم حكيم فيما شرع ، وعلينا أن ننفذ أحكامه وأن نخضع لأوامره، ففى ذلك عز الدنيا وشرف الآخرة .

★ ★ ★

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

المفردات :

حدود الله : شرائعة وأحكامه ، وقد أطلق عليها الحدود لشبهها بالحدود والحواجز، حيث إن المكلف لا يجوز أن يتعداها إلى غيرها.

التفسير :

١٣ - تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ... الآية

المعنى العام :

هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة ، بحسب قربهم من الميت ، واحتياجهم إليه ، هى حدود له فلا تعتدوها .

وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضهم بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته .

يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ . لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، قال تعالى : لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ . (الحجر : ٤٨).

وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وهذا الجزاء هو الفوز الحقيقى البالغ العظمة، فقد حصل صاحبه على أسمى المطالب ، ونجا من كل المكاره ، ولا فوز يدنو من ذلك الفوز.

١٤ - وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

ومن خالف أمر الله ، وبدل فى حدود المواريث وغير ، فقد استهان بما فرض الله ، وجعل نفسه مشرعا ومقننا ، ولم يرتض بحكم الله .

قال ابن كثير :

أى لكونه غيَّر ما حكم الله به ، وضاد الله فى حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ؛ ولهذا يجازيه بالإهانة فى العذاب الأليم المقيم .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة» [٢٢٧] قال ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم .

تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم .

ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين .

★ ★ ★

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

الفاحشة : معناها لغة ، الفعلة الشديدة القبح، والمراد منها هنا الزنى ، لأنه أقبح الفواحش .

فأمسكوهن : احبسوهن.

سبيلا : السبيل : الطريق الموصل ، سواء أكان سهلا أم صعبا.

التفسير :

١٥ - واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا

المعنى العام :

واللاتى يأتين الزنا من النساء إن شهد عليهن أربعة من الرجال العاقلين ، يمسكن فى البيوت محافظة عليهن ، ودفعا للفساد والشر حتى يأتيهن الموت، أو يفتح الله لهن طريقا للحياة المستقيمة بالزواج والتوبة.

التدرج فى التشريع :

بدأ القرآن الكريم بدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فلما استقر الإيمان فى القلوب تحدّث القرآن المكى عن الزنا وضرره، ومدح عباد الرحمن ببعدهم عنه ، وفى سورة الفرقان المكية يقول سبحانه :

والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما. (الفرقان : ٦٨) .

وفى سورة الإسراء ، وهى من أواخر ما نزل بمكة، إذ نزلت قبل الهجرة بسنة وشهرين ، يقول : ولا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . (الإسراء : ٣٢).

والآية تنهى المؤمنين عن الاقتراب من الزنا، وتأمرهم بالبعد عن مقدماته ، كالقبلة واللمسة والخلوة بالأجنبية، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وتبين أن الزنا فاحشة وذنب كبير ، يترتب عليه فساد الأنساب ، وهتك الأعراض واختلاط الذرية، وانتشار الأمراض المؤذية الفتاكة، وَسَاءَ سَبِيلاً . أى ساء مآل الزنا وعاقبته فى الدنيا والآخرة .

وفى العهد المدنى حرم الله الزنا بتدرج مناسب ، ففى العام الثانى من الهجرة نزلت الآيتان ١٥، ١٦ من سورة النساء ، وفيهما نجد الزنا جريمة اجتماعية ، ويترك عقاب الزناة للأسرة التى تتكفل بحبس الزانيات ، وإيذاء ومعاقبة الرجال الزناة ، وفى العام السادس من الهجرة أنزل الله سورة النور ، وجعل فيها الزنا جريمة جنائية ، تتولى تنفيذ عقوبتها شرطة الدولة وحكومتها . حيث قال سبحانه : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ . (النور : ٢) .

من مختصر ابن كثير :

كان الحكم فى ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة ، حبست فى بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال . وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ . يعنى الزنا . مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً . فالسبيل الذى جعله الله هو الناسخ لذلك .

قال ابن عباس - رضى الله عنه - كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم، وهو أمر متفق عليه .

روى مسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت عن النبى - ﷺ - قال : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، وقد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » [٢٢٨].

وقد ذهب الجمهور إلى أن الثيب الزانى إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا لأن النبى - ﷺ - رجم ماعزا والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك فدل على أن الجلد ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم والله أعلم [٢٢٩]. وعند أبى حنيفة التغريب فى حق البكر منسوخ [٢٣٠] وأكثر أهل العلم على ثبوته [٢٣١].

١٦ - وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا .

المعنى العام :

والرجل والمرأة اللذان يزنيان وهما غير متزوجين ، فلهما عقوبة محددة ، إذا ثبت الزنا بشهادة شهود أربعة عدول.

قال ابن عباس : عقوبتها الشتم والتعيير والضرب بالنعال أو باليد، أى مطلق الإيذاء المناسب لهما.

فإن تابا بعد العقوبة فلا تذكروهما بما ارتكبا، ولا تعيروهما به ، إن الله يقبل برحمته توبة التائبين.

التعليق على الآية:

اختلف العلماء فى المراد بقوله : وَاللَّذَانِ .

- فمنهم من قال : المراد بهما الرجل والمرأة البكران اللذان لم يحصنا.
- ومنهم من قال : المراد بهما الرجل والمرأة لا فرق بين بكر وثيب ، و المختار عند كثير من العلماء الرأى الأول .

قالوا : وقد نسخ حكم هذه الآية بآية النور ، حيث جعل حكم الزانيين اللذين لم يحصنا جلد مائة.

ومن العلماء من قال : إن هذه الآية غير منسوخة بآية النور ، فإن العقوبة ذكرت هنا مجملة غير واضحة المقدار لأنها مجرد الإيذاء، وذكرت مفصلة بينة المقدار فى سورة النور ، أى أن ما ذكر هنا من قبيل المجمل، وما ذكر فى سورة النور من قبيل المفصل ، وأنه لا نسخ بين الآيتين.

رأى أبى مسلم الأصفهانى :

لأبى مسلم الأصفهانى رأى آخر فى تفسير هاتين الآيتين ، فهو يرى أن المراد بالآية ١٥ من سورة النساء . وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ ... . إلى آخر الآية النساء السحاقات اللاتى يستمتع بعضهن ببعض، وحدهن الحبس.

والمراد بالآية ١٦ : وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ... . اللائطون من الرجال، وحدهم الإيذاء، وأما حكم الزناة فسيأتى فى سورة النور.

وقد ردَّ عليه الآلوسى ، وزيف قوله لأنه لم يقل به أحد [٢٣٢].

* * *

ومن العلماء من رجح أن هذا الحكم المذكور فى الآيتين منسوخ بعضه بالكتاب فى سورة النور ، وبعضه بالسنة فى حديث عبادة بن الصامت فى صحيح مسلم [٢٣٣].

ورجح أبو الأعلى المودودى فى تفسير سورة النور أنه لا نسخ فى هذه الآيات وأنها تمثل مرحلة معينة من باب التدرج فى التشريع.

فالزنا فى مكة لم يكن عليه عقوبة ، بل بين الله أنه فاحشة ونهى عن الاقتراب منه ، ولم يشرع أى عقوبة عليه.

وفى العام الثانى من الهجرة ، بين أن الزنا مخالفة اجتماعية، والأسرة هى المسئولة عن علاج هذه الحالة بالحبس أو الإيذاء. كما نجده فى الآية ١٥، ١٦ من سورة النساء.

فلما استقر الإسلام واشتدت دولته وحكومته ، جعل الله عقوبة الزانى الجلد وجعل الزنا جريمة جنائية تتولى عقوبتها شرطة الدولة وحكومتها . وكان ذلك فى العام السادس من الهجرة . والله أعلم.



﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

السوء : القبح، والمراد المعاصى مطلقًا.

بجهالة : الجهالة : الجهل والسَّفه وارتكاب ما لا يليق بالعقلاء، وليس المراد عدم العلم فإن من لا يعلم ، لا يحتاج إلى التوبة ، وقال الزجاج : الجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية.

التفسير :

١٧ - **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّه للَّذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ من قَرِيبٍ فَأُوْلَئكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَليمًا حَكيمًا** .

المعنى العام :

إنما قبول التوبة كائن أو مستقر على الله - تعالى - لعباده الذين يعملون السيئات فى حال الحماقة والطيش وعدم التبصر، ثم يبادرون بالتوبة قبل حضور الموت ، فهؤلاء يقبل الله توبتهم ، وهو عليم لا يخفى عليه صدق التوبة ، حكيم لا يخطئ فى تقدير.

لتوبة فى القرآن والسنة :

فتح الله باب التوبة على مصراعيه، ودعا عباده إلى التوبة وتعهد بقبولها من التائبين ، وذلك أن كل بنى ءادم خطاء، وخير الخطائين التوابون .

ولم يجعل الله وسطاء بينه وبين عباده، فقد خلقهم ورزقهم وهو أعلم بهم ، وفى القرآن الكريم آيات عديدة تحث على التوبة وتدعو إليها ، وتبين فضل الله العظيم فى قبولها.

قال تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٣).

وقال سبحانه : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . (آل عمران : ١٣٥).

وقال عز شأنه : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ . (النجم : ٣٢).

وفى الحديث الصحيح : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فينادى : يا عبادى ، هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ حتى يطلع الفجر..».

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله - ﷺ - قال : يقول الله عز وجل : « يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، يا عبادى إنكم تضلون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ... » [٢٣٤].

* * *

التوبة من قريب :

قال تعالى :

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ [٢٣٥].

ومعنى ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ . أى ثم يتوبون فى زمن قريب من وقت عمل السوء، ولا يسترسلون فى الشر استرسالا ويستمرئونه، ويتعودون عليه دون مبالاة.

ولا شك أنه متى جدد الإنسان توبته الصادقة فى أعقاب ارتكابه للمعصية، كان ذلك أرجى لقبولها عند الله- تعالى - وهذا ما يفيده ظاهر الآية .

ومنهم من فسر قوله : مِن قَرِيبٍ . بما قبل حضور الموت ، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشاف، فقال: « من قريب » أى من زمان قريب ، والزمان القريب : ما قبل حضرة الموت ، ألا ترى إلى قوله : « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن .. » فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة ، فبقى ما وراء ذلك فى حكم القريب .

وجاء فى تفسير ابن كثير ما يفيد أن التوبة من قريب أى قبل الموت ، ونقل من الآثار والأحاديث النبوية الشريفة ما يؤيد ذلك . فقال عن ابن عباس : ثُم يتوبون من قريب قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت.

وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب.

وقال قتادة والسدى : ما دام فى صحته.

وقال الحسن البصرى : ثم يتوبون من قريب ما لم يغرغر[1].

روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبى - ﷺ - قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ».

* * *

١٨ - وليست التوبةُ للَّذين يعملُون السيئات حتَّىٰ إذا حضر أحدهُمُ الموتُ قال إنِّي تُبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أُولئك أعتدنا لهم عذابًا أليمًا

المعنى العام :

وليست التوبة مقبولة عند الله بالنسبة للذين يعملون السيئات، ويقترفون المعاصى، ويستمرون على ذلك، بدون أن يستيقظ ضميرهم أو يشعرون بالندم، إلى أن ينزل بهم الموت فيقول أحدهم : إنى أعلن التوبة الآن.

كما لا تقبل التوبة من الذين يموتون على الكفر، وقد أعد الله للفريقين عذابا أليما.

* * *

فى رحاب الآية :

نفت الآية قبول التوبة من فريقين :

١ - الذين يرتكبون السيئات صغيرها وكبيرها ، ويستمرون على ذلك بدون توب أو ندم ، حتى إذا حضرهم الموت ورأوا هوله قال قائلهم : إنى تبت الآن .

٢ - الذين يموتون وهم على غير دين الإسلام .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم لدعوة الناس إلى التوبة فى الحياة الدنيا ، وإلى العمل الصالح ، والإنسان يملك الوقت والصحة والحياة والقدرة على العمل.

قال تعالى : وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكُمُ الموتُ فيقُول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يُؤخِّرَ اللَّهُ نفسًا إذا جاء أجلُها واللَّهُ خبيرٌ بما تعملُون (المنافقون : ١٠ ، ١١).

وحين أدرك الغرق فرعون أعلن توبته مضطرًا عندما رأى شبح الموت ، وهى توبة غير حقيقية لأن الإنسان لا يملك بديلاً لها.

قال تعالى : وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون . (يونس : ٩٠-٩٢) .

وقد سئل رسول الله - ﷺ - أى الصدقة افضل ؟ فقال : ان تصدّق وانت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح [٢٣٨] الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد صار المال إلى فلان [٢٣٩] .

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

كرها : مكرهين بدون رضاهن.

ولا تعضلوهن : العضل : المنع والحبس والتضييق.

بفاحشة : كل ما فحش قبحه قولا أو فعلا، والمراد بها هنا: نحو الزنا والنشوز.

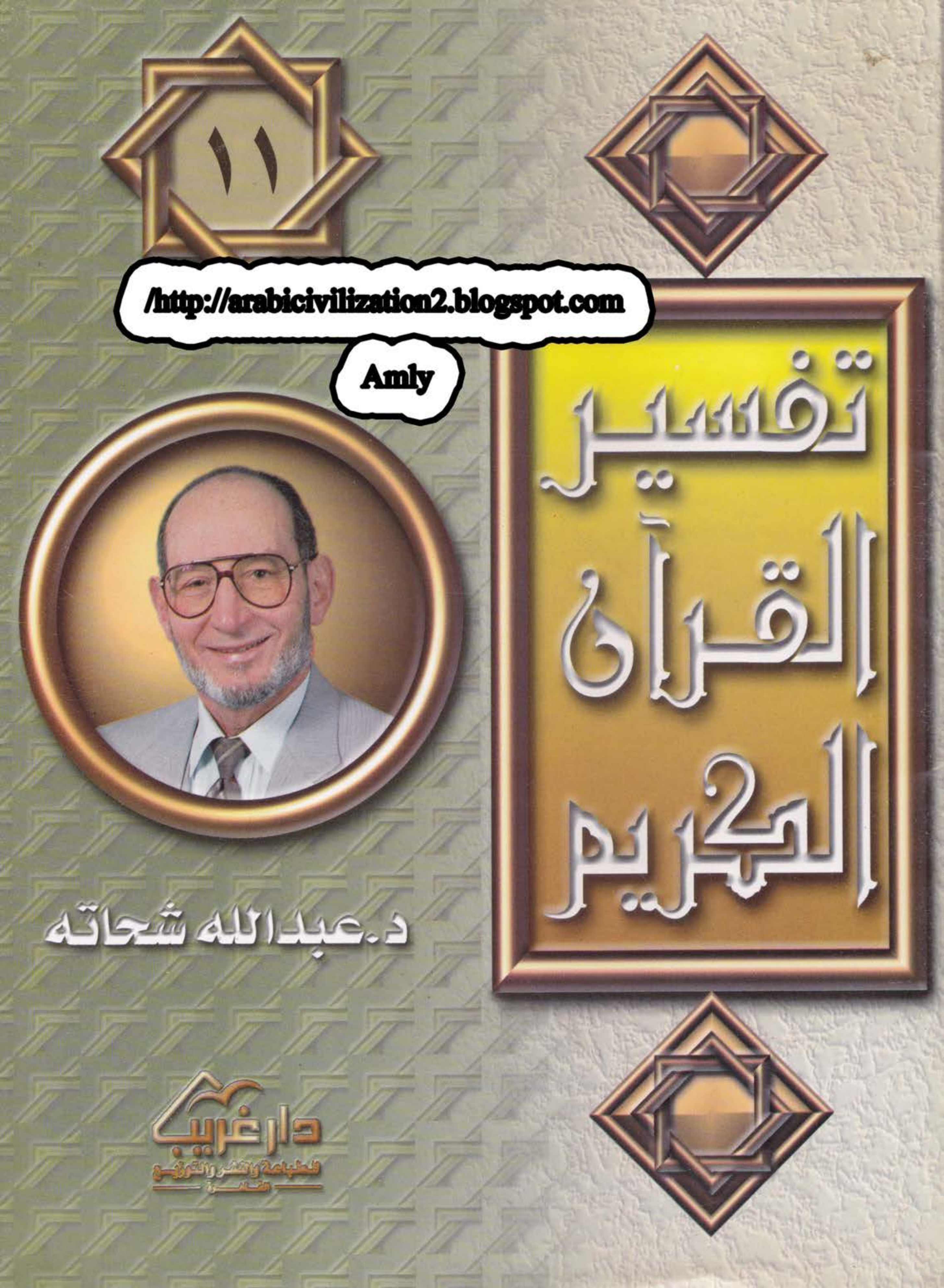
مبينة : واضحة ظاهرة.

التفسير :

١٩ - يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . .

حيث تقدم من [illegible] أبطل الله - سبحانه - عادات كانت للجاهلية ، فى شأن اليتامى وأموالهم. وميراث النساء . واستطرد الحديث، إلى وجوب الحفاظ على عفتهن وتأديبهن ، إن ارتكبن الفاحشة، استكمالا لعناصر إصلاح الأسرة.

وفى هذه الآية ، ينهى عن عادات جاهلية أخرى ، تتعلق بالنساء فى أنفسهن وأموالهن.


١١
/http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly
تفسير القرآن الكريم
د.عبدالله شحاته
دار غريب

بسم الله الرحمن الرحيم

AL - AZHAR AL - SHARIF	الأزهـــــر الشريف
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY	مجمـــع البحـــوث الاســـلامية
GENERAL DEPARTMENT	الادارة العـــــامة
For Research, Writting & Translation	للبحـــوث والتأليف والترجمـــة

السيد / دار غريب للطبع والنشر والتوزيـــع

السـلام عليكـم ورحمـة اللـه وبركاتـه ٠٠٠ وبعد :

فبناء على الطلب المقدم منكم بشـأن فحص النص القرآنـــى

للجزء الرابع (من تفسير الدكتور / عبد الله شـحاته) والملتزم بـه /

دار غريـب ٠

نفيد أنه بمراجعة النص القرآنى تبين أنه سليم فى جوهر القرآن الكريم

ولا مانـع من نشـره وتـداولـه ،،،

واللــــه الموفـــــق ،،،

والسـلام عليكـم ورحمـة اللـه وبركاتـه ،،،

مدير عام

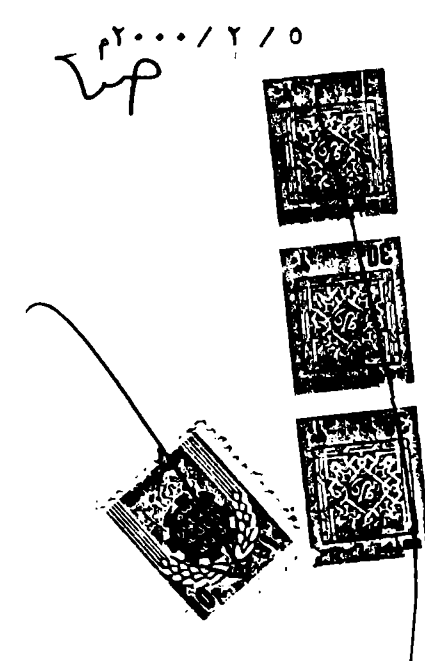
البحوث والتأليف والترجمة



"السيد محمد ... خضـير"

٢٩/١٠/١٤٢٠هـ

٥ / ٢ / ٢٠٠٠م



سبب النزول :

روى البخارى ، عن ابن عباس ، قال : « كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته : إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها . فهم أحق بها من أهلها » فنزلت هذه الآية (٢٤٠).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ

أى : لا يحل لكم - أيها المؤمنون - أن ترثوا من أقاربكم زوجاتهم بعد وفاتهم، كما تورث الأموال والعقارات. وتقولوا : نرثهن كما نرث أموالهم.

كَرْهًا . كارهات لذلك، بأن تتزوجوهن أو تزوجوهن من غيركم، بدون رضاهن، أو تمنعوهن من الزواج. كأنما تتصرفون فى أموال ورثتموها ، فإن ما كان من أفعال الجاهلية المنكرة ، لا يليق بكم - أيها المؤمنون .

وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ . أى ولا تضيعوا - أيها الأزواج - على زوجاتكم اللاتى كرهتموهن لدمامة أو سآمة وملل، وتحبسوهن لديكم ، مع سوء العشرة، ليفتدين أنفسهن منكم ببعض صداقكم لهن، فتأخذوه منهن بدون رضاهن.

إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ . أى إلا أن يرتكبن فعلة واضحة القبح ، ظاهرة الشناعة تجعلها - وحدها- المسئولة عن هدم الحياة الزوجية : كالزنا أو النشوز. وعندئذ ، يكون من العدل أن يأخذ الزوج المظلوم بعض ما أداه لها صداقًا ليخالعها عليه ، إذ هى التى هدمت بيته بظلمها وعدوانها.

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . أى بما عرف فى الشرع حسنه ، من الإنفاق قدر طاقتكم، من غير إسراف، ومن القسم بالعدل، والقول اللين ، وانبساطة الوجه، لتعيشوا سعداء.

فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ . وسئتم عشرتهن لدمامتهن، أو سوء فى خلقهن يمكن احتماله ، فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس، وذهاب الحب، واصبروا على معاشرتهن فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . فلعلكم تكرهون شيئًا بحكم النفس والهوى، ويجعل الله - تعالى - فيه خيرًا كثيرًا : دنيويا كان أو أخرويا، وأنتم لا تعلمون ذلك الخير ولا تدركونه، بسبب كراهتكم لهن. فأحسنوا إليهن وعاشروهن بالمعروف ، لتروا ثمرة ذلك ، فإن المعروف يستعقب الخير دائمًا.

★ ★ ★

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات :

قنطارا : هو مائة رطل كما فى القاموس والعرف، والمراد منه الشىء الكثير.

بهتانا : البهتان: الكذب الذى يواجه به المكذوب عليه فيحيره، والمراد به هنا الظلم الذى يتحير من ارتكابه.

افضى بعضكم إلى بعض : الإفضاء إلى الشىء : الوصول إليه بالملامسة . والمراد به هنا الاتصال الجنسى، أو ما يكون بين الزوجين فى خلوة .

ميثاقا غليظ : عهدا وثيقا قويا .

التفسير :

٢٠ - وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ... الآية

كان الرجل فى الجاهلية إذا أراد التزوج بامرأة أخرى ، بهت التى تحته - أى رماها بالفاحشة التى هى منها بريئة - حتى يلجئها إلى أن تطلب طلاقها منه فى نظير أن تفتدى نفسها بصداقها أو ببعضه [٢٤١]. فنهوا عن ذلك .

ومعنى الآية :

إذا رغبتم تزوج امرأة ترغبون فيها لتقوم مكان زوجة سابقة رغبتم فى طلاقها وفراقها، وكنتم قد أعطيتم هذه الزوجة التى ترغبون فى فراقها مهرا كبيرا ومالا كثيرا فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً، أتأخذونه على وجه البطلان والإثم المبين.

تعليق :

تحث الآية على الفراق بالمعروف ، وهى تستكمل عدة تشريعات سماوية أنزلها الله بشأن المرأة.

فقد أحل الله لها الميراث، وجعل لها نصيبًا مفروضا، وأحل الله لها الصداق وجعله حقا ثابتا، وأمر بحسن معاملتها، وعشرتها بالمعروف ، ونهى عن المسارعة إلى الطلاق، ووعد الصابر على زوجته بالخير وحسن العوض. وهنا يتوج هذه الوصاية بتأكيد أن المهر حق ثابت للمرأة، لا يجوز لرجل أن يسترده، إذا كره زوجته أو رغب فى فراقها، بل ينبغى أن يفارق بالمعروف ولا يأخذ من الصداق قليلاً ولا كثيرا، فقد عاشرها عشرة الأزواج، واستحل منها ما أحله الله بين الزوجين ، فكيف يبيح لنفسه أن يأخذ مالا بالبهتان والإثم !؟

قال صاحب الكشاف : والبهتان أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو برىء منه ، لأنه يبهت عند ذلك - أى يتحير.

٢١ - وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا

والمعنى : بأى وجه من الوجوه تستحلون - يا معشر الرجال - أن تأخذوا شيئا من الصداق الذى أعطيتموه لنسائكم عند مفارقتهن ، والحال أنكم قد اختلط بعضكم ببعض ، وصار كل واحد منكم لباسا لصاحبه، وأخذن منكم عهدا وثيقا مؤكدا لا يحل لكم أن تنقضوه أو تخالفوه.

وفى الحديث الشريف : « استوصوا بالنساء خيرا ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (٢٤٢).

التعبير بكلمة أفضى :

قال الفخر الرازى ، وأصل أفضى من الفضاء الذى هو السعة ، يقال فضا يفضو فضوا وفضاء إذا اتسع والمراد بالإفضاء هنا : الوصول والمخالطة، لأن الوصول إلى الشىء قطع للفضاء الذى بين المتواصلين .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

ويدع أَفْضَىٰ بلا مفعول ، يدع اللفظ مطلقًا ، يشع كل معانيه ويلتقى كل ظلاله ، ولا يقف عند حدود الجسد ، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات، والتجاوب فى كل صورة من صور التجاوب ، يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار .. وفى كل اختلاجة حب إفضاء وفى كل نظرة ود إفضاء ، وفى كل لمسة جسم إفضاء ، وفى كل اشتراك فى ألم وأمل إفضاء ، وفى كل تفكير فى حاضر أو مستقبل إفضاء، وفى كل التقاء فى طفل إفضاء (٢٤٣).

كل هذه المعانى تجعل الرجل يخجل أن يسترد بعض ما دفع لزوجته وهو يستعرض فى خياله وفى وجدانه ذلك الحشد من صور الماضى فى لحظة الفراق الرهيب .

ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - أن الرجل إذا فارق امرأته فلا يحل له أن يأخذ منها شيئا ما دام الفراق بسببه ومن جانبه ، كما أنه لا ينبغى أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها إذا كان الفراق بسببها ومن جانبها.

٢ - اتفق العلماء على أن المهر يستقر بالوطء، واختلفوا فى استقراره بالخلوة المجردة، قال الحنفية : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والعدة دخل بها أو لم يدخل ، وقال مالك : إذا طال مكثه معها السنة ونحوها، واتفقا أن لا مسيس ، وطلبت المهر كله كان لها (٢٤٤).

٢ - جواز الإصداق بالمال الكثير ، لأن الله قال : وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا . والقنطار المال الكثير.

روى أن عمر - رضى الله عنه - قال على المنبر : لا تغالوا فى المهور ، فقامت إليه امرأة فقالت : يابن الخطاب ، الله يعطينا وأنت تمنع ، وقرأت هذه الآية . فقال عمر : كل الناس أفقه من عمر ، ورجع عن النهى فى المغالاة (٢٤٥).

ومن العلماء من بيّن أن الذى رجع عنه عمر هو إلزام الناس بعدم المغالاة.

والآية المذكورة ، وإن كانت تفيد جواز الإصداق بالمال الجزيل ، إلا أن الأفضل عدم المغالاة فى ذلك ، مع مراعاة أحوال النامن من حيث الغنى والفقر وغيرهما .

وقد ورد ما يفيد الندب إلى التيسير فى المهور ، فقد أخرج أبو داود ، والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله - ﷺ - « خير الصداق أيسره » (٢٤٦).

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال : « أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة » (٢٤٧).



﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

المفردات :

سلف : مضى وتقدم.

فاحشة : فعلة شديدة القبح.

مقتا	: بغضا شديدا.
وساء سبيلا	: وقبح طريقا.
وربائبكم	: جمع ربيبة وهى بنت امرأة الرجل من غيره.
فى حجوركم	: الحجر: الحصن . والمراد فى كفالتكم وتحت رعايتكم.
وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم	: زوجات أبنائكم . وسمت الزوجة حليلة، لحلها للزوج.

التفسير :

٢٢ - وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

روى ابن أبى حاتم عن عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار ، قال : لما توفى زيد أبو قيس - يعنى ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار ، خطب ابنه قيس امرأته فقالت : إنما أعدك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكنى آتى رسول الله - ﷺ - فقالت : إن أبا قيس توفى ، فقال : « خيراً » ، ثم قالت : إن ابنه قيسا خطبنى وهو من صالحى قومه ، وإنما كنت أعده ولدا فما ترى ؟ فقال لها : « ارجعى بيتك» فأنزل الله تعالى قوله (٢٤٨). وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ .

وذكر الواحدى وغيره أنها نزلت فى الأسود بن خلف ، كما ذكروا أنها نزلت فى صفوان بن أمية وامرأة أبيه فاختة بنت الأسود.

ويجمع بين هذه الروايات بتعدد الأسباب والمنزل واحد . قال القرطبى : كان فى العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه ، وكانت هذه السيرة فى الأنصار لازمة، وكانت فى قريش مباحة مع التراضي.. إلخ .

قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين ، وهكذا قال عطاء وقتادة (٢٤٩).

المعنى :

لا تتزوجوا من تزوج آباؤكم من النساء لأنه من أفعال الجاهلية القبيحة، لكن ما قد مضى وسبق من هذا الزواج فإنه معفو عنه ، فمن كان متزوجًا من امرأة كانت زوجة لأبيه من النسب أو من الرضاع فإنها تصير حراما عليه من وقت نزول هذ الآية، ويجب عليه أن يفارقها ، فإنها أصبحت محرمة عليه.

إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

الفاحشة أقبح المعاصى ، والمقت أشد البغض، وكانوا يسمونه نكاح المقت لأنه أمر ممقوت بغيض.

وَسَاءَ سَبِيلًا . أى وبئس طريقا لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله فيئا لبيت المال.

والحكمة من تحريم نكاح زوجة الأب ما يأتى :

١ - أن امرأة الأب فى منزلة الأم .

٢ - ألا يخلف الابن أباه فيصبح أبوه فى خياله ندا له ، وكثيرا ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعًا.

٣ - ألا تكون هناك شبهة الإرث لزوجة الأب.

لهذا حرم الله نكاح زوجة الأب .

لهذا حرم الله نكاح زوجة الأب أشد التحريم ، وشنع على فعله وجعله كالزنا أو أشد.

قال تعالى : وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . (الإسراء : ٣٢) . وزاد هنا كلمة وَمَقْتًا . أى غضبا من الله على فاعله فقال سبحانه : وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً .

٢٣ - حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا .

المعنى الإجمالى :

حرم الله عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت، والمحرمات لغير النسب : أمهات الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات الزوجات، وبنات الزوجات من غير الأزواج إذا دخل بهن، وزوجات أبناء الصلب، والجمع بين الأختين ، وما سلف فى الجاهلية فإنه معفو عنه ، إن الله غفور لما سلف قبل هذا التحريم ، رحيم بكم فيما شرع لكم.

حكمة التحريم

يحاول العلماء التماس الحكمة من تحريم نكاح الأقارب عن طريق الاجتهاد ، واستنباط حكمة التحريم للأمور الآتية :

١ - يقال : إن الزواج من الأقربين فى الدم يضوى الذرية ويضعفها مع امتداد الزمن ، لأن مواضع الضعف الوراثية قد تتركز وتتأصل فى الذرية.

٢ - العلاقة بين الإنسان وبعض هذه الطبقات المحرمات علاقة قوية مؤكدة لأنها علاقة القرابة القريبة التى تكون بين الإنسان وأمهاته أو أخواته أو عماته أو خالاته، فبين الإنسان وبينهن علاقة رعاية وعطف واحترام

وتوقير، فلا يصح أن تتعرض هذه العلاقة القوية إلى بعض هزات الزواج ، فإن الزواج أحيانًا يصاب بالفشل أو الضعف أوالطلاق أو النزاع، وهى أمور ينبغى أن تحفظ هذه القرابة القريبة من التعرض لها.

٣ - الفطرة الإنسانية السليمة تأبى أن يتصل ذو القرابة القريبة من الرجال أوالنساء اتصال شهوة ومتعة جنسية، وترى ذلك أشبه بتمتع الإنسان بنفسه لما بينه وبين أقاربه الأقربين من قوة الارتباط، وكثرة الاختلاط، ولهذا كان أكثر المحرمات فى الإسلام محرما فى الجاهلية (٢٥٠).

٤ - قد يلحق القرابة القريبة ما يماثلها فى قوة الاتصال ، واستحقاق الاحترام والترفع عن المطامع الجنسية، كقرابة الرضاع، فإن اشتراك المرضع مع الأم فى بناء بنية الرضيع ، واطلاعها منه على مثل ما اطلعت، جعلها أما بعد الأم ، وبنتها أختا بعد الأخت، وأمها جدة بعد الجدة ، وهكذا . ولاشك فى أن التمتع بهؤلاء كالتمتع بنظائرهن من القريبات الصلبيات تمجه الفطر السليمة.

المحرمات من النساء

اشتملت هذه الآية وحدها على تحريم ثلاثة عشر نوعًا من المحرمات بيانها كالآتى :

سبع يحرم نكاحهن من النسب أى القرابة - وهن الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت.

وست أخريات يحرم نكاحهن من الرضاعة والمصاهرة وهن : الأمهات من الرضاعة ، والأخوات من الرضاعة، وأمهات الزوجات، وبناتهن، وحلائل الأبناء ، والجمع بين الأختين .

ويتضح لنا أن المحرمات بالنسب أربعة أصناف :

١ - الأصل وإن علا، والمراد به الأم وأمها وإن علت . وأم الأب والجد كذلك ، قال تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .

٢ - الفرع وإن نزل، والمراد به البنت وما تناسل منها وبنت الابن وإن نزل ، وما تناسل منها : وَبَنَاتُكُمْ.

٣ - فرع الأبوين وإن نزل وهو الأخوات مطلقاً وبناتهن وبنات أبنائهن وإن نزلن وبنات الأخوة، وبنات أبنائهم كذلك : وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ .

٤ - أول بطن فقط من فروع الجد والجدة ، والمراد به العمات والخالات. قال تعالى : وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ .

أما بنات العمات والخالات ، وبنات الأعمام والأخوال وفروعهن فمحللات لعدم ذكرهن فى المحرمات ، ودخولهن بذلك فى قوله تعالى : وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ولقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي

آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ . (الأحزاب : ٥٠).

المحرمات بالمصاهرة

يحرم بالمصاهرة أربعة أصناف:

١ - زوجة الأصل والمراد بها زوجة الأب والجد وإن علا ، قال تعالى : وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ .

٢ - زوجة الفرع ، والمراد بها زوجة الابن وابن الابن أو البنت وإن نزل ، قال تعالى : وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ .

٣ - أصول الزوجة ، وهى أمها وأم أمها أو أبيها وإن علت ، وتحرم بمجرد العقد الصحيح لإطلاق النص فى قوله تعالى : وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ .

٤ - فروع الزوجة ، ويه بنتها وبنت بنتها أو ابنها وإن نزلت ، والآية دالة على حرمة الربيبة ، أما من عداها من فروع الزوجة فحرمت بالإجماع ، ولا خفاء فى دلالة الآية على اشتراط الدخول على الزوجة لتحريم بنتها ، قال تعالى : وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ.

وفى كتب الفقه نجد هذه القاعدة : العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات .

المحرمات بالرضاع

يحرم بالرضاع أربعة الأنواع التى تحرم بالنسب وهى :

١ - الأصل الرضاعى وإن علا، وهو الأم التى أرضعت وأمها نسبا أو رضاعا وإن علت ، وأم الأب والجد الرضاعيين.

٢ - الفرع الرضاعى وإن نزل ، وهو البنت التى رضعت لبنا در من امرأتك لولدك الصلبى وبنتها وإن نزلت وابنها كذلك .

٣ - فرع الأبوين الرضاعيين ، وهو الأخوات من الرضاع شقيقات أو لأب أو لأم ، وبناتهن إن نزلن ، وبنات الإخوة من الرضاع كذلك.

٤ - أول بطن من فروع الجد والجدة الرضاعيين وهو العمات والخالات .

روى الإمام أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه أن رسول الله - ﷺ - قال: « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » (٢٥١).

مقدار الرضاع المحرم

الرضاع المحرم : يكون بوصول لبن المرأة إلى الجوف ، مصا من الثدى أو شربا من نحو إناء أو مطبوخا.

ورضعة واحدة تكفى فى التحريم عند أكثر العلماء.

ولا تحريم عند الشافعى إلا بخمس رضعات متفرقات لحديث ثبت عنده بذلك ، وقد رواه مسلم وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تحرم المصة ولا المصتان » (٢٥٢).وفى رواية عنها أنه قال : « لا تحرم الرضعة والرضعتان ، والمصة والمصتان » (٢٥٣). ثم ليعلم أنه لابد أن تكون الرضاعة فى سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . واعتبر أبو حنيفة فى إثبات حكم الرضاع ستة أشهر بعد الحولين، واعتبر مالك بعد الحولين - شهرا أو نحوه .

الجمع بين الأختين

يحرم على الرجل أن يجمع بين أختين فى النكاح، فلا يتزوج الرجل امرأة، ثم يضم إليها أختها بطريق الزواج، وهذا بإجماع العلماء ، قال تعالى : **وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً** .

قال ابن كثير : والمعنى : وحرم الله عليكم الجمع بين الأختين معا فى التزويج، إلا ما كان منكم فى جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرنا له، فدل أنه لا مثوية فيما يستقبل لأنه استثنى ما سلف .. وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديما وحديثا على أنه يحرم الجمع بين الأختين فى النكاح ،ومن أسلم وتحته أختان خيِّر فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة ، فقد روى الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال : أسلمت وعندى امرأتان أختان، فأمرنى النبى - ﷺ - أن أطلق إحداهما (٢٥٤).

وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما لا يحل فى النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله : **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ** . إلى آخر الآية النكاح وملك اليمين فى هؤلاء كلهن سواء (٢٥٥).

الجمع بين المرأة وعمتها

كما يحرم الجمع بين الأختين فى عصمة رجل واحد ، كذلك يحرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو ابنة أخيها أو ابنة أختها لنهى النبى - ﷺ - عن ذلك ، فقد جاء فى صحيح مسلم وفى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على ابنة أختها » (٢٥٦).

وفى رواية للطبرانى أنه قال : « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ».

والسر فى تحريم هذا النوع من النكاح أنه يؤدى إلى تقطيع الأرحام إذ من شأن الضرائر أن يكون بينهن من المنافسة والكيد وتبادل الأذى ما هو مشاهد ومعلوم ، فكان من رحمة الله بعباده أن حرم عليهم هذه الأنواع من الأنكحة صيانة للأسرة من التمزق والصراع وحماية لها من الضعف والوهن وسموا بها عن مواطن الريبة والغيرة والفساد ، وأن عفا - سبحانه - عما حدث من هذه الأنكحة الفاسدة فى الجاهلية لأنه - كان وما زال غفارا للذنوب ستارا للعيوب رحيما بعباده ومن رحمته بهم أنه لا يعذبهم من غير نذير ، ولا يواخذهم على ما اكتسبوا إلا بعد بيان واضح .

* * *

إن هذا التشريع الإلهى ، صمام الأمان لحماية الأسرة والنهوض بالمرأة والرجل على السواء، وفى هذا التشريع ما يدل حقا على أنه من عند الله الحكيم العليم . فأنى لمحمد الأمى بمثل هذا التشريع المتكامل فى شئون اليتامى، وفى شئون الميراث ، وفى شئون الأسرة ، وفى شئون المحرمات ، وفى سائر أحكام العبادات والمعاملات ، إلا أن يكون من عند الله .

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً . (النساء : ٨٢) .

لقد حرم الله فى آية تالية وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ . اى حرم ذوات الأزواج من النساء فى الآية ٢٤ .

وعقب الله على تشريع هذه الأحكام بقوله سبحانه : يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ۞ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا . (النساء : ٢٦-٢٨) .

* * *

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

الحمد لله حمدا كثيرا ، وطيبًا طاهرًا مباركًا فيه كما يرضى ربنا ويحب، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

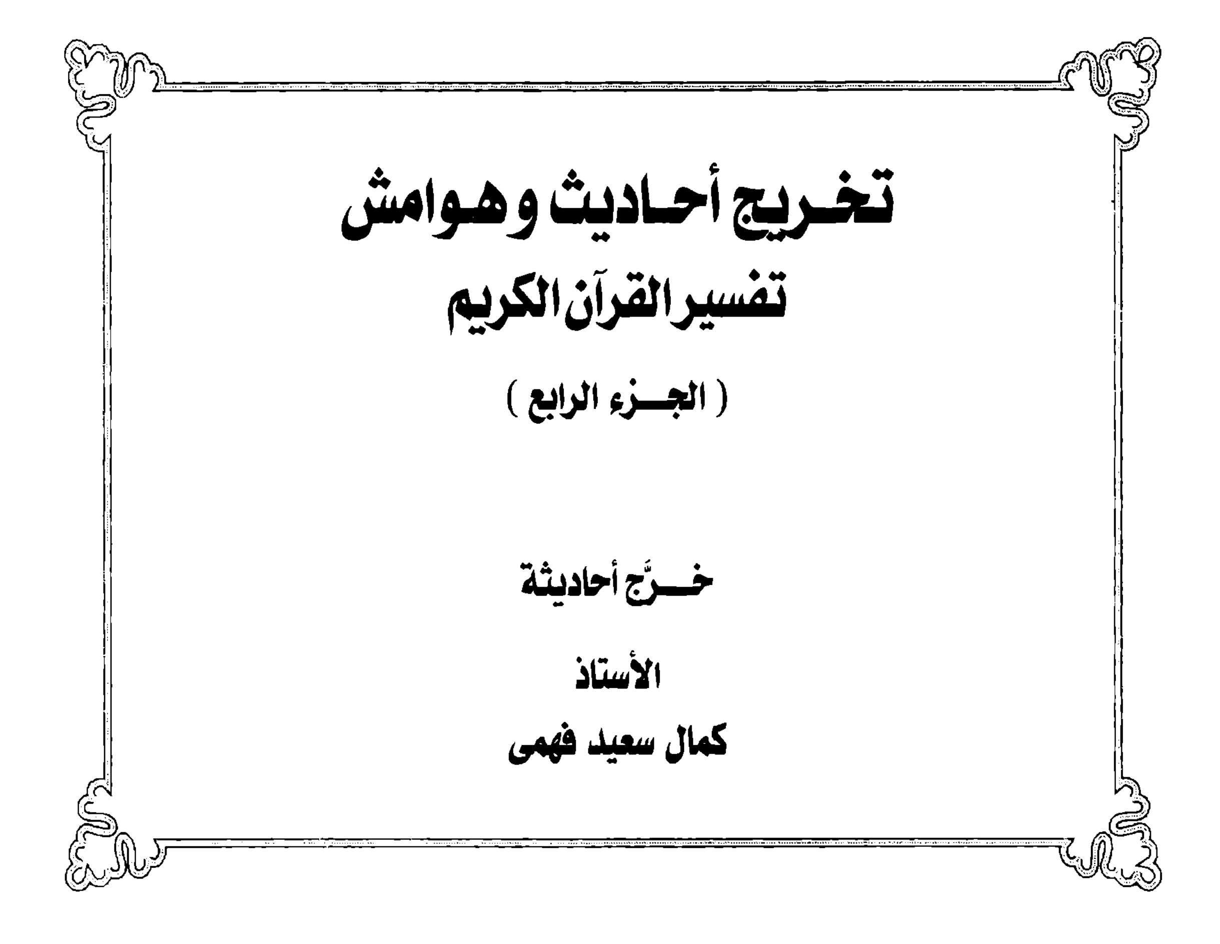
* * *

تم بحمد الله تفسير الجزء الرابع فجر السبت ١٢ يناير سنة ١٩٨٣.

ويليه تفسير الجزء الخامس إن شاء الله .

والله ولى التوفيق

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم

(الجزء الرابع)

خرَّج أحاديثة

الأستاذ

كمال سعيد فهمى

(١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى : ٥/٤ بهامش تفسير الطبرى . الطبعة الأولى بمطبعة بولاق سنة ١٣٣٥هـ .

(٢) النسخ فى اللغة الإزالة، تقول نسخت الشمس الأثر إذا أزالته ، وفى الشرع : رفع الشارع حكم النص بعد أن يكون ثابتا ، وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم مهيمنة على ما سبقها وناسخة لها . وقد أنكر اليهود النسخ فى الأحكام وقد رد عليهم القرآن وأبطل حجتهم .

(٣) أى أن بعض الأطعمة والطيبات كانت حلالا لليهود ثم حرم الله عليهم بعض الأطعمة عقوبة لهم لأنهم شعب غليظ الرقبة أى متكبر عن تنفيذ أحكام ا لله . وتحريم الحلال على اليهود نسخ للأحكام السابقة .

(٤) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ٦/٤ .

(٥) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، الحزب السابع ، ص ٦٢١ .

(٦) أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة

رواه أحمد فى مسنده ح ٢٣٨٤ ، عن شهر ـ ابن حوشب ـ عن ابن عباس . قلت : وشهر بن حوشب هذا فيه مقال .

(٧) تفسير الطبرى : ٥/٤ ، طبعة بولاق . الطبعة الأولى ، ١٣٣٥ هـ .

(٨) البحيرة : كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وخلوا سبيلها فلا تركب ولا تحمل ، وكان الرجل يقول إن شفيت فناقتى سائبة ويجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها .

(٩) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ٨/٤ .

(١٠) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ١١/٤ ، بتصرف .

(١١) المسجد الحرام

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣١١٥ ، ٣١٧٢ ، ومسلم فى المساجد ح ٨٠٩ ، والنسائى فى المساجد ح ٦٨٣ ، وأحمد ح ٢٠٤٩٥ ، من حديث أبى ذر الغفارى ، واللفظ لمسلم .

(١٢) انظر تفسير المنار ٦/٤ ، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٢٤ ، وتفسير سورة آل عمران للدكتور محمد سيد طنطاوى . ص ٢٤٢.

(١٣) تفسير المنار : ٧/٤ .

(١٤) تفسير الفخر الرازى : ١٥١/٨ .

(١٥) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٢٤٢ .

(١٦) تفسير الفخر الرازى : ١٥١/٨ .

(١٧) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٢٤٢ .

(١٨) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى مطبعة بولاق :١٢/٤ .

(١٩) صلاة فى مسجدى هذا

البخارى فى فضل الصلاة (١١٩٠) ، ومسلم فى الحج (١٣٩٤/٥٠٦) ، والترمذى فى الصلاة (٣٢٥) وقال : « حديث حسن صحيح» ، والنسائى فى المساجد (٦٩٤) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٤٠٤) ، كلهم عن أبى هريرة وانظر تفسير النيسابورى : ١٢/٤ ـ ١٣ .

(٢٠) تفسير المنار : ٧/٤ .

(٢١) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ١٣/٤ .

(٢٢) كبر وأسن

(٢٣) قيلة : هى قيلة بنت كاهل بن عذرة وهى أم الأوس والخزرج .

(٢٤) تفسير الطبرى : ١٦/٤ . والنيسابورى : ٢٢/٤ . وأسباب النزول للواحدى : ٦٦ ـ ٦٧ .

(٢٥) تفسير الطبرى : ١٩/٤ . وقد استشهد بعدد من أبيات الشعر لتأييد المعنى .

(٢٦) تفسير الطبرى : ١٨/٤ .

(٢٧) تفسير النيسابورى : ٢٧/٤ .

(٢٨) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٢/٤ بتصرف .

(٢٩) مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم

البخارى فى الأدب (٦١١) ، ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٦/٦٦) . وأحمد ح ١٧٦٣٢ ، ١٧٦٤٨ عن النعمان بن بشير .

(٣٠) إن الله يرضى لكم ثلاثا

رواه مسلم فى الأقضية ح ٣٢٣٦ ، ومالك فى الجامع ح ١٥٧٢ ، وأحمد ح ٨٤٤٤ من حديث أبى هريرة .

(٣١) تفسير سورة آل عمران ، د . محمد سيد طنطاوى : ٢٦٦ .

(٣٢) من رأى منكم منكرا فليغيره ١٦

مسلم فى الإيمان ح ٧٠ ، والترمذى فى الفتن ح ٢٠٩٨ وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٢٢ ، ٤٩٢٣ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٩٦٣ ، وفى الملاحم ح ٣٧٧٧ ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٢٦٥ ، وفى الفتن ح ٤٠٠٣ ، وأحمد ح ١٠٦٥١، ١١٠٣٤ ، ١١٠٩١ ، ١١٤٤٢ من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٣٣) والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف

رواه الترمذى فى الفتن ح ٢١٦٩ ، وأحمد ح ٢٢٧٩٠ ، ٢٢٨١٦ من حديث حذيفة بن اليمان ، وقال الترمذى : " حديث حسن " .

(٣٤) بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٧ ، ٥٨ ، وفى مواقيت الصلاة ح ٥٢٤ ، وفى الزكاة ح ١٤٠١ ، وفى البيوع ح ٢١٥٧ ، وفى الشروط ح ٢٧١٤ ، ٢٧١٥ ، وفى الأحكام ح ٧٢٠٤ ، ومسلم فى الإيمان ح ٥٦ ، والترمذى فى البر ح ١٩٢٥ ، والنسائى فى البيعة ح ٤١٧٤ ، ٤١٧٥ ، ٤١٨٩ ، وأحمد ١٨٦٨١ ، ١٨٦٨٢ ، ١٨٧٠٩ ، ١٨٧١٣، ١٨٧٤٣ ، ١٨٧٦٠ ، والدارمى فى البيوع ح ٢٥٤٠ من حديث جرير بن عبد الله البجلى ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٣٥) أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية

رواه الترمذى فى الفتن ٢١٦٨ ، وفى تفسير القرآن ح ٣٠٥٦ ، وأبو داود فى الملاحم ح ٤٣٣٨ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٠٥ ، وأحمد ح ١ ، ١٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٤ من حديث أبى بكر الصديق ، وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه أيضًا من حديث أبى ثعلبة الخشنى .

(٣٦) الترغيب والترهيب : ٢٢٣/٣ .

(٣٧) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٣٣ .

(٣٨) إن أهل الكتابين افترقوا

رواه أحمد فى مسنده ح ١٦٤٩٠ ، وأبو داود فى السنة ٤٥٩٧، كلاهما عن معاوية بن أبى سفيان ، ورواه أبو داود فى السنة ح ٤٥٩٦ ، من حديث أبى هريرة . ورواه الترمذى فى الإيمان ح ٢٦٤١ ، من حديث عبد الله بن عمرو ، وقال الترمذى : حديث حسن غريب مفسر . قلت: فى إسناده : عبد الرحمن بن زياد الأفريقى ، وهو مُتكلّم فيه . ورواه ابن ماجه فى الفتن ح ٣٩٩٢ ، من حديث عوف بن مالك ، ورواه أيضًا

فى نفس الباب ح ٣٩٩٣ ، من حديث أنس بن مالك . والدارمى فى السير ٢/٢٤١ ، من حديث معاوية أيضًا إلا أنه لم يذكر فيه : ... كما يتجارى الكلب .

الكلَب بفتح اللام مرض يصيب الإنسان من أثر عضة الكلب العقور . وهذا المرض يؤثر فى سائر الجسم حتى فى سجايا المخ ثم يفتك بصاحبه .

(٣٩) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى : ١/٣٠٧ .

(٤٠) د . محمد سيد طنطاوى . تفسير سورة آل عمران : ٢٦٩ .

(٤١) تفسير الكشاف : ١/٣٩٩ .

(٤٢) تفسير الفخر الرازى : ٨/١٨١ .

(٤٣) تفسير الآلوسى : ٤/٢٦ .

(٤٤) جاد فى تفسير المنار : ٤/٤٧ ، ٤٨ كلام خلاصته ما يأتى :

فى قوله تعالى : ﴿ كنتم ﴾ ثلاثة أوجه :

(الوجه الأول) : أنها تامة بمعنى وجدتم خير أمة ، وهى لا تحتاج إلى خبر ويكون قوله ﴿ خير أمة ﴾ بمعنى الحال .

(الوجه الثانى) : أنها ناقصة ، والمعنى حينئذ كنتم فى علم الله او قدرتم فى علم الله تعالى خير أمة أخرجت للناس .

(الوجه الثالث) : أن كان هنا بمعنى صار . أى صرتم خير أمة ، وهذا أضعف الأقوال .

(٤٥) فى ظلال القرآن : ٤/١٥ .

(٤٦) أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها

رواه الترمذى التفسير ح ٣٠٠١ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤٢٨٧ ، ٤٢٨٨ ، وأحمد ح ١٩٥٠٥ ، ١٩٥١٣ ، ١٩٥٢١ ، ١٩٥٢٥، ١٩٥٤٥ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٦٠ ، من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه معاوية البهزى . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٤٧) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ١/٣٠٨ .

(٤٨) عرضت علي الأمم ؛ فجعل يمر النبى زمعه الرجل ٢٢

البخارى فى الرقاق (٦٥٤١) ومسلم فى الإيمان (٢٢٠/٣٧٤) .

(٤٩) تفسير المنار : ١/٥٦ .

(٥٠) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٣٨ .

(٥١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤/١٦ .

(٥٢) تفسير الكشاف : ١/٢١٧ .

(٥٣) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٢٨٦ بتصرف .

(٥٤) تفسير الطبرى : ٤/٦ وتفسير المنار : ٤/٥٩ .

(٥٥) تفسير المنار : ٤/٥٩ .

(٥٦) اختار هذا الرأي الشيخ محمد عبده فى تفسير المنار : ٤/٥٩ .

(٥٧) تفسير الطبرى : ٤/٣٧ .

(٥٨) تفسير المنار : ٤/٦٠ .

(٥٩) تفسير الفخر الرازى : ٢٠٣/٨ ، بتصرف .

(٦٠) تفسير الطبرى : ٣٧/٤ ، بتصرف يسير .

(٦١) ﴿ وما يفعلوا من خير ﴾ ما شرطية . وفعل الشرط قوله ﴿ يفعلوا ﴾ وجوابه قوله ﴿ فلن يكفروه ﴾ .

(٦٢) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى :٣٠٠ .

(٦٣) إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل

رواه أبو داود فى الملاحم ح ٤٣٣٦ ، والترمذى فى التفسير ح ٣٠٤٧ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٠٦ من حديث عبد الله بن مسعود .

(٦٤) تفسير المنار :٦٢/٤ ، باختصار شديد .

(٦٥) تفسير النيسابورى : ٥١/٤ .

(٦٦) تفسير النيسابورى :٥١/٤ ـ ٥٢ .

(٦٧) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٧/٤.

(٦٨) تفسير المنار :٦٥/٤ .

(٦٩) التفسير الوسيط إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ـ الحزب السابع ، ص ٦٤٦ .

(٧٠) ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يترعها

البخارى فى الاعتصام معلقا ، وأحمد ٣٥١/٣ ، والدارمى عن جابر بن عبد الله . واللأمة : الدرع ، وقيل : السلاح ، ولأمة الحرب : اداته. انظر : النهاية ٢٢٠/٤ .

(٧١) احموا ظهورنا

رواه أحمد ح ٢٦٠٤ من حديث ابن عباس .

(٧٢) تفسير الكشاف : ٤٠٩/١ ، بتصرف .

(٧٣) المرجع السابق بتصرف .

(٧٤) مختصر تفسير ابن كثير :٣١٥/١ .

(٧٥) مختصر تفسير ابن كثير : ٣١٥/١ . تحقيق محمد على الصابونى .

(٧٦) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ٦٢/٤ .

(٧٧) تفسير المنار : ٩٤/٤ .

(٧٨) د . محمد سيد طنطاوى ، تفسير سورة آل عمران : ص ٢٣٤ .

(٧٩) أن النبى قنت شهرًا يدعو على رعل ، وذكوان

البخارى فى الجنائز (١٣٠٠) ، ومسلم فى المساجد (٢٩٧/٦٧٧) التفسير (٩٥).

انظر تفسير النيسابورى ، وقد ورد هذا المعنى فى تفسير ابن كثير عن البخارى .

(٨٠) كيف يفلح قوم شجوا نبيهم !؟

ذكره البخارى تعليقا فى المغازى ، ووصله مسلم فى الجهاد ح ١٧٩١ ، والترمذى فى التفسير ح ٣٠٠٢ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٢٧ . وأحمد ح ١١٥٤٥ ، ١٢٤٢٠ ، ١٢٧٢٥ ، ١٣٢٤٥ ، ١٣٦٥٨ ، من حديث أنس بن مالك . ورد ذلك فى صحيح مسلم . ومسند الإمام أحمد .

(٨١) تفسير الكشاف : ٤١٣/١ .

(٨٢) تفسير الفخر الرازى : ٣/٩ .

(٨٣) المرجع السابق .

(٨٤) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف حزب ٦٥٤/٧ .

(٨٥) تفسير القرطبى : ٢٠٢/٤ .

(٨٦) تفسير ابن جرير الطبري : ٩٠/٤ .

(٨٧) ألا إن ربا الجاهلية موضوع

رواه مسلم فى الحج ح ١٢١٨ ، وأبو داود فى المناسك ح ١٩٠٥ ، وفى البيوع ح ٣٣٣٤، وابن ماجه فى المناسك ح ٣٠٥٥ ، ٣٠٧٤ ، والدارمى فى المناسك ح ١٨٥٠ .

(٨٨) البر بالبر مثلا بمثل

البخارى فى البيوع ٢١٧٠ ومسلم فى المساقاة ١٥٨٦ وأبو داود فى البيوع ٣٣٤٨ والترمذى فى البيوع ١٢٤٣ وقال : « هذا حديث حسن صحيح» والنسائى فى البيوع ٤٥٥٨ وابن ماجه فى التجارات ٢٢٥٣ والدارمى فى البيوع ٢٥٨/٢ ، كلهم عن عمر بن الخطاب .

(٨٩) تفسير الكشاف : ٤١٤/١ .

(٩٠) من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه

رواه الترمذى فى البر والصلة ح ٢٠٢١ ، وفى صفة القيامة ح ٢٤٩٣ ، وأبو داود فى الأدب ح ٤٧٧٧ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٨٦ ، وأحمد ح ١٥٢١٠ من حديث معاذ بن أنس الجهنى . وقال الترمذى : حديث حسن غريب . قلت : وليس فيه : «ملأ الله جوفه أمنا وإيمانا » إنما بقيته بلفظ : « دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق يخيره فى أى الحور شاء » .

(٩١) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو ٤٤

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٨٨ ، والترمذى فى البر والصلة ٢٠٢٩ ، وأحمد ح ٧١٦٥ ، ٨٧٨٢ ، والدارمى فى الزكاة ح ١٦٧٦ من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٩٢) أن تعبد الله كأنك تراه

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٧٧٧ ، ومسلم فى الإيمان ح ٨ ، ٩ ، والترمذى فى الإيمان ح ٢٦١٠ ، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٩٠ ، ٤٩٩١ ، وأبو داود فى السنة ح ٤٦٩٥ ، وابن ماجه فى المقدمة ح ٦٣ ، ٦٤ ، وأحمد ح ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١ من حديث أبى هريرة ، ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٩٣) ليس الواصل بالمكافئ

رواه البخارى فى الأدب ح ٥٩٩١ ، والترمذى فى البر والصلة ح ١٩٠٨ ، وأبو داود فى الزكاة ح ١٦٩٧ ، وأحمد ح ٦٤٨٨ ، ٦٧٤٦ ، ٦٧٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٩٤) ما أصر من استغفر

رواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٥٥٩ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٥١٤ من حديث أبى بكر الصديق . وقال الترمذى : حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبى نصيرة وليس إسناده بالقوى .

(٩٥) تفسير الفخر الرازى : ١٢/٩ .

(٩٦) تفسير الطبري : ١٠١/٤ صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى : ٢٣١/١ .

(٩٧) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٣٢١/١

(٩٨) في ظلال القرآن . للأستاذ سيد قطب : ٣٨/٤ .

(٩٩) تفسير الكشاف : ٤١٨/١ .

(١٠٠) التفسير الوسيط . مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . الحزب ٧ ص ٦٦٦ .

(١٠١) تفسير المنار : ١٢٨/٤ . نقلاً عن تفسير الكشاف .

(١٠٢) تفسير الطبرى : ٧١/٤ .

(١٠٣) تفسير المنار : ١٢٨/٤ .

(١٠٤) قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ بمعنى ولما تجاهدوا . لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه لأنه منتف بانتفائه . يقول الرجل : ما علم الله من فلان خيرا ، يريد ما فيه خير حتى يعلمه .

وقال الدكتور محمد سيد طنطاوى : والمعنى : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة . وتنالوا كرامة ربكم . وشرف المنازل عنده مع أنكم لم تجاهدوا فى سبيل الله جهاد الصابرين على شدائده ومتاعبه ومطالبه إن كنتم تحسبون هذا الحسبان فهو ظن باطل يجب عليكم الإقلاع عنه.

(١٠٥) كان هنا ناقصة وقوله ﴿ أن تموت ﴾ فى محل رفع اسمها . وقوله ﴿ لنفس ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبرا لها . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأسباب . أى ما كان لها أن تموت فى حالة من الأحوال أو لسبب من الأسباب ، إلا مأذونا لها منه سبحانه . والباء فى قوله ﴿ إلا بإذن الله ﴾ للمصاحبة .

وقوله ﴿ كتابا ﴾ مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة قبله ، وعامله مضمر والتقدير : كتب الله ذلك كتابا مؤجلا ، أى له اجل معلوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وهو آت لا ريب فيه . وقوله ﴿ مؤجلا ﴾ صفة لقوله . ﴿ كتابا ﴾ .

(١٠٦) تفسير المنار : ٤ /١٣٩ .

(١٠٧) تفسير المنار : ٤ /١٤٠ .

(١٠٨) تفسير المنار : ٤ /١٤١ .

(١٠٩) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٥/٤ .

(١١٠) كان هنا ناقصة وقوله : ﴿ قولهم ﴾ بالنصب خبرها، واسمها الاسم المتحصل من أن وما بعدها . فى قوله ﴿ إلا أن قالوا ﴾ و الاستثناء مفرغ ، أى : ما كان قولهم فى ذلك المقام، وفى غيره من المواطن، إلا قولهم هذا الدعاء . أى هو دأبهم وديدنهم .

(١١١) تفسير الآلوسى : ٨٧/٤ .

(١١٢) تفسير الطبرى : ٨٠/٤ .

(١١٣) تفسير المنار : ٤ /١٤٥ .

(١١٤) تفسير الطبرى : ٨١/٤ .

(١١٥) مختصر من تفسير الطبرى للآية : ٨١/٤ .

(١١٦) تفسير الفخر الرازى : ٣٢/٩ باختصار وحذف .

(١١٧) انظر تفسير المنار : ١٤٧/٤ . والفخر الرازى : ٣٢/٩ .

(١١٨) تفسير المنار : ٤ /١٤٧ . بتصرف .

(١١٩) هامش تفسير الطبرى : ١٠٧/٤ ـ ١٠٨ .

(١٢٠) د . عبد الله شحاتة : فى نور القرآن : ٨٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٢١) تفسير المنار : ٤ /١٥٤ ، بتصرف .

(١٢٢) تفسير المنار : ٤ /١٥٤ بتصرف واختصار .

(١٢٣) تفسير المنار : ٤ /١٥٦ ، بتصرف واختصار .

(١٢٤) تفسير الفخر الرازى ٩/٥١ .

(١٢٥) التفسير الحديث للأستاذ محمد عرة دروزة : ٨/١٧٠ .

(١٢٦) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ٨/١٧٢ .

(١٢٧) أخرجه ابن أبى شيبة فى مسنده ، والبخارى فى الأدب ، وأشار إليه الترمذى فى آخر باب الجهاد .

(١٢٨) حكاه الواقدى عن الكلبى ، ومقاتل .

(١٢٩) متع لمسافر .

(١٣٠) هو فى النار

رواه البخارى فى الجهاد والسير ح ٣٠٧٤ ، وابن ماجه فى الجهاد ح ٢٨٤٩ ، وأحمد ح ٦٤٥٧ من حديث عبد الله بن عمرو .

غلها : سرقها من الغنيمة ، رواه البخارى نقلا عن تاج الأصول : ٤/٣٩١ . كتاب الجهاد .

(١٣١) انظر أبا داود فى كتاب الجهاد - باب تعظيم الغلول .

(١٣٢) انظر الطبرسى والطبرى والخازن فى تفسير الآية . وفيها روايات أنها نزلت فى حق شهداء بدر أو أحد أو بدر وأحد ، أو شهداء بئر معونة .

(١٣٣) مازالت الملائكة تظله بأجنحتها

رواه البخارى فى الجنائز ح ١٢٤٤ ، ١٢٩٣ ، وفى الجهاد ح ٢٨١٦ ، وفى المغازى ح ٤٠٨٠ ، ومسلم فى فضائل الصحابة ح ٢٤٧١ ، والنسائى فى الجنائز ح ١٨٤٢ ، ١٨٤٥، وأحمد ح ١٣٧٧٥ ، ١٣٨٨٣ من حديث جابر بن عبد الله .

أخرجه البخارى ومسلم والنسائى ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى: ١/٣٣٦ .

(١٣٤) لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم

رواه أبو داود فى الجهاد ح ٢٥٢٠ ، وأحمد ح ٢٣٨٤ ، من حديث ابن عباس . قلت : فى إسناده محمد بن إسحاق ، وقد عنعنه .

(١٣٥) أسباب النزول للواحدى : ٧٣ .

(١٣٦) المرجع السابق : ٧٤ .

(١٣٧) تفسير القرطبى : ٤/٢٦٨ .

(١٣٨) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى : ٤٤٤ .

(١٣٩) يا أم حارثة إنها جنان وليست جنة

رواه البخارى فى الجهاد ح ٢٨٠٩ ، وفى المغازى ح ٣٩٨٢ ، وفى الرقاق ح ٦٥٥٠ ، ٦٥٦٧ ، وأحمد ح ١٢٧٨٨، ١٢٨٣٨، ١٣٣٣٠ ، ١٣٣٧٦ ، ١٣٥٩٩ ، ١٣٦٠٣ من حديث أنس بن مالك .

(١٤٠) هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر

رواه البخارى فى الجهاد والسير ح ٢٧٥٨ ، والنسائى فى الجهاد ح ٣١٢٨ ، وأحمد ح ٨٣٣٥ من حديث أبى هريرة ، ولفظه : " هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر " . قال : ومن يستطيع ذلك . قال أبو هريرة: " إن فرس المجاهد ليستن فى طوله فيكتب له حسنات " . اهـ

(١٤١) تفسير ابن كثير والألوسى والفخر الرازى والطبرى والطبرسى والخازن .

(١٤٢) ج ٣ ص ٩٠ ـ ٩١ و ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(١٤٣) هذه رواية ابن سعد .

(١٤٤) انظر تفسير الطبرى والخازن .

(١٤٥) هو جابر بن عبد الله ، وهو الوحيد الذى سمح له بالخروج إلى حمراء الأسد ممن لم يشهدوا غزوة أحد . وانظر تفسير ابن كثير .

(١٤٦) التفسير الحديث ، للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٨٧/٨ .

(١٤٧) من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته

رواه البخارى فى الزكاة ح ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٥٦٥ ، والنسائى فى الزكاة ح ٢٤٨٢ ، وابن ماجه فى الزكاة ح ١٧٨٧ ، وأحمد ح ٨٤٤٧ من حديث أبى هريرة .

(١٤٨) التفسير الحديث ، للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٩٤/٨ .

(١٤٩) الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل

بوب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٢٣ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨، ١٦١٠ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٨٣ من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٥٠) يا سعد ألم تسمع ما قال أبو الحباب

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٥٦٦ ، وفى الأدب ح ٦٢٠٧ ، وفى الاستئذان ح ٦٢٥٤ ، وفى الاستئذان ح ٦٢٥٤ ، ومسلم فى الجهاد والسير ح ١٧٩٨ ، وأحمد ح ٢١٢٦٠ من حديث أسامة بن زيد .

(١٥١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى : ٣٤٥/١ .

(١٥٢) من سئل عن علم فكتمه

رواه الترمذى فى العلم ٢٦٤٩ ، وأبو داود فى العلم ح ٣٦٥٨ ، وابن ماجه فى المقدمة ح ٢٦٦ ، وأحمد ح ٧٥١٧ ، ٧٨٨٣ ، ٧٩٨٨ ، ٨٣٢٨ ، ٨٤٢٤ ، ١٠٠٤٨ ، من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجه فى المقدمة ح ٢٦٤ من حديث أنس بن مالك .

(١٥٣) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب : ٥٤٥/٤ .

(١٥٤) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب : ٥٤٥/٤ .

(١٥٥) بت عند خالتى ميمونة

رواه البخارى فى الوضوء ح ١٣٨ ، وفى الأذان ح ٦٩٩ ، ٨٥٩ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٥٦٩، ٤٥٧٠ ، ومسلم فى صلاة المسافرين ح ٧٦٣ ، والنسائى فى الإمامة ح ٨٠٦ ، وفى التطبيق ح ١١٢١ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٣٥٦، ١٣٦٥، وابن ماجه فى الطهارة ح ٤٢٣ ، وفى إقامة الصلاة ح ٩٧٣، وأحمد ح ١٩١٥ ، ٣١٦٠، ٣١٨٤، ٣٢٩١، ٣٢٩١، ٣٣١٤، ٣٣٦٢، ٣٣٧٩، ٣٥٠٤ من حديث ابن عباس .

مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ٣٤٧/١.

(١٥٦) انظر تفسير القاسمى : ١٠٦٦/٤ .

(١٥٧) صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا

رواه البخارى فى الجمعة ح ١١١٧ ، والترمذى فى الصلاة ح ٣٧١ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٩٥٢، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح١٢٢٣، والنسائى فى قيام الليل ح ١٦٦٠، وأحمد ح ١٩٣١٨ من حديث عمران بن حصين.

مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى : ٣٤٦/١.

(١٥٨) إذا صلى أحدكم فليبدأ بالتحميد

رواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٤٧٧ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٤٨١ ، وأحمد ح ٢٣٤١٩ من حديث فضالة بن عبيد . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

أخرجه أبو داود فى ٨ كتاب الوتر . ٢٣ باب الدعاء حديث ١٤٨١ نقلاً عن تفسير القاسمى ١٠٦٨/٤ .

(١٥٩) نعم وأنت صابر محتسب - القتل فى سبيل الله .

رواه مسلم فى الإمارة ح ١٨٨٥ ، والترمذى فى الجهاد ح ١٧١٢، والنسائى فى الجهاد ح٣١٦٥، ٣١٧٥، وأحمد ح ٢٢٠٣٦، ٢٢٠٧٩ ، ٢٢١٢٠ ، ومالك فى الجهاد ح ١٠٠٣ ، والدارمى فى الجهاد ح ٢٤١٢ من حديث أبى قتادة . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . قلت : ولفظه : "نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل قال لى ذلك".

(١٦٠) يا مكة لأنت أحب بلاد الله إلى

رواه الترمذى فى المناقب ح ٣٩٢٦ ، من حديث ابن عباس بلفظ : " ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك " . وقال : حديث حسن صحيح غريب . رواه أحمد ح ١٨٢٤٢ من حديث أبى هريرة بنحوه .

(١٦١) لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة

رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٠٢٣ من حديث أم سلمة .

(١٦٢) انظر علوم القرآن للمؤلف . موضوع أسباب النزول . وانظر أيضًا المرأة المسلمة بين الماضى والحاضر للمؤلف ، وانظر تفسير الآيات فى كتاب التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ٢٠١/٨ .

(١٦٣) ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه

رواه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ح ٢٨٥٨ ، والترمذى فى الزهد ح ٢٣٢٣، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٠٨ ، وأحمد ح ١٧٥٤٧، ١٧٥٤٨، ١٧٥٥١، ١٧٥٥٣، ١٧٥٥٩، ١٧٥٦٠ من حديث المستورد . وقال الترمذى حديث حسن صحيح .

صحيح مسلم ج٢ ص ٥٤٠ (باب فناء الدنيا) .

(١٦٤) انظر تفسير الطبرى والطبرسى وابن كثير والخازن والبغوى والزمخشرى.

(١٦٥) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة .

(١٦٦) ألا أخبركم بما يمحوا الله به الخطايا

رواه مسلم فى الطهارة ح ٢٥١، والترمذى فى الطهارة ح ٥١، والنسائى فى الطهارة ح ١٤٣، وأحمد ح ٧١٦٨، ٧٦٧٢ ، ومالك فى النداء للصلاة ح ٣٨٦ من حديث أبى هريرة ورواه ابن ماجه فى المساجد ح ٧٧٦ ، وأحمد ح ١٠٦١١ من حديث أبى سعيد الخدرى.

(١٦٧) تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار ! تعس عبد الخميصة !

البخارى فى الجهاد ٢٨٨٧، وفى الرقاق ح ٦٤٣٥، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٥٣، ٤١٣٦ من حديث أبى هريرة . الخميصة : الثوب المخطط .

(١٦٨) قوله: وإذا شيك فلا انتقش أى : إذا أصابه شوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش.

(١٦٩) قال ابن الجوزى : المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو والرفعة .

(١٧٠) رباط يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه

مسلم فى الإمارة ١٩١٣ ، والترمذى فى الجهاد ح ١٦٦٥ وقال : حديث حسن ، والنسائى فى الجهاد ٣١٦٧، وأحمد ح ٢٣٢١٦، ٢٣٢٢٣ من حديث سلمان الفارسى .

(١٧١) أخرجه مسلم فى ٣٣ - كتاب الإمارة .

(١٧٢) حرمت النار - عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ٩٧ .

يشير إلى حديث " عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله" رواه الترمذى فى فضائل الجهاد ١٦٣٩ وقال : "حديث ابن عباس حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق . قلت : شعيب هذا . ضعفه بعضهم .

(١٧٣) أخرجه مسلم فى ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها .

(١٧٤) يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله

مسلم فى صلاة المسافرين ٨٠٥ ، والترمذى فى فضائل القرآن ح ٢٨٨٣ ، وقال : غريب وأحمد ح ١٧١٨٥ . من جديث نواس بن سمعان .

(١٧٥) حزقان : سريان أو مجموعتان

(١٧٦) المراد الآيات التى تبدأ من قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ... ﴾ آية ١٩٠ إلى آخر السورة وهى ١١ آية .

(١٧٧) مقتبس من تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت ، ط ٣، ص ٢٠٧ .

(١٧٨) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم : ١١٢ .

(١٧٩) استوصوا بالنساء خيرًا

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣٣٣١ ، وفى النكاح ح ٥١٨٦، ومسلم فى الرضاع ح ١٤٦٨ ، وأحمد ح ١٠٠٧١ ، والدارمى فى النكاح ح ٢٢٢١ من حديث أبى هريرة .

(١٨٠) تفسير الفخر الرازى : ١٦١/٩ .

(١٨١) تفسير الكشاف : ٤٦٢/١ .

(١٨٢) من استعاذ بالله فأعيذوه .. من سألكم بالله فأعطوه

أبو داود فى الزكاة ١٦٧٢ ، والنسائى فى الزكاة ٢٥٦٧ ، وأحمد ٦٨/٢ ، ٩٦ ، ٩٩ كلهم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه .

(١٨٣) من سره أن يبسط له فى رزقه

البخارى فى البيوع ٢٠٦٧، ومسلم فى البر والصلة ٢٥٥٧ ، وأبو داود فى الزكاة ١٦٩٣، كلهم عن أنس .

(١٨٤) الرحم معلقة بالعرش

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٥٥ ، من حديث عائشة .

(١٨٥) محاضرات فى التفسير لطلبة السنة الرابعة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة . مخطوط أملاه على الطلبة د . محمد عبد الله دراز فى العام الجامعى ١٩٥٤-١٩٥٥م.

(١٨٦) تفسير المنار : ٢٨٥/٤ ، أنظر التراث للجميع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد ١٨ جزء ٤ ص ٢٨٥ طبعة ثانية مأخوذة عن الطبعة الأولى .

(١٨٧) د. محمد بلتاجى : دراسات فى أحكام الأسرة ، مكتبة الشباب بالقاهرة : ٤٧١ .

(١٨٨) د. محمد عبد الله دراز تفسير سورة النساء . مخطوط ، والمرأة فى القرآن والسنة لمحمد عزة دروزة . ص ١١٧ .

(١٨٩) على حسب الله ، الزواج فى الشريعة الإسلامية الطبعة الأولى ص ١١٥ .

(١٩٠) راجع مطالبة بعض الأوربيات بتعدد الأزواج للرجل الواحد : ٣٦٠/٤ من تفسير المنار . وراجع كلاما حسنا للمرحوم الشيخ أحمد شاكر فى من يريد منع التعدد : ١٠٢/٣ - ١٠٩ ، عمدة التفسير للحافظ ابن كثير.

(١٩١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر : ١٠٢ ، هامش .

(١٩٢) اللهم هذا قسمي فيما أملك

رواه أبو داود في النكاح ح ٢١٣٤، والترمذي في النكاح ح ١١٤٠ ، والنسائي في عشرة النساء ح ٣٩٤٣، وابن ماجه في النكاح ح ١٩٧١ ، وأحمد ح ٢٤٥٨٧ ، والدارمي في النكاح ح ٢٢٠٧ من حديث عائشة ، واللفظ لأبي داود ، وأشار الترمذي إلى تضعيفه .

(١٩٣) من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى

أبو داود في النكاح ٢١٣٣ والترمذي في النكاح ١١٤١، والنسائي في عشرة النساء ٣٩٤٢ وابن ماجه في النكاح ١٩٦٩.

(١٩٤) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس .

(١٩٥) نداء للجنس اللطيف يوم المولد النبوي الشريف ، تأليف رشيد رضا ، ص ٤٥ .

(١٩٦) الضمير في ﴿ منه ﴾ يعود إلى الصدقات أي المهور. ﴿ نفسا ﴾ منصوب على التمييز من الضمير وهو نون النسوة في قوله : ﴿ طبن ﴾ . والتمييز محول عن الفاعل. والأصل فإن طابت أنفسهن عن شيء منه فكلوه .

(١٩٧) محاضرات في التفسير لطلبة ليسانس كلية دار العلوم سنة ١٩٥٤ / ١٩٥٥ .

(١٩٨) الا من ولي يتيما له فليتجر فيه

رواه الترمذي في الزكاة ح ٦٤١ ، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال: في إسناده مقال لأن المثنى بن الصباح يضعف في الحديث .

(١٩٩) تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر محمود شلتوت - الأجزاء العشرة الأولى ص ١٨٣.

(٢٠٠) تفسير سورة النساء للدكتور محمد سيد طنطاوي . ص ٥١ .

(٢٠١) تفسير القرآن الكريم ، الطبعة الثالثة : ١٨٤ للأستاذ محمود شلتوت .

(٢٠٢) تفسير الفخر الرازي : ١٩٠/٩ .

(٢٠٣) التفسير الوسيط ، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر حزب ٨ ص ٧٦٠ .

(٢٠٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير : ٣٦٠/١ .

(٢٠٥) هي محكمة وليست بمنسوخة .

رواه البخاري في تفسير القرآن ح ٤٥٧٦ من قول ابن عباس .

(٢٠٦) تفسير القرطبي : ٤٩/٥ .

(٢٠٧) وهو أول من نقط المصاحف وتوفى سنة ١٢٩ هـ .

(٢٠٨) تبصرة المتذكر ، وتذكرة المتبصر . لأحمد بن يوسف الموصلي الكواشي تحقيق السيدة/ مفيدة آدم محمد زين : ٦٣٢.

(٢٠٩) تفسير سورة النساء . للأستاذ / محمد سيد طنطاوي :٦٧ .

(٢١٠) تفسير التحرير والتنوير : ٢٥٣ .

(٢١١) في ظلال القرآن : ٨٩/٤ .

(٢١٢) تفسير الفخر الرازي : ١٠٠/٩ .

(٢١٣) انظر اللسان : ٢٠١/١٩ ، وانظر تفسير الكواشي المسمى (تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر) تحقيق الأستاذة مفيدة آدم : ٦٣٣. رسالة ماجستير بإشراف المؤلف .

(٢١٤) رواه ابن حبان فى صحيحه . وابن مردويه ، وابن أبى حاتم عن أبى برزة .

رواه النسائى فى الوصايا ح ٣٦٦٩ ، وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٧١ ، من حديث ابن عباس.

(٢١٥) تفسير ابن كثير : ٤٥٧/١ .

(٢١٦) تفسير الفخر الرازى : ٢٠٢/٩ .

(٢١٧) اجتنبوا السبع الموبقات

رواه البخارى فى الوصايا ح ٢٧٦٧، ومسلم فى الإيمان ح٨٩، والنسائى فى الوصايا ح ٣٦٧١، وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبى هريرة .

(٢١٨) أنا وكافل اليتيم

رواه البخارى فى الطلاق ح ٥٣٠٤ ، وفى الأدب ح ٦٠٠٥ ، والترمذى فى البر والصلة ح١٩١٨، وأبو داود فى الأدب ح ٥١٥٠ ، وأحمد ح ٢٢٣١٣، من حديث سهل بن سعد ، وقال الترمذى : حسن صحيح . ومالك فى الجامع ح ١٧٦٨ بلاغا.

(٢١٩) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة:١١٥

(٢٢٠) قال تعالى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .(النساء /١٧٦).

(٢٢١) قال تعالى : وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ . (النساء : ١٢).

(٢٢٢) قال تعالى : وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ . (النساء : ١٢) .

(٢٢٣) قال تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ . (النساء : ١١).

(٢٢٤) قال تعالى : وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ ... .

(٢٢٥) قال تعالى : وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ .

(٢٢٦) قال تعالى : وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ . (النساء : ١٢) . والمراد بالكلالة من لا ولد له ولا والد ، والإجماع على أن المراد بالأخ ، والأخت فى هذه الآية الإخوة لأم فقط، انظر الميراث فى الشريعة الإسلامية للأستاذ على حسب الله : ٥٦ .

(٢٢٧) إن الرجل ليعمل ستين سنة بطاعة الله ، ثم يجور فى وصيته

رواه ابن ماجه فى الوصايا ٢٧٠٤ واللفظ له ، الترمذى فى الوصايا ٢١١٧ وقال :" هذا حديث حسن صحيح غريب"، وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٦٧، وأحمد ح٧٦٨٤، من حديث أبى هريرة.

مختصر تفسير ابن كثير :٣٦٦ . ونقل حديثا آخر عن أبى داود فى باب الإضرار فى الوصية . وهو فى نفس معنى هذا الحديث .

(٢٢٨) خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا

مسلم فى الحدود ١٦٩٠ وأبو داود فى الحدود ٤٤١٥ والترمذى فى الحدود ١٤٣٤ وقال: "حديث حسن صحيح " وابن ماجه فى الحدود ٢٥٥٠ والدارمى فى الحدود ١٨١/٢، كلهم عن عبادة بن الصامت ، وأحمد ٤٧٦/٣ عن سلمة بن المحبق .

(٢٢٩) مختصر تفسير ابن كثير : ٣٦٦/١ بتصرف واختصار .

(٢٣٠) المبسوط : ٤٤/٩ .

(٢٣١) انظر المدونة : ٢٣٦/٦ . والجامع لأحكام القرآن : ١٦٥٨ .

(٢٣٢) تفسير الألوسى : ٢٣٦/٥ .

(٢٣٣) تفسير سورة النساء للأستاذ/ محمد سيد طنطاوى : ١٠٦ .

(٢٣٤) يا عبادى . إنى حرمت الظلم على نفسى

مسلم فى البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، وأحمد ١٦٠/٥، كلاهما عن أبى ذر رضى الله عنه.

(٢٣٥) لفظ التوبة مبتدأ ، وقوله : ﴿ للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ متعلق بمحذوف خبر ، وقوله ﴿ على الله ﴾ متعلق بمحذوف صفة للتوبة أى إنما التوبة الكائنة على الله كائنة للذين يعملون السوء بجهالة .

(٢٣٦) أى تدركه غرغرة الموت .

(٢٣٧) إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر

الترمذى فى الدعوات ٣٥٣٧ وقال : "حديث حسن غريب"، وابن ماجه فى الزهد ٤٢٥٣ وقال البوصيرى فى الزوائد : "فى إسناده الوليد بن مسلم . وهو مدلس ، وقد عنعنه . وكذلك مكحول الدمشقى"، وأحمد ١٣٢/٢، ١٥٣ كلهم عن ابن عمر .

(٢٣٨) أن تصدق وأنت صحيح شحيح

رواه البخارى فى الزكاة ح ١٤١٩، وفى الوصايا ح ٢٧٤٨ ، ومسلم فى الزكاة ح ١٠٣٢، والنسائى فى الزكاة ح ٢٥٤٢، وفى الوصايا ٣٦١١، وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٦٥، وابن ماجه فى الوصايا ح ٢٧٠٦، وأحمد ح ٧١١٩ ، ٩٤٧٦ . من حديث أبى هريرة.

(٢٣٩) أى : أفضل الصدقة وأفضل الأعمال الصالحة ما عمله الإنسان فى صحته وقوته والدنيا مقبلة عليه ، وهو قادر على الطاعة والمعصية . ولا تؤخر الصدقة إلى أن يهجم الموت فتوصى بالمال لفلان وفلان ، ممن لهم عليك ديون أو صدقات واجبة ، أو صلة للرحم . أو أى عمل صالح توصى به . (وقد صار المال إلى فلان) أى : أصبح المال ملكا لورثتك .

(٢٤٠) كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٥٧٩ موقوفا على ابن عباس .

(٢٤١) رواه الطبرانى عن ابن عباس .

(٢٤٢) استوصوا بالنساء خيرًا

تقدم تخريجه رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، ورواه مسلم فى صحيح عن جابر فى خطبة حجة الوداع .

(٢٤٣) فى ظلال القرآن : ٩٨/٤.

(٢٤٤) تفسير القرطبى : ١٠٢/٥ .

(٢٤٥) رواه الإمام أحمد .

(٢٤٦) خير الصداق أيسره

ذكره أبو داود فى النكاح تحت حديث رقم ٢١١٧ تعليقًا من حديث عمر بن الخطاب ، وهو بلفظ : خير النكاح أيسره . أخرجه أبو داود فى باب «من تزوج ولم يسم صداقًا حتى مات » من كتاب النكاح : ٢٢١/٢ .

(٢٤٧) إن أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة

أحمد ٨٢/٦ ، ١٤٥ ، والبيهقى فى السنن الكبرى فى الصداق ٢٣٥/٧ .

(٢٤٨) انظر تفسير ابن كثير : ٤٦٨/١ : ومختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٠/١ وتفسير القرطبى : ١٦٧٤ . وأسباب النزول للواحدى : ٩٨.

(٢٤٩) مختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٠/١ .

(٢٥٠) حجة الله البالغة : ٢/٩٨ .

(٢٥١) يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب

رواه البخارى فى الشهادات ح ٢٦٤٥، وفى النكاح ح ٥٢٣٩ ، ومسلم فى الرضاع ح ١٤٤٤ ، ١٤٤٥، ١٤٤٧ . والنسائى فى النكاح ٣٣٠١ . ٣٣٠٢ ، ٣٣٠٦ . وأبو داود فى النكاح ح ٢٠٥٥ ، وابن ماجه فى النكاح ح ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، وأحمد ح ٢٤٨٦، ٢٦٢٨، ٢٣٦٥ ، ٢٣٧٢٢. ومالك فى الرضاع ح ١٢٧٨، ١٢٩١ ، والدارمى فى النكاح ح ٢٢٤٧، ٢٢٤٨، ٢٢٤٩ .

(٢٥٢) لا تحرم المصة ولا المصتان

رواه مسلم فى الرضاع ح ١٤٥٠ ، والترمذى فى الرضاع ح ١١٥٠ ، والنسائى فى النكاح ح ٣٣٠٩، ٣٣١٠، وأبو داود فى النكاح ح ٢٠٦٣، وابن ماجه فى النكاح ح ١٩٤١، وأحمد ح ١٥٦٨٩، ٢٣٥٠٦، ٢٤١٢٣، والدارمى فى النكاح ح ٢٢٥١.

(٢٥٣) لا تحرم الرضعة

رواه مسلم فى الرضاع ح ١٤٥١، وابن ماجه فى النكاح ح ١٩٤٠ من حديث أم الفضل.

مختصر تفسير ابن كثير : ١/٣٧٣ .

(٢٥٤) أسلمت وعندى امرأتان أختان

أبو داود فى الطلاق ٢٢٤٣، والترمذى فى النكاح ١١٢٩ ، وابن ماجه فى النكاح ١٩٥٠، وأحمد ٤/٢٣٢، كلهم عن فيروز الديلمى .

(٢٥٥) مختصر تفسير ابن كثير : ١/٣٧٤ .

(٢٥٦) لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها

البخارى فى النكاح ٥١٠٨ - ٥١١٠ ، ومسلم فى النكاح ١٤٠٨ ، وأبو داود فى النكاح ٢٠٦٥ ، والترمذى فى النكاح ١١٢٦، وأحمد ٢/٤٠١، ٤٢٣ .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء الرابع

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء الرابع ويليه

الجزء الخامس بإذن الله

تحريم الخليلات

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) ﴾

المفردات:

المحصنات: واحدتهن: محصَنة (بفتح الصاد) يقال: حصُنت المرأة (بضم الصاد) حصنا وحصانة: إذا كانت عفيفة فهى حاصن وحصان (بفتح الصاد) ويقال: أحصنت المرأة: إذا تزوجت؛ لأنها تكون فى حصن الرجل وحمايته، وأحصنها أهلها: زوجوها.

ما ملكت أيمانكم: أى: بالسبى فى حروب دينية، وأزواجهن كفار فى دار الحرب؛ فينفسخ عند ذلك نكاحهن، ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحامل حملها وحيض غيرها ثم طهرها.

الإحصان: العفة.

المسافح: الزانى.

الاستمتاع بالشيء: هو التمتع به.

الأجور: واحدها: أجر: وهو فى الأصل الجزاء الذى يعطى فى مقابلة شىء ما من عمل أو منفعة، والمراد به هنا: المهر.

فريضة: أى: حصة مفروضة محددة مقدرة.

لا جناح: أى: لا حرج ولا تضييق.

الاستطاعة: كون الشيء فى طوعك لا يتعاصى عليك، والطول الغنى والفضل من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب.

المحصنات: هنا: الحرائر.

الفتيات: الإماء.

محصنات: أى: عفيفات.

مسافحات: مستأجرات للبغاء.

الأخدان: واحدهم: خدن وهو الصاحب ويطلق على الذكر والأنثى، وهو أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سرا فلا تبذل نفسها لكل أحد.

الفاحشة: الفعلة القبيحة وهى: الزنى.

المحصنات: هنا: الحرائر.

العذاب: هو الحد الذى قدره الشارع وهو مائة جلدة، فنصفها خمسون ولا رجم عليهن؛ لأنه لا ينتصف.

العنت: الجهد والمشقة.

تمهيد:

هاتان الآيتان من تتمة ما قبلهما من المعنى فقد ذكر فى أولاهما بقية ما يحرم من النساء وحل سوى من تقدم، ووجوب إعطاء المهور، وذكر فى الآية الثانية حكم نكاح الإماء وحكم حدهن عند ارتكاب الفاحشة، لكن من قسموا القرآن ثلاثين جزءا جعلوهما أول الجزء الخامس، مراعاة للَّفظ دون المعنى إذ لو راعوه لجعلوا أول الخامس : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ .

٢٤ - وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ... أى: حرم الله عليكم نكاح المحصنات أى: المتزوجات. وَٱلْمُحْصَنَٰتُ. معطوف على قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ. والمعنى: وكما حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم وبناتكم ... إلخ. فقد حرم عليكم أيضا نكاح ذوات الأزواج من النساء عامة، حرائر وغير حرائر إلاَّ ما سبيتم وملكتم منهن فى حرب بينكم وبين الكفار، فإن نكاحهن السابق ينفسخ بالسبى فيصرن حلالا لكم بعد استبراء أرحامهن.

وقد كان الإسلام مضطرا إلى هذه المعاملة؛ لأنها معاملة بالمثل، والإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه وقد جاء الإسلام والرق كنهر يجرى فحاول الإسلام توسيع المصب وتضييق المنبع؛ حتى يجف نهر الرق. وقد حرم الرق الآن؛ وروح الإسلام تبارك هذا التحريم.

كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ . أى: كتب عليكم تحريم هذه الأنواع كتابا مؤكدا، فالزموا ما كتب الله عليكم فى تحريم ما حرم، ولكم فيما عدا هؤلاء المؤمنات المحرمات، أن تطلبوا النساء اللاتى أحلهن الله لكم

عن طريق ما تقدمونه لهن من أموالكم كمهور لهن وبذلك تكونون قد أحصنتم أنفسكم ومنعتموها عن السفاح والفجور والزنى.

فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً. أى: وأى امرأة من النساء اللواتى أحللن لكم تزوجتموها فأعطوها الأجر وهو المهر بعد أن تفرضوه وتتفقوا عليه عند العقد، فريضة فرضها الله عليكم.

وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الفَرِيضَةِ. ولا حرج عليكم فيما تم بينكم عن تراض من تنازل زوجة عن بعض مهرها، أو زيادة زوج فيه.

إن الله كان ولم يزل مطلعًا على شئون العباد مدبرًا لهم فى أحكام ما يصلح به أمرهم.

٢٥ – **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَاتِ واللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ...** أى: ومن لم يجد منكم – أيها الأحرار المؤمنون – سِعةً من المال تمكّنه من القيام بتكاليف الزواج من إحدى الحرائر المؤمنات؛ فلينكح أَمَةً من الإماء المؤمنات؛ لخفة تكاليف الزواج منها، ويتخذ منها زوجة دون غضاضة فى ذلك الزواج، فقد يكون فى قوة إيمان الأَمَةِ ما يعوضه خيرا مما فاته من نكاح الحرة، والله وحده هو الذى يعلم حقيقة إيمانكم، الذى هو أساس التفاضل بينكم عنده سبحانه وتعالى، فأنتم جميعا أمام الله سواء؛ أكرمكم عند الله أتقاكم.

فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وءاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ. أى: فإذا رغب أحدكم أن يتزوج إحدى الإماء المسلمات، فليكن نكاحه إياها بإذن وليها ومالكها، وليؤد لها مهرها، من غير إضرار أو نقص بل المهر المتعارف لأمثالهن، مع حسن التعامل وتوفية الحق، واختاروهن عفيفات، فلا تختاروا زانية معلنة ولا خليلة، فإن أتين الزنى بعد زواجهن؛ فعقوبتهن نصف عقوبة الحرة، وإباحة نكاح المملوكات عند عدم القدرة جائز لمن خاف منكم المشقة المفضية إلى الزنى، وصبركم عن نكاح المملوكات مع العفة خير لكم. والله كثير المغفرة عظيم الرحمة.



التيسير

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

التمهيد:

بعد أن ذكر أحكام النكاح فيما سلف على طريق البيان والإسهاب، ذكر هنا: عللها وأحكامها كما هو دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التى يشرعها للعباد ببيان العلل والأسباب؛ ليكون فى ذلك طمأنينة للقلوب، وسكون للنفوس؛ لتعلم مغبة ما هى مقدمة عليه من الأعمال، وعاقبة ما كلفت به من الأفعال، حتى تقبل عليها وهى مثلجة الصدور عالمة بأن لها فيها سعادة فى دنياها وأخراها، ولا تكون فى عماية من أمرها؛ فتتيه فى أودية الضلالة، وتسير قدما لا إلى غاية.

٢٦ - **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** . يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين؛ لتقتفوا آثارهم وتسيروا سيرتهم، ويتوب عليكم من الإثم والمحارم واتباع الشهوات والمعاصى، ويريد الله أن يرجع بكم إلى طريق طاعته والله مطلع على شئونكم مدبر فى أحكامه لما يصلح أمركم.

٢٧ - **واللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا** . والله سبحانه يريد أن يتوب عليكم فيفتح لكم باب التوبة والأمل، ويريد أتباع الشياطين من اليهود، والنصارى، والزناة أن تميلوا عن الحق، وتنحرفوا إلى الضلالة انحرافا عظيما؛ حتى تكونوا مثلهم وهذا شأن المنحرفين دائما يريدون أن يكون الناس على طريقتهم؛ حتى يسلموا من ذمهم ولومهم.

٢٨ - **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** . يريد الله أن ييسر عليكم بتشريع ما فيه سهولة لكم وتخفيف عليكم، وقد خلق الإنسان ضعيفا أمام غرائزه وميوله، فيناسبه من التكاليف ما فيه يسر وسعة، لضعفه فى نفسه، وضعف عزمه وهمته.

★ ★ ★

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

تمهيد:

بعد أن ذكر فيما سلف كيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد وعدم دفع الأموال إلى السفهاء، ثم بين وجوب دفع المهور للنساء وأنكر عليهم أخذها بوجه من الوجوه، ثم ذكر وجوب إعطاء شيء من أموال اليتامى إلى أقاربهم إذا حضروا القسمة، ذكر هنا قاعدة عامة للتعامل في الأموال؛ تطهيرا للأنفس في جمع المال المحبوب لها فقال:

٢٩ - **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِنْكُمْ.** يأيها الذين آمنوا لا يأخذ بعضكم مال بعض بغير الحق أي: بأنواع المكاسب غير المشروعة كأنواع الربا، والقمار، والسرقة، والغصب، والرشوة، واليمين الكاذبة، وشهادة الزور، ونحو ذلك مما حرمه الله.

وبَيَّن وسيلة من وسائل الكسب الحلال، وهي التجارة القائمة عن تراض يتعامل الناس فيها معا، ويقيمونها بينهم كما بينها رسول الله ﷺ، وفصلها الفقهاء في كتبهم، ويلحق بالتجارة كل أسباب التملك التي أباحها الشارع كالهبة، والصدقة، والإرث.

وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ. أي: بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل، **إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا.** فيما أمركم به ونهاكم عنه.

روى الإمام أحمد وأبو داود: أن عمرو بن العاص كان أميرا على الجيش في سرية ذات السلاسل فأصبح جنبا في ليلة باردة شديدة البرد؛ فتيمم وصلى بأصحابه ثم أخبر بذلك رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، احتلمت في ليلة باردة وأشفقت إن اغتسلت أن أهلك؛ فذكرت قول الله عز وجل: **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُم إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا.** فتيممت ثم صليت؛ وضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا[1].

وفي الصحيحين: «من قتل نفسه بشيء عذب به إلى يوم القيامة»[2].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه؛ فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسى سما فقتل نفسه؛ فسمه في

يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة؛ فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدًا»[٣].

٣٠ – وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ... ومن يقدم على فعل ما حرم الله، معتديا فيه ظالما فى تعاطيه. أى: عالما بتحريمه متجاسرا على انتهاكه.

فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا. فسوف ندخله نارا يحترق فيها، وكان ذلك على الله هينا ميسورًا.



﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

المفردات:

الاجتناب: ترك الشىء جانبا، والكبائر واحدتها كبيرة وهى المعصية العظيمة، والسيئات: واحدتها: سيئة، وهى الفعلة التي تسوء صاحبها عاجلا أو آجلا، والمراد بها هنا: الصغيرة.

نكفر: نغفر ونمح.

مدخلا كريما: أى: مكانا كريما وهو الجنة.

تمهيد:

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن قتل النفس، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات، نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها، ووعد من تركها بالمدخل الكريم.

التفسير:

٣١ – إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ. أى: إن تتركوا جانبا كبائر ما ينهاكم الله عنه ارتكابه من الذنوب والآثام؛ نمح عنكم صغائرها فلا نؤاخذكم بها.

وقد اختلف فى عدد الكبائر فقيل: هى سبع؛ لما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[٤]، وفى رواية لهما عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم

بأكبر الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وكان متكئا فجلس وقال - ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها؛ حتى قلنا: ليته سكت»[٥].

وفيهما أيضا من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يعلن الرجل والديه، قالوا: وكيف يعلن الرجل والديه؟! قال: يسب أبا الرجل؛ فيسب أباه، ويسب أمه؛ فيسب أمه»[٦].

والأحاديث الصحيحة مختلفة فى عددها، ومجموعها يزيد على سبع؛ ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل: الكبائر سبع. قال: هى إلى سبعين أقرب. إذ لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، ومراده: أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطة غضب أو ثورة شهوة، وصاحبه متمكن من دينه، يخاف الله ولا يستحل محارمه، فهو من السيئات التى يكفرها الله تعالى، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس؛ لم يكن ليجترحه تهاونا بالدين، إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله؛ فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه، ويكفر عنه.

وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة ينظر الله إليه، ورؤيته إياه حيث نهاه، فهو مهما كان صغيرا فى صورته، أو فى ضرره، يعد كبيرا من حيث الإصرار والاستهتار، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده، والهمز واللمز (عيب الناس والطعن فى أعراضهم) - لمن تعوده - كل ذلك كبيرة ولا شك.

وكان النبى ﷺ يذكر فى كل مقام ما تمس إليه الحاجة، ولم يرد الحصر والتحديد.

وقال بعض العلماء: الكبيرة كل ذنب رتَّب عليه الشارع حدًّا أو صرح فيه بوعيد.

وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا. أى: وندخلكم مكانا لكم فيه الكرامة عند ربكم وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والعرب تقول: أرض كريمة، وأرض مكرمة، أى: طيبة جيدة النبات، قال تعالى: **فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ**. (الشعراء: ٥٧، ٥٨)



﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات:

التمنى: تشهى حصول الزمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون.

من فضله: أى: إحسانه ونعمه المتكاثرة.

تمهيد:

بعد أن نهى سبحانه عن أكل الأموال بالباطل، وعن القتل، وتوعد فاعلهما بالويل والثبور، وهما من أفعال الجوارح؛ ليصير الظاهر طاهرا من المعاصى الوخيمة العاقبة - نهى عن التمنى، وهو التعرض لها بالقلب حسدا؛ لتطهر أعمالهم الباطنة فيكون الباطل موافقا للظاهر، ولأن التمنى قد يجر إلى الأكل، والأكل قد يقود إلى القتل، فإن من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

التفسير:

٣٢ - ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.

أى: إن الله كلف كلا من الرجال والنساء أعمالا فما كان خاصا بالرجال لهم نصيب من أجره لا يشاركهم فيه النساء، وما كان خاصا بالنساء لهن نصيب من أجره لا يشاركهن فيه الرجال وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر وقد أراد الله أن يختص النساء بأعمال البيوت، والرجال بالأعمال الشاقة التى فى خارجها؛ ليتقن كل منهما عمله، ويقوم بما يجب عليه مع الإخلاص.

وعلى كل منهما أن يسأل ربه الإعانة والقوة على ما نيط به من عمل، ولا يجوز أن يتمنى ما نيط بالآخر، ويدخل فى هذا النهى تمنى كل ما هو من الأمور الخلقية كالعقل والجمال؛ إذ لا فائدة فى تمنيها لمن لم يعطها، ولا يدخل فيه ما يقع تحت قدرة الإنسان من الأمور الكسبية؛ إذ يحمد من الناس أن ينظر بعضهم إلى ما نال الآخرون ويتمنوا لأنفسهم مثله أو خيرا منه بالسعى والجد.

والخلاصة: أنه تعالى طلب إلينا أن نوجه الأنظار إلى ما يقع تحت كسبنا، ولا نوجهها إلى ما ليس فى استطاعتنا، فإنما الفضل بالأعمال الكسبية، فلا تتمنوا شيئا بغير كسبكم وعملكم.

فعلى المسلم أن يعتمد على مواهبه وقواه فى كل مطالبه، بالجد والاجتهاد مع رجاء فضل الله فيما لا يصل إليه كسبه إما للجهل به وإما للعجز عنه فالزارع يجتهد فى زراعته ويتبع السنن والأسباب التى سنها الله لعمله، ويسأل الله أن يمنع الآفات والجوائح عنه ويرفع أثمان غلاته إلى نحو أولئك مما هو بيد الله.

روى عكرمة: أن النساء سألن الجهاد فقلن: وددنا أن الله جعل لنا الغزو فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال؛ فنزلت: وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ. أى: لا تتمنوا نصيب غيركم، ولا تحسدوا من فضل الله عليكم واسألوا الله من إحسانه وإنعامه؛ فإن خزائنه مملوءة لا تنفد، روى أنه ﷺ قال: «سلوا الله من فضله؛ فالله يحب أن يسأل وإن من أفضل العبادة انتظار الفرج».

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِ شَىءٍ عَلِيمًا. وبذا فضل بعض الناس على بعض بحسب مراتب استعدادهم، وتفاوت اجتهادهم فى معترك الحياة، ولا يزال العاملون يستزيدونه ولا يزال ينزل عليهم من جوده وكرمه ما يفضلون به القاعدين الكسالى حتى بلغ التفاوت بين الناس فى الفضل حدا بعيدا، وكاد التفاوت بين الشعوب أن يكون أبعد من التفاوت بين بعض الحيوان وبعض الإنسان.



﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات:

الموالى: من يحق لهم الاستيلاء على التركة، مِمَّا تَرَكَ. أى: وارثين مما ترك، والَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ. هم الأزواج، فإن كلا من الزوجين له حق الإرث بالعقد، والمتعارف عند الناس فى العقد أن يكون بالمصافحة باليدين، قاله أبو مسلم الأصفهانى.

تمهيد:

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن تمنى أحد ما فضل الله به غيره عليه من المال؛ حتى لا يسوقه التمنى إلى التعدى، وهو وإن كان نهيا عاما فالسياق يعيِّن المراد منه، وهو المال؛ لأن أكثر التمنى يتعلق به ثم ذكر القاعدة العامة فى حيازة الثروة وهى الكسب؛ انتقل إلى نوع آخر تأتى به الحيازة وهو الإرث.

التفسير:

٣٣ - **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ**. أى: إن لكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا، ومن النساء اللواتى لهن نصيب مما اكتسبن، موالى لهم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم.

ثم بين هؤلاء الموالى فقال:

الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ. أى: إن هؤلاء الموالى هم جميع الورثة من الأصول، والفروع، والحواشى، والأزواج.

فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ. أى: فأعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المقدر لهم ولا تنقصوهم منه شيئا.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا. أى: إن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم فى التركة وغيرها، فلا يطمعنَّ من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئا، سواء أكان ذكرا أم أنثى، كبيرا أم صغيرا.

وجاءت هذه الآية: لمنع طمع الوارثين فى بعض.

★ ★ ★

قوامة الرجال

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) ﴾

المفردات:

يقال: هذا قيِّم المرأة وقوامها؛ إذا كان يقوم بأمرها ويهتم بحفظها وما به الفضل قسمان: فِطْرى: وهو قوة مزاج الرجل وكماله فى الخلقة، ويتبع ذلك قوة العمل وصحة النظر فى مبادئ الأمور

وغاياتها، وكَسْبى: وهو قدرته على الكسب والتصرف فى الأمور، ومن ثم كلف الرجال بالإنفاق على النساء والقيام برياسة المنزل.

القنوت: السكون والطاعة لله وللأزواج.

الحافظات للغيب: أي: اللاتى يحفظن ما يغيب عن الناس، ولا يقال إلا فى الخلوة بالمرأة.

تخافون: أي: تظنون.

نشزت الأرض: ارتفعت عما حواليها، ويراد بها هنا: معصية الزوج والترفع عليه.

البغى: الظلم وتجاوز الحد.

الشقاق: الخلاف الذي يجعل كلا من المختلفين في شق: أي: جانب، وخوفه توقع حصوله بظهور أسبابه.

الحكم: من له حق الحكم والفصل بين الخصمين، وبعث الحكمين: إرسَالُهما إلى الزوجين؛ لينظرا فى شكوى كل منهما، ويتعرفا ما يرجى أن يصلح بينهما.

تمهيد:

لما نهى سبحانه كلا من الرجال والنساء عن تمنى ما فضل الله به بعضهم على بعض، وأرشدهم إلى الاعتماد فى أمر الرزق على كسبهم وأمرهم أن يؤتوا الوارثين أنصبتهم، وفى هذه الأنصبة يستبين تفضيل الرجال على النساء – ذكر هنا أسباب التفضيل.

٣٤ – **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ.** الرجال لهم حق الصيانة والرعاية للنساء، والقيام بشئونهن؛ بما أعطاهم الله من صفات تهيئهم للقيام بهذا الحق، فقد خص الله الرجال بأمور منها:

الإمامة، والولاية، والميراث، والشهادة، والجهاد، والجمعة، والجماعات، وولاية الزوج على زوجته ولاية رعاية ومودة ورحمة لا ولاية غلظة ورهبة، كما أن ولاية الزوج على زوجته، تهيئ للزوجة الاستقرار فى البيت ورعاية شئون الأسرة.

والرجل أقدر – بطبيعته – على السعى والكدح فى سبيل تحصيل رزقه، ورزق أسرته؛ ليهيئ لها حياة سعيدة هانئة.

النساء قسمان:

قسم يفهم ويقدر قوامة الرجل على المرأة، فيلتزم بما أمر الله وهن الصالحات؛ فالصالحات مطيعات لله ولأزواجهن، حافظات لكل ما يغيب عن أزواجهن بسبب أمر الله بهذا الحفظ وتوفيقه لهن فى القيام بواجبهن، وهن يحفظن على الأزواج أموالهم وأعراضهم فى جميع الحالات.

أما القسم الثانى من النساء:

فهو قسم مكابر يرغب فى التعالى والخروج عن طاعة الزوج وقد شرع الإسلام العلاج لهذا النوع من النساء على النحو الآتى:

١ – الوعظ والإرشاد، والتوجيه، والتذكير بما أمر الله ورسوله من طاعة الزوج، والتزام أمره، والتحذير من شماتة الأعداء وتصدع شمل الأسرة.

٢ – الهجر والإعراض فى المضجع ويتحقق ذلك بهجرها فى الفراش مع الإعراض والصد.

٣ – الضرب اليسير غير المبرح، وهو ما كان بنحو سواك أو عصا صغيرة. وهو أمر معنوى أكثر منه حسى.

وهو خاص ببعض النساء ومن لا تستقيم بالوعظ ولا بالهجر، ويجب ألا يكون الضرب قاسيا ولا شديدا. وبعض الناس لا يتقبل عقوبة الضرب. ونحن نشاهد هذه العقوبة فى الجيش وفى غيره !.

وليست هذه العقوبة لجميع الناس، بل لفئة جاحدة لا تريد أن تخضع لقانون الله ولا أن تلتزم بشئون الأسرة.

فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا. أى: فإن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية؛ فلا تبغوا ولا تتجاوزوا ذلك إلى غيرها، فابدءوا بما بدأ الله من الوعظ، فإن لم يفد فبالهجر، فإن لم يفد فبالضرب الخفيف غير مبرح ولا مهين، عند التمرد، فإذا لم يغن فليلجأ إلى التحكيم، ومتى استقام لكم الظاهر فلا تبحثوا عن السرائر.

إن الله فوقكم وينتقم منكم إذا آذيتموهن أو بغيتم عليهن ونلمح أن فى نهاية الآية تهديدا ووعيدا لكل من يتكبر على زوجته، أو ينتهز الفرصة لإذلالها والعدوان عليها، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإذا دفعتك قوتك إلى ظلم غيرك؛ فتذكر قدرة الله عليك وفى الحديث القدسى: «يا عبادى؛ إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما؛ فلا تظالموا».

ويقول الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... الظلم شيمته يفضى إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

٣٥ – **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ** ...

المعنى:

وإن علمتهم أن بين الزوجين شقاقا قد استفحل خطره؛ فوجهوا إليهما حكما من أهل الزوج، وحكما من أهل الزوجة؛ لينظرا فيما بينهما من نزاع وشقاق فإذا خلصت نية الحكمين، وقصدا بصدق إلى التوفيق بين الزوجين؛ وفقهما الله تعالى إلى إزالة أسباب الخلاف والشقاق.

وينبغى أن نختار الحكمين من أهل الخبرة والحكمة والصلاح والمعرفة بشئون الصلح؛ لنحفظ البيوت والأسر من التصدع والأطفال من التشرد. فالإسلام حريص على دعم الأسرة وقيامها على المودة والرحمة والألفة كما أن الإسلام أمر بالصبر والصفح، وحسن الخلق والعشرة بالمعروف بين الزوجين.



﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

المفردات:

عبادة الله: الخضوع له، والاستشعار بتعظيمه فى السر والعلن بالقلب والجوارح، والإخلاص له بالاعتراف بوحدانيته؛ إذ لا يقبل عملا بدونها.

الإحسان إلى الوالدين: قصد البر بهما بالقيام بخدمتهما، والسعى فى تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة، وعدم الخشونة فى الكلام معهما.

ذى القربى: صاحب القرابة من أخ، وعم، وخال، وأولاد هؤلاء.

الجار ذى القربى: هو الجار القريب الجوار.

الجار الجنب: هو البعيد القرابة.

الصاحب بالجنب: الرفيق فى السفر، أو المنقطع إليك، الراجى نفعك ورفدك.

ابن السبيل: هو المسافر أو الضيف.

ما ملكت أيمانكم: عبيدكم وإماؤكم.

المختال: ذو الخيلاء والكبر.

الفخور: الذى يعدد محاسنه؛ تعاظما وتكبرا.
أعتدنا: هيأنا وأعددنا.
المهين: ذو الإهانة والذلة
رئاء الناس: أى: للمراءاة والفخر بما فعل.
القرين: الصاحب والخليل . وَمَاذَا عَلَيْهِم. أىّ ضرر يحيق بهم لو آمنوا وأنفقوا ؟

تمهيد:

كان الكلام من أول السورة فى وصايا ونصائح، كابتلاء اليتامى قبل تسليمهم أموالهم، والنهى عن إيتاء الأموال للسفهاء، وعن قتل النفس، والإرشاد إلى كيفية معاملة النساء، وطرق تأديبهن تارة بالموعظة الحسنة وأخرى بالقسوة والشدة، مع مراقبة الله عز وجل فى كل ذلك.

فناسب بعدئذ التذكير بحسن معاملة الخالق بالإخلاص له فى الطاعة، وحسن معاملة الطوائف المختلفة من الناس، وعدم الضن عليهم فى أوقات الشدة بالمال، مع قصد التقريب إلى الله لقصد الفخر والخيلاء.

التفسير:

٣٦ - وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ.

هذه آية تأمر بمكارم الأخلاق وهى سبيل من سبل التكافل والتراحم بين المسلمين.

وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا. أى: وحِّدوا الله وأخلصوا له العبادة، ولا تشركوا به صنما أو غيره؛ فهو سبحانه صاحب الفضل والنعمة، وهو الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور.

كما أمر الله بالإحسان إلى الوالدين ورعايتهما خصوصا فى مرحلة الكبر والشيخوخة.

كما أمر بصلة الرحم، والإحسان إلى الأقارب، والتجاوز عن هفواتهم، كما أمر برعاية اليتيم والإحسان إليه؛ لأنه فقد أباه فيجب أن يرعاه المجتمع ويحنو عليه، كما أمر برعاية المسكين المحتاج بأن نيسر له العمل والنصح ويشمل ذلك إنشاء الملاجئ، والمستشفيات، ودور الحضانة، ودروس تقوية التلاميذ، وإنشاء صندوق لرعاية المحتاجين. وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ.

أى: أحسنوا إلى الجار الذى قرب مكانا أو دينا أو نسبا، وإلى الجار البعيد مكانا أو دينا أو نسبا.

جاء فى تفسير ابن كثير :

قال ابن عباس: وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى. يعنى: الذى بينك وبينه قرابة، وَالْجَارِ الْجُنُبِ. الذى ليس بينك وبينه قرابة.

وروى ابن جرير أن الْجَارِ ذِى الْقُرْبَى . يعنى: الجار المسلم، الْجَارِ الْجُنُبِ . يعنى: اليهودى والنصرانى، وقال مجاهد: الْجَارِ الْجُنُبِ . الرفيق فى السفر.

وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار منها ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مازال جبريل يوصيني بالجار؛ حتى ظننت أنَّه سيورثه»[٧].

وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ. عن علي وابن مسعود قالا: هي المرأة، وقال ابن عباس ومجاهد: هو الرفيق في السفر، وقال الطبري والزمخشري: **وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ** . «هو الذي صحبك إما رفيقا في سفر، أو جارا ملاصقا، أو شريكا في تعلم علم، أو قاعدا إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك، ممن له أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه». **وَابْنِ السَّبِيلِ**. أي: المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله، **وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم**. أي: المماليك من العبيد والإماء، **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا**. أي: متكبرًا في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخورًا على الناس يرى أنه خير منهم.

قال ابن جرير عن أبي رجاء الهروي: لا تجد سيِّئ الملكة إلا وجدته مختالا فخورًا، ولا عاقا إلا وجدته جبارا شقيا ثم تلا: **وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا**. (مريم: ٣٢)

٣٧ - **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**... وضَّحت الآية المختال الفخور وهو المتكبر الذي لا يشكر الله على نعمه.

ومعنى الآية:

الذين يبخلون بأموالهم؛ فلا ينفقونها في وجوه البر والإحسان ولا يكتفون بهذا بل يأمرون غيرهم بالبخل ويحرضونهم عليه، ويخفون ما أنعم الله به عليهم؛ حتى لا يطمع الناس في أموالهم وإحسانهم.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا. أي: وأعددنا للكافرين عذابا مخزيا مذلا لكبريائهم وسماهم الله كفارا؛ للإيذان بأن هذه الأخلاق أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور لا من الشكور.

٣٨ - **وَالَّذِينَ يَنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِاليَومِ الآخِرِ**. أي: ولا يحب الله - كذلك - الذين ينفقون أموالهم للرياء وللسمعة، لا شكرًا لله على نعمه، ولا اعترافا بما أوجب الله عليهم من حق في أموالهم. ولا يصدقون بوقوع اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب؛ لأنهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر؛ لتحروا مرضاة الله، ولما رأوا أحدا أبدا.

وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا. أي: ومن يكن الشيطان له صاحبًا فبئس هذا الصاحب صاحبا؛ لأنه يضله ويقوده إلى الهلاك.

والآية تشير إلى أن البخيل والمتكبر ما حملهم على ما فعلوا إلاَّ وسوسة الشيطان وهو بئس الصاحب والخليل.

٣٩ - وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءامَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا.

الاستفهام هنا للتعجب والإنكار. أى: وما الذى كان يصيبهم لو آمنوا بالله إيمانا صحيحا يظهر أثره فى العمل، وفى هذا الأسلوب إثارة تعجيب الناس من حالهم، إذ هم لو أخلصوا؛ لما فاتتهم منفعة الدنيا ولفازوا مع ذلك بسعادة العقبى؛ فكثيرا ما يفوت المرائى ما يرمى إليه من التقرب إلى الناس وامتلاك قلوبهم، ويظفر بذلك المخلص الذى لم يكن من همه أن أحدا يعرف ما عمل، فيكون الأول قد رجع بخفى حنين فى حين أن الثانى فاز بسعادة الدارين.

وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا. فينبغى للمؤمن أن يكتفى بعلم الله فى إنفاقه ولا يبالى بعلم الناس، فهو سبحانه الذى لاينسى عمل العاملين ولا يظلمهم من أجرهم شيئا.

★ ★ ★

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

المفردات:

المثقال: أصله المقدار الذى له ثقل مهما قل، ثم أطلق على المعيار المخصوص للذهب وغيره.

الذرة: أصغر ما يدرك من الأجسام ومن ثم قالوا: إنها النملة، أو رأسها، أو الخردلة، أو الهباء (ما يظهر فى نور الشمس الداخل من الكوة).

ولذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة !

الظلم: النقص كما قال تعالى: كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا. ومن لدنه: من عنده.

الحديث: الكلام.

تمهيد:

بعد أن بين عز اسمه صفات المتكبرين وسوء أحوالهم، وتوعدهم على ذلك بأشد أنواع الوعيد، زاد الأمر توكيدا وتشديدا فذكر أنه لا يظلم أحدا من العاملين بوصاياه لا قليلا ولا كثيرا، بل يوفيه حقَّه بالقسطاس المستقيم، وفى هذا أعظم الترغيب لفاعلى البر والإحسان وحفز لهممهم على العمل، وفى معنى الآية قوله : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ.

التفسير:

٤٠ - **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**. أى: إنَّه تعالى لا ينقص أحدا من أجر عمله والجزاء عليه شيئا ما وإن صغر كذرة الهباء؛ بل يوفيه أجره، كما لا يعاقبه بغير استحقاق للعقوبة، إذ إنَّ الثواب والعقاب تابعان لتأثير الأعمال فى النفس بتزكيتها أو تدسيتها؛ فالعمل يرفعها إلى أعلى عليين أو يهبط بها إلى أسفل سافلين، ولذلك درجات ومثاقيل مقدرة فى نفسها لا يحيط بدقائقها إلا من أحاط بكل شىء علمًا.

والخلاصة: إن الظلم لا يقع من الله تعالى؛ لأنه من النقص الذى يتنزه عنه وهو ذو الكمال المطلق والفضل العظيم، وقد خلق للناس مشاعر يدركون بها ما لا يدركه الحس، وشرع لهم من أحكام الدين وآدابه ما لا تستقل عقولهم بالوصول إلى مثله فى هدايتهم وحفظ مصالحهم، وهى تسوق إلى الخير وتصرف عن الشّر وأيدها بالوعد والوعيد، فمن وقع بعد ذلك فيما يضره ويؤذيه كان هو الظالم لنفسه؛ لأن الله لا يظلم أحدا.

وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا. أى: إنه تعالى مع كونه لا ينقص أحدا من أجر عمله مثقال ذرة يزيد للمحسن فى حسناته، فالسيئات جزاؤها بقدرها، والحسنات يضاعف الله جزاءها عشرة أضعاف أو أضعافا كثيرة كما قال فى آية أخرى: **مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**. (الأنعام: ١٦٠). وقال: **مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**. (البقرة: ٢٤٥).

وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا. أى: إنه تعالى لواسع فضله لا يكتفى بجزاء المحسنين على إحسانهم فحسب، بل يزيدهم من فضله ويعطيهم من لدنه عطاء كبيرا، وسمى هذا العطاء أجرا ولا مقابل له من الأعمال؛ لأنه لما كان تابعا للأجر على العمل سمى باسمه لمجاورته له. وفى ذلك إيماء إلى أنه لا يكون لغير المحسنين، إذ هو علاوة على أجور أعمالهم، فلا مطمع للمسيئين فيه.

٤١ - **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا**. أى: إذا كان الله لا يضيع من عمل العاملين مثقال ذرة، فكيف يكون الناس إذا جمعهم الله وجاء بالشهداء عليهم وهم أنبياؤهم؟! فما من أمة إلا لها بشير ونذير.

وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم (لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين) ومقابلة عقائدهم، وأخلاقهم، وأعمالهم بعقائد الأنبياء، وأعمالهم، وأخلاقهم، فمن شهد لهم بينهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به؛ فهم ناجون، ومن تبرأ منهم أنبياؤهم لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاءوا به؛ فأولئك هم الخاسرون وإن ادعوا اتباعهم والانتماء إليهم.

وقوله: وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا. يراد به شهادة محمد ﷺ - خاتم المرسلين - على أمته كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا. أى: إن هذه الأمة بحسن سيرتها؛ تكون شهيدة على الأمم السالفة وحجة عليها فى انحرافها عن هدى المرسلين، والرسول ﷺ بسيرته وأخلاقه الغالية وسننه المرضية؛ يكون حجة على من تركها وتساهل فى اتباعها، وعلى من تغالى فيها وابتدع البدع المحدثة من بعده.

روى البخارى، والترمذى، والنسائى وغيرهم من حديث ابن مسعود أنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ على. قلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل؟! قال: نعم أحب أن أسمعه من غيرى، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ... إلخ، فقال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان ! »[٨].

فانظر كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم ﷺ فبكى لتذكر هذا اليوم، وهل نعتبر كما اعتبر ونستعد لهول ذلك اليوم؛ باتباع سنته ونجتهد فى اجتناب البدع والتقاليد التى لم تكن فى عهده؛ وبذا نكون أمة وسطا لا تفريط عندها فى الدين ولا إفراط، لا فى الشئون الجسمية ولا فى الشئون الروحية، أو نظل فى غوايتنا، تقليدا للآباء؛ لنكون كما قال الكافرون : إِنَّا وَجَدْنَآ ءابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ . (الزخرف: ٢٢)

٤٢ - يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ. أى: إذا جاء ذلك اليوم الذى نأتى فيه بشهيد على كل أمة، يتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يتبعوا ما جاء، أن يصيروا ترابا تسوى بهم الأرض؛ فيكونوا وإياها سواء كما قال تعالى: فى سورة النبإ: ... وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا. (النبأ: ٤٠)

وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا. أى: أنهم يودون لو يكونون ترابا فتسوى بهم الأرض ولا يكونون قد كتموا الله وكذبوا أمامه على أنفسهم بإنكار شركهم وضلالهم كما قال تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُم تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ. (الأنعام: ٢٢-٢٤)، أى: فهم حينئذ يكذبون وينكرون شركهم إما اعتقادًا منهم أن ما كانوا عليه ليس بشرك، وإما هو استشفاع وتوصل، وإما مكابرة وظنا أن ذلك يجديهم ويدفع عنهم العذاب، فيشهد عليهم الأنبياء المرسلون أنهم لم يكونوا متبعين لهم فيما أحدثوا من شركهم، بل كانوا مبتدعين ذلك من عند أنفسهم، فقد قاسوا ربهم على ملوكهم الظالمين وأمرائهم المستبدين الذين يتركون عقاب بعض المسيئين بشفاعة المقربين، فإذا شهدوا عليهم تمنوا لو كانوا قد سويت بهم الأرض وما افتروا ذلك الكذب.

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات :

الغائط: المنخفض من الأرض كالوادي، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة؛ للستر والاستخفاء عن الناس.

ملامسة النساء: الإفضاء إليهن.

تيمموا: اقصدوا .

الصعيد: وجه الأرض.

الطيب: الطاهر.

العفو: ذو العفو، والعفو عن الذنب: محوه وجعله كأن لم يكن.

الغفور: ذو المغفرة.

المغفرة: ستر الذنوب بعدم الحساب عليها.

تمهيد:

بعد أن وصف سبحانه الوقوف بين يديه يوم العرض والأهوال التى تؤدى إلى تمنى الكافر: العدم فيقول: يا ليتنى كنت ترابا! والتى تجعله لا يستطيع أن يكتم الله حديثا، وذكر أنه لا ينجو فى ذلك اليوم إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به والطاعة لرسوله، وصف فى هذه الآية الوقوف بين يديه فى مقام الأنس، وحضرة القدس، المنجي من هول الوقوف فى ذلك اليوم، وطلب فيه استكمال القوى العقلية وتوجيهها إلى جانب العلى الأعلى بألا تكون مشغولة بذكرى غير طاهرة من الأنجاس والأخباث؛ لتكون على أتم العدة للوقوف فى ذلك الموقف الرهيب، مستشعرة تلك العظمة والجلال والكبرياء.

٤٣ - **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُم سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا.**

يأيها الذين آمنوا، لا يحل لكم أن تؤدوا الصلاة وأنتم في حالة السكر؛ حتى تكونوا بحيث تعلمون ما تقولونه قبل أدائها، ولا في حالة الجنابة؛ حتى تغتسلوا ولا تقربوا مواضع الصلاة (وهو المسجد) حال كونكم جنبا إلا في حال عبوركم من جانب إلى جانب.

روى ابن جرير: أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم فيريدون الماء ولا يجدون ممرا إلا في المسجد فأنزل الله تعالى: وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ.

وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا. أي: وإن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو مسافرين، وفي الأسفار يصعب وجود ما يكفي من الماء عادة فقد أباح الله لكم التيمم وهو ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين وكذلك إذا جاء أحدكم من المكان المعد لقضاء الحاجة أو جامعتم النساء فلم تجدوا ماء تتطهرون به لفقده؛ فاقصدوا ترابا طيبا كذلك، فاضربوا به أيديكم، وامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه؛ إن الله من شأنه العفو العظيم والمغفرة.

وتفيد الآية ما يأتي:

١ – يسر الإسلام وسماحته، وتيسير الله على عباده قال تعالى: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. (المائدة: ٦).

٢ – من الواجب على المسلم عندما يتهيأ للصلاة أن يتجنب كل ما يتعارض مع الخشوع؛ لأن الصلاة مناجاة وذكر لله، قال تعالى: وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي. (طه: ١٤).

٣ – استدلوا بهذه الآية على أن المسلم منهي عن الصلاة حال النعاس أو ما يشبهه.

٤ – التيمم مباح للمسلم عند فقده الماء، أو عند وجود الماء ولكن هناك عارض يمنعه من استعماله كمرض أو نحوه.



﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

المفردات:

ألم تر: أى: ألم تنظر؟

نصيبا: حظا.

السبيل: الطريق القويم.

وليا: أى: يتولى شئونكم.

نصيرا: معينا يدفع شرهم عنكم.

من الذين هادوا: هم: اليهود.

غير مسمع: يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع: مكروها، وأن يكون غير مقبول منك ولا مجاب إلى ما تدعو إليه.

وراعنا: إما بمعنى: ارقبنا وانظرنا: نكلمك، وإما بمعنى: كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها، وهى: (راعينا).

ليا بألسنتهم: أى: فتلا بها وتحريفا.

طعنا فى الدين: قدحًا فيه.

أقوم: أعدل وأسد.

إلا قليلا: أى: إلا قليلا من الإيمان لا يعبأ به.

تمهيد:

بعد أن ذكر الله سبحانه فى سابق الآيات كثيرا من الأحكام الشرعية، ووعد فاعلها بجزيل الثواب، وأوعد تاركها بشديد العقاب، انتقل هنا إلى ذكر حال بعض الأمم الذين تركوا أحكام دينهم، وحرفوا كتابهم، واشتروا الضلالة بالهدى؛ لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن

عليهم كما هيمن على من قبلهم، فإذا هم قصروا؛ أخذهم بالعقاب الذى رتبه على ترك أحكام دينه فى الدنيا والآخرة، والمؤمنون بالله حقا بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لابد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصل إلى إصلاح الأنفس، وذلك هو الأثر المطلوب منها، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها، لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب.

وقد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط كبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرابين وأحكام الدين الظاهرة، وهذا لا يكفى فى اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراده الله.

فأرشدنا سبحانه إلى أن عمل الرسوم الظاهرة فى الدين كالغسل، والتيمم لا يغنى عنهم شيئا إذا لم يطهروا القلوب؛ حتى ينالوا مرضاته ويكونوا أهلا لكرامته، ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم.

٤٤ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ.

ألم ينته إلى علمك حال هؤلاء الأحبار من اليهود الذين أعطوا حظا ومقدارا من علم التوراة؟ !

إن كنت لم تعلم أحوالهم أو لم تنظر إليهم فهاك خبرهم وتلك هى حقيقتهم، إنهم يشترون الضلالة وهى البقاء على اليهودية، بعد وضوح الآيات لهم الدالة على صحة دين الإسلام، وهم لا يكتفون بتلبسهم بالضلال الذى أشربته نفوسهم، بل يريدون منكم يا معشر المسلمين أن تتركوا دين الإسلام الذى هو السبيل الحق، وأن تتبعوهم فى ضلالهم وكفرهم.

٤٥ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا.

الله أعلم بأعدائكم أيها المؤمنون، وقد أخبركم بأحوالهم وبما يبيتون لكم من شرور؛ فاحذروهم، ولا تلتفوا إلى أقوالهم، وأعدوا العدة لتأديبهم؛ دفاعا عن دينكم وعقيدتكم، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا يتولى أموركم ويصلح بالكم وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا يدفع عنكم مكرهم، وشرهم فلا تطلبوا ولاية غير ولايته وتكفيكم نصرته؛ فلا تستعينوا بسواه. وعليكم باتباع السنن التى وضعها الله فى هذه الحياة، ومنها عدم الاستعانة بالأعداء الذين لا يعملون إلا لمصلحتهم الخاصة.

٤٦ - مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِم .

من اليهود فريق يميلون الكلام عن معناه، ويفسرونه بغير مراد الله تعالى كذبا منهم وافتراء وتضليلا وإنهم كانوا يقولون للنبى ﷺ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. أى: سمعنا قولك، وعصينا أمرك وروى عن مجاهد أنهم قالوا للنبى ﷺ: (سمعنا قولك ولكن لا نطيعك). وكذلك كانوا يقولون له: اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ.

أى: اسمع كلامنا لا أسمعك الله، فى الموضع الذى يقول فيه المتأدبون للمخاطبين: اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ. أى: لا سمعت مكروها. فاللفظ يسوقونه ومرادهم منه الدعاء عليه ويوهمون أن مرادهم الدعاء له.

ويقولون: رَاعِنَا . وهى كلمة تحتمل الخير على معنى: (انظرنا وتمهل علينا نكلمك) وتحتمل الشر على معنى: (راعينا) أى: اشملنا بالرعونة والحمق، أو جعله راعيا من رعاة الغنم.

ومن تحريفهم قولهم: (السام عليكم) أى: الموت عليكم، لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فى الدِّينِ. أى: صرفا للكلام عن ظاهره إلى إرادة الشتم والسب، وقدحا فى الدين بالاستهزاء والسخرية.

وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ. أى: لو أنهم استقاموا وقالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. بدل قولهم: سمعنا وعصينا وقالوا: اسْمَعْ دون أن يقولوا: غَيْرَ مُسْمَعٍ، وقالوا: انظُرْنَا بدل رَاعِنَا لكان خيرا لهم ما قالوه، وأعدل منه سبيلا ولكن الله طردهم من رحمته؛ بإعراضهم فلا تجد منهم من يستجيبون لداعى الإيمان إلا عددا قليلاً.

★ ★ ★

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات:

الكتاب: التوارة.

الطمس: إزالة الأثر بمحوه أو إخفائه كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بأن تنقل حجارتها، وإما بأن تسفوها الرياح، ومنه الطمس على الأموال فى قوله: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ. (يونس: ٨٨) أى: أزلها وأهلكها، والطمس على الأعين فى قوله: وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ. (يس: ٦٦) إما إزالة نورها، وإما محو حدقتها.

الوجه: تارة يراد به الوجه المعروف وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد كما قال تعالي: أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ. (آل عمران: ٢٠)، وقال: وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ. (لقمان: ٢٢)، وقال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا. (الروم: ٣٠).

الأدبار: واحدها: دبر، وهو الخلف والقفا.

الارتداد: هو الرجوع إلى الوراء، إما في الحسيات وإما فى المعانى، ومن الأول: الارتداد والفرار فى القتال ومن الثانى: قوله: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُم وَأَمْلَى لَهُمْ. (محمد:٢٥)

نلعنهم: نهلكهم. كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ، أى: كما أهلكنا أصحاب السبت، وقيل: مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير كما أخرجه ابن جرير عن الحسن.

تمهيد:

بعد أن نعى أهل الكتاب فى الآية السالفة اشتراءهم الضلالة بالهدى بتحريفهم بعض الكتاب وإضاعة بعضه الآخر، ألزمهم هنا بالعمل بما عرفوا وحفظوا بأن يؤمنوا بالقرآن؛ ذلك أن إيمانهم بالتوراة يستدعى الإيمان بما يصدقها وحذرهم من مخالفة ذلك، وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور.

التفسير:

٤٧ - **يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ءامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم**. أى: يأيها اليهود والنصارى، آمنوا بالكتاب الذى جاء مصدقا لما معكم، من تقرير التوحيد والابتعاد عن الشرك، وما يقوى ذلك الإيمان من ترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتلك هى أصول الدين وأركانه والمقصد الأسمى من إرسال جميع الرسل، ولا خلاف بينهم فى ذلك، وإنما الخلاف فى التفاصيل، وطرق حمل الناس عليها وهدايتهم بها، وترقيتهم فى معارج الفلاح بحسب السنن التى وضعها الله فى ارتقاء البشر، بتعاقب الأجيال، واختلاف الأزمان.

مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَآ. أى: آمنوا قبل أن يحل بكم العقاب من طمس الوجوه، والرد على الأدبار: أى: من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم بها من كيد الإسلام، ونردها خاسرة إلى الوراء بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وقد كان لهم عند نزول الآية شىء من المكانة والقوة والعلم والمعرفة.

وجعل بعضهم الرد على الأدبار حسيا فقال: نردهم على أدبارهم بالجلاء إلى فلسطين والشام، وهى بلادهم التى جاءوا منها.

وخلاصة المعنى: آمنوا قبل أن نعمى عليكم السبيل بما نبصِّر المؤمنين بشئونكم ونغريهم بكم، فتردوا على أدباركم بأن يكون سعيكم إلى غير الخير لكم.

أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَابَ السَّبْتِ. أى: آمنوا قبل أن تقعوا فى الخيبة والخذلان وذهاب العزة؛ باستيلاء المؤمنين عليكم وإجلائكم عن دياركم كما حدث لطائفة منكم، أو بالهلاك كما وقع بقتل طائفة أخرى وهلاكها.

ثم هددهم وتوعدهم فقال:

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً. المراد من الأمر: الأمر التكوينى المعبر عنه بقوله عز من قائل: **إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**. (يس: ٨٢)، إنما أمره بإيقاع شىء ما نافذ لا محالة، ومن هذا ما أوعدتم به قال ابن عباس: يريد لا رادَّ لحكمه ولا ناقض لأمره، فلا يتعذر عليه شىء يريد أن يفعله، كما تقول فى الشىء الذى لا شك فى حصوله: هذا الأمر مفعول وإن لم يفعل بعد.

والخلاصة: إنه يقول لهم: أنتم تعلمون أن وعيد الله للأمم السالفة قد وقع ولا محالة؛ فاحترسوا وكونوا على حذر من وعيده لكم.

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

المفردات:

يقال: افترى فلان الكذب؛ إذا اعتمله واختلقه، وأصله من الفَرْى، بمعنى: القطع، وتزكية النفس: مدحها، قال تعالى: **فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ** . (محمد: ٣٢) والظلم: النقص، والفتيل: ما يكون فى شق نواة التمر مثل: الخيط، وبه يضرب المثل فى الشىء الحقير كما يضرب بمثقال الذرة، قال الراغب: الإثم والآثام: اسم للأفعال المبطئة عن الثواب: أى: من الخيرات التى يثاب المرء عليها وقد يطلق الإثم على ما كان ضارا.

تمهيد:

بعد أن هدد سبحانه اليهود على الكفر، وتوعدهم عليه بأشد الوعيد كطمس الوجوه والرد على الأدبار، ثم بين أن ذلك الوعيد واقع لا محالة بقوله: **وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولا**.

ذكر هنا أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجريمة الكفر، فأما سائر الذنوب سواه فالله قد يغفرها ويتجاوز عن زلاتها.

أخرج ابن المنذر عن أبى مِجْلَزْ قال: لما نزل قوله تعالى: **قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**. (الزمر: ٥٣) قام النبى ﷺ على المنبر فتلاها على الناس، فقام إليه رجل فقال: والشرك بالله، فسكت، ثم قام إليه فقال: يا رسول الله والشرك بالله تعالى فكست مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية:

٤٨ - **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ.**

بعد أن عدد مثالب اليهود، بين أنهم إذا دخلوا فى الإسلام واتبعوا طريق الإيمان، غفر الله لهم كما يغفر سبحانه لكل مؤمن.

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصى لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة، فمن مات من المسلمين بدون توبه من الذنوب التى اقترفها فأمره مفوض إلى الله إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه وأدخله الجنة.

وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا. أى: ومن يجعل لغير الله شركة مع الله قيوم السموات والأرض - سواء أكانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحريم - فقد اخترع ذنبا عظيم الضرر تستصغر فى جنب عظمته جميع الذنوب والآثام فهو جدير بألا يغفر، وما دونه قد يمحى بالغفران.

٤٩ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً.

ألم ينته علمك يا محمد إلى هؤلاء الذين يثنون على أنفسهم ويمدحونها بما ليس فيهم مدعين أنهم على الحق، والله وحده هو الذى يعلم الخبيث من الطيب فيزكى من يشاء، ولا يظلم أى إنسان قدره مهما كان ضئيلا.

روى ابن جرير عن الحسن أن الآية نزلت فى اليهود والنصارى حيث قالوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. (المائدة : ١٨) .

جاء فى تفسير المراغى ... وفى الآية موضعان من العبرة:

١ - أن الله يجزى عامل الخير بعمله ولو مشركا؛ لأن لعمله أثرا فى نفسه يكون مناط الجزاء. فيخفف عذابه عن عذاب غيره كما ورد فى الأحاديث: إن بعض المشركين، يخفف عنهم العذاب بعمل لهم، فحاتم الطائى بكرمه، وأبو طالب بكفالته النبى ﷺ ونصره إياه، وأبو لهب لعتقه جاريته ثويبة حين بشرته بمولد النبى ﷺ.

٢ - أن يحذر المسلمون الغرور بدينهم كما كان أهل الكتاب فى عصر التنزيل وما قبله، وأن يبتعدوا عن تزكية أنفسهم بالقول واحتقار من عداهم من المشركين، وأن يعلموا أن الله لا يحابى فى نظم الخليقة أحدا لا مسلما ولا يهوديا ولا نصرانيا[٩].

٥٠ - انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا.

أى: انظر كيف يكذبون على الله بتزكية أنفسهم وزعمهم أن الله يعاملهم معاملة خاصة بهم، لا كما يعامل سائر عباده وكفى بالكذب على الله ذنبا واضحا يكشف عن خبيث طويتهم.



سقطات اليهود

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) ﴾

المفردات:

بالجبت: الجبت: كل ما عبد من دون الله، ويطلق أيضا على الكاهن، والساحر، والسحر.

الطاغوت: الطاغوت في الأصل، كثير الطغيان، ويطلق على كلّ رأس في الضلال يصرف عن طريق الخير، ويغرى بالشر.

نقيرا: النقير في الأصل: هو النقرة التى تكون في ظهر النواة. ويضرب به المثل فى القلة والضآلة، فالمراد به: أقل القليل.

يحسدون الناس: الحسد: تمنى زوال نعمة الغير.

الحكمة: العلم النافع، أو النبوة.

صدّ عنه: انصرف عنه، وأعرض.

سعيرا: نارا مسعرة يعذبون فيها.

التفسير:

٥١ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ...﴾ الآية

روى ابن أبى حاتم، عن عكرمة: أن حيى بن أخطب، وكعب بن الأشرف اليهوديين، خرجا إلى مكة فى جماعة من اليهود؛ ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله ﷺ، وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه؛ فقال لهم كفار قريش: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكرمكم؛ فاسجدوا لآلهتنا، حتى نطمئن إليكم.. ففعلوا.

فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت؛ لأنهم سجدوا للأصنام، وأطاعوا إبليس فيما فعلوا.

وقال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب، وتعلم، ونحن أميون لا نعلم. فأينا أهدى سبيلا: نحن أم محمد؟ فقال: ماذا يقول محمد؟ قال: يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن الشرك. قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت: نسقى الحاج، ونقرى الضيف، ونفك العانى. وذكروا أفعالهم. فقال: أنتم أهدى سبيلا؛ فنزلت.

وروى – من غير وجه – نحو ذلك .

وهذه الآية: تعجيب من حال أخرى من أحوال أهل الكتاب، وتوبيخ لهم على ارتكابهم جريمة من أشنع الجرائم، وهى سجودهم للأصنام، وشهادتهم بأن عبدة الطاغوت أحسن دينا من أهل الإسلام. على الرغم من أنهم أهل كتاب. وأعرف من غيرهم بالدين الصحيح.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد – أوْ كل من يستحق أن يخاطب – إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب، ورزقوا حظا منه، وإلى حالتهم العجيبة الداعية إلى الدهشة والعجب، وهى أنهم – مع كونهم أهل كتاب – يؤمنون بالأصنام ويطيعون الشيطان، ويقولون فى شأن الذين آمنوا للذين كفروا – من أجل مخالفتهم – هؤلاء الكفار الجاهليون: أهدى سبيلا، وأقوم طريقا من الذين آمنوا بمحمد؟!

فبين بذلك مناط التعجيب من حالهم.

يا للعجب من قوم: أهل كتاب، وأتباع رسل، يقولون عن المؤمنين بمحمد: إن الكفار – من مشركى مكة – أهدى منهم سبيلا ! وإنما وصفهم الله بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، ولم يصفهم بأنهم أوتوا الكتاب؛ لأن حالهم تتنافى مع الكتاب كله، حيث يؤمنون ببعضه، ويكفرون ببعضه.

٥٢ – ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾. بعد أن ذكر الله أحوالهم المثيرة للدهشة والعجب، عقب ذلك بتقريعهم، وبيان العقاب المستحق لهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ . . . الآية

والمعنى: أولئك الموصوفون بالصفات السابقة، المرتكبون لهذه الجرائم البشعة، هم الذين حكم الله عليهم بالطرد من رحمته؛ بسبب كفرهم وعصاينهم ومن يلعنه الله ويبعده من رحمته؛ فلن تجد له نصيرا ينصره من عذاب الله الذى ينزل به.

٥٣ – ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾. أى: ليس لهم نصيب من الملك، حتى يكون لهم الحق فى الإعطاء والمنع، والحكم بالهداية وغيرها؛ فقد زال ملكهم قبل بعثة محمد ﷺ، بمئات السنين ولو بقى لهم من الأمر شىء، لما أعطوا أحدا أقل قليل من الخير.

ثم بَيَّنَ الله تعالى سر هذا العناد والتمادى فى الضلال، فذكر أنه يرجع إلى حسدهم للنبى ﷺ وأمته، وسيطرة الحقد على نفوسهم، فوبخهم على ذلك بقوله:

٥٤ - **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ.** أى: أنهم ليس لهم دليل يستندون إليه، وسبب يتمسكون به فى تكذيبهم. بل هم يحسدون الناس، وهم النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين، على ما آتاهم الله من فضله، وأنعم به عليهم حيث: أعطاهم النبوة، والكتاب، والحكمة.

ولا غرابة فى هذا، ففضل الله واسع، وقد آتى الله آل ابراهيم - أى: إبراهيم ومن معه - الكتاب، والحكمة، والنبوة، وآتاهم الله مع ذلك ملكا عظيما واسعا.

ومن ذلك ما أعطاه الله تعالى يوسف عليه السلام، من السلطان فى مصر.

وما أعطاه الله تعالى داود وسليمان عليهما السلام، من النبوة والملك العظيم فلا غرابة - بعد هذا - أن يؤتى الله محمدا ﷺ - وهو من أولاد إبراهيم - مثلما أعطى إخوانه الأنبياء.

٥٥ - **فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا.**

فى هذه الآية بيان لموقف أهل الكتاب من شريعة إبراهيم عليه السلام، والتصديق برسالته.

أى: فمن أهل الكتاب، من آمن بإبراهيم وما أنزل عليه، ومنهم من كفر به وصد عنه. وقد أعطى الله الكفار الجزاء المناسب لهم، وهو أنهم يصلون سعيرا: أى: يقاسون نارا مسعرة ملتهبة، وكفى بجنهم سعيرا. ولا حاجة بعدها إلى ما هو أشد منها، إذ ليس هناك ما هو أقوى منها حرارة وأكثر اضطراما وأشد تعذيبًا.

★ ★ ★

عذاب النار

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

المفردات:

نصليهم نارا: نذيقهم حرها، ونشويهم بها.
نَضِجَت جلودهم: احترقت وذابت.
ظلا ظليلا: ظلا وارفا مستديما: لا يصاحبه حر ولا برد.

التفسير:

٥٦ – إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا... الآية

بعد أن عدد الله جرائم أهل الكتاب، وأحوالهم المقتضية للتعجيب، وعددهم عليها بالسعير، اتبع ذلك بيان جزاء الكفار على وجه العموم: الشاملين لأهل الكتاب، وغيرهم فقال: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا...**

والمعنى: إن الذين جحدوا آياتنا الدَّالة على ألوهيتنا، والمنزلة على أنبيائنا – عليهم الصلاة والسلام – وفى مقدمتها القرآن الكريم: الذى هو آخر الكتب وأوفاها، وأوضحها دلالة.

سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا. أى: سوف ندخلهم نارا هائلة يوم القيامة.

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم. أى: كلما احترقت جلودهم، وتعطلت عن الإحساس بالألم.

بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا. أى: جلودا جديدة أخرى؛ ليستمر عذابهم، ويدوم لهم بها، وذوقهم لها؛ لأنهم كانوا مصرين على الكفر إلى ما لا يتناهى.

فحكم الله تعالى عليهم بالعذاب الشديد الذى لا يتناهى: **جَزَآءً وِفَاقًا.** (النبأ : ٢٦).

وأكد الله هذا الوعيد بقوله: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا.** أى: هو – فى ذاته – قوى: لا يعجزه شىء، ولا يستعصى عليه أمر، حكيم فى أفعاله ومن حكمته: تعذيب العاصى على قدر ذنبه.

٥٧ – وَالَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.

بعد أن ذكر الله عذاب الكفار، أتبعه بيان ثواب المؤمنين، جريا على عادة القرآن الكريم، فى اتباع الترهيب بالترغيب؛ وقرن الوعد بالوعيد، إظهارا للفرق بين الحالين، وتقريرا للعدل بين الفريقين. فقال:

وَالَّذِينَ ءامَنُوا بالله ورسله إيمانا صحيحا.

وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ : أى: عملوا الأعمال النافعة لهم. وللناس جميعا، فى الدنيا والآخرة.

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . أى: سندخلهم يوم القيامة جنات عالية تجرى من تحت أشجارها وقصورها، وتفيض الخيرات فى كل أنحائها. **لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ.** (الحجر: ٤٨).

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا. فلا يعتريهم خوف من زواله.

لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ. أى: ويتنعمون فيها بزوجات طاهرات من الأدناس الحسية والمعنوية.

وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً . أى: وسيدخلهم الله – الكريم القادر – ظلا ظليلا، لا يعتريه ضيق الحر، ولا مس البرد. ولهم فيها الثواب العظيم، والنعيم المقيم.

وشتان بين هذا وبين ما يقاسيه الكفار. مما بينته الآية السابقة.

وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ . (فاطر: ١٩– ٢١)

★ ★ ★

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات:

أن تؤدوا الأمانات: جمع أمانة، وهى ما يؤتمن عليه الإنسان: لله أو للناس وأداؤها: ردها وحملها إلى أصحابها.

التفسير:

٥٨ - إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا... الآية

الخطاب فى هذه الآية عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواء كانت حقوق الله أو العباد.

والمعنى: إن الله تعالى يأمركم أيها المؤمنون أن تؤدوا ما ائتمنتم عليه من الحقوق سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى أم للعباد وسواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية.

ومعنى أدائها إلى أهلها: توصيلها إلى أصحابها كما هى من غير بخس أو تطفيف أو تحريف أو غير ذلك مما يتنافى مع أدائها بالطريقة التى ترضى الله تعالى.

وقد ذكر المفسرون أن الأمانة على أنواع:

١ - أمانة العبد مع ربه، وتشمل قيامه بحقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة، والزكاة، والصيام، والكفارات، والنذور.

٢ - أمانة العبد مع الناس. ومن ذلك: رد الودائع إلى أربابها، وعدم الغش، وحفظ السر.

ويدخل فى ذلك عدل الأمراء مع الرعية؛ لأن الحكم أمانة (فيجب على الولاة تأدية ما لديهم من الأمانات ورد الظلامات وتحرى العدل فى أحكامهم)[١٠].

٣ - أمانة الإنسان مع نفسه بأن يختار لنفسه ما هو الأصلح والأنفع له فى الدين والدنيا.

وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ. أى: كما أمركم الله تعالى أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أهلها فإنه يأمركم - أيضا - إذا حكمتم بين الناس أن تجعلوا حكمكم قائما على الحق والعدل؛ فإن الله تعالى ما أقام ملكه إلا عليهما، ولأن الأحكام إذا صاحبها الجور والظلم أدَّت إلى شقاء الأفراد والجماعات.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ . (النحل: ٩٠)

وقال تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ. (ص: ٢٦).

إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ. أي: نعم الشيء الذى يعظكم الله به أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس؛ إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم فى الدارين وأن الله دائما سميع لما يقال، بصير بما يفعل، فيعلم من أدى الأمانة ومن خان، ومن حكم بالعدل أو جار؛ فيجازى كلا بعمله.

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) ﴾

المفردات:

وأولى الأمر منكم: أصحاب الحل والعقد. من الرؤساء والعلماء.

تنازعتم: اختلفتم.

فردُّوه إلى الله والرسول: أى: ارجعوا فى معرفته إلى كتاب الله، وسنة رسوله.

تأويلا: مآلا ومرجعا وعاقبة، أو أحسن تأويلا من تأويلكم.

التفسير:

٥٩ – يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّه وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُم...

أى: أطيعوا الله واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول؛ لأنه موضح للكتاب ومبين له وهو القدوة العملية قال تعالى: لَّقَدْ كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. (الأحزاب: ٢١).

وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُم. من الولاة والرؤساء والعلماء وغيرهم.

جاء فى تفسير المراغى:

وهذه الآية مبينة لأصول الدين فى الحكومة الإسلامية وهى:

١ – الأصل الأول: القرآن الكريم والعمل به؛ طاعة الله تعالى.

٢ – الأصل الثانى: سنة رسوله ﷺ، والعمل به؛ طاعة الرسول ﷺ.

٣ – الأصل الثالث: إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة كالتجار، والصناع، والزراع، ورؤساء العمال، ومديرى الصحف، ورؤساء تحريرها، ورجال الأحزاب ممن تثق بهم الأمة.

٤ – الأصل الرابع: عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة فى الكتاب والسنة، وهذه سبيلها الاجتهاد والرد إلى الله والرسول وذلك هو القياس.

فهذه الأربعة الأصول هى مصادر الشريعة، ولابد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة والاجتهاد وتحرى الصواب والحكم بما يرونه موافقا لروح الكتاب والسنة.

ويجب على الحكام الحكم بما يقرُّونه.

وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين:

الأولى: الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن: (الهيئة التشريعية).

الثانية: جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يسمون: (الهيئة التنفيذية).

فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ. أى: إن اختلفتم فى شىء لم يرد فيه نص صريح فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله؛ فارجعوه إلى هذين الأصلين وليكن حكمكم فيه بالقياس على ما يشبهه من الأمور وبذلك فتح القرآن للمسلمين باب الفهم والبحث والاجتهاد.

وقد سأل رسول الله ﷺ معاذا حين أرسله قاضيا: ما تصنع إن عرض لك قضاء؟

قال للرسول: أقضى بكتاب الله.

قال الرسول: فإن لم تجد؟

قال معاذ: أقضى بسنة رسول الله.

قال الرسول: فإن لم تجد؟

قال معاذ: أجتهد رأيى ولا آلو.

فقال الرسول ﷺ: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله[١١].

إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. أى: ردوا الشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة. **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**. أى: الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلا.

★ ★ ★

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

المفردات:

الطاغوت: الطاغوت في الأصل: كثير الطغيان، ويطلق على كل رأس في الضلال، يصرف عن الخير، ويغرى بالشر.

يصدون: يعرضون.

وعظهم: خوفهم.

وقل لهم فى أنفسهم: أى: واعظا لهم - بينك وبينهم - ليكون أدعى للقبول، أو فى شأن أنفسهم: كاشفا عن خبثها.

قولا بليغا: مؤثرا واصلا إلى حقيقة المراد.

التفسير:

٦٠ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ...

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه تخاصم يهودى ومنافق، ودعا اليهودى المنافق إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ. ودعاه المنافق إلى التحاكم إلى كعب بن الأشرف... فنزلت الآية.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد، إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن وبالكتب التى أنزلت على من قبلك من الرسل؟!

إن شأن هؤلاء لعجيب؛ لأنهم - مع زعمهم الإيمان بذلك - يريدون أن يتخذوا من كاهن

اليهود - رأس الضلال - حاكما فى قضاياهم. وقد أمرهم الله أن يكفروا بمن يدعوهم إلى الشر ويبعدهم عن الخير ويريد الشيطان أن يوقعهم فى ضلال بعيد، لا خلاص لهم منه باتباعهم دعاة الشر.

٦١ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا. أى: ومن عجيب أمر هؤلاء المنافقين: أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى كتاب الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، أصروا على الكفر، وأعرضوا عما تدعوهم إليه إعراضا شديدا.

٦٢ - فَكَيْفَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا.

هذا بيان لسوء عاقبتهم جزاء جناياتهم ومخالفتهم، وتعجيب من حالهم.

أى: فيا عجبا ... كيف يكون حال هؤلاء المنافقين - وقت نزول المصائب بهم - بسبب ذنوبهم! ثم جاءوك ملتجئين إليك فى ذلك، يعتذرون عن قبائح أعمالهم، ويحلفون بالله ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى من عداك إلا الإحسان والتوفيق. أى: المداراة والمصانعة. لا اعتقاد منا صحة تلك الحكومة. كما أخبر الله عنها بقوله: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَآ أَسَرُّواْ فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ. (المائدة:٥٢).

٦٣ - أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا.

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ . أى: أولئك هم المنافقون الموغلون فى الكفر والنفاق، الذين لا يخفى على الله أمرهم، ويعلم ما انطوت عليه صدورهم من الشر والفساد، وسيجزيهم على ذلك.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ . أى: أعرض عن قبول معذرتهم وازجرهم عما فى قلوبهم من الكيد والنفاق.

وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا . أى: انصحهم - فيما بينك وبينهم بعيدًا عن الناس - ليكون ذلك أدعى إلى قبولهم - بكلام بليغ رادع لهم. أو قل لهم. فى شأن أنفسهم وما انطوت عليه من الخبث والقبائح: قولا مؤثرا يردهم عن غيهم، ويعود بهم إلى رشدهم.

★ ★ ★

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

المفردات:

فلا وربك: اللام لتأكيد القسم.

شجر بينهم: اختلط عليهم من الأمور.

حرجا: ضيقا.

٦٤ - **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ** ... الآية . أى: وما أرسلنا رسولا من الرسل، لأمر من الأمور، إلا ليطيعه الناس بسبب إذنه تعالى لهم فى طاعته، وأمره لهم بأن يتبعوه، فإن طاعة الرسول طاعة لله. **مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.** (النساء: ٨٠).

وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّه واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ.

فى هذا بيان لما كان يجب عليهم أن يفعلوه حين ظلموا أنفسهم. أى: ولو إنهم حين ظلموا أنفسهم - بترك طاعة الله تعالى - بادروا بالمجىء إليك معتذرين عن جرائمهم، مبالغين فى التضرع إلى الله، والتوبة إليه من ذنوبهم، حتى تقوم شفيعا لهم إلى ربك، طالبا منه المغفرة لهم.

لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا. أى: لو أنهم فعلوا ذلك؛ لوجدوا أبواب التوبة مفتحة لهم، ورحمته تعالى محيطة بهم.

وفى هذه الآية، إرشاد لسائر العصاة والمذنبين، إذا وقع منهم ذنب أو خطيئة أن يبادروا بالتوبة والندم؛ كى يفوزوا بغفران الله لهم.

٦٥ - **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**... الآية

روى البخارى بمسنده، قال: خاصم الزبير رجلا فى شرْج[١٢] من الحرة، فقال النبى ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصارى: يارسول الله، لأن كان ابن عمتك؟ فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ. ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك»[١٣]،

فاستوفى النبى ﷺ للزبير حقه كاملا فى الحكم، حين أحفظه الأنصارى، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة .. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك.

فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ... الآية

لقد أقسم الله – سبحانه – بذاته، وهو الذى تولى تربيتك أيها الرسول، وأنعم عليك بنعمة النبوة، وأدبك بأدب القرآن، أقسم: أن هؤلاء الذين أعرضوا عن التحاكم إليك فيما اختلط عليهم، لا يدخلون فى عداد المؤمنين الصادقين؛ حتى تتحقق فيهم صفات ثلاث:

أولاها: أن يهرعوا إليك – أيها الرسول – لتحكم بينهم فيما اختلط عليهم.

ثانيها: أن ترضى نفوسهم – وتستمر راضية دون حرج أو ضيق – بحكمك وقضائك.

ثالثها: أن يسلموا بحكم رسول الله ﷺ تسليما كاملا، ويذعنوا له إذعانا صادقا، ويقوموا على تنفيذه بنفوس راضية.

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾

المفردات:

كتبنا: قدرنا.

ما يوعظون به: ما يؤمرون به من طاعة الله.

تثبيتا: تحقيقا لإيمانهم.

التفسير:

٦٦ – وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ... أى: لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من قبلهم من المشقات، وشددنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس، والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بنى إسرائيل؛ ما استجاب ولا انقاد إلا نفر قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا. أى: ولو أنهم فعلوا ما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه؛ لكان ذلك خيرا لهم فى مصالحهم، وأشد تثبيتا لهم فى إيمانهم؛ إذ الأعمال هى التى تطبع الأخلاق والفضائل فى نفس العامل، فالصلاة والزكاة والصدقة والعفة كلها تثبت الإيمان وتنمى الشخصية.

٦٧ - وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا.

وإذا قاموا بحق التكليف الإلهى الذى يكون فى وسعهم؛ لأعطاهم الله على ذلك الثواب العظيم، والتوفيق والهدى الذى يوصلهم إلى جنة النعيم.

٦٨ - وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا.

ولهديناهم إلى طريق العمل الصالح على الوجه المرضى الموصل إلى الفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين.

★ ★ ★

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات:

أنعم الله عليهم: تفضل الله عليهم بنعمه.

رفيقا: مرافقا ومؤنسا.

التفسير:

٦٩ - وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ .

ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله، ويتجنب ما نهى الله عنه ورسوله؛ فهو مع الذين أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق فى الدنيا والآخرة من أنبيائه؛ وأتباعهم الذين صدقوهم، واتبعوا مناهجهم والشهداء فى سبيل الله، والصالحين الذين صلحت سريرتهم وعلانيتهم ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم وحسن رفيق أولئك الأبرار !

٧٠ - ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا. تلك المنزلة العظيمة لمن أطاع الله ورسوله هى الفضل الكبير من الله وهو عليم بالأعمال ومثيب عليها. وكفى به سبحانه وتعالى مجازيا لمن أطاع، عالما بمن يستحق الفضل والإحسان.

★ ★ ★

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

المفردات:

حِذْرَكُم: الحِذْر والحذَر بمعنى واحد وهو: التيقظ والاستعداد والمراد: احترسوا واستعدوا.

فانفروا: النفر: الانزعاج عن الشىء وإلى الشىء والمراد: اخرجوا إلى الجهاد.

ثبات: جمع ثبة وهى الجماعة أى: اخرجوا جماعة تلو جماعة.

ليبطئن: ليثبطن غيره عن القتال أو ليبطئن هو أى: يتباطأ.

التفسير:

٧١ - يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ... الآية

يأيها الذين آمنوا، خذوا حذركم واحترسوا من عدوكم، واستعدوا دائما لملاقاته؛ فإنّ الاستعداد له قد يمنع الحرب، ويكون بتنظيم الجيوش وإعداد العدة المناسبة فى كل عصر وحين، وبث العيون (المخابرات والجواسيس) ودراسة حاله وبلده وطرقه ... إلخ. مما هو معروف فى الأصول الحربية، وإذا أخذتم حذركم؛ فاخرجوا إليه جماعات إن اقتضى الحال ذلك وإلا فأعلنوا التعبئة العامة واخرجوا إليه مجتمعين وفى هذا إشارة إلى تنظيم الأمة عسكريا، وتعليم شبابها الفنون العسكرية حتى إذا دعا داعى الوطن وجدنا الكل يحمل السلاح، أما الجبهة الداخلية فلا تخلو أمة من الأمم من الجبناء الرعاديد والمنافقين الذين يثبطون الهمم، ويعوِّقون عن القتال، ويقعدون عنه لفرط حبِّهم للدنيا وانخلاع قلوبهم من الحرب؛ لضعف إيمانهم وخور عزيمتهم فاعرفوهم وعالجوا ضعفهم ولذا يقول القرآن:

٧٢ - وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ ... الآية. وإن منكم لجماعة يثبطون الهمم ويقعدون عن الحرب فإن أصابتكم مصيبة فى الحرب كالهزيمة أو القتل مثلا قالوا: قد أنعم الله علينا وتفضل حيث لم نكن معكم.

٧٣ - وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ مَوَدَّةٌ ... الآية. ولئن أصابكم فضل من الله وانتصار على العدو قالوا: يا ليتنا كنا معكم فأخذنا نصيبنا من الغنيمة، كأنه لم تكن بينكم وبينهم مودة وصلة إذ الصلة والمودة التى يظهرونها تقتضى أن يكونوا معكم فى السراء والضراء، والله أعلم بقلوبهم وما عندهم من الحسد والحقد، ولكنه سُمِّى مودة؛ تهكما بهم وبحالهم.

★ ★ ★

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات:

يشـــرون: يبيعون؛ لأن شرى: من كلمات الأضداد.

والمستضعفين: المستذلين وهى معطوفة على فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

الولدان: جمع وليد وهو الصبى، أو العبد.

وليا: مُعينًا.

الطاغوت: فى الأصل كثير الطغيان، ويطلق على كل رأس في الضلال، وقيل: الشيطان.

التفسير:

٧٤ - فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ...

كان القرآن ينزل فى أعقاب غزوة أحد يأسو جراح المؤمنين، ويبارك جهاد المجاهدين، ويبين أن الأيام دول، وأن المؤمن يمتحن ويبتلى ولكن العاقبة للمتقين.

ورد فى الآيتين السابقتين ذكر القرآن طائفة من المنافقين تبطئ عن الجهاد، وتثبِّط المؤمنين عنه، فإذا انهزم المؤمنون؛ فرحوا وشمتوا وإذا انتصر المؤمنون ندموا على تخلفهم عن القتال؛ لحرمانهم من الغنائم.

وفى هذه الآيات يأمر الله المؤمنين بالقتال فى سبيله، والأمر موجه إلى من باعوا الحياة الدنيا؛ طلبا لثواب الآخرة. وجادوا بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله؛ وتقدير الكلام: إذا تباطأ المنافقون عن الجهاد؛ فلْيُسرع إليه المؤمنون الصادقون.

جاء فى ظلال القرآن:

«إن المسلم لا يقاتل لمجد شخصى، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة، ولا لمجد أمة، ولا لمجد جنس، إنما يقاتل فى سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله فى الأرض، ولتمكين منهجه من تصريف الحياة»[١٤].

وحين يخرج المسلم ليقاتل فى سبيل الله بقصد إعلاء كلمة الله، وتمكين منهجه فى الحياة، ثم يُقتل؛ يكون شهيدًا، فينال مقام الشهداء عند الله، فإذا انتصر على العدوّ كان له ثمرة النصر، وجزاؤه الغنيمة فى الدنيا، والأجر العظيم فى الآخرة.

وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا.

والمقاتل فى سبيل الله بين غايتين: الاستشهاد فى سبيل الله، أو النصر على الأعداء، ولا ذكر للهزيمة فى الآية الكريمة؛ لأن المؤمن المجاهد لا يرْتدُّ على عقبيه، ولا يستسلم للهزيمة بأى حال.

جاء فى تفسير القرطبى فى هذه الآية ثلاث مسائل منها:

المسألة الثالثة: ظاهر الآية يقتضى التسوية بين من قتل شهيدًا أو انقلب غانما، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادٌ فى سبيلى، وإيمان بى، وتصديق برسلى، فهو على ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر وغنيمة أو أجر إن لم يغنم»[١٥].

٧٥ - وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا.

يستنهض القرآن همم المسلمين فى المدينة؛ للدفاع عن المستضعفين المستذلين بمكة، الذين يتعرضون لأنواع العذاب والنكال، وهم ضعفاء لا يستطيعون مقاومة المعتدين.

والمعنى: أى شىء لكم حتى لا تقاتلوا؟! أى لا عذر لكم فى ترك القتال فالاستفهام فى الآية الكريمة، لإنكار واستقباح التخلف عن الجهاد فى سبيل الله، وفى سبيل إنقاذ المستضعفين من الشيوخ الكبار، والنساء، والأطفال.

جاء فى ظلال القرآن:

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف، مشهد مؤثر مثير، لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا – وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة – وهذا المشهد كله معروض فى مجال الدعوة إلى الجهاد؛ وهو وحده يكفى؛ لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات. وهو أسلوب عميق الوقع. بعيد الغور فى مسارب الشعور والإحساس[١٦].

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا. أى: لا عذر لكم فى ترك القتال؛ لتخليص المستضعفين، الذين عذبهم المشركون بمكة، فاتجهوا إلى الله عز وجل ضارعين قائلين: اللهم ربنا، هيئ لنا الخروج من مكة، والهجرة منها؛ فرارًا بديننا، من أهلها الطغاة الظالمين، وهيئ لنا بفضلك وليا، يتولى أمورنا ويحمينا منهم، وهيئ لنا من عندك من ينصرنا عليهم.

أخرج البخارى عن ابن عباس قال: كنت أنا وأمّى من المستضعفين. فهى من النساء، وهو من الولدان[١٧].

وعن مجاهد قال: أمر المؤمنون أن يقاتلوا عن مستضعفين مؤمنين كانوا بمكة ونسبة الظلم إلى أهل مكة، تشريف لها عن نسبة الظلم إليها؛ فهو مقصور على أهلها المشركين.

٧٦ – الَّذِينَ ءامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا.

لقد وضّح القرآن المنهج ورسم طريق العقيدة السليمة من الإيمان بالله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه؛ كما ربّى القرآن المسلمين تربية إسلامية، فرعى يقينهم ووجدانهم، وضميرهم وقلبهم وعقلهم، وقدَّم لهم غذاء العقيدة بالقصص والمشاهد، وأخبار القيامة والبعث والجزاء؛ فنشأ المؤمنون نشأة متكاملة؛ كأنهم خلقوا من جديد بالعقيدة والإيمان والإسلام، وحين بدأ القتال اكتسح الإسلام الأعداء، بقوة لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

فمعارك الإسلام فى الجزيرة العربية: فى بدر، وأحد، والخندق، والحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين، والطائف، وغزوة تبوك، كتب فيها النصر للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة.

وقل مثل ذلك فى انتصار الإسلام على الفرس والروم ومصر، بل لقد انتصر الإسلام بالفكرة والعقيدة فى بلاد كثيرة، وهناك انتصار آخر هو انتصار اللغة العربية بحيث صار العلماء فى البلاد التى فتحها الإسلام يعتنقون الإسلام طوعا واختيارًا، ويدرسون بهذه اللغة، ويقدمون للبشرية نتاج أفكارهم، وما كان للغة العربية هذا المجد قبل الإسلام، لكن القرآن والوحى، والحديث النبوى، والتراث الإسلامى؛ كل هؤلاء أخصبوا اللغة العربية؛ حتى سماها بعض الباحثين: اللغة الإسلامية.

الَّذِينَ ءامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه . . .

قال الزمخشرى:

رغب الله المؤمنين ترغيبا وشجعهم تشجيعا، بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون فى سبيل الله؛ فهو وليهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون فى سبيل الشيطان؛ فلا ولى لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين، إلى جنب كيد الله للكافرين، أضعف شىء وأوهنه[١٨].

وتبقى الآية على جلالها ترسم حقيقة واقعية.

الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه. تحت راية الله فهم جند يقاتلون من أجل منهج الله ودين الله.

وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوت . أى:فى سبيل الطغيان والاستعلاء، وشتان بين من يقاتل فى سبيل الحق والعدل، والمبادئ والمثل العليا، ومن يقاتل عدوانا وظلما، وتمكينا للطغاة الجبارين، وفى آخر الآية دعوة إلى جهاد الشيطان والانتصار عليه وعلى أتباعه.

جاء فى تفسير القرطبى:

الطَّاغُوت . يذكّر ويؤنث، والطاغوت هو الشيطان والدليل على ذلك قوله تعالى:

فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا . أى: مكره ومكر من اتبعه، ويقال: أراد به يوم بدر حين قال للمشركين: **لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنكُم**. (الأنفال: ٤٨).

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾

المفردات:

كفوا أيديكم: اقبضوها وامنعوها عن القتال

متاع الدنيا: ما يتمتع به من زخرفها وزينتها ولذائذها .

فتيلا: الفتيل: الخيط الموجود في شق النواة، يضرب به المثل في القلة والحقارة .

بروج مشيدة: حصون مرتفعة منيعة محكمة .

يفقهون: يفهمون فهما دقيقا .

شهيدا: شاهدًا على صدق رسالتك، أو مطلعا بصيرًا .

تولى: أعرض .

حفيظا: رقيبًا، أو مسيطرًا.

التفسير:

٧٧- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ...** الآية. روى ابن أبى حاتم بسنده. عن ابن عباس، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبى ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبى الله، كنا فى عِزَّةٍ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم» . فلما

حوله الله إلى المدينة ، أمره بالقتال فكفوا ، فأنزل الله: **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ** .... [١٩] أى: ألم ينته إلى علمك - يامحمد - حال أولئك الذين كانوا يتمنون القتال - وهم بمكة - قبل أن يأذن رسول الله ﷺ لهم فيه؛ رغبة فى التخلص من إيذاء المشركين المستمر لهم ؟!

وكان رسول الله ﷺ ، يستمهلهم ويقول لهم - وهم بمكة - : كفوا أيدكم عن قتال المشركين حتى يأذن الله فيه، وتفرغوا لتطهير أنفسكم وتزكيتها: بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة [٢٠] ، وإعدادها للجهاد حين يأذن الله به فيه ؟!

والاستفهام لتعجيب رسول الله ﷺ ، ومن معه ، وكل من يتأتى منه ذلك إلى يوم القيامة - تعجيب لهم - من حال هؤلاء الذين تحدثت الآية عن شأنهم . **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً** . أى: فلما فرض الله القتال على المؤمنين - بعد الهجرة - استولى الخوف على الكفار - على نفوس فريق منهم، وهم المنافقون، وتهيبوا قتال الناس خشية القتل أو الأسر، وملأ الرعب قلوبهم فأصبحوا يخافون قتال الكفار كخوف المتقين من الله . بل أصبح خوفهم من الناس أشد من خوف المتقين من ربهم.

وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ. أى: وقالوا - فى ضيق ورعب وجزع من الموت - : يا ربنا، لم فرضت علينا القتال؟! هلا أخرت فرضه علينا إلى مدة قريبة؟! حبا فى التمتع بالدنيا . والمدة القريبة غير محدودة فهى - عندهم - انتهاء آجالهم دون قتال أو: يا ربنا، هلا زدتنا فى مدة الكف إلى وقت آخر ، قابل للتجديد؟! حذرا من الموت، وهربا من الجهاد؛ فقال الله لرسوله ﷺ: **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ...

متاع الدنيا كله قليل، فما بال أيام أو أسابيع أو شهور أو سنين؟! وما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير، إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها فى جملته قليلا؟! ما الذى يملكون تحقيقه من المتاع فى أيام أو أسابيع أو شهور أو سنين ، ومتاع الدنيا كله ، والدنيا بطولها قليل ؟!

وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى. أى: وثواب الآخرة خير لكم من المتاع القليل، لمن اتقى الله، ولم يخش إلا الله، وتأتى التقوى هنا فى موضعها للمقابلة بين من يخاف الناس ومن يخاف الله، فالذى يخاف الله لا يخاف الناس، والإنسان لا يملك لك نفعا أو ضرا إلا بإذن الله .

وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . والفتيل: الخيط الموجود فى شق النواة؛ أى: إن الله هو الذى يجازى الأتقياء جزاء الكريم العليم ، ولا ينقصون من أجورهم شيئا مهما كان قليلا، قال تعالى: **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** . (الزلزلة: ٧، ٨)

٧٨- أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... هذه الآية تقرر قاعدة عامة، وإن كان المراد بها المنافقين، أو ضعفة المؤمنين، الذين قالوا : لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَىَ أَجَلٍ قَرِيبٍ. أى: إلى أن نموت بآجالنا[٢١] .

والمعنى: فى أىّ مكان تكونون فيه - فى ساحة القتال، أو بين أهليكم مواطن أمنكم، أو خوفكم، سينزل بكم الموت عند انتهاء آجالكم، ولو كنتم فى حصون منيعة أو قصور عالية .

جاء فى تفسير القرطبى:

قال ابن عباس: البروج: الحصون والآطام والقلاع، ومعنى مشيَّدة: مطوّلة أو محصنة بالشِّد وهو الجصّ، والمُشيَّد والمَشِيد سواء، ومنه: وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ. (الحج: ٤٥)، وفى هذه الآية تأنيب للجبناء أو المنافقين، الذين ضاقوا بما فرض الله عليهم من القتال، وإبراز لحماقة تفكيرهم، فإن الجبن لا يطيل عمرًا وإنما يجلب ذلا، والشجاعة لا تنقص أجلاً وإنما تورث عزًّا .

وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ .

هذا بيان لنقيصة أخرى من نقائصهم، فهم يتطيرون بالنبى ﷺ - فيظنونه - حاشاه - شؤما عليهم أو هم يريدون عامدين تجريح قيادة الرسول ﷺ؛ تخلصا من التكاليف التى يأمرهم بها.

فقد كانوا يقولون: إذا حلت بهم نعمة، من سعة فى الرزق، وكثرة فى الأموال والأولاد، هذا الذى أصابنا من النعم من عند الله، قالوا ذلك، لا عن إيمان بالله، واعتراف بفضله، بل قالوه؛ تهوينا لشأن النبى ﷺ، وإشارة إلى أنه لا يأتيهم بخير، يدل على ذلك ما حكاه القرآن عنهم بقوله:

وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ . أى: وإن يصبهم جدب وقحط، ونقص فى الأموال والأولاد ونحو ذلك؛ قالوا: أصابنا ذلك بشؤمك الذى لحقنا ...

قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ . إن الله هو الفاعل الأول، والفاعل الأوحد، لكل ما يقع فى الكون وما يقع للناس، فهو وحده الذى يملك النفع والضرّ ولا يقع فى ملكه إلاّ ما يريد .

فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا . فما شأن هؤلاء القوم؟ وماذا أصاب عقولهم، حتى أصبحوا بعيدين عن الفهم والإدراك لما يسمعون ولما يقولون، ولا يفهمون أن كلا من الخير والشر من عند الله وحده، وأن الله هو الباسط القابض وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب .

٧٩- مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ... الآية

قررت الآية السابقة أن كل ما يقع فى الكون فهو بإرادة الله العليا، وقضائه وقدره .

ونحن نؤمن بالقضاء والقدر، ونؤمن بأن بيد الله الخلق والأمر ، ومع هذا فإن للعبد كسبا واختيارا، وإرادة محدودة مسئولة. والجمع بين إرادة الله ، وإرادة العبد يحتاج إلى شيء من الانحناء والتسليم .

فبالنسبة لأحداث الكون كلها فهى من عند الله، وبحكمته وبالنسبة لأعمال الإنسان، فهو إذا اختار طريق الهدى؛ أعانه الله عليه وسدد خطاه، وإذا اختار طريق الضلال؛ سلب الله عنه الهدى، ووكله إلى نفسه فكان هو السبب فيما يصيبه من بلاء فى الدنيا أو عذاب فى الآخرة .

فالآية الثانية مختلفة عن الآية الأولى:

الآية الأولى: تشير إلى أن كل ما يقع فى الكون بإذن الله ، والآية الثانية: تشير إلى أن العبد إذا أطاع الله؛ أيده الله بتوفيقه، وإذا عصاه؛ وكله الله إلى نفسه.

قال الزمخشرى:

مَّا أَصَابَكَ. يا إنسان: خطابًا عامًّا مِنْ حَسَنَةٍ. أى: من نعمة وإحسان فَمِنَ اللَّهِ. تفضيلاً منه وإحسانًا وامتنانًا وامتحانًا .

وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ. أى: من بلية ومصيبة فمن عندك؛ لأنك السبب فيها بما اكتسبت يداك، وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ. (الشورى: ٣٠) وعن عائشة رضى الله عنا: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها، حتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر »[٢٢] .

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولا. أى: رسولاً للناس جميعًا لست برسول العرب وحدهم أنت رسول العرب والعجم، كقوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ. (سبأ: ٢٨) وقال تعالى: قَلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا. (الأعراف: ١٥٨).

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. على صدق رسالتك، وأنك أبلغت ما أنزل الله عليك، وأدَّيت واجبك أكمل أداء، بإخلاص ويقين: تبشر الناس وتنذرهم، والله تعالى خير شهيد على ذلك .

وفى تقرير رسالته ﷺ تطمين لقلبه، وتقوية لعزمه، كما أن فيه زيادة كبت لهم، وتأكيد لجهلهم، وعدم فقههم .

٨٠- مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل فختم به الرسالات، وأنزل عليه وحى السماء، وجعل طاعة الرسول فيما يبلغه عن ربّه واجبة؛ لأن طاعته طاعة لوحى الله وأمر الله، قال تعالى: وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى. (النجم: ٣ ، ٤).

فليس لمسلم أن يخالف الرسول فيما يبلغه عن ربه، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣) .

وأما ما رآه الرسول، من الأمور الخارجة عن دائرة التبليغ والرسالة، مما هو خاص بشئون الدنيا، فليست أوامر، بل إرشادات، ولذا راجعه المسلمون فى بعض الآراء، كما حدث فى تأبير النخيل فرجع ﷺ ونزل على رأيهم [٢٣] وقال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[٢٤] رواه مسلم .

وجاء في تفسير ابن كثير:

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ، بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلاّ لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى. قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى على وعلى آله وسلم: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى، ومن عصى الأمير فقد عصاني» [٢٥] وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين عن الأعمش .

﴿وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ومن أعرض عن طاعتك، وعن اتباع الحق الذى جئت به؛ فاترك أمره إلينا فسنجازيه - فإنما أرسلناك مبلغًا ولم نبعثك مسيطرًا ولا رقيبا على أعمالهم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ . (الغاشية: ٢١، ٢٢) .

وفى الحديث «ومن يطع الله ورسوله؛ فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله؛ فإنه لا يضرّ إلا نفسه».



﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

المفردات:

برزوا من عندك : خرجوا من مجلسك ظاهرين .

بيت طائفة : دبَّروا ليلا أو في السر . في أى وقت من ليل أو نهار .

يتدبرون القرآن : يتأملون فيه، ويتفكرن في معناه .

اختلافا كثيرا : تناقضا فى معانيه، وتبيانا في نظمه .

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت : ٣٥٤٢٠٧٩

فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

المكـــتـــبـــة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩١٧٩٥٩ }

إدارة التســويق والمعرض الدائم { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣ }





تفسير القرآن الكريم



د. عبدالله شحاته





دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلى - القاهرة ت : ٣٥٤٢٠٧٩

فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

المكـــتـــبـــة { ١ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقى الفجالة - القاهرة ت ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التســويق والمعرض الدائم { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

التفسير:

٨١- وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ... الآية

تحكى هذه الآية شأنًا آخر من شئون المنافقين، يعتمد على الختل والتلوّن والتستّر وعدم المواجهة بالحقيقة، فهم أمام النبى ﷺ يظهرون الطاعة والامتثال والموافقة بألسنتهم، فإذا انصرفوا من مجلسه وذهبوا بعيدًا عنه .

بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ . قال ابن كثير: أى: استسروا ليلا فيما بينهم بغير ما أظهروه .

وفى التفسير الوسيط:

دبّر زعماؤهم فى السرّ - فى الليل أو النهار - مخالفة أمره ﷺ، ونقض الذى قالوه بألسنتهم فى مجلسه معتقدين أنّ هذا التدبير الخَفِىّ لن يعلمه الرسول ﷺ، وفاتهم أن الله يعلم كل ما يتآمرون عليه، وقد سجّله عليهم وأنه سيكشفه لرسوله ﷺ، وأنه سيعاقبهم على هذا النفاق - فى الآخرة - أشد العقاب، كما ينبئ عنه قوله تعالى: وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ .

أى: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد، والمعنى فى هذا التهديد بالجزاء والعقاب .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . أى: اصفح عنهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تأبه بهم ولا بمؤامراتهم؛ وفوض أمرك إلى الله وحده يكفك أمرهم .

وقال تعالى: وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . (الطلاق: ٣) .

وليس معنى التوكل على الله، أن يترك الإنسان الأخذ بالأسباب، فهذا هو التواكل وهو مذموم، وإنما المراد به الأخذ بالأسباب، مع تفويض الأمر إلى الله والاعتماد عليه، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً . أى: كفى به وليًا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأناب إليه .

٨٢- أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا . التدبر: التفكير والتأمّل فى المعنى .

وتثبت هذه الآية أن القرآن لم يصل إلى شغاف قلوبهم، وإنما قرءوه بألسنتهم، وتطالبهم الآية أن يتدبروه بيقظة وانتباه، وتحضهم على التأمل فيه.

والمعنى: أيعرض هؤلاء المنافقون عن القرآن، فلا يتأملون فيه، ليعلموا أنه من عند الله؟!

فلو تدبروه؛ لأيقنوا أنه من عند الله لا من عند غيره؛ لأن طاقة البشر لا تستطيع الإتيان بهذا الكمال، فى بيان العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والإخبار الصادق عن الماضى والمستقبل، وعالم الغيب وما يجرى فيه .. كل ذلك فى أسلوب بديع متقن بالغ الغاية فى الكمال والتحدى .

إن العلوم التى تقوم على التجارب قد تنقض اليوم، ما أبرمته بالأمس، وتهدم غدًا ما بنته اليوم .

وفى كتاب للمستشرق: موريس بوكاى بعنوان: (التوراة، والإنجيل، والقرآن فى ضوء العلم) .

أثبت فيه أن العلم قد نقض بعض ما جاء فى التوراة عن بدء الخليقة، وحادث الطوفان، وغير ذلك. كما نقض العلم بعض ما جاء فى الأناجيل .

لكن العلم لم ينقض حقيقة واحدة مما جاء فى القرآن الكريم، فقد تكلم القرآن عن حقائق علمية تتصل بالسماء والأرض، والجبال والبحار، والليل والنجوم والشمس والقمر، والحيوان والنبات والإنسان وغير ذلك، ومع تطور العلم تطورًا ملحوظًا فى القرن التاسع عشر، والقرن العشرين الميلاديين، فإن هذا العلم جاء يؤكد صدق القرآن؛ لأن هذا القرآن أنزل على رسول الله ﷺ، وهو أمىّ نشأ بين أمّة أمّية، ولم يكن لديه أجهزة علمية، أو معامل ليكتشف بها هذه الحقائق الكثيرة التى حفل بها القرآن، وقد كان النبى رجلاً عاديًّا عازفًا عما عليه قومه، فلما نزل عليه الوحى؛ تفجر فمه بالحكمة فى قواعد الإيمان، والأخلاق والسلوك، والتشريع والقضاء ونظام الحكم، والعقوبات، والعبادات، والمعاملات .

فدل ذلك على أن هذا الوحى ليس من صنع محمد، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد .

وقد تحدى العربَ أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة، وطالت مدة التحدى، مع وجود الحافز والباعث لهؤلاء الكفار، أن يبطلوا حجته فقد قاتلوه وقاتلهم، وأفنوا الأموال والأعداد من الرجال فى سبيل القضاء على دعوته، فلو كان فى استطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن لأتوا به، لكن العجز قد لزمهم، وسجّل القرآن هذا العجز بقوله: **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** . (الإسراء: ٨٨) .

والمعهود فى كبار الأدباء أن تتفاوت آثارهم قوة وضعفًا، وسموًّا وضعة، ولا يسلم أحد من هذا وإن كان عبقرى الموهبة رائع البيان .

أما القرآن الكريم فجميع آياته طبقة عليا من البلاغة والبيان، والسلامة من التناقض والاضطراب مع طول مدة نزوله فقد نزل فى ٢٣ عامًا، ومع هذا نجده آية واحدة فى حسن السبك وجمال النظم، وبراعة الاستهلال وتصريف القول ! ؛ فقد حكى عن الأمم السابقة، وساق مشاهد الكون، وتناول أخبار القيامة ومشاهد الآخرة، قال تعالى: **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** . (طه: ١١٣)

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره ثلاث روايات لحديث ينهى عن الاختلاف والمراء وضرب القرآن بعضه ببعض ومن هذه الروايات ما يأتى:

عن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا، فإنا لجلوس إذا اختلف اثنان فى آية، فارتفعت أصواتهما، فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم؛ باختلافهم فى الكتاب»[٢٦] رواه مسلم والنسائى.



﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)﴾

المفردات:

أمــــر: خبر عن سرايا الرسول ﷺ.

الأمــــن: النصر.

الخـــوف: الهزيمة.

أذاعــوا بــه: نشروه وأفشوه.

يستنبطونه: يستخرجون حقائقه المستورة الخفية، ومقاصده البعيدة.

التفسير:

٨٣- وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ ... الآية

تقدم هذه السورة ألوانا من التربية الإسلامية وآدابها، ومن هذه الآداب: التثبت فى القول، وألا يحدث الإنسان بكل ما يسمع، وألاَّ ينقل الأخبار إلا بعد التيقن من صدقها. روى مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع»[٢٧].

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة «أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال»[٢٨] أى: الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين.

وفى الصحيح «من حدَّث عنى بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين»[٢٩] وقد نقل ابن كثير فى تفسيره طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة، تدعو المسلمين إلى التثبت فى القول، وعدم نشر الإشاعات والأراجيف، والرجوع إلى الثقات، وإلى أولى الأمر؛ للتثبت من الأخبار، والتيقن من الأمور قبل المشاركة فى إذاعتها وترويجها.

ونلمح أن بعض المنافقين، أو بعض ضعاف النفوس ممن شهوتهم الكلام، كانوا يروجون أخبار النصر والأمن، وأخبار الهزيمة والخوف، وهذه الأمور تسهل للعدوّ مهمة التجسس، ومعرفة مواطن الضعف والقوة لدى المسلمين .

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .

فواجب على كل مسلم أن يردّ هذه الأخبار إلى أولى الحلّ والعقد من المسلمين؛ فإنهم هم الذين يستطيعون تقييم هذه الأخبار، وتقدير ما إذا كان من المصلحة العامة للدولة إذاعتها أو كتمانها، كذلك هم – باطّلاعهم على خفايا الأمور – أعرف بصحة تلك الأخبار أو فسادها .

قال ابن كثير:

ونذكر هنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته[٣٠]، حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فاستأذن على رسول الله ﷺ، فاستفهمه: أطلقت نساءك ؟ فقال لا، قال عمر: فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى: لم يطلّق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

ومعنى يستنبطونه: يستخرجونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعورها[٣١] .

والذين يستنبطون الحقائق، هم الذين يطّلعون على خفايا الأمور، أو المراد بهم الذين رجعوا بهذه الأخبار – حينما سمعوها – إلى الرسول وأصحابه، فإنهم يعرفون – عن طريقهم – ما خفى عليهم أمره من هذه الأخبار . وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً .

ولولا حفظ الله لكم، وتثبيته لقلوبكم؛ لوقعتم فيما وقع فيه المنافقون، وضعفاء الإيمان وذوو الغفلة، ولولا رحمة الله بهذه الأمة؛ لضل الكثير من أبنائها، باتباع سبيل الشيطان، ولكان مصيرها الضياع والانهزام، وضعف الثقة فى النفوس .

لكن من عناية الله بهذه الأمة، أن جعل فيها قلة ممتازة، تتميز بقوة العزيمة، وثبات الإيمان، وعدم تصديق الأراجيف أو إذاعتها، وهذه القلة بمثابة الأساس المتين الذى يقوم عليه البناء ويعتمد عليه، ويصح أن يكون المراد بقوله: لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً . إلا فى قليل من أعمالكم .

وبالتأمل فيما تضمنته الآية الكريمة من إرشادات حكيمة، يتضح أن القرآن الكريم، قد سبق جميع النظم الحربية، فى وضع أقوى الوسائل لمواجهة ما يسمى الآن: الحرب النفسية، أو حرب الأعصاب. وهى التى تدير الحرب العسكرية .

★ ★ ★

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾

المفردات:

لا تكلف إلا نفسك : لا تكلف إلا فعل نفسك .

وحرض المؤمنين : وحثهم ورغبتهم .

تنكيلا : تعذيبا وإيلاما .

التفسير:

٨٤ - **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية**

هذه الآية تفريع على ما سبق من بيان حال المنافقين وضعاف الإيمان، وأنهم مُخذِّلون بإذاعتهم ما يسمعون، قبل التثبت من صحته.

وهى أمر من الله تعالى لرسوله، ولكل قائد، وكل قادر على القتال من المؤمنين المخلصين، أن يندفع ولو منفردًا إلى الجهاد فى سبيل الله، عند النفير العام، غير ملتفت إلى المثبطين والمرجفين .

وفى الآية حث على تحمل المسئولية الفردية، وقيام كل فرد بواجبه، وبذلك تتلاحم الصفوف، ويجتمع المسلمون يدًا واحدة، كالبنيان المرصوص .

ويفهم من الآية، أن على القائد أن يتقدم جنده، وأن يضرب لهم المثل بنفسه عمليا، وأن يُحرِّض المؤمنين على الجهاد، ويحثهم عليه، كما فعل رسول الله ﷺ يوم بدر؛ وهو يسوِّى الصفوف، فقد قال لهم: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» . [٣٢]

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيا؛ وجبت له الجنة» . [٣٣]

قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها علىّ يا رسول الله؛ ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ : «وأخرى يرفع الله العبد بها مائة درجة فى الجنة! ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هى يا رسول الله؟ قال : «الجهاد فى سبيل الله» .

عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً . فإذا حرّض القائد جنوده على القتال والجهاد، انبعثت الرغبة فى الشهادة، ولا ريب أن الاستعداد للحرب وأخذ العدّة والتأهب للقتال،

من شأنه أن يلقى الرعب فى قلوب الكفار فيكفُّون على التحرُّش بالمسلمين، ولذلك قيل: لا شىء يمنع من الحرب مثل الاستعداد لها .

فإن استعداد المسلمين وأخذهم العُدَّة من شأنه أن يحمل الكفار على التفكير والتروى قبل مواجهة المسلمين، فيتوقفون عن قتالهم، ويكفّ الله بهذا عن المسلمين شرّ قوتهم وشدة بأسهم .

وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً . فهو سبحانة أشد قوة من كل ذى قوة، وأشد تعذيبًا من كل قادر على التعذيب، وهو سبحانه قادر عليهم فى الدنيا والآخرة. قال تعالى: ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم . (محمد : ٤ – ٧)

★ ★ ★

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

المفردات :

من يشفع شفاعة : الشفع في الأصل: الضم. ومنه الشُّفعة. وهى ضم ملك الشريك . ومن الشفع: الشفاعة. كأن المشفوع له كان فردا، فجعلة الشفيع شفعا. وتطلق الشفاعة على التوسط لإيصال شخص إلى منفعة دنيوية أو أخروية، أو خلوص من مضرة مَّا.

نصيبٌ : النصيب: الحظ، وهو قابل للزيادة ، وأكثر ما يستعمل في الخير .

كِفْلٌ : الكِفْلُ: الوزر والإثم، أو المقدار المساوى، وأكثر ما يستعمل في الشرّ .

مُقيتا : مقتدرا، أو حافظًا وشاهدًا .

حسيبًا : محاسبًا ومجازيا، أو كافيًا ، أو حفيظا .

التفسير:

٨٥ - **مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ... الآية**

من يسع فى أمر فيترتب عليه خير - لفرد أو جماعة - كان له نصيب من أجر ذلك الخير، الذى ترتب على سعيه .

وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا .. أى: ومن يسع فى أمر فيترتب عليه شر، كان عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه، وهذا عام فى الأمرين.

قال ابن كثير فى تفسيره : (أى من يسع فى أمر فيترتب عليه خير؛ كان له نصيب من ذلك) .

وَمَن يَشْفَع شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا . أى: يكن عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيته كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء» [٣٤] .

وقال مجاهد بن جبير: (نزلت هذه الآية فى شفاعات الناس بعضهم لبعض) .

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا .. أى: مقتدرًا عل مجازاة كل إنسان من المحسنين والمسيئين، بما يستحقه من جزاء، وقال مجاهد: **مُّقِيتًا**. شهيدًا، حسيبا، وقيل قديرًا وقال الضحاك: المقيت الرزاق .

٨٦- **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا** .

حثّ الإسلام على صلة الرحم، وعمل على إشاعة المودة والمحبة والتراحم بين المسلمين، ومن أسباب المودة: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، وصلة الأرحام .

روى أبو داود بسنده إلى أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ! لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم» [٣٥] .

وردُّ السلام فريضة والزيادة على تطوع، فينبغى ان ترد السلام على المسلِّم وأن تزيد عليه .

روى ابن جرير عن سلمان الفارسى قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله؛ فقال: «وعليكم السلام ورحمة الله» ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله؛ فقال رسول الله ﷺ : «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته؛ فقال له: «وعليك» فقال الرجل : يا نبى الله بأبى أنت وأمى! أتاك فلان وفلان فسلما عليك، فرددت عليهما أكثر مما رددت علىّ، فقال: «إنك لم تدع لنا شيئا، قال الله تعالى: **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**.. فرددناها عليك» [٣٦]. قال ابن كثير: وهكذا رواه ابن أبى حاتم،

وابن مردويه ولم أره فى المسند وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة فى السلام على هذه الصفة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ .

وروى الإمام أحمد بن عمران بن حصين: أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله؛ فرد عليه السلام ثم جلس فقال: «عشر»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله؛ فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشرون»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فرد عليه السلام، ثم جلس فقال: «ثلاثون» [٣٧] رواه أبو داود والترمذى والنسائى والبزار.

وجاء فى التفسير الوسيط:

والردّ على تحية الإسلام واجب وإنما التخيير بين الزيادة وتركها. ولا يردّ على من سلَّم أثناء الخطبة، وتلاوة القرآن جهرًا، ورواية الحديث، وعند دراسة العلم، وعند الأذان والإقامة. ولا يسلم على لاعب النرد، والشطرنج، والمغنِّى، والقاعد بقضاء حاجته، والعارى فى الحمام.

والسنَّة أن يسلِّم الماشى على القاعد، والراكب على الماشى، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والعدد القليل على العدد الكثير، وإذا التقيا بادر كل منهما إلى إلقاء السلام على صاحبه، وخيرهما الذى يبدأ.

وجاء فى تفسير ابن كثير:

عن ابن عباس قال: من سلَّم عليك من خلق الله؛ فاردد عليه وإن كان مجوسيا؛ ذلك بأن الله يقول: **فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**..

فأما أهل الذِّمّة فلا يبدءون بالسلام، ولا يزادون بل يردّ عليهم بما ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلَّم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليكم فقل: وعليك» [٣٨].

وروى أبو داود بسنده إلى أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ! لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم» [٣٩]. ورواه مسلم أيضا.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ... وختمت الآية بما يحرك وجدان المسلم نحو الامتثال والمحافظة، على ما يوطِّد روابط المحبة والمودة بين الناس، والحرص على إفشاء السلام، وعلى ردّ التحية أو الزيادة عليها، وعلى ما يملأ قلب المؤمن خوفا من الله وحذرًا من عقابه، فهو سبحانه سريع الحساب، ولا تخفى عليه خافية. **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**. (الزلزلة: ٧، ٨)

٨٧- اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا .

اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . إخبار بتوحيد الله وتفرده بالألوهية لجميع المخلوقات.

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ. هو الذى يجمع الناس - بعد قيامهم من قبورهم - يوم القيامة ليجازى كلاً بما قدمت يداه، وهذا الجمع لا ريب فيه؛ أو هذا اليوم آت لا شك فى مجيئه .

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا . أى: لا أحد أصدق منه فى حديثه وخبره، ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا محدِّث أصدق منه، وحين يدخل أهلُ النار النار، ويدخل أهل الجنة الجنة، يقول الذين اتقوا ربهم: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.** (الزمر: ٧٤).

★ ★ ★

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾

المفردات :

فئتين : فرقتين .
أركسهم : ردَّهم إلى الكفر ونكَسَهم .
أولياء : أعوانا ونصراء ؛ توالونهم .
ميثاق : عهد .
حصرت صدورهم : ضاقت صدورهم .
اعتزلوكم : تركوا قتالكم .
وألقوا إليكم السلم : وألقوا إليكم الانقياد والاستسلام .

التفسير:

٨٨ - ﴿فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ .... تفيد هذه الآية وجود بعض المنافقين خارج المدينة؛ لأن المنافقين داخل المدينة كشفتهم السور المدنية، وذكرت خصالهم، وأمرت المسلمين بمهادنتهم؛ حتى ينكشف أمرهم، وحتى يقطع المسلمون مصادر قوّتهم حيث أخرج المسلمون اليهود من المدينة؛ فضعف أمر المنافقين بعد ذلك .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة أقوال:

ذكر ابن الجوزى فى كتابه: زاد المسير فى علم التفسير ٢/١٥٢: أن هناك سبعة أقوال فى سبب نزولها، (ويمكن أن نختار أربعة أقوال منها) :

١- أن قوما أسلموا، فأصابهم وباء المدينة وحُمَّاها، فخرجوا فاستقبلهم نفر من المسلمين، فقالوا: ما لكم خرجتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة، واجتويناها، فقالوا: أما لكم فى رسولة الله أسوة؟ واختلف بشأنهم؛ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا؛ فنزلت هذه الآية .

٢- أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى أحد، ورجع ناس ممن خرج معه، فافترق فيهم أصحاب رسول الله، ففرقة تقول: نقتلهم؛ وفرقة تقول: لا نقتلهم، فنزلت هذه الآية، هذا فى الصحيحين من قول زيد بن ثابت .

٣- أن قوما كانوا بمكة تكلموا بالإسلام، وكانوا يعاونون المشركين فخرجوا من مكة لحاجة لهم، فقال قوم من المسلمين: اخرجوا إليهم، فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عدوكم، وقال قوم: كيف نقتلهم وقد تكلموا بمثل ما تكلمنا به؟! فنزلت هذه الآية .

٤- نزلت هذه الآية فى شأن عبد الله بن أُبَىٍّ؛ حين تكلّم فى عائشة بما تكلم به. رواه ابن جرير الطبرى ٩/١٣ ورجح ابن جرير قول من قال: إنها نزلت فى اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى قوم كانوا ارتدوا بعد إسلامهم من أهل مكة .

ونحن نعلم فى قواعد علوم القرآن أنَّه إذا تعددت الروايات فى سبب نزول الآية وبعضها صحيح وبعضها ضعيف أخذنا بالرواية الصحيحة، فإذا كانت الروايات كلها صحيحة وأمكن الجمع بينها؛ حكمنا بتعدد الأسباب والمنزل واحد، فيمكن أن يكون حدث أكثر من سبب أدّى إلى نزول هذه الآية.

والجو العام للسيرة النبوية يؤدى إلى ترجيح ما رجحه ابن جرير الطبرى واختاره الأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن حيث رجح أن الآية نزلت فى منافقين كانوا بعيدين عن المدينة، ولعلَّ بعض المسلمين كانت تربطهم بهم قرابة، أو مشاركة فى تجارة أو منفعة؛ فأراد القرآن أن يضع قاعدة للمسلمين، تؤكد أن الترابط والتعاون والعمل ينبغى أن يتم على أساس العقيدة والإيمان .

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ . والخطاب فى الآية عام لجميع المؤمنين .

والمعنى: لم تختلفون فى القول بكفر هؤلاء المنافقين، وتفترقون فى هذا الأمر فرقتين، وقد ردَّهم الله إلى الكفر، كما كانوا بسبب ما اقترفوه من الاحتيال على رسول الله ﷺ وخديعته، أو معاونة المشركين فى إيذاء المسلمين بمكة، حيث بيَّتوا الشر وأضمروا الردّة ؟

ليس لكم أن تختلفوا فى شأنهم .. بل كان يجب عليكم – أيها المؤمنون – أن تتفقوا على القطع بكفرهم؛ لظهور أدلة هذا الكفر وذلك النفاق .

لقد يسر الله لهؤلاء المنافقين طريق الإيمان الصادق، ولكنهم تنكبوا طريق الصواب، واختاروا الضلالة على الهدى؛ فسلبهم الله معونته وتوفيقه، وردَّهم إلى الكفر بسبب ما عملوا .

وكلمة أَرْكَسَهُمْ فيها أربعة أقوال:

١- ردَّهم . ٢ – ركست الشيء وأركسته: لغتان أى: نكسهم وردهم فى كفرهم .

٣- أوقعهم . ٤- أهلكهم [٤٠] .

فأما الذى كسبوا فهو كفرهم وارتدادهم .

أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ . أى: ترشدوه إلى الثواب بأن يحكم لهم بحكم المؤمنين؛ لأن قوما من المؤمنين قالوا: إخواننا وتكلموا بكلمتنا، فبين القرآن خطأ هذا الاتجاه بعد أن ظهر للعيان نفاقهم.

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا ... فإنما يضلُّ الله الظالين، أى: يمدّ لهم فى الضلالة حين يتجهون هم بجهدهم ونيتهم إلى الضلالة، وعندئذ تغلق فى وجوههم سبل الهداية، بما بعدوا عنها وسلكوا غير طريقها، ونبذوا العون والهدى، وتنكروا لمعالم الطريق [٤١] .

٨٩ – وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... الآية

يفصح القرآن عن حقيقة مشاعر هؤلاء المنافقين، فهم لم يكتفوا بكفرهم، ورجوعهم إلى الضلال، بل يتمنون أن يقضوا على معالم الحق والإيمان .

والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية، مفزع لهم وهو يقول لهم:وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً ... فقد كانوا حديثى عهد بنبْذ الكفر، وتذوّق حلاوة الإيمان، فمن حاول أن يردّهم إلى وهدة الضلال، وظلام الجاهلية؛ وجب أن ينفروا منه، وأن يبعدوا عنه .

فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... أى: إذا كان الأمر كما علمتم؛ فلا تتخذوا من هؤلاء المنافقين أولياء وأصدقاء، حتى يهاجروا من مكة إلى المدينة؛ إخلاصًا لله، وطلبًا لمرضاته.

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ .. فإن أعرضوا عن الإيمان الصادق، والهجرة الصحيحة، فذلك هو الدليل المادىّ على نفاقهم وخداعهم.. فَأْسِروهم إن قدرتم عليهم، واقتلوهم إذا تمكنتم منهم، فى أى مكان تجدونهم فيه؛ دفعًا لشرّهم، وردًا لكيدهم .

وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا . أى: ولا تجعلوا منهم – فى هذه الحالة – وليًا يتولى شيئا من مهام أموركم، ولا نصيرا تستنصرون به على أعدائكم .

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له؛ فلا يكرههم أبدًا على اعتناق عقيدته، بل ويحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم، وهو يمتّعهم بخير الوطن الإسلامى، بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام وهو يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم فى غير ما يتعلق بمسائل النظام العام.

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهارًا نهارًا فى العقيدة، ولكنه لا يتسامح مع من يقولون: إنهم يوحدون الله، ويشهدون بالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، ثم يناصرون أعداء الإسلام، وينضمون إلى معسكر الكافرين؛ لأن فى هذا خداعً للإسلام والمسلمين .

٩٠ – إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ... الآية

استثنى الإسلام من هذا الحكم – حكم الأسر والقتل – لهذا الصنف من المنافقين، الذين يعينون أعداء الإسلام؛ من يلجأون إلى معسكر بينه وبين الجماعة الإسلامية عهد – عهد مهادنة أو عهد ذمة – ففى هذه الحالة يأخذون حكم المعسكر الذى يلتجئون إليه ويتصلون به .

من ذلك نلمح رغبة الإسلام فى السلام والوفاء، واحترام العهود والمواثيق .

فهو يجعل من يلجأ ويتصل ويعيش بين قوم معاهدين – عهد ذمة أو عده هدنة – شأنه شأن القوم المعاهدين يعامل معاملتهم ويسالم مسالمتهم .

أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ ... وهذه فئة تريد أن تقف على الحياد، فيما بين قومهم وبين المسلمين من قتال؛ إذ تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين مع قومهم، كما تضيق صدورهم أن يقاتلوا قومهم مع المسلمين؛ فيكفُّوا أيديهم عن الفريقين؛ بسبب هذا التحرج من المساس بهؤلاء أو هؤلاء .

فهؤلاء ليس للمسلمين تسلط عليهم؛ لأن الله كفّ المسلمين عن قتالهم؛ بما ألقى فى قلوبهم من الميل إلى الموادعة .

وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ . أي: ولولا ذلك الذى ألقاه الله فى نفوسهم؛ من الميل إلى الموادعة، والرغبة فى الحياد؛ لكانوا قوة تضاف إلى قوة الأعداء، وتزيد فى آلام المسلمين .

وهكذا يلمس المنهج التربوى الحكيم نفوس المسلمين المتحمسين، الذين قد لا يرضون هذا الموقف من هذا الفريق، يلمسه بما فى هذا الموقف من فضل الله وتدبيره، ومن كفٍّ لجانبٍ من العداء والأذى، كان سيضاعف العبء على عاتق المسلمين [٤٢] .

وجاء فى تفسير القرطبى أن هذه الآية فيها خمس مسائل منها:

المسألة الخامسة: قوله تعالى: وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ .. تسليط الله تعالى المشركين على المؤمنين؛ هو بأن يقدرهم على ذلك ويقوِّيهم، إما عقوبة ونقمة عند إذاعة المنكر وظهور المعاصى، وإما ابتلاء واختبارًا كما قال تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ.. (محمد: ٣١)، وإما تمحيصا للذنوب كما قال تعالى: وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .. (آل عمران: ١٤١) .

ولله أن يفعل ما يشاء، ويسلّط من يشاء على من يشاء إذا شاء، ووجه النظم والاتصال بما قبل: أى: اقتلوا المنافقين الذين اختلفتم فيهم، إلا أن يهاجروا، وإلا أن يتصلوا بمن بينكم وبينهم ميثاق، فيدخلون فيما دخلوا فيه فلهم حكمهم، وإلا الذين جاءوكم، وقد حصرت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، فدخلوا فيكم فلا تقتلوهم [٤٣] .

فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ... أى: وما دام هؤلاء الذين جاءوكم متحرجين من قتالكم وقتال قومهم، وقد اختاروا العزلة وعدم القتال، وسارعوا إلى السِّلْم والمسالمة فليس لكم عليهم – أيها المسلمون – أى سبيل أو أدني تسلط .

قال ابن كثير: أى: فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بنى هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبى ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره [٤٤] .

★ ★ ★

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

المفردات :

أركسوا : انقلبوا .

ثقفتموهم : وجدتموهم .

سلطانا مبينا : حجةً ظاهرة .

التفسير :

٩١ – سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ ... ينبه الله – سبحانه – المسلمين فى هذه الآية الكريمة إلى طائفة أخرى من المنافقين يلقون المسلمين بوجه، ويلقون كفّار قومهم بوجه آخر .. يقصدون بذلك أن يظفروا بالأمن من الجانبين، وهذا الفريق من المنافقين لا يترك قتال المسلمين تحرُّجا، ولكن يتركه مراوغة لتحقيق مآربه .

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ ...

قال ابن جرير الطبرى: وهؤلاء فريق آخر من المنافقين كانوا يظهرون الإسلام لرسول الله ﷺ وأصحابه؛ ليأمنوا به عندهم من القتل والسباء، وأخذ الأموال، وهم كفار، يعلم ذلك منهم قومهم، إذا لقوهم كانوا معهم، وعبدوا ما يعبدونه من دون الله، ليأمنوهم على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم يقول الله:

كُلَّ مَا رُدُّواْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا .... يعنى: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك بالله، ارتدوا فصاروا مشركين مثلهم [٤٥].

كُلَّ مَا رُدُّواْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيها ...

أُرْكِسُواْ فِيهَا .. أى: انهمكوا فيها والفتنة هنا بمعنى الشرك، حكى ابن جرير عن مجاهد: أنها نزلت فى قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبى ﷺ فيسلمون رياءً، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان، ويعودون إلى عبادة الأصنام، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا؛ فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا [٤٦] .

فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ... أى: فإن لم يجتنب هؤلاء قتالكم، ويطلبوا الصلح معكم، ويمدُّوا يد السلام والأمن إليكم، ويكفوا شرهم وأذاهم عنكم، ويقفوا موقف الحياد ويعلنوه ـ فخذوهم بالقوة أسرى لديكم، واقتلوهم فى أىّ مكان تدركونهم وتظفرون بهم عنده، (فإن دماءهم لكم حينئذ حلال)[٤٧] .

وَأُولائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا.. والسلطان المبين . أى: وهؤلاء المنافقون: قد جعل الله لكم الحجة الواضحة على جواز أخذهم وقتلهم، بسبب ظهور عدوانهم لكم، وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر بكم، والخيانة والكيد لكم .

★ ★ ★

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

المفردات :

فتحرير رقبة : فعتق رقبة .

يصَّدَّقوا : يتصدقوا بالدية، بالتنازل عنها .

ميثاق : عهد .

خالدا فيها : ماكثا مكثا طويلاً .

التفسير :

٩٢ ـ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا .. اى: وما أذن الله لمؤمن ولا أباح له أن يقتل مؤمنًا يقول: ما كان ذلك له فيما جعل له ربّه، وأذن له فيه من الأشياء البتة [٤٨] .

لقد حرص الإسلام على حفظ العقول والأعراض والأموال والأرواح وقد حرم الله قتل النفس. وفى الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (٤٩).

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا ... أى: وما صح وما استقام لمؤمن صادق الإيمان، فيما أتاه ربّه فى شريعة الإسلام، أن يقتل إنسانًا مؤمنًا بغير حق إلا خطأ.

وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ ... أى: ومن وقع منه القتل الخطأ، فالجواب عليه فى هذه الحالة أن يعتق نفسًا مؤمنة، وأن يؤدى إلى ورثة القتيل دية يقتسمونها كما يقتسمون الميراث، والدية عوض عن دم القتل، وهى مائة من الإبل أو قيمتها بالدراهم أو الدنانير، وقد قدَّرها عمر رضى الله عنه بألف دينار على من يتعاملون بالذهب، واثنى عشر ألف درهم على من يتعاملون بالفضة.

روى أبو داود عن عمر رضى الله عنه: (على أهل الإبل مائة بدنة، وعلى أهل البقر مائتا بقرة، وعلى أهل الشاة ألف شاة، وعلى أهل الحلل مائتا حلة) وتتحمل عشيرة القاتل عنه دفع الدية، فإن لم تكن له عاقلة؛ وجبت على بيت المال، فإن لم يكن فيه؛ وجبت فى مال القاتل، ولا تسقط هذه الدية، إلا فى حال تنازل أهل القتيل عنها، وهذا التنازل نوع من المعروف وكل معروف صدقة (٥٠).

قال تعالى: إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ. أى تجب الدية إلا أن يعفو أهل القتيل بالتنازل عنها تطوعًا وصدقة، هذا إذا كان المقتول خطأ مؤمنًا: من قوم مؤمنين.

فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... أى: فإن كان المقتول خطأ من قوم كفار معادين للمؤمنين – وهو مؤمن – فالواجب فى هذه الحالة، عتق رقبة مؤمنة، وفكاكها من قيد الرق، وإطلاق حريتها؛ كفارة عن هذا القتل الخطإ، ولا دية ... لأَنَّها تعود على أعداء المسلمين المحاربين، ولا يجوز أن يدفع المسلمون أموالهم إلى عدوهم؛ ليتقوى عليهم بسببها، ويحاربهم بها.

روى ابن جرير الطبرى عن قتادة: فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ. ولا دية لأهله؛ من أجل أنهم كفار، وليس بينهم وبين الله عهد ولا ذمة.

وعن ابن عباس قال: كان الرجل يُسلم ثم يأتى قومه فيقيم فيهم وهم مشركون، فيمرّ بهم الجيش لرسول الله ﷺ فيُقتل فيمن يُقتل، فيعتق قاتله رقبة ولا دية له.

وقال آخرون: بل عُنى به الرجل من أهل الحرب، يقدم دار الإسلام فيُسلم، ثم يرجع إلى دار الحرب، فإذا مر بهم الجيش من أهل الإسلام هرب قومه، وأقام ذلك المسلم منهم فيها، فقتله المسلمون وهم يحسبونه كافرًا.

روى الطبرى فى رواية أخرى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: **فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**. هو المؤمن يكون فى العدوّ من المشركين، يسمعون بالسَّرية من أصحاب محمد ﷺ، فيفرُّون، ويثبت المؤمن فيقتل، ففيه تحرير رقبة مؤمنة [٥١] .

والروايات متقاربة فى المعنى، وكلها تثبت معنى الآية أو الفقرة من الآية .

قال ابن كثير:

أى: إذا كان القتيل مؤمنًا ولكن أولياءه من الكفار أهلُ حرب فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة ولا غير .

وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بينكمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... أى: وإن كان المقتول خطأ، من قوم كفار بينكم – أيها المسلمون – وبينهم عهد وميثاق، وليسوا أعداء لكم؛ فالواجب – فى هذه الحالة – المبادرة بأداء دية تسلّم إلى أهل القتيل؛ تعويضًا عن دمه، كما يجب – كذلك – عتق نفس مؤمنة؛ لأن دماء هؤلاء قد عصمت؛ بحكم ما بينهم وبين المسلمين من ذمة وميثاق.

وقد روى ابن جرير الطبرى: أن أهل التأويل اختلفوا فى صفة القتيل الذى هو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، أهو مؤمن أو كافر؟ فقال بعضهم: هو كافر إلا أنه لزمت قاتله ديته؛ لأن له ولقومه عهدًا، فوجب أداء ديته إلى قومه؛ للعهد الذى بينهم وبين المؤمنين، وأنَّها مال من أموالهم ولا يحل للمؤمنين شىء من أموالهم بغير طيب أنفسهم، وقال آخرون: بل هو مؤمن فعلى قاتله دية يؤديها إلى قومه من المشركين؛ لأنهم أهل ذمة .

وعلَّق الطبرى على القولين بقوله:

وأولى القولين فى ذلك بتأويل الآية، قوله: من قال عنى بذلك المقتول من أهل العهد (سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا) لأن الله أبهم ذلك، ولم يقل وهومؤمن، فكان فى تركه وصفه بالإيمان الذى وصف به القتيل الماضى ذكره قبل، الدليل الواضح على صحة ما قلنا، فإن ظن ظان أن فى قوله تبارك وتعالى: **فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ**. دليلاً على أنه من أهل الإيمان؛ لأن الدية عنده لا تكون إلا لمؤمن، فقد ظن خطأ؛ وذلك أن دية الذمىّ وأهل الإسلام سواء؛ لإجماع جميعهم على أن ديات عبيدهم الكفار، وعبيد المؤمنين من أهل الإيمان سواء . وذهب قوم إلى أن ديات أهل العهد والميثاق على النِّصف أو على الثلث من ديات أهل الإيمان، قال الطبرى: والراجح أن دياتهم وديات المؤمنين سواء [٥٢] .

وقال الإمام ابن كثير فى تفسيره :

وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بينكمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ... أى: فإن كان القتيل، أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمنا؛ فدية كاملة، وكذا إن كان كافرًا أيضا؛ عند طائفة من العلماء، وقيل: يجب

فى الكافر نصف دية المسلم، وقيل ثلثها ؛ كما هو مفصل فى كتاب الأحكام، ويجب أيضا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة [٥٣] .

وفى التفسير الوسيط ما يأتى:

وفى هذا القسم من أقسام القتل الخطإ، لم يوصف المقتول بالإيمان أو الكفر؛ مما يشعر بأن وجود عهد وذمة بين المسلمين، يسوى بين الجميع فى الدية والفدية، وبذلك يرتفع الإسلام إلى أعلى مستوى من رعاية حقوق المعاهدين والذميين، وهو تشريع فى رعاية العهد، وحرمة الدم ولا يُسَامَى أبدًا، وحرمة الدم الإنساني واضحة فى إيجاب عتق الرقيق فى جميع حالات القتل [٥٤] .

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ... أى: فمن لم يجد الرقيق بأن لم يملكه، ولا يملك ما يوصله إليه؛ بأن عجز عن ثمنه، أو عجز عن شرائه مع اليسار بثمنه، فالواجب على القاتل فى هذه الحالة الانتقال إلى البدل، وهو صيام شهرين متتابعين: لا يقع بين أيامهما إفطار بغير عذر يبيح الفطر .

قال ابن كثير: فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ... أى: لا إفطار بينهما بل يَسْرُدُ صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض، أو حيض، أو نفاس؛ استأنف؛ واختلفوا فى السفر هل يقْطع أم لا على قولين .

تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ... يعنى: تجاوزا من الله لكم؛ إلى التيسير عليكم بتخفيفه ما خفف عنكم، من فرض تحرير الرقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها، بإيجابه صوم شهرين متتابعين [٥٥] والصوم المتتابع فيه قمع الشهوة، وإظهار التوبة، وصفاء النفس، وإظهار الأدب بامتثال أمر الله وطاعة أمره .

وقال ابن كثير فى تفسير الآية:

واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام؛ هل يجب عليه إطعام ستين مسكينا كما فى كفارة الظهار، على قولين:

أحدهما: نعم، كما هو منصوص عليه فى كفارة الظهار، وإنما لم يذكر ههنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير؛ فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام، لما فيه من التسهيل والترخيص .

والقول الثانى: لا يعدل إلى الطعام؛ لأنه لو كان واجبا لما أخَّر بيانه عن وقت الحاجة .

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا... أى: كان الله ولا يزال، عظيم العلم بما يصلح عباده، فيما يكلفهم من فرائضه؛ بالغ الحكمة فى كل ما شرعه من الأحكام .

٩٣ ـ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ...
أى: ومن يقتل مؤمنا قاصدًا قتله؛ فجزاؤه الذى يستحقه على اقتراف تلك الجريمة الشنيعة، دخول

جهنم ماكثا فيها مكثا طويلا، إلى أن يشاء الله إخراجه من النار فيخرجه منها؛ إذ ليس المراد من الخلود هنا دوام البقاء فى جهنم أبدًا ؛ فإن الخلود فيها أبدًا جزاء الكافرين .

وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ .. أى: وانتقم منه، وأبعده سبحانه عن رحمته .

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ... أى: وقد هيأ الله فى جهنم لمن تعمد قتل المؤمن، عذابًا رهيبًا، لا يدرك الإنسان غايته لشدة بشاعته .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره:

وهذه الآية تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذى هو مقرون بالشرك فى غير ما آية، فى كتاب الله حيث يقول سبحانه فى سورة الفرقان: **وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** . (الفرقان: ٦٨) .

وقال تعالى: **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** . (الأنعام: ١٥١) .

والآيات والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جدا فمن ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» [٥٦] .

وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» [٥٧] .

وفى الحديث الآخر «لو اجتمع أهل السماوات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله فى النار» [٥٨] .

وفى الحديث الآخر: «من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة؛ جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه: آيس من رحمة الله» [٥٩] .

من تفسير الطبرى:

ساق الطبرى عدة آراء فى صفة القتل الذى يستحق صاحبه أن يسمى متعمدًا .

فقال بعضهم: العمد ما كان بحديدة، وشبه العمد ما كان بخشبة، وقال آخرون: كل ما عمد الضارب إتلاف نفس المضروب فهو عمد، إذا كان الذى ضَرَب به الأغلب منه أن يقتل، وقد رجح الطبرى هذا الرأى .

وأما قوله: فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا .

فقد اختلف أهل التأويل فى معنى هذه الجمله .

١- فقال بعضهم: معناه: فجزاؤه جهنم إن جازاه الله وإن شاء تجاوز عنه .

٢- وقال آخرون: عنى بذلك رجلاً بعينه كان أسلم فارتدَّ عن إسلامه وقتل رجلاً مؤمنا قالوا: فمعنى الآية: ومن قتل مؤمنا مستحلا قتله؛ فجزاؤه جهنم خالدًا فيها .

وقد ساق الطبرى أحاديث تثبت ذلك، وفيها: أن النبى ﷺ قال: «أظنه قد أحدث حدثا، أما والله لئن كان فعل؛ لا أقيله فى حل ولا حرم ولا سلم ولا حرب ؛ فقتل يوم الفتح » [٦٠] قال ابن جريج وفيه نزلت هذه الآية، وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا .

٣- وقال آخرون: معنى ذلك: إلا من تاب .

قال مجاهد فى هذه الآية: إلا من ندم .

٤- وقال آخرون: ذلك إيجاب من الله الوعيد لقاتل المؤمن متعمدًا، كائنا من كان القاتل، على ما وصفه فى كتابه، ولم يجعل له توبة من فعله، قالوا: فكل قاتل مؤمن عمدًا، فله ما أوعده الله من العذاب والخلود فى النار، ولا توبة له، وقالوا: نزلت هذه الآية بعد التى فى سورة الفرقان .

وفى الحديث الصحيح [٦١] الذى رواه الإمام أحمد، ورواه البخارى، ومسلم، أن رجلا قال ابن عباس- بعد أن كفَّ بصره - أفرأيت إن تاب قاتل المؤمن عمدًا، وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ؟ قال ابن عباس ثكلته أمّه! وَأنَّى له التوبة؟ فوالذى نفسى بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: ثكلته أمُّه قتل رجلاً متعمدًا؛ جاء يوم القيامة آخذا بيمينه أو بشماله، تشخب أوداجه دمًا، فى قُبُل عرش الرحمن، يلزم قاتله بيده الأخرى يقول: سل هذا فيم قتلنى ؟! والذى نفس عبد الله بيده، لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان [٦٢] .

وقد وردت عدة آثار فى هذا المعنى، تفيد أن عبد الله بن عباس قال فى شأن هذه الآية، التى تحدثت عن جزاء قتل المؤمن عمدًا: لقد نزلت فى آخر ما نزل من القرآن، وما نسخها شىء. وعن الضحاك بن مزاحم قال: ما نسخها شىء منذ نزلت، وليس له توبة .

قال الطبرى:

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب، قول من قال: معناه:

ومن يقتل مؤمنا متعمدًا فجزاؤه - إن جزاه - جهنم خالدا فيها؛ ولكنه يعفو ويتفضل على أهل

الإيمان به وبرسوله، فلا يجازيهم بالخلود فيها، ولكنه - عز ذكره - إما أن يعفو بفضله فلا يدخله النار، وإما أن يدخله إيَّاها ثم يخرجه منها؛ بفضل رحمته لما سلف من وعده عباده المؤمنين بقوله: قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. (الزمر: ٥٣) .

لقد قال تعالى عن المشرك: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ. (النساء: ١١٦).

والقتل دون الشرك .

تعقيب على الآية .

بعض الناس يستدل بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة فى النار .

قال ابن كثير فى تفسيره:

والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع وعمل عملاً صالحًا؛ بدّل الله سيئاته حسنات، وعوَّض المقتول من ظلامته، وأرضاه عن طلابته قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ... إلى قوله... إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ... وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ... على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم .

وقال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ. (النساء: ١١٦)

فهذه الآية عامة فى جميع الذنوب، ما عدا الشرك .

وثبت فى الصحيحين: خبر الإسرائيلى الذى قتل مائة نفس، ثم سأل عالمًا: هل لى من توبة فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه؛ فهاجر إليه فمات فى الطريق فقبضته ملائكة الرحمة . [٦٣] .

وإذا كان هذا فى بنى إسرائيل، فلأن يكون فى هذه الأمة ؛ التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى؛ لأن الله وضع عنَّا الآصار والأغلال ؛ التى كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة [٦٤].

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾

المفردات :

ضربتم فى سبيل الله: سافرتم للغزو .

فتبينوا: فاطلبوا بيان الأمر والكشف عنه وتثبتوا .

ألقى إليكم السلام: حيَّاكم بتحية الإسلام .

تبتغون عرض الحياة الدنيا: تطلبون متاعها الزائل ، ونعيمها الفانى: من مال وغيره .

التفسير:

٩٤ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ... حرص الإسلام على حفظ الأعراض والأموال والدماء والعقول .

وقد ورد فى كتب الصحيح وغيرها أسباب نزول هذه الآية وموجزها: أن أحد المسلمين كان فى سرية للجهاد فتفرق الأعداء، وبقى رجل فى غنمه فلما أدركه المسلم، قال الرجل: السلام عليكم إني مسلم، فقتله المسلم، واستاق ماله؛ فنزلت هذه الآية، تأمر بالتثبت والتروِّى وعدم التسرع فى قتل إنسان بعد إعلان إسلامه؛ إذْ ربَّما كان الدافع الرغبة فى ماله وفى عرض الحياة الدنيا .

وقد ساق ابن جرير الطبرى ثمانى عشرة رواية فى سبب نزول هذه الآية، منها: ما يفيد أن القاتل هو أسامة بن زيد، والقتيل هو مرادس بن نهيك، ومنها: ما يفيد أن القاتل هو المقداد بن الأسود، ومنها: ما يفيد أن القاتل غيرهما ؛ ويمكن الجمع بينهما بتعدد الأحداث ونزول الآية عقب كل منها.

وقد وردت روايات بهذا المعنى فى البخارى والترمذى، والحاكم، وغيرهم.

وجاء فى تفسير مقاتل بن سليمان ما يأتى:

بعث رسول الله ﷺ سرية عليها أسامة بن زيد إلى بنى ضمرة، فلقوا رجلاً منهم يدعى مرادس ابن نهيك معه غنمه له وجمل أحمر، فلما رآهم أوى إلى كهف جبل، واتَّبعه أسامة، فلما بلغ مرادس الكهف، وضع فيه غنمه، ثم أقبل إليهم فقال: «السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول

الله» فشد عليه أسامة فقتله من أجل جمله وغنمه، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك؛ قال لأسامة: «كيف أنت ولا إله إلا الله!» قال: يا رسول الله، إنما قالها متعوذًا، تعوَّذ بها .

فقال له رسول الله ﷺ: «هلاَّ شققت عن قلبه فنظرت إليه ؟» قال: يا رسول الله، إنما قلبه بضعة من جسده [٦٥]؛ فأنزل الله خبر هذا، وأخبره إنما قتله من أجل جمله وغنمه فذلك حين يقول: **تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ..

فلما بلغ **فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**: أي: فتاب الله عليكم؛ حلف أسامة أن ألا يقاتل رجلاً يقول: لا إله إلاَّ الله بعد ذلك الرجل، وما لقى من رسول الله ﷺ فيه [٦٦] .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... يأيها الذين صدَّقوا الله وصدقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم، إذا سُرتم مسيرة لله فى جهاد أعدائكم .

فَتَبَيَّنُواْ . فتأنَّوا فى قتل من أشكل عليكم أمره؛ وابحثوا عن الحقيقة، وتثبتوا من حال من تقاتلونهم، ولا تُقْدموا على قتل أحد، إلا إذا علمتموه يقينا حربيا لكم ولله ولرسوله .

وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ .. ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم، مظهرا لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم .

لَسْتَ مُؤْمِنًا .. أى: إنك إنما أظهرت الإسلام، طلبا للنجاة، بنفسك ومالك، ولست مخلصا فى إسلامك. وفى الأثر: فقال رسول الله ﷺ للمقداد بن الأسود: «كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفّار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة من قبل!»[٦٧] .

تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . تريدون متاع الحياة الدنيا بالاستيلاء على مال الرجل وهو متاع قليل زائل.

فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ. من رزقه وفواضل نعمه فهى خير لكم إن أطعتم الله فيما أمركم به ونهاكم عنه.

كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ. كفّارا مثلهم، أو تستخْفُون بدينكم كما استخفى هذا الذى قتلتموه وأخذتم ماله .

فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ . أى: هداكم الله إلى الإسلام، أو إعلان الإيمان، أو التوبة على الذى قتل ذلك الرجل، فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل بكم .

فَتَبَيَّنُواْ . تكرير للأمر بالتبيين؛ ليؤكد عليهم .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . فيعلم ما تخبئه النفوس، وتضمره القلوب، وبواعثها على العمل وغايتها التى لا تنكشف للناس .

★ ★ ★

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

المفردات:

القاعدون: المتخلفون عن الجهاد.

أولى الضرر: أصحاب الأمراض والعاهات.

التفسير:

٩٥ ــ **لاَّ يَسْتَوِى الْقَاعِدونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ ... الآية.** بين الله سبحانه فضل الجهاد ومنزلة المجاهدين، وصرَّف القول، وسلك العديد من الطرق؛ لبيان فضيلة هذه الفريضة.

وقد بين هنا فضل المجاهدين على القاعدين، وهو أمر معروف لأول وهلة، ولكنه ساقه هنا؛ ليحفز به القاعدين، ويبعث الهمم فيهم إلى الرغبة فى الجهاد، وقد ورد فى كتب السنّة وصحيح البخارى أمر خاص يتصل بهذه الآية؛ ودقة هذا الكتاب، والحكمة فى نزوله منجما؛ حتى يرعى مصالح البشر.

روى البخارى عن زيد بن ثابت: أنَّ النبى ﷺ أملى عليه:

لاَّ يَسْتَوِى الْقَاعِدونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ. فجاء ابن أم مكتوم وهو يملّها على قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت – وكان أعمى – فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذى، فثقلت علىّ حتى خفت أن ترضَّ فخذى، ثم سُرى عنه فأنزل الله: **غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ.** [٦٨]

أى: لا يستوى المتخلفون من المؤمنين الأصحاء، الذين قعدوا عن الخروج للجهاد؛ بدون عذر أو مرض أو غير ذلك لا يستوى هؤلاء، والذين خرجوا للجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فى الأجر والثواب، وعلوّ الدرجة عند الله تعالى.

وكيف يستوى من تخلَّف – بدون أعذار – مع الذين بذلوا أرواحهم راضين صابرين؛ لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى؟!

جاء فى زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى:

قوله تعالى: **لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدونَ** . يعنى: عن الجهاد، والمعنى: أن الجهاد أفضل، قال ابن عباس: وأريد بهذا الجهاد غزوة بدر (٦٩) وقال مقاتل: غزاة تبوك، والضرر .

والضرر: هو العذر الذى يمنع صاحبه من الجهاد .

وقال بعضهم: هو العجز بالزَّمانة والمرض .

وقال ابن عباس: هم قوم كانت تحبسهم عن الغزاة أمراض وأوجاع .

وقال الزجاج: الضرر: أن يكون ضريرًا أو أعمى أو زمنًا .

فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. أى: فضل الله المجاهدين، الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، لإعلاء كلمة الحق، ابتغاء مرضاة الله، على الذين قعدوا عن الجهاد بغير عذر درجة عظيمة لا يعلم قدرها إلا الله .

وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى.. أى: وكلاً من فريقى المجاهدين والقاعدين من المؤمنين، وعده الله المثوبة الحسنى وهى الجنة؛ لتحقق الإيمان الصادق فيهما .

قال ابن كثير: وفيه دليل على أن الجهاد ليس بفرض عين . بل فرضه على الكفاية (٧٠) .

وفى هذه الأيام صار الجهاد فنا من الفنون المعقدة، فالمقاتل يحتاج إلى جهود كثيرة لدراسة فنون السلام والمناورة، أو الطيران أو الإشارة أو حل رموز الشفرة .

ولا يباح لمن كان عليه دور معين، أن يتخلف عن القتال بدون عذر؛ فقد توعَّد الله الفارّ من الزحف بالغضب والعذاب .

قال تعالى: **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** . (الأنفال: ١٥، ١٦).

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمَجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . فيه تأكيد لمزيد أجر المقاتلين، وزيادة درجاتهم لمسارعتهم لتنفيذ أمر الله، واستجابتهم لنداء الله .

وقال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** . (التوبة: ١١١) .

٩٦ - دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً... أى: منازل عالية لا يحبط الوصف بفخامتها، وجلال قدرها، تفضَّل الله بها على المجاهدين، مع مغفرة الذنوب، والرحمة التى يحيطهم بها، ويحفظهم بشمولها .

وهذه الآية مفسرة للأجر العظيم فى الآية السابقة والمراد بالدرجات درجات الجنة .

روى البخارى ٩/٦، ٣٤٩/١٣ عن أبى هريرة مرفوعا: «إن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» [٧١] .

وروى مسلم ١٥٠١/٣ عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا؛ وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها علىّ يا رسول الله! ففعل، ثم قال «وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال وما هى يا رسول الله ؟ قال: الجهاد فى سبيل الله، الجهاد فى سبيل الله» [٧٢] .

وقال ابن زيد: الدرجات: هى السبع التى ذكرها الله تعالى فى براءة حين قال: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (التوبة: ١٢٠، ١٢١) .

وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا.. أى: كان ولا يزال على الداوم، عظيم الغفران لذنوب عباده، واسع الرحمة بكل شىء .

فإن قيل: ما الحكمة من أن الله تعالى ذكر فى أول الكلام درجة وفى آخره درجات ؟ فعنه جوابان:

١- أن الدرجة الأولى تفضيل المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر؛ منزلة، والدرجات تفضيل المجاهدين على القاعدين من غير أولى الضرر؛ منازل كثيرة، وهذا معنى قول ابن عباس .

٢- أن الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم، والدرجات منازل الجنة [٧٣] .



﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ﴾

المفردات:

مستضعفين: عاجزين عن القيام بما وجب عليهم .

والولدان: الصغار أو المراهقين أو الأرقاء .

لا يستطيعون حيلة: لا يجدون سببا موصلا إلى الغرض .

التفسير:

٩٧ - إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ... تبين هذه الآية موقف المسلمين الذين تخلفوا عن الهجرة من مكة إلى المدينة، مع قدرتهم على هذه الهجرة .

وقد ورد فى كتب التفسير: أنها تشير إلى جماعة من المنافقين.

جاء فى تفسير ابن كثير عن الضحاك: نزلت فى ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة، فى كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنصٍّ هذه الآية .

وجاء فى تفسير الطبرى، عدد من الآثار فى سبب نزول هذه الآية، تفيد هذه الآثار فى جملتها: أن الآية نزلت فيمن تخلف عن الهجرة؛ وآثر البقاء فى دار الكفر .

عن ابن عباس قال:

كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانو يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم؛ فقال المسلمون: «كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا ! فاستغفروا لهم» فنزلت: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ . الآية.

قال: فكُتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية وأنه لا عذر له .

قال: فخرجوا من مكة فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة [٧٤] فنزلت فيهم: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ . (العنكبوت: ١٠) .

فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (النحل: ١١٠)، فكتبوا إليهم بذلك «إن الله قد جعل لكم مخرجا» فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل [٧٥].

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ .. أي: تتوفاهم .

ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. أي: في حال ظلمهم لأنفسهم حيث أسلموا وآثروا البقاء بين ظهراني المشركين في دار الكفر، وتحملوا الذل والهوان والقهر – وهم قادرون على التخلص مما هم فيه – من كبتٍ وإذلال– إلى بلد يأمنون فيه على دينهم وأموالهم وأنفسهم .

إن هؤلاء حين تقبض الملائكة أرواحهم، أي: ملك الموت وأعوانه .

قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ . أي: في أي شيء كنتم من أمر دينكم الذي يأمركم بالهجرة، والمراد: لم مكثتم هنا وتركتم الهجرة، قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ . قالوا: معتذرين في وقت لا ينفع فيه الاعتذار: كنا نعيش مقهورين تحت أيدي الكفار؛ لا نقدر على الخروج من مكة، ولا الذهاب في الأرض .

قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا .. أي: إن عذركم عن ذلك التقصير غير مقبول، حيث كان في إمكانكم الهجرة إلى الحبشة أو إلى المدينة، واللحاق بإخوانكم المهاجرين، والانضمام إلى صفوفهم، ليزدادوا بكم قوة ومنعة .

من تفسير الزمخشري:

وفي هذه الآية دليل على أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب، والعوائق عن إقامة الدين، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله، وأدوم على العبادة، حقت عليه المهاجرة .

اللهم، إن كنت تعلم أن هجرتي إليك لم تكن إلا للفرار بديني؛ فاجعلها سببا في خاتمة الخير، ودرْك المرجو من فضلك، والمبتغى من رحمتك، وصل جواري لك، بعكوفي عند بيتك، بجوارك في دار كرامتك يا واسع المغفرة [٧٦] .

فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .. أي: فجزاء هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة أن يكون مسكنهم جهنم؛ لتركهم الفريضة المحتومة – فقد كانت الهجرة واجبة في صدر الإسلام – أو لنفاقهم وكفرهم، ونصرتهم أعداء الله على رسول الله ﷺ [٧٧] .

٩٨ – إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً .

هذا عذر من الله لهؤلاء المستضعفين فى ترك الهجرة؛ لأنهم لا يقدرون على التخلص من أيدى المشركين أى: لكن الضعفاء من الرجال والنساء والولدان أى: الأطفال والمراهقين الذين لا يقدرون على حيلة فى الخروج من مكة، ولا على نفقة ولا قوة .

وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً .. أى: لا يعرفون الطريق إلى المدينة .

أو لا يعرفون طريقا يتوجهون إلى إن خرجوا هلكوا [٧٨] .

٩٩ – فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا . أى: فهؤلاء المستضعفون سيرجى لهم العفو من الله، لأنه كثير العفو واسع المغفرة .

قال الألوسى: وفيه دليل على أن ترك الهجرة أمر خطير؛ حتى أن المضطر الذى تحقق عدم وجوبها عليه، ينبغى أن يعدّ تركها ذنبا، ولا يأمن، ويترصد الفرصة ويعلق قلبه بها [٧٩] .



﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات :

مـــــراغــــمـــــا : متحولا يتحول إليه، ومكانا يتنقل فيه .

وسَــــــعَـــــــةً : السعة: البسطة فى العيش ، والزيادة فى الرزق .

فقد وقع أجره على الله : أى: ثبت ثوابه عنده .

التفسير :

١٠٠ – وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً . . . الاية

كانت الآيات السابقة فى تحذير المسلمين من القعود عن الهجرة . من مكة عند القدرة عليها، وبعث الرجاء فى نفوس المستضعفين بأن الله سيعفو عنهم .

وهذه الآية جاءت بعدها؛ للترغيب فى تلك الهجرة : ببيان ثوابها ومنزلتها عند الله تعالى. وكونها طريقا للنصر، وإذلال الأعداء، وبابًا واسعا للرزق. وذلك جريًا على عادة القرآن الكريم: من الجمع بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب .

سبب النزول:

لما نزلت الآيات السابقة فى التحذير من القعود عن الهجرة؛ خرج ضمرة بن جندب مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ، فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ؛ فنزلت الآية: وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

أورده ابن كثير عن ابن عباس .

وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً .. أى: ومن يعمد إلى مثل تلك الهجرة– فى سبيل إعلاء كلمة الله، والمحافظة على دينه – يجد فى الأرض متَّسعًا لهجرته، ورحابًا فسيحة، يستطيع التنقل فيها، والتحول إليها، والاستمتاع بخيراتها، واتخاذ الموقع المناسب لضرب الأعداء والنجاة من شرهم .

وفى ذلك ما فيه الإهانة لهم، وإرغام أنوفهم . كما يجد – إلى جانب ذلك – سعة فى الرزق، وبسطة فى العيش ... فلا عذر لأحد من الأقوياء فى القعود عن الهجرة والبقاء فى دار الكفر: مكتوم الأنفاس، متعرضًا لأذى الكفار . قال تعالى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ. (العنكبوت: ٥٦).

وليست الهجرة – بصفة عامة – للهرب من العدو؛ وإنما هى ضرب من الجهاد؛ للقضاء على سيطرة الأعداء، وتحول من موقع إلى موقع آخر، يمكن منه ضرب العدو، وإلحاق الأذى والذل به، والتمكن من إقامة شعائر الدين فى حرية وطلاقة .

فهى فى الأصل: الانتقال من مكان إلى مكان . والمراد بها : الهجرة من أرض الكفر إلى أى مكان يأمن فيه الإنسان على نفسه وماله ودينه .

وقد هاجر بعض المسلمين – فى أول الإسلام – إلى الحبشة .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك من مكة إلى المدينة . وكانت واجبةً قبل فتح مكة . وهى التى نزلت فيها آيات الترغيب والترهيب .

ولما تم فتح مكة، واستقر الأمر فيها للمسلمين، وأعز الله فيه الإسلام، لم تعد هناك حاجة إلى الهجرة من مكة . ولهذا قال ﷺ : «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» (٨٠) .

وتشمل الهجرة بالمعنى العام: الهجرة فى طلب العلم، والهجرة فى طلب الرزق، والهجرة فى نشر الدعوة الإسلامية فى البلاد التى لم تصلها أو التى هى فى حاجة إليها . وكلها مما رغب الله فيه.

وقد تطلق الهجرة على هجر الذنوب والمعاصى، كما فى قول الرسول ﷺ : «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (٨١) .

هذا، وقد تكفل الله تعالى، فى هذه الآية الكريمة، بثواب الهجرة كاملا لمن خرج من بيته بنيّة الهجرة: لا يريد بذلك إلا وجه الله واللحاق برسول الله، ثم حلَّ به الموت قبل أن يصل إلى مقصده، وإن أدركه أمام باب داره التى خرج منها . فقال جل شأنه:

وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ.. أى: لإعلاء كلمة الله، فهى ضرب من الجهاد .

ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ : أى: يلحقه، وينزل به قبل أن يبلغ مقصده .

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ: أى ثبت ثوابه عنده، وكان فى ضمانه تعالى؛ بمقتضى وعده وتفضيله؛

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا : أى: كان – ولا يزال – عظيم المغفرة لما فرط من الذنوب، التى من جملتها: القعود عن الهجرة من غير عذر إلى وقت الخروج إليها .

رَّحِيمًا : كثير الرحمة بعباده حيث قبل توبتهم، وغفر ذنوبهم .

فهذه الآية الكريمة : تطمئن المهاجر على رزقه فى مهجره؛ حتى لا يتقاعس عن الهجرة، فترفع عنه جميع الأعباء، وتفتح له سبل السعادة فى الدنيا، وتعده بعظيم الثواب فى الآخرة حتى لو حال الموت بينه وبين ما يتمناه: من إتمام الهجرة فى سبيل الله، بعد أن شرع فيها .



﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) ﴾

المفردات:

ضربتم فى الأرض : سافرتم .

جُـنـاحٌ : حرج وإثم

أن تقصروا من الصلاة : أن تخففوها من رباعية إلى ثنائية .

يفتنكم : يتعرض لكم بما تكرهون من الإغارة عليكم أثناء الصلاة .

التفسير:

١٠١ – **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ...** الآية

بعد أن رغَّبت الآية السابقة فى الهجرة – وهى مبنية على السفر والخوف من العدو – جاءت

هذه الآية تبين كيفية الصلاة فى السفر، وفى حال الخوف من العدو: من جواز قصرها، وتفضيلا من الله على عباده .

والكلام عن الصلاة فى هذا الموطن؛ للدلالة على أنها وسائل الأمن عند الخوف، وعلى عظم شأنها، وبيان أنها لا تسقط بحال من الأحوال .

والمعنى: وإذا سافرتم فى الأرض – أيها المسلمون :–

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ : حرج وإثم .

أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ: فتصلوا الرباعية – وهى الظهر والعصر والعشاء – ركعتين .. أما الصبح فلا تقبل القصر ؛ لأنها قصيرة بطبيعتها، وكذلك المغرب لا تقبل القصر؛ لأنها وتر النهار .

وظاهر الآية: إباحة القصر لمطلق السفر، طال أم قصر .. ولكن الفقهاء اختلفوا فى تحديد مسافة القصر ومدته، كما اشترط بعضهم أن يكون سفرا مباحا .. وتفصيل ذلك فى موضعه من كتب الفقه.

وظاهر قوله تعالى:

إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ . اشتراط الخوف فى السفر فى جواز القصر . ولكن السنة النبوية بينت أنه يجوز القصر فى السفر مع الأمن، كما يجوز فيه عند الخوف .

وفى ذلك يقول الرسول ﷺ: جوابا لمن سأله عن القصر حالة الأمن: «صدقة تَصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته !» [٨٢] . وقد بيَّن الله سبب الترخيص – فى القصر فى السفر – عند الخوف من العدو بقوله :

إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا : أى: كانوا لكم أعداء ظاهرى العداوة، مجاهرين بها. فتبينوا لعداوتهم واحذروها، وكونوا متيقظين لهم فى الصلاة وغيرها .



﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) ﴾

المفردات:

طائفة : جماعة .

وليأخذوا حذرهم : وليكونوا متيقظين للعدو ، محترسين منه .

فيميلون عليكم : فيهجمون عليكم .

ميلة واحدة : هجمة واحدة يقضون بها عليكم ، فلا يحتاجون بعدها إلى هجمة أخرى .

التفسير:

١٠٢ – وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ... الآية

لما بيَّن الله حكم القصر فى السفر عند الخوف عقّبه ببيان كيفية صلاة الخوف .

سبب النزول:

روى الدارقطنى، عن أبى عياش الزرقى، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر . فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا : يأتى عليهم صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام – بهذه الآية بين الظهر والعصر: وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ [٨٣] .

ومعنى: وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُم فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَائِكُمْ : وإذا أردت أن تصلى بهم إماما، فلتصل طائفة منهم معك، بعد أن تجعلهم طائفتين، ولتقف الطائفة الأخرى تجاه العدو؛ لمراقبته، وحراسة المسلمين منه . وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ :

أي: ولتأخذ الطائفة التي تصلىّ معك أسلحتهم؛ ليتقوا بها العدو عند المفاجأة. فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَائِكُمْ . أي: فإذا فرغت الطائفة التي تصلي معك من سجود الركعة الأولى؛ فلينصرفوا للحراسة خلفكم.

وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ : أي: ولتأت الطائفة الأخرى التي كانت في مواجهة العدو للحراسة والمراقبة، والتي لم تصل بعد، فليصلوا معك الركعة الثانية، وهي الأولى لهم .

وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ : أي: يجب أن يكونوا دائما متيقظين لمخادعات العدو، وليأخذوا أسلحتهم معهم؛ ليتقوه بها إن بادءوهم ؛ لأن الأعداء يتمنون أن ينالوا منكم غرة في صلاتكم، فيحملوا عليكم حملة واحدة: منتهزين فرصة انشغالكم بالصلاة . كما قال تعالى: وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً : والأمتعة: ما يتمتع به المحارب من لوازمه في السفر .

والأمر هنا: للوجوب؛ لقوله تعالى بعده:

وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ: أي : ولا إثم عليكم في أن تتركوا أسلحتكم عندما يكون بكم تأذٍّ من المطر أو المرض . وهذ الرخصة لا تعطى إلا في حال العذر الذي بينه الله في الآية في قوله تعالى: وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ . أي كونوا على حذر دائم، وبخاصة في تلك الحالة التي وضعتم فيها أسلحتكم .

إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا : يهينهم ويخزيهم ويذلهم، يتحقق بعضه على أيديكم بالنصر عليهم؛ إذا اتبعتم النصيحة، ونهضتم بالتكاليف، وكنتم دائما على صلة بالله، وفي موقف اليقظة والاستعداد بما تستطيعون من قوة، ويتحقق بعضه الآخر بالعذاب الذي يلاقونه يوم القيامة من الله بسبب كفرهم ومحاربتهم أولياءه . فاهتموا بأموركم ولا تهملوا مباشرة الأسباب .

هذا نموذج من نماذج تأدية الصلاة في الميدان حين التربص والتهيؤ .

وقد دلت الآية على أهمية الصلاة وضرورتها، وما للجماعة فيها من ميزة ومنزلة، حتى في أشد حالات الخوف .

فالصلاة هي المدد الروحي الحافز للعزائم على النصر؛ إذ هي صلة بالله رب العالمين، القادر على كل شيء، وهو مالك الأسباب جميعا للنصر وغيره .وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ. (آل عمران: ١٢٦).

فعلى المسلمين أن يحرصوا على أداء الصلوات؛ استدرارًا لعون الله . وفي الحروب الحديثة عليهم تأدية الصلاة بالكيفية التي تناسب وضعهم من العدو، بحيث لا يعرض أمنهم للخطر .

وقد بين الشرع طريقتها في كل حال .

ومنها : أنه إذا التحم الجيشان، فللجندي أن يصلي مستقبل القبلة أو غير مستقبلها، وعلى أية كيفية ممكنة ولو بالإيماء .

وفي ذلك يقول الله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا . (البقرة: ٢٣٩).

★ ★ ★

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

التفسير:

١٠٣ – فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ ... الآية. أى: فإذا أديتموها على هذا النحو.

فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ .. : يأمر الله – تعالى – بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف وإن كان ذلك مشروعا فيه بعد غيرها أيضا – ولكن ههنا آكد، لما وقع فيها من التخفيف فى أركانها، ومن الرخصة فى الحركات الكثيرة التى لا تباح فى غيرها – وكما يذكرونه بألسنتهم يذكرونه بقلوبهم.

فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ . أى : سكنت قلوبكم من الخوف، وأمنتم بعدما وضعت الحرب أوزارها.

فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ . أى: أدوها بأركانها وشروطها كاملة فى مواقيتها.

إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا . أى: أقيموها كذلك ؛ لأنها كانت فى حكم الله، ولا زالت مكتوبة مفروضه محددة الأوقات: لا يجوز إخراجها عن أوقاتها فى أمن.

★ ★ ★

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

التفسير:

١٠٤ – وَلاَ تَهِنُواْ فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ .. أى: لا تضعفوا ولا تتوانوا فى طلب الكفار أهل الحرب. لقتالهم؛ لأنكم، إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَالاَ يَرْجُون. فليست الآلام مختصةً بكم. بل هى أمر مشترك بينكم وبينهم . وتزيدون عليهم : أنكم ترجون وتطعمون من الله تعالى. فيما لا يخطر لهم ببال . من نصر دينه الذى أمركم بالجهاد فى سبيله . ومن الثواب الجزيل . والنعيم المقيم فى الآخرة فأنتم تنصرون الله وهو معكم على عدوكم . ومن كان الله معه؛ فهو من المنتصرين . وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا : عظيم العلم بكل شىء، فيعلم ما فيه مصلحتكم فى دنياكم وأخراكم، عظيم الحكمة فيما يأمركم به وينهاكم عنه؛ فجدوا فى الامتثال لأمره ؛ فإن عواقب الامتثال حميدة .

★ ★ ★

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

المفردات :

خصيما : مجادلاً، ومدافعًا.

يختانون أنفسهم : يخونونها بالظلم والشرّ؛ لأن وبال ذلك يعود عليها.

يبيتون : يدبِّرون خفية.

التفسير :

١٠٥ ـ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا.

اختار الله رسوله بشرا من بين الناس؛ ليكون قدوة عملية فى سلوكه وله أن يجتهد فى الحكم بين الناس وهذا هو رأى الجمهور.

وقال بعضهم: ليس له أن يجتهد؛ لأن الوحى ينزل عليه والوحى قطعى، والاجتهاد ظنى.

وأجيب عن ذلك بأن الوحى قد لاينزل عليه فى كل وقت؛ فقد تأخر عنه الوحى خمسة عشر يوما.

ثم إن الاجتهاد من صفة العلماء إذا توفرت لديهم شروطه والرسول نوع مختار من البشر يتمتع بالذكاء والفطنة والأمانة فهو أولى أن يتمتع بهذه النعمة، وأن يُعمل عقله فى ما لم ينزل عليه وحى بشأنه.

فإذا تخاصم إليه رجلان فمن حقه أن يقضى بينهما، بما ينقدح فى ذهنه بأنه الحق والصواب، ولا يجب عليه انتظار الوحى؛ لأن الوحى من شئون الرسالة والدين ونظام الشريعة. أما شئون الدنيا والقضاء بين الناس فى خصوماتهم العادية، فهو من شئون الناس؛ والرسول ﷺ يقضى بينهم بأصول دينه الذى أوحى إليه، وبما ينقدح فى ذهنه من الحكم بعد الاستماع إلى أطراف القضية.

وقد ساق الإمام ابن كثير فى تفسيره طائفة من الأحاديث تتعلق بهذه الآية. منها ما ثبت فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو ما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو ليذرها ! »[٨٤]

سبب نزول هذه الآية وما بعدها:

ذكر ابن الجوزى ثلاثة أقوال فى سبب نزول هذه الآية.

وقال ابن كثير: ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن زيد وغيرهم فى هذه الآية أنها نزلت فى سارق بنى أبيرق على اختلاف سياقاتهم وهى متقاربة.

وقال ابن الجوزى:

جمهور العلماء على أن المشار إليه بالاستخفاء والتبييت: قوم طعمة بن أبيرق وقد بيتوا: احتيالهم فى براءة صاحبهم بالكذب.

وقصة الآية:

أن طعمة بن أبيرق سرق درعا لقتاده بن النعمان؛ وكان الدرع فى جراب فيه دقيق؛ فجعل الدقيق ينتشر من خرق فى الجراب، حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود، فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده، وحلف: مالى بها علم، فقال أصحابها: بلى والله، لقد دخل علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق؛ حتى انتهوا إلى منزل اليهودى فأخذوه، فقال: دفعها إلىّ طعمة بن أبيرق، فقال قوم طعمة: انطلقوا إلى رسول الله ﷺ؛ حتى نبرئ صاحبنا وندافع عنه، فمال رسول الله ﷺ إلى كلامهم، وهمَّ أن يجادل عن طعمة بن أبيرق، وأن يعاقب اليهودىّ؛ فنزلت هذه الآيات كلها؛ تبرِّئ اليهودى وتلطخ طعمة بعار السرقة[٨٥] وفى ذلك نلمح صدق القرآن فهو يتحيّز إلى الحق، ويدافع عن يهودى برىء، ويوجه الاتهام إلى مسلم خائن؛ لأن القرآن كلام الله الحق، ومن أصدق من الله حديثا ؟ !

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ.

إنا أنزلنا إليك القرآن الكريم ناطقا بالحق، داعيا إليه وإلى التمسك به؛ لتحكم بين الناس على اختلاف عقائدهم، بما عرَّفك الله وأوحى به إليك، ولا تكن مجادلاً عن الخائنين؛ فينتصروا على البرءاء.

قال ابن الجوزى:

لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ . أى: لتقضى بينهم، وفى قوله: **بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ**. قولان:

أحدهما: أنه الذى علَّمه، والذى علَّمه ألا يقبل دعوى أحد على أحد إلا ببرهان.

والثانى: أنه مما يؤدى إليه اجتهاده(٨٦).

وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا.

قال الزجاج: لاتكن مخاصما، ولا دافعا عن خائن، واختلفوا هل خاصم عنه أم لا على قولين:

أحدهما: أنه قام خطيبا فعذره.

والثانى: أنه هم بذلك ولم يفعله.

قال القاضى أبو يعلى: وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن غيره فى إثبات حق أو نفيه، وهو غير عالم بحقيقة أمره؛ لأن الله تعالى عاتب نبيّه على مثل ذلك.

١٠٦ - وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا.

أى: واستغفر الله مما هممت به فى أمر طعمة وبراءته لظاهر الحال.

قال الالوسى فى تفسيره روح المعانى:

والهم بالشىء خصوصًا إذ يظن أنه الحق ليس بذنب حتى يستغفر منه، لكن لعظم النبى ﷺ، وعصمة الله تعالى له، وتنزيهه عما يوهم النقص - وحاشاه - أمره بالاستغفار؛ لزيادة الثواب، وإرشاده إلى التثبت، وأنَّ ما ليس بذنب مما يكاد يعدُّ حسنة من غيره؛ إذا صدر منه عليه الصلاة والسلام بالنسبة لعظمته، ومقامه المحمود يوشك أن يكون كالذنب؛ فلا متمسك بالأمر بالاستغفار فى عدم العصمة كما زعمه البعض، وقيل: يحتمل أن يكون المراد وَاسْتَغْفِرِ. لأولئك الذين برَّءوا ذلك الخائن. إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن استغفره، وقيل: لمن استغفر له(٨٧).

١٠٧ - وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ... الآية

أى: تدافع. وتوحى هذه الآية بأن قوم طعمة بن أبيرق، بيتوا أمرًا سريا لتبرئة طعمة، وإلصاق التهمة بيهودى برىء، وهم بذلك قد خانوا غيرهم؛ ولكن القرآن جعلهم خائنين لأنفسهم؛ لارتكابهم ما يشين هذه النفس، وما يحط من شأنها عند الله.

أو خائنين لمبادئ الجماعة الإسلامية وقوانينها؛ وهى القيام بالقسط والعدل وعلى نفس الإنسان أو الوالدين والأقربين.

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف:

يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ. يخونونها بالمعصية، كقوله تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ. (البقرة:١٨٧)

جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم، كما جعلت ظلمًا لها؛ لأن الضرر راجع إليهم، (فإن قلت): لم قيل لِلْخَائِنِين. وَيَخْتَانُونَ أَنفُسَهُم. وكان السارق طعمه بن أبيرق وحده ؟ .

(قلت): لوجهين:

أحدهما: أن قومه شهدوا له بالبراءة ونصروه فكانوا شركاء له فى الإثم.

والثانى: أنه جمع ليتناول طعمة، وكل من خان خيانة، فلا تخاصم لخائن قط، ولا تجادل عنه[٨٨].

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا.

أى: لا يرضى عمن يكثرون من الخيانة والإثم، بارتكاب المعاصى، وانتهاك محارم الله، واتهام غيرهم بهتانا وزورًا.

«والذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد ولا أن يحامى عنهم أحد، وقد كرههم الله للإثم والخيانة»[٨٩].

١٠٨ - يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ...الآية

يستترون من الناس؛ مخافة أن يظهروا أمامهم بالإثم «والناس لا يملكون لهم نفعا ولا ضرًا بينما الذى يملك النفع والضرّ معهم مطلع عليهم وهم يزورون من القول ما لا يرضاه، فأى موقف يدعو إلى الزراية والاستهزاء أكثر من هذا الموقف ؟ ! »[٩٠].

قال الزمخشرى فى الكشاف:

وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم - إن كانوا مؤمنين - أنهم فى حضرته[٩١].

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا...

أى: وكان الله بجميع أعمالهم - عليما - شامل العلم، فلا تخفى عليه خلجات نفوسهم، وخفايا أسرارهم، وهم تحت عينه وفى قبضته.

١٠٩ - هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا... الآية

تجىء هذه الآية فى مقام الإنكار، على هؤلاء الذين جادلوا عن طعمة بن أبيرق، وألصقوا التهمة بيهودى برىء.

والمعنى: هبُوا أنكم بذلتم الجهد فى المخاصمة عمن أشارت إليه الأخبار فى الدنيا .

فما جدوى الجدال فى الدنيا، إذا كان ذلك لا يغنى عنهم من عذاب الله شيئا ؟ !

فَمَن يُجَادِلُ اللَّه عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أى: فمن يخاصمه فى ذلك اليوم الثقيل الذى تنطق فيه كل جارحة بما اجترحت. يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (النور: ٢٤)

أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً. أى: حافظا ومحاميا من بأس الله تعالى وانتقامه وأصل معنى الوكيل: الشخص الذى توكل الأمور له وتسند إليه، وتفسيره: بالحافظ والمحامى؛ مجاز من باب استعمال الشىء فى لازم معناه [٩٢].

★ ★ ★

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

المفردات :

بهتانا : البهتان: أفحش الكذب .

خطيئة : صغيرة .

إثما : كبيرة .

التفسير :

١١٠ - وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا .

فتح الإسلام باب التوبة على مصراعيه، ولم يجعل وساطة بين العبد وربه، ويسَّر للمذنب باب التوبة والندم، وأخبر الله بقبول توبة التائبين فى كل وقت من أوقات الليل والنهار، وبين الإسلام أن خطيئة البشر ليست لعنة أبدية، وإنما هى كبوة يمكن للعبد أن يستقيم بعدها ويطلب المغفرة من ا لله بالتوبة النصوح، والندم والاستقامة .

وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا. أى: أمرا قبيحا يسوء به غيره، كما فعل طعمة بن أبيرق باليهودى .

أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ. بما يفعله من الذنوب التى يغضب بها الله وقيل: السوء ما دون الشرك، والظلم: الشرك، وقيل: السوء الصغيرة، والظلم: الكبيرة .

ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ. يطلب مغفرة الله بالتوبة الصادقة .

يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا. لما استغفره منه، كائنًا ما كان الإثم المرتكب .

رَحِيمًا . متفضلا على عباده رحيما بهم .

قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . (الأعراف: ١٥٦)

وفيه حث لمن نزلت الآية بشأنهم من المذنبين على التوبة والاستغفار .

١١١ – وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ... الآية

ومن يفعل ذنبًا من الذنوب؛ فإنما يعود جزاؤه على نفسه لا يتعداه إلى غيره .

جاء فى ظلال القرآن :

ليست هناك خطيئة موروثة فى الإسلام، كالتى تتحدث عنها تصورات الكنيسة، كما أنه ليست هناك كفارة غير الكفارة التى تؤديها النفس عن نفسها، وعندئذ تنطلق كل نفس حذرة مما تكسب، مطمئنة إلى أنها لا تحاسب إلا على ما تكسب .. توازن عجيب ! فى هذا التصور الفريد، هو إحدى خصائص التصور الإسلامى وأحد مقوماته التى تطمئن الفطرة وتحقق العدل الإلهى المطلق، المطلوب أن يحاكيه بنو الإنسان

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا . بكل شىء ومنه الكسب .

حَكِيمًا فى كل ما قدّر وقضى، ومن ذلك لا تحمل وازرة وزر أخرى .

١١٢– وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا .

ومن يرتكب خَطِيئَةً صغيرة أَوْ إِثْمًا، أو كبيرة من المعاصى ثم يتهم بها بريئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا. فى رميه البرىء وإثمًا فى ارتكابه الذنب الذى رمى به البرىء، وقد احتملهما معه وكأنما البهتان والإثم حملاً يُحمل على طريقة القرآن فى تجسيم المعنى، وإبراز الصورة الآثمة لشخص يذنب ويلقى تبعة الذنب على الأبرياء .

١١٣- وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ... الآية

وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ. أى عصمته وألطافه بك بإعلامك عن طريق الوحى بما دبّروه وأخفوه.

لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ. من قوم طعمة بن أبيرق .

أَن يُضِلُّوكَ. عن القضاء بالحق، وتوخى طريق العدل، مع علمهم بأن الجانى هو صاحبهم، فقد روى أن ناسًا منهم كانوا يعلمون كنه القصة (٩٣) .

وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ. وما يعود ضرر ذلك إلاّ على أنفسهم ؛ لوقوعهم فى الضلالة والكذب والافتراء، وتضليل العدالة .

وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ. فقد تكفل الله بحفظك وعصمتك .

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .

وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ. وهو القرآن الكريم .

وَالْحِكْمَةَ. بيان ما فى الكتاب، وإلهام الصواب، وإلقاء صحة الجواب فى الروع (٩٤) .

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ. من أخبار الأولين والآخرين

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا . بالنبوة والرسالة وجميع الفضائل التى خص الله بها رسوله، فكان خاتم الرسل، وصاحب الشفاعة وأمته آخر الأمم، وكتابه آخر الكُتُب، وملايين المآذن تردد اسمه عند كل أذان .

وضمّ الإله اسم النبى إلى اسمه ... إذا قال فى الخمس المؤذن: أشهد

وشق له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمَّد

وأنزل الله عليك القرآن الجامع بين الحق والحكمة، أو أنزل عليك القرآن والسنة، وعلمك ما لم تعلمه من العلوم والمعارف الربانية .

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا. لا تحويه عبارة ولا تحيط به إشارة .

ومن ذلك: النبوة والرسالة، وإرشادك إلى أخطاء المخطئين.

★ ★ ★

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

المفردات :

نجواهم : النجوى: المسارَّة بالحديث بين اثنين فأكثر . قاله الزجاج . وعرفها بعضهم : بالحديث الذى ينفرد به اثنان فأكثر ، سرًّا أو جهرًا . وعلى كلٍّ ، فضمير نَّجْوَاهُمْ للناس عامة ؛ لأن الحكم عام .

أو معروف : هو ما عرف حسنُه شرعا أو عرفا . فينتظم أصناف البرّ والخير .

ابتغاء مرضاة الله : طلبًا لرضاه.

يُشاقق الرسول : يخالفه فيما أمر به ، أو نهى عنه .

نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى : حقيقة معنى نُوَلِّهِ : نجعله واليا ، يقال : تولاه . بمعنى: تقلده واضطلع به ، وولاه غيره . جعله واليا ، ومضطلعا بالأمر .

والمعنى المقصود : هو أن توفيق الله تعالى – يتخلى عنه .

التفسير :

١١٤– لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ... الآية

لما بين الله تعالى – قبل هذه الآية – أنه أنزل على رسوله ﷺ، الكتاب والحكمة، وعلَّمه ما لم يكن يعلم : أتبعه ذكر بعض ما أنزله عليه من الكتاب والحكمة مما يدعم أواصر المحبة بين الناس، ويقضى على أسباب النزاع بينهم . كما أن فيه ردًا على من كان يحرض رسول الله ﷺ، على أن يقضى لصالح من سرق الدرع وخبأها عند اليهودى، فيبرئه ويقضى على اليهودى !!

والمعنى : لا خير فى أحاديث الناس فيما بينهم، إلا فى حديث من أمر بصدقةٍ – واجبةً كانت أو متطوعا بها، أو أمر بما عرف حسنُه شرعا أو عرفا، ولم يعارض قاعدةً شرعية، وتقبله العقول الخالصة من الهوى بالرضاء، أو أمر بإصلاح بين الناس؛ حتى يُحلَّ الوئام محل الخصام .

فهذه الجهات الثلاث، هى التى تكون النجوى - أى: الحديث الجانبى فيها - خيرا مشروعا مثابا عليه .

أما الأحاديث الجانبية التى يتآمر فيها المتآمرون على الإضرار بعباد الله، أو يتناجى فيها المتناجون بالمعاصى والهذيان؛ فلا خير فيها ولا ثواب عليها، بل يعاقب عليها؛ لأنها كانت فى معصية الله تعالى .

فإنما يثاب الإنسان على المعروف، إذا ترك الامتنان والإعجاب به، ولا يتم المعروف - كما قال ابن عباس - رضى الله عنهما : - «إلا بثلاث : تعجيله، وتصغيره، وستره . فإذا عجّلته هنأته [٩٥] وإذا صغّرته عظمته، وإذا سترته أتممته» .

وقد دعت الآية الكريمة إلى فضيلة الإصلاح بين الناس، وجعلتها خيرا مثابا عليه؛ لما لها من الأثر العظيم فيهم، حيث تُحِلُّ الوئامَ محل الخصام، والراحة النفسية محل القلق، والتفكير فى الخير مكان التفكير فى الشر؛ فيسودُ الأمن والسلام .

وقد أباح الإسلام الكذب الأبيض فى سبيل الإصلاح، مع أن الكذب - بصفة عامة - حرام ؛ لأن هذا غير ضار بأحد . وهو مؤَدٍّ إلى مصلحة مؤكدة، كأن تقول لكلا الخصمين عن صاحبه : سمعته يثنى عليك ويصفك بطيب النية، وحسن الطوية والمروءة، ونحو ذلك مما يلين قلب الخصم نحو أخيه فى حين أنك لم تسمع ذلك منه .

وفى ذلك يروى حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه - أم كلثوم بنت عقبة - أنها أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليس الكذاب الذى يصلحُ بين الناس، فينمى خيرا أو يقول خيرا» وقالت : لم أسمعه يرخص فى شىء مما يقوله الناس، إلا فى ثلاث : فى الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها [٩٦] .

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا. أى : ومن يتناج ويتحدث مع غيره - فى خلوة - بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، ويرشده إليها وينصحه بها؛ فسوف يعطيه الله على ذلك ثوابا جزيلا : يناسب عظمة المنعم .

وإذا كان هذا ثواب التناجى بها، والإرشاد إليها، فثواب فعلها أعظم .

أما أن يأمر بها الإنسان ولا يفعلها، فذلك جرمه عظيم، ووعيده شديد، قال تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون . (الصف: ٢، ٣)

١١٥- وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .

المعنى : ومن يخالف الرسول فيما أمر به عن الله تعالى أو نهى عنه، ويتبع غير طريق المؤمنين فى عقيدته أو عمله، بأن يكفر أو يترك الواجبات، أو يفعل المنهيات - من بعد ما ظهر له ما يهديه من أدلة اليقين وأحكام الدين - نتركه وما تولاه وانصرف إليه، وقام به من الكفر والمعاصى .. فلا نلطف به لصرف قواه إليه، وعدم مراجعته نفسه فيه، وندخله جهنم فيخلد فيها إن كان كافرا ويعاقب فيها على قدر معصيته إن كان عاصيا .. وقبحت جهنم مصيرا !

فلا ينبغى لعاقل أن يقترف من المعاصى ما يجعلها مصيرا له ومآلا .

الأحكام :

استدل الإمام الشافعى - رضى الله عنه - بهذه الآية، على أن الإجماع من أهل الحق حجة .

جاء فى تفسير روح المعانى للالوسى ١٤٩/٥ .

عن المزنى أنه قال : «كنت عند الشافعى يوما، فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا، فلما رآه ذا مهابة، استوى جالسا، وكان مستندا إلى الأسطوانة [٩٧] وسوّى ثيابه : فقال الشيخ : ما الحجة فى دين الله تعالى ؟ قال الشافعى : كتابه . قال : وماذا ؟ قال سنة نبيه ﷺ . قال : وماذا ؟ قال: اتفاق الأمة . قال : من أين هذا الأخير ؟ أهو فى كتاب الله تعالى ؟ فتدبر الشافعى ساعة ساكتا فقال له الشيخ: أجّلتك ثلاثة أيام بلياليهن، فإن جئت بآية، وإلا فاعتزل الناس .. فمكث ثلاثة أيام لا يخرج. وخرج فى اليوم الثالث بين الظهر والعصر، وقد تغير لونه، فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس، وقال : حاجتى : فقال : نعم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى: وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى...الآية. فدلت الآية على أن اتباع سبيل المؤمنين فيما يذهبون إليه من الأحكام فرض؛ لورود الوعيد فيمن لم يتبع سبيلهم . قال الشيخ : صدقت وقام وانصرف [٩٨] .

والآية لا تفيد الخلود فى النار لمن يرتكب المعاصى، بل تفيد عقوبتهم بالصيرورة إلى النار، وذلك لا يقتضى التأبيد، خلافا لمن زعم ذلك من الخوارج، حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر خالد فى النار، ويجسم دعواهم قوله تعالى : إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ...

روى الترمذى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه قال : ما فى القرآن آية أحبُّ إلى من هذه الآية : إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ...

وفيما يلى نص تفسيرها .

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾﴾

المفردات :

ما دون ذلك : ما سوى الشرك من المعاصي .

ضلالا بعيدا : أي: بُعدًا عن الحق عظيما .

إن يدعون : ما ينادون ، أو ما يعبدون .

إلا إناثا : أي: معبودات كالإناث في الضعف ، وعدم القدرة على الإسعاف بالمطلوب . وفيها معانٍ أخرى، ستأتي في الشرح بمشيئة الله .

شيطانا مريدا : الشيطان هنا : إبليس - لعنه الله - والمريد: بمعنى: المتمرد على الطاعة . أو المتمرد للشر . من قولهم : شجرة مرداء . وهي التي سقط ورقها .

لعنه الله : طرده من رحمته .

لأتخِذنّ : الاتخاذ: أخذ الشيء على وجه الاختصاص .

نصيبا مفروضا : حظًّا مقسومًا . وسيأتي بيانه في الشرح .

ولأمنينهم : أي: لأعللنهم بالأماني الكاذبة .

فَلَيُبَتِّكُنّ آذان الأنعام : الأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز . وغلب استعمالها في الإبل خاصة . وتبتيك الأنعام : تقطيع آذانها أو شقها . وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية وسيأتي بيانه.

فليغيرن خلق الله : صورةً أو صفة ، كفَقْإ عين الفحل . وسيأتي بيانه ، وكخصاء العبيد، وإتيان الذكور بدل الإناث .

وليا من دون الله : أي: معبودا وناصرا ، متجاوزا ، وتاركا له .

خسرانا مبينا : أى: خسرانا بينا واضحا .

إلا غرورا : إلا إيهاما وغشا وخداعا .

مأواهم جهنم : مستقرهم ومرجعهم .

محيصا : معدلا ومهربا .

التفسير:

١١٦ - **إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ... الآية

سبب النزول :

فى سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدهما : أنه نزلت فى حق طعمة بن أبيرق لما هرب من مكة ومات على الشرك وهذا قول الجمهور .

والثانى : أن شيخا من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى منهمك فى الذنوب، إلا أنِّى لم أشرك بالله منذ عرفته، وإنى لنادم مستغفر فما حالى فنزلت هذه الآية ..

روى هذا القول عن ابن عباس [٩٩] .

تمهيد :

الشرك بالله كبيرة وإثم وخروج عن مألوف الفطرة فقد خلق الله الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وفضَّله على كثير من خلقه، ووضع له الدلائل والأمارات على ألوهيته، ونادى الإنسان بقوله: **يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ.** (البقرة: ٢١).

وفى الحديث الصحيح : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال : الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور وشهادة الزور» [١٠٠].

المعنى :

إن الله لا يغفر لطعمة بن أبيرق إذ أشرك ومات على شركه بالله، ولا لغيره من خلقه بشركهم وكفرهم [١٠١].

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ. ويغفر ما دون الشرك بالله من الذنوب؛ إذا ندم المذنب وتاب إلى الله.

وهذه الآية من أرجى آيات المغفرة فى القرآن الكريم، والمقصود من الشرك بالله: الكفر به مطلقا، فيشمل نسبة الولد أو الصاحبة إليه، وإنكار وجوده – سبحانه وتعالى – وإنما ذكر الشرك فى الآية؛ لأنه كان الاعتقاد السائد فى الجزيرة العربية التى نشأت فيها الدعوة الإسلامية .

وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا. ومن يجعل لله فى عبادته شريكا، أو يكفر به بأى وجه فقد ذهب عن طريق الحق وزال عن قصد السبيل ذهابا بعيدًا، وزوالا شديدًا، وذلك أنه بإشراكه بالله فى

عبادته قد أطاع الشيطان وسلك طريقه وترك طاعة الله ومنهاج دينه فذلك هو الضلال البعيد والخسران المبين [١٠٢] .

وجاء فى تفسير ابن كثير : روى الترمذى عن على رضى الله عنه قال : ما فى القرآن آية أحب إلى من هذه الآية إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ... الآية [١٠٣] .

١١٧- إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا ...

نقل ابن جرير الطبرى عدة آراء فى معنى الإناث، وقد اختصرها ابن الجوزى فى زاد المسير فقال: وللمفسرين فى معنى الإناث أربعة أقوال :

١ – الإناث بمعنى: الأموال؛ قال الحسن : كل شىء لا روح فيه كالحجر والخشبة فهو إناث .

٢- الإناث : الأوثان، وهو قول عائشة ومجاهد .

٣ – أنها الملائكة، كانوا يزعمون أنها بنات الله، قال تعالى : وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثًا. (الزخرف: ١٩) .

٤ – إن الإناث: اللات والعزى ومناة كلهن مؤنث، روى عن الحسن قال : لم يكن حى من أحياء العرب إلا ولهم صنم يسمونه أنثى بنى فلان، فنزلت هذه الآية، قال الزجاج: والمعنى ما يدعون إلاَّ ما يسمونه باسم الإناث .

قال الطبرى : وأولى التأويلات بالصواب قول من قال :

عنى بذلك الآلهة التى كان مشركو العرب يعبدونها من دون الله، ويسمونها الإناث من الأسماء كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك .

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الأظهر من معانى الإناث فى كلام العرب، ما عرف بالتأنيث دون غيره، فإذا كان ذلك كذلك، فالواجب توجيه تأويله إلى الأشهرمن معانيه .

وإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية :

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا. ما يدعو الذين يشاقون الرسول، إلا ما سموه بأسماء الإناث، كاللات والعزى وما أشبه ذلك .

وحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله، وعبدوا الأوثان والأصنام، حجة عليهم فى ضلالهم وكفرهم، أنهم يعبدون إناثا ويدعونها آلهة وأربابًا، والإناث من كل شىء أخسَّه، فهم يقرون للخسيس من الأشياء بالعبودية، على علم منهم بخساسته، ويمتنعون عن إخلاص العبودية للذى له ملك كل شىء وبيده الخلق والأمر [١٠٤].

وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدا وما يعبدون أو ما ينادون فى الواقع إلا شيطانا شريرا عاتيا متمردًا، خارجا عن الطاعة، وهو إبليس؛ فهو الذى زين لهم دعاءها وعبادتها؛ فأطاعوه، فكانت طاعتهم له عبادة.

١١٨– لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا .

لَّعَنَهُ اللَّهُ . طرده وأبعده عن رحمته؛ لتمرُّده واستكباره عن طاعة ربه، وعدم سجوده لآدم، فأخرجه الله من الجنة مذمومًا مدحورًا مطرودًا من رحمة الله فى عاجله وآجله .

وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. أى: بعد أن لعنه الله وطرده من جواره، قال يخاطب الله تعالى: لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. يريد توكيد استيلائه – بالوسوسة – على إرادة أبناء آدم عدوه؛ حتى يسخرها فى سبيل الغواية والفساد عقيدة وعملاً حتى كأنهم نصيب مفروض مقطوع له.

قال الزجاج : الفرض فى اللغة: القطع، والفرض فيما ألزمه الله العباد جعله حتما عليهم قاطعا.

وقال مقاتل : النصيب المفروض : أن من كل ألف إنسان واحد فى الجنة وسائرهم فى النار، وفى تفسير القرطبى ٥/٣٨٨ قلت : وهذا صحيح معنى، يعضده قوله تعالى لآدم يوم القيامة : «ابعث بعث النار، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»[١٠٥] أخرجه مسلم، وبعث النار : هو نصيب الشيطان .

وفى تفسير ابن كثير : وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. أى: معينا مقدرا معلوما. قال قتادة: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة [١٠٦] .

وقال ابن قتيبة : أى: حظا أفترضه لنفسى منهم فأضلهم [١٠٧] .

١١٩– وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الأَنْعَامِ ...

يؤكد الشيطان اللعين توكيدًا بعد توكيد، أنه سيضل عباد الله عن الحق .

قال الألوسى: وَلأُمَنِّيَنَّهُم. الأمانى الباطلة، وأقوالهم : ليس وراءكم بعث، ولا نشر، ولا جنة، ولا نار، ولا ثواب ولا عقاب، فافعلوا ما شئتم، وقيل: أمنِّيهم بطول البقاء فى الدنيا فيسوِّفون فى العمل. وقيل: أمنيهم بالأهواء الباطلة، الداعية إلى المعصية، وأزيِّن لهم شهوات الدنيا وزهراتها، وأدعو كلا منهم إلى ما يميل إليه طبعه فأصدُّه بذلك عن الطاعة .

وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الأَنْعَامِ . يؤكد الشيطان أنه سيأمرهم بتبكيت آذان الأنعام؛ فيطيعون أمره . . وتبكيت آذان الأنعام : تقطيعها أو شقّها .

وهذا إشارة إلى ما كانت الجاهلية تفعله ؛ من شق أو قطع أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكرا ؛ وتحريم ركوبها، وسائر وجوه الانتفاع بها [١٠٨] .

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ. إن الشيطان يوسوس للإنسان؛ ليخرجه عن فطرة الله، ويزحزحه عن منهج الله، ويدعوه إلى تغيير خلق الله؛ لتحقيق شهواته وأوهامه ولذائذه، كما يزين الشيطان لأتباعه تغيير فطرة الله تعالى وهى الإسلام .

ومن تغيير خلق الله: ترجُّل النساء، وتخنث الرجال، واللواط والسحاق، وعبادة الشمس والقمر والنار والحجارة مثلا، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالاً، ولا يوجب لها من الله سبحانه زلفى [١٠٩] .

ويلحق بذلك خصاء العبيد وهو حرام منهى عنه .

وهناك تغيير أمرت به السنّة، كالختان ووسم البهائم لحاجة تعريفها حتى لا تختلط بغيرها، والوسم: كيّ البهائم بمكواة يسمونها: الميسم .

جاء فى صحيح مسلم عن أنس قال : «رأيت فى يد رسول الله ﷺ الميسم وهو يسم إبل الصدقة والفىء، وغير ذلك؛ حتى يعرف كلَّ مال فيؤدى فيه حقَّه ولا يتجاوز به إلى غيره» [١١٠] .

كما يستثنى من تغير خلق الله الخضاب بالحناء .

وبالكتم – وهو السواد – لإرهاب العدو، والوشم لحاجة، وخضب اللحية وقص ما زاد منها على السنة ونحو ذلك [١١١] .

وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا. فى المراد بالولى قولان :

أحدهما : أنه بمعنى: الربّ .

والثانى : من الموالاة : أى: ومن يجعل الشيطان صاحبا يتبعه وينقاد له، متجاوزا أوامر الله تعالى، بإيثار ما يدعو إليه الشيطان على ما يأمر به الله .

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا. أى: فقد خسر الدنيا والآخرة وتلك خسارة لا جبر لها، ولا استدراك لفائتها.

١٢٠ – يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا .

يعد الشيطان عباد الله على معصيته أحلى الوعود المكذوبة، ويمنِّيهم بأحلى الأمانى الباطلة .

وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا. وهو إيهام النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد والأمر إما بالخواطر الفاسدة، وإما بلسان أوليائه .

والغرور : الأمانى الكاذبة والباطل، أو يقول له : سيطول عمرك وتنال من الدنيا مرادك.

حتى إذا حصحص الحق، واحتاج المغرورون إلى الشيطان، قال لهم عدو الله : ما جاء فى الآية ٢٢ من سورة إبراهيم:

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ.

١٢١- أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا .

أولئك الذين يتخذون الشيطان وليا من دون مستقرهم جميعا فى جهنم ولا يجدون عنها معدلا يعدلون إليه ولا مهربًا ينجيهم من عذابها .

يقال: وقع فى حيص بيص، وحاص باص : إذا وقع فيما لا يقدر على التخلص منه، قال ابن يعيش شارح المفصل ١١٤/٤ تقول العرب: وقع الناس فى حيص بيص؛ إذا وقعوا فى فتنة واختلاط من أمرهم لا مخرج لهم منها .



﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾

المفردات :

خالدين فيها أبدًا : مقيمين فى الجنة دائما لا يبرحونها .

قـيـلاً : أى: قولا .

التفسير:

١٢٢- وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً .

قال الطبرى :

الذين صدَّقوا الله ورسوله، وأقرُّوا لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة وأدُّوا الفرائض التى فرضها الله عليهم؛ سوف يدخلهم الله يوم القيامة ؛ بساتين تجرى من تحتها الأنهار باقين فى هذه الجنات دائمًا [١١٢] .

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا. أى: عدة الله لهم يقينا صادقًا ؛ وذلك على العكس من وعود الشيطان الكاذبة وأمانيه الفارغة، فكلها غرور وأباطيل، وغش وخداع .

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً . ومن أحد أصدق من الله قولاً ووعداً ؟ ! فهو الذى إذا قال صدق، وإذا وعد وفّى، وكان رسول الله ﷺ يقول فى خطبته : «إن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار» [١١٣] .

★ ★ ★

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

المفردات :

بأمانيكم : الأمانى: جمع أمنية. وخلاصة ما قاله الراغب فى معناه : أنها هى الصورة الحاصلة فى النفس ، المترتبة على التمنى . أما التمنى : فهو الرغبة الشديدة فى شىء يقدره الشخص فى نفسه .

وليا : أحدا يلى أمر الدفاع عنه بالقول .

ولا نصيرا : ينصره ويمنعه بالقوة من العقاب .

نقيرا : النقير هو النقرة فى ظهر النواة . وهو مثل يضرب للقلة والحقارة .

أسلم وجهه : الوجه هنا مجاز عن الذات أى : أخلص ذاته ونفسه لله .

حنيفا : مائلا عن الأديان الباطلة .

واتخذ الله ابراهيم خليلا : الخليل – كما قال الزجاج – : هو من ليس فى محبته خلل .. ا هـ . فمعنى اتخذ إبراهيم خليلا : أنه تعالى ، أحبه حبًا لا نقص فيه ، واصطفاه اصطفاء كاملا .

مُحيطا : عليما شامل العلم .

التفسير:

١٢٣– لَّيسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية.

لما بيَّن الله سوء مصير من اغتر بوعود الشيطان وأمانيه الكاذبة، وعقبه بذكر حسن مصير المؤمنين الصالحين، أتبع ذلك بيان أن الأمر – بعد الموت – لا يكون بالتمنى من هؤلاء وأولئك، بل

يكون بالعمل الصالح، فإن الآخرة هى دار الجزاء .. والجزاء من جنس العمل . فمن يعمل سوءًا يجز به سوءًا ومن يعمل خيرا يجز به خيرا . ولا يظلم ربك أحدا .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم: عن السدى، قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى، فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم، ديننا قبل دينكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن على دين إبراهيم، ولن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى : مثل ذلك. فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم، ونبينا ﷺ بعد نبيكم، وديننا بعد دينكم، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم، فنحن خير منكم، ونحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق . ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا؛ فأنزل الله: **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ** ... الآية .

وقال القرطبى : من أحسن ما قيل فى سبب نزولها، ما رواه الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس . قال : قال اليهود والنصارى لن يدخل الجنة إلا من كان منا، وقالت قريش : ليس نبعث فأنزل الله : **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ** ... الآية .

وليس هناك ما يمنع نزول الآية للسببين، فحكمهما عام : للمسلمين وأهل الكتاب والمشركين ومن فى حكمهم من سائر الكافرين، كما سيتضح فى الكلام على المعنى .

والمعنى : ليس الفوز بدخول الجنة والتقلب فى نعيمها الذى وعده الله الصالحين، حاصلا بأمانيكم – أيها المسلمون – ولا بأمانى أهل الكتاب، فإن الأمانى – وحدها – لا تحقق هذه الغاية العظيمة، وإنما يحققها – مع الإيمان – العمل الصالح . أما العمل النافع وحده فلا يحققها ؛ لخلوه من قصد وجه الله تعالى، وهذا يستلزم الإيمان . كما أن عدم البعث ليس بأمانى من أنكروا البعث، فإنه حاصل، وسيجزى بعده الناس على أعمالهم : **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** . (الزلزلة: ٧، ٨) ولذا قال الله بعده :

مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا . من يعمل عملا سيئًا، سواء أكان من كسب القلوب: كالكفر، والحقد، والحسد، وسوء الظن بالمسلمين، أم كان من كسب الجوارح: كالقتل، والسرقة، وأكل مال اليتيم، والتطفيف فى الكيل والميزان – يعاقبه الله عليه بما يسوءه، ولا يجد له أحدا ينقذه منه، من ولِىٍّ يدافع عنه بالقول والشفاعة، أو نصير ينصره بالقوة ... فالكل مقهور لله الواحد القهار.

ولما نزلت هذه الآية، كان لها أثر شديد فى نفوس المؤمنين .

يصوره ما أخرجه الترمذى وغيره عن أبى بكر رضى الله عنه – أنه قال للرسول – ﷺ – بعد أن سمعها : «بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! وأينا لم يعمل سوءًا، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه!» [١١٤]

وما أخرجه الإمام مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : «لما نزلت هذه الآية، شق ذلك على المسلمين، وبلغت منهم ما شاء الله تعالى – فشكوا ذلك إلى رسول الله – ﷺ – فقال : سدِّدوا وقاربوا، فإنّ كلَّ ما أصاب المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها» [١١٥] .

ومن هذا الحديث، نفهم أن الله تعالى، يكفر الخطايا بالبلايا – صغرت أم كبرت – والأحاديث الواردة فى هذا كثيرة .

ولهذا أجمع العلماء أن مصائب الدنيا وهمومها – وإن قلت مشقتها – تكفِّرُ بها الخطايا؛ إذا صبر صاحبها .

والأكثرون على أنها ترفع بها الدرجات، وتكفر بها السيئات .

وهو الصحيح المعول عليه .

ومما صح فى ذلك عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها سيئة» [١١٦] أورده الألوسى .

١٢٤– وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا.

إنها العدالة الإلهية فى عقاب المسىء ومكافأة المحسن ؛ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

وكان أهل الجاهلية يحجبون البنت من الميراث ويقولون: إنما يرث من يركب الفرس ويمسك السيف، ويحمى القبيلة، فسما الإسلام بالبنت وليدة وناشئة وزوجة وأما، وجعلها شريكة للرجل فى الإيمان والعمل الصالح والولاء، وجعل لها الحق فى البيع والشراء، وتملك الأموال والعقار .

وفى هذه الآية يضع قاعدة عامة هى :

من يعمل شيئًا من الأعمال الصالحة – من الذكور والإناث – فى حال إيمانه؛ فأولئك المؤمنون الصالحون يدخلون الجنة، ولا ينقصون شيئا من الثواب على أى عمل، ولو كان مشبها للنقير: فى القلة، والنقير: نقرة فى ظهر النواة، يضرب بها المثل فى أدنى الأمور .

قال الأستاذ سيد قطب: وهذه الآية نص صريح على وحدة القاعدة فى معاملة الذكر والأنثى، وفى اشتراط الإيمان لقبول العمل .

وهذه الألفاظ الصريحة تخالف ما ذهب إليه الأستاذ، الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى تفسير جزء عم عند قوله تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. إذ رأى النص لعمومه هذا يشمل المسلم وغير المسلم بينما النصوص الصريحة الأخرى تنفى هذا تمامًا، وكذلك ما رآه الأستاذ، الشيخ: المراغى رحمه الله، وقد أشرنا إلى هذه القصة فى جزء عم «الجزء الثلاثين من الظلال» [١١٧] .

١٢٥- وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ..

يحتاج العمل المقبول إلى ركنين أساسيين:

الأول : الإخلاص لله تعالى بهذا العمل، وأن يقصد به وجه الله، وأن يبعد به صاحبه عن الرياء والسمعة.

الثانى : أن يكون العمل موافقا للشرع، فقد حسنَّه الشرع فلا حسَن إلا ما حسنه الشرع .

ومتى فقد العمل واحدًا من هذين الركنين فسد، فمن عمل عملاً لغير الله لم يقبله الله، ومن عمل عملاً غير موافق لأصول الدين وقواعده وأحكامه كان مردودًا عليه، والآية تثبت ذلك والاستفهام منها بمعنى: النفى الإنكارى، والمعنى: لا يوجد أحسن – فى الدين – ممن أخلص نفسه وذاته لله، فلم يعرف لها ربا سواه، ولم يتوجه بوجهه لغيره سبحانه، يفعل ذلك وهو محسن فى عمله بألا يترك واجبا، ولا يفعل محرما .

وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا. قال ابن كثير : (وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة) فمن آمن بالله ربًّا وبمحمد رسولا، واختار الإسلام دينا؛ صار متبعًا ملة إبراهيم عليه السلام فى العقائد وأصول الأحكام.

ومعنى حَنِيفًا: أى: مائلا عن الأديان الزائفة؛ حال من إبراهيم عليه السلام ويجوز أن يكون حالا من فاعل وَاتَّبَعَ. أى: سار على الإسلام ملة ابراهيم حال كونه مائلا عن الأديان التى تشرك بالله سبحانه وتعالى.

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً .. تذييل جىء به؛ للترغيب فى اتباع ملته عليه السلام والمعنى: أحبَّ الله إبراهيم حبا كاملا، لا خلل فيه ينقصه عن الكمال .

قال الالوسى : واتخذه الله خليلا؛ لإظهاره الفقر والحاجة إلى الله تعالى، وانقطاعه إليه، وعدم الالتفات إلى من سواه، كما يدل على ذلك قوله لجبريل عليه السلام حين قال له يوم ألقى فى النار : ألك حاجة ؟: أما إليك فلا، ثم قال: حسبى الله تعالى ونعم الوكيل، والمشهور أن الخليل دون الحبيب (١١٨).

وليس فى الآية ما يفيد قصر الخلة على إبراهيم؛ فقد اتخذ الله نبينا محمد – ﷺ – خليلا أيضا.

وروى مسلم: أن رسول الله ﷺ قال : «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنه أخى وصاحبى وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا» (١١٩) .

وروى الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه: أن رسول الله ﷺ قال : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدى لواء الحمد ولا فخر، وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائى، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ! » (١٢٠) .

١٢٦– وَللهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ...

إنه سبحانه غنى عن الخليل أو المعين، فهو سبحانه مالك السماوات والأرض؛ متصف بالهيمنة والقهر والعلم والسلطان . وهذه الألوهية الحقة، تستدعى إخلاص العبادة والتوجه والعمل له سبحانه.

فهو مالك كل شىء، وهو بكل شىء محيط، وهو مهيمن على كل شىء، وفى ظل هذا التصور الإسلامى يصلح الضمير ويصلح السلوك وتصلح الحياة .



﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

المفردات :

الكتاب : القرآن .

يتامى النساء : اللائى لا حول لهن .

وترغبون أن تنكحوهن : تطمعون فى مالهن من الميراث والصداق ، فتتزوجونهن لذلك ، أو تمنعونهن من الزواج، وتعضلونهن لذلك .

والمستضعفين من الولدان : الأطفال اليتامى .

بالقسط : بالعدل .

التفسير :

١٢٧– وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ ... الآية

الربط : فى هذه الآية – وما تلاها – رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء واليتامى.

وكان المسلمون قد بقيت لهم أحكام، سبق لهم السؤال عنها، فلم يجبهم الرسول – ﷺ – انتظارا للوحى .

روى أشهب عن مالك رضى الله عنهما، قال : كان النبى - ﷺ - يسأل فلا يجيب، حتى ينزل عليه الوحى، وذلك فى كتاب الله : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَآءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فيهنَّ ، وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ . (البقرة: ٢٢٠) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ . (البقرة: ٢١٩) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ. (طه:١٠٥).

سبب النزول :

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جبير، قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئًا، فلما نزلت المواريث فى سورة النساء؛ شق ذلك على الناس، وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال، والمرأة التى هى كذلك، فيرثان كما يرث الرجل ؟! فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء . فانتظروا، فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا: لئن تم هذا، إنه لواجب ما عنه بدٌّ ثم قالوا : سلوا .. فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى غير ذلك فى سبب النزول ورجح هذا شيخ الإسلام: أبو السعود، كما قاله الالوسى .

ونحن نقول : إن سبب النزول لا يقتضى أنهم لم يسألوا إلا عما جاء فيه، بل سألوا عن غيره أيضا، ولهذا تضمنت الفتوى جواب سؤالهم الوارد فى سبب النزول، كما تضمنت عدة أحكام، ستأتى فى الآيات التالية، تتعلق بأمر النساء .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَآءِ .

المعنى : ويستفتيك المسلمون - يا محمد - فى أحكام الإناث، فيطلبون منك بيان ما يشكل عليهم من أحكامهن، مما يجب لهن أو عليهن .

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ .

المعنى : قل الله يفتيكم فى حكمهن ويبينه لكم . وكذا ما يتلى فى أمرهن، مما سبق نزوله قبل هذه الآية، فهو أيضا يفتيكم . ويبين لكم الحكم الشرعى الذى تسألون عنه .

والمقصود من الآية الكريمة : أن الله سيفتيكم - مستقبلا - فيما لم ينزل حكمه من شأن النساء، وأن ما سبق نزوله فيهن ويتلى عليكم . تظل الفتيا أيضًا فى أمرهن، فيكتمل بالفتاوى - السابقة واللاحقة - أحكامهن المشروعة .

وقد أشار المولى سبحانه بقوله :

وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ فِى يتَامَى النِّسَآءِ ... الآية . إلى ما سبق فى صدر هذه السورة عنهن وعن المستضعفين من الولدان ابتداء من قوله : وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ... إلى آخر آيتى المواريث .

فِي يَتَامَى النِّسَآءِ الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ... أى : ويفتيكم أيضا فيما يتلى عليكم فى شأن يتامى الإناث، اللاتى لا تؤتونهن – أيها الأولياء – ما كتب لهن من الميراث والصداق، وقد رغبتم فى الزواج بهن؛ طمعا فى الميراث والصداق فقد أوجب عليكم فيما نزل بشأنهن أول السورة – أن تقسطوا فى شأنهن، بألا تطمعوا فى أموالهن الموروثة، وأن تعطوهن من الصداق أعلى سنتهن، وتعدلوا بينهن وبين ضراتهن : فى القسم والنفقة وحسن العشرة ..

أو يكون المعنى: وإن أنتم رغبتم عن الزواج بهن، فلا تعضلوهن عن الزواج بغيركم ؛ طمعًا فى أموالهن.

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ. أى : ويفتيكم فيما يتلى عليكم فى شأن المستضعفين من الأولاد والصغار اليتامى : ذكورا وإناثًا . فقد أوجب عليكم – فيما سبق – أن تحافظوا على أموالهم، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، وأفهمكم أن أكل أموالهم ذنب كبير، وأوجب عليكم أن تؤدوا أموالهم إليهم عند بلوغهم رشدهم دون مماطلة .

وبالجملة: فقد أوجب عليكم – هنا، وفيما مر فى صدر هذه السورة – أن تقوموا لليتامى بالقسط والعدل، فى أمرهم كله. فلا تحاولوا أن تعودوا لما كنتم عليه فى الجاهلية، من توريث الرجال الذين يدافعون عن القبيلة وحرمان الصغار والنساء، فذلك جَوْرٌ لا يوافق عليه الإسلام ولا يقره.

وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ... أى : وما تفعلوا – أيها الأولياء – من خير فى حقوق من تقدم ذكرهم، فإن الله كان به عليما قبل أن يخلقكم، كما هو عليم به عند فعلكم له فيجزيكم عليه خير الجزاء .

وإنما اقتصرت الآية على ما يفعلونه من الخير، مع أنه يعلم ما يفعلونه من شر أيضا، ويجازى عليه بمثله ؛ للإيذان بأن الشر لا ينبغى أن يقع منهم وتحريضا على فعل الخير والاستدامة عليه .

وتكرار هذه الوصية باليتامى والنساء الضعاف – مع ما سبق فى أول السورة – لاجتثاث ما عسى أن يكون عالقا بالرجال من أطماع فى أموال الضعاف من يتامى النساء والولدان .



﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾

المفردات :

خافت : علمت أو توقعت .

بعلها : زوجها .

نشوزا : أي: ترفعا [١٢١] .

أو إعراضا : أي: ميلا وعدم اهتمام .

فلا جناح : فلا حرج ولا إثم .

وأحضرت الأنفس الشح : أي: جعل الشح حاضرا في الأنفس ملازما لها ، والشح : البخل الشديد .

كالمعلقة : المرأة المعلقة ؛ هي التي ليست مطلقة ولا صاحبة زوج ، كما قال ابن عباس رضي الله عنه . أو هي المسجونة . كما قال قتادة رضي الله عنه .

يغن الله كلاً من سعته : أي: يغن الله كليهما من غناه الواسع .

التفسير :

١٢٨ - وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ... الآية

رسم القرآن الكريم سبيل الحياة الزوجية، وآداب العشرة بين الزوجين في الخلاف والوفاق .

وقد رعى القرآن فطرة الإنسان فالله خالق الإنسان وهو أعلم به، وقد تكبر الزوجة، أو يزهد الرجل فيها، أو يعزم على طلاقها، وترى الزوجة أنها في حاجة إلى بقائها في عصمة الزوج وجواره؛ فتتنازل له عن شيء من مهرها أو عن بعض حقوقها في المبيت، فإذا فعلت ذلك جاز للزوج أن يقبل ذلك . ويجب ألا يتمادى في الظلم بل يكون عادلاً مع تنازل الزوج.

وفى الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبى ﷺ يقسم لها بيوم سودة [١٢٢] .

وفى صحيح البخارى : عن هشام عن أبيه عروة قال : «لما أنزل الله فى سودة وأشباهها: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا. وذلك أن سودة كانت امرأة قد أسنَّت ففرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ، وضنت بمكانها منه، وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلتها منه؛ فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة فقبل ذلك رسول الله ﷺ [١٢٣] وكذلك رواه أبو داود، والحاكم فى مستدركه .

وقال البخارى : حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة :

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ... قالت : الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول : أجعلك من شأنى فى حل فنزلت هذه الآية .

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا [١٢٤] .

معنى الآية : إذا رأت الزوجة من زوجها تغييرًا فى معاملته أو انصرافا عنها وإعراضًا .

وأمارات النشوز : الغلظة والجفاء .

وأمارات الإعراض : أن يقلل من محادثتها ومؤانستها، وأن يتساهل فى تحقيق رغباتها ؛ إما لدمامتها، أو لكبر سنّها، أو لغير ذلك .

فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ... أى: فلا إثم على الزوجة فيما تفعله؛ لإصلاح ما بينها وبين زوجها، من إعفائه من صداقها أو نفقتها أو بعضهما، أو من مسكن أو كسوة، أو فيما تعطيه من مالها، أو فيما تنزل له عنه من نصيبها فى القسم، تستعطفه بذلك، وتستديم المقام فى عصمته والتمسك بالعقد الذى بينه وبينها من النكاح، ولا إثم على الزوج فى قبول ذلك منها، فإن ذلك لا يعتبر رشوة حتى يتحرجا منها، بل يعتبر سبيلا إلى عودة المودة واستمرار الزوجية بينهما، وذلك أسمى فى نظر الدين من تلك الماديات اليسيرة التى تعينت لعودة المودة بينهما .

روى أبو داود والطيالسى عن ابن عباس :

«فما اصطلحا عليه من شىء فهو جائز»

وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ...

قال الطبرى : يعنى : والصلح يترك بعض الحق؛ استدامة للحرمة وتمسكا بعقد النكاح، خير من طلب الفرقة والطلاق [١٢٥] .

وروى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» [١٢٦] .

سأل رجل الإمام عليا عن قول الله عز وجل .

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ... فقال : يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها . من دمامتها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذرها، فتكره فراقه، فإن وضعت له شيئًا من مهرها حلٌّ له وإن جعلت له من أيامها فلا حرج [١٢٧] .

وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ...

قال الطبرى : أحضرت أنفس النساء الشح بأنصبائهن من أزواجهن فى الأيام والنفقة، فتأويل الكلام: وأحضرت أنفس النساء أهواءهنَّ؛ من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن، والشح بذلك على ضرائرهن .

من المفسرين من قال : عنى بذلك .

«وأحضرت أنفس الرجال والنساء الشح» .

المعنى :

وجعل البخل والحرص على النفع الذاتى، حاضرًا فى الأنفس ملازمًا لها، لا يغيب عنها؛ لأنَّه من طبعها، فلذا لا تكاد الزوجة تفرّط فى حقوقها عند الزوج، ولا يكاد الزوج يجود بالإنفاق وحسن المعاشرة لمن لا يريدها .

وإذا كان ذلك هو ما فطرت عليه النفوس، فينبغى – لكل من الزوجين – أن يقدّر حرص الآخر على مصلحته، فلا يهدرها تمامًا، فترضى الزوجة حرص الزوج بالبذل والتضحية، ويرضى الزوج حرص الزوجة فلا يقسو عليها فى مطالبه [١٢٨] .

وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... وإن تحسنوا – أيها الرجال – فى أفعالكم إلى نسائكم إذا كرهتم منهن دمامة أو خُلقًا، أو بعض ما تكرهون منهن بالصبر عليهن، وإيفائهن حقوقهن وعشرتهن بالمعروف [١٢٩]

وَتَتَّقُوا. الله فيهن بترك الجور منكم عليهن وعدم إكراههن على ترك شىء من حقوقهن .

قال ابن كثير : وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسموا لهن أسوة بأمثالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء .

١٢٩- وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُم .

العدل بين النساء مطلوب فى الأمور المادية وهى النفقة والكسوة والمبيت وما يتصل بذلك من حقوق الزوجة، أما العدل فى الأمور القلبية من الحب وما يتصل به فغير مستطاع. وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ويعدل ثم يقول: «اللهم، هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» يعنى: القلب .

وهناك آيتان فى سورة النساء تتحدثان عن هذا الموضوع: الآية الثالثة من سورة النساء حيث قال سبحانه :

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ .

والآية ١٢٩ من سورة النساء - التى نتكلم عن تفسيرها - وهى:

وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُم فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

وقد فهم بعض الناس فهما خاطئًا مؤداه: أن الإسلام نهى عن تعدد الزوجات؛ لأنه قال فى الآية الثالثة من سورة النساء. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً .

وقال فى الآية ١٢٩ من سورة النساء: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُم. أى: ومادام العدل غير مستطاع؛ فقد وجب الاقتصار على زوجة واحدة .

وهذا فهم خاطئ .

لأن قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً . يتكلم عن العدل المادىّ فى المأكل والمسكن والمبيت.

وقوله سبحانه: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُم. يتكلم عن العدل فى الحب وميل القلب.

فالله خالق الإنسان وهو أعلم به .

وإذا كان العدل فى أمور الحب غير مستطاع . فإن على الإنسان ألاَّ ينساق وراء الأسباب الداعية إلى الميل بقدر طاقته ويعفى عما خرج عن الطوق .

أى: إذا عجزتم عن تحقيق العدل فى الحب وميل القلب؛ فلا تميلوا إلى من تحبونها كل الميل

بحيث تتركون الضرَّة الأخرى أشبه بالمرأة المعلَّقة التى تركها زوجها فلا هى متزوجة تتمتع بحب الزوج ورعايته وعطفه ولا هى مطلقة تلتمس الأزواج ويتقدم لها الخُطَّاب .

قال تعالى : فَلاَ تَميلوا كُلَّ الْمَيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ...

قال الطبرى : وإنما أمر الله جل ثناؤه بقوله : فَلاَ تَمِيلوا كُلَّ الْمَيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ. الرجال بالعدل بين أزواجهن فيما استطاعوا فيه العدل بينهن، من القسمة بينهن، والنفقة وترك الجور .. فى ذلك بتفضيل إحداهن على الأخرى فيما فرض عليهم العدل بينهن فيه، إذ كان قد صفح لهم عما لا يطيقون العدل فيه بينهن مما فى القلوب من المحبة والهوى (١٣٠) .

وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

قال الطبرى : وإن تصلحوا أعمالكم – أيها الناس – فتعدلوا فى قسمكم بين أزواجكم، وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف .

وَتَتَّقُوا الله فى الميل الزائد لإحداهن .

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . يغفر لكم ما سبق من التقصير فى حق بعض الزوجات ويتوب عليكم من الميل إلى بعض الزوجات دون بعض .

١٣٠– وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ ... الآية

فإن قبلت المرأة التى قد نشز عليها زوجها، الصلح بصفحها لزوجها عن يومها وليلتها، وطلبت حقها منه من القسم والنفقة وما أوجب الله لها عليه، وأبى الزوج عليها ذلك فتفرقا بطلاق الزوج لها؛ فإن الله يغنه عنها ويغنها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه .

وَكَانَ اللَّهُ واسعًا حَكِيمًا ... أى: كان الله ولا يزال واسع الغنى كافيًا، حَكِيمًا. فى جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

★ ★ ★

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

المفردات :

ولقد وصّينا : ولقد أمرنا أمرا مؤكدًا .

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم : المراد بهم: أهل الكتب السماوية السابقون جميعًا: اليهود، والنصارى، وغيرهم .

حميدا : مستحقًا للحمد ، وإن لم يحمده الحامدون .

وكفى بالله وكيلا : وكفى به قيما وكفيلا ؛ تُوكَل إليه الأمور .

التفسير :

١٣١ – وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ ... الآية

ولله جميع ملك ما حوته السماوات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها .

وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله : وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِه. تذكيرًا منه لخلقه باللجوء إلى ذلك الباب عند الشدائد والخطوب، فمن كان له ملك السماوات والأرض خلقا وملكا وتصرفًا لا يتعذر عليه إغناء الزوجين بعد فرقتهما، ولا إيناسهما بعد وحشتهما .

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ ...

قال الطبرى : رجع جلّ ثناؤه إلى عذْل من سعى فى أمر بنى أبيرق وتوبيخهم، ووعيد من فعل فعل المرتد منهم فقال : وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ .. يقول :

ولقد أمرنا أهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل وَإِيَّاكُمْ وأمرناكم وقلنا لكم ولهم: اتَّقُواْ اللَّهَ يقول : احذروا الله أن تعصوه و تخالفوا أمره ونهيه [١٣١] .

وَإِنَ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ... وقلنا لهم ولكم : إن تكفروا وتجحدوا وصيته إياكم فتخالفوها؛ فإنكم لا تضرون غير أنفسكم؛ فالله غنى حميد لا يضره كفركم ومعاصيكم،

ولا ينفعه إيمانكم وتقواكم وفى الآية الثامنة من سورة إبراهيم: وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ .

وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا . أى: كان قبل أن تكونوا، ولا يزال بعد ما كنتم .

غَنِيًّا . عن عباده غير محتاج إلى سواه .

حَمِيدًا . أى: محمودا فى جميع ما يقدّره ويشرعه .

١٣٢- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً .

ولله ملك جميع ما حوته السماوات والأرض، وهو القيّم بجميعه، والحافظ لذلك كله، لا يعزب عنه علم شىء منه، ولا يؤوده حفظه وتدبيره؛ فهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شىء .

١٣٣- إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ... أى: هو قادر على إهلاككم وإفنائكم وتبديلكم بناس آخرين غيركم؛ لموازرة نبيه محمد ﷺ ونصرته .

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ...

قال الطبرى : وكان الله على إهلاككم وإفنائكم، واستبدال آخرين غيركم قديرًا يعنى: ذا قدرة على ذلك [١٣٢] .

كما قال تعالى : وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ ... (محمد: ٣٨).

قال بعض السلف:

ما أهون العباد على الله؛ إذا أضاعوا أمره .

وقال عز شأنه : إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر: ١٦، ١٧).

١٣٤- مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ... من كان قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط؛ فقد ضيّع على نفسه خيرًا أكثر فإنه لو قصد وجه الله بعمله؛ لحصل على ثواب الدنيا والآخرة، فعند الله من هذه وهذه، وإذا سألته أعطاك وأغناك كما قال تعالى : فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . (البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢) .

وقال تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَما لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ... (الشورى: ٢٠).

وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ... أى: وكان الله سميعًا لما يقول العباد، بصيرا بأعمالهم ونياتهم فيجازى كلا على حسب حاله .

وذهب الطبرى إلى أن معنى الآية :

وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا . أى: من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك .

فإن الله مجازيه به جزاءه فى الدنيا .

وجزاؤه فى الآخرة العقاب والنكال .

كما قال فى الآية الأخرى :

مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... (هود : ١٥، ١٦) .

والإمام ابن كثير نقل رأى الطبرى وقال: إن هذا التفسير للطبرى فيه نظر : فإن قوله تعالى : فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ. ظاهر فى حصول الخير فى الدنيا والآخرة .

أى بيده هذا وهذا فلا يقتصر قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية فى الدنيا والآخرة؛ فإن مرجع ذلك إلى الذى بيده الضر والنفع وهو الله الذى لا إله إلا هو .

★ ★ ★

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

المفردات :

قوامين بالقسط : قائمين بالعدل مع المواظبة عليه ، والمبالغة فيه .

وإن تلووا : وإن تميلوا ألسنتكم بالشهادة ، بالإتيان بها على غير وجهها .

أو تعرضوا : أى: تتركوا إقامتها أو تقيموها على غير وجهها .

التفسير :

١٣٥ - **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ... الآية .

هذه الآية - والتى بعدها - فيهما امتداد للحديث عن العدل، الذى سبق طرف منه فى الآيات السابقة. وبين الإيمان والعدل رباط وثيق ؛ لأن الإيمان الصحيح، يقتضى إقامة العدل والقسط بين الناس .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا، كونوا مواظبين على العدل فى جميع الأمور، مجتهدين فى إقامته كل الاجتهاد ؛ لا يصرفكم عنه صارف . وكونوا شهداء ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . وذلك بأن تقيموا شهاداتكم بالحق خالصة لوجه الله، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، مهما يكن أجره، ولو عادت الشهادة بالضرر عليكم، أو على الوالدين والأقربين . فإن الحق أحق أن يتبع، وأولى بالمراعاة من كل عاطفة وغرض .

إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ... أى : إن يكن المشهود عليه غنيًّا يُرجى نفعه . أو فقيرا يثير فقره الرحمة، فلا تتأثروا بذلك كله فى شهاداتكم . فالله أولى بالأغنياء والفقراء، وأحق منكم برعاية ما يناسب كلا منهما . ولولا أن أداء الشهادة على وجهها فيه مصلحة لهما، لما شرعه الله . فراعوا أمره - تعالى - فإنه أعلم بمصالح العباد منكم .

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ... أى : فلا تتبعوا فى شهاداتكم - على هذا أو ذاك - هواكم : كارهين إقامة العدل فى شهاداتكم من أجل الرغبة فى مصلحتهما ؛ لأن اتباع الهوى والميل، ضلال لا يليق بالمؤمنين . وإقامة العدل حقٌ وهدى: يجب على المؤمنين - وجوبا مؤكدًا - أن يتصفوا به .

وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... أى: وإن تميلوا ألسنتكم عن الشهادة بالإتيان بها على غير وجهها الذى تستحقه أو تعرضوا عنها وتتركوا إقامتها وتهربوا من أدائها - **فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ** . من التحريف، أو الكذب، أو ترك الشهادة وكتمانها **خَبِيرًا** . وعليما .

قال تعالى : **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ... (البقرة: ٢٨٣).

قال الطبرى : وهذه الآية عندى تأديب من الله جل ثناؤه عباده المؤمنين أن يفعلوا ما فعله الذين عذروا بنى أبيرق - فى سرقتهم ما سرقوا وخيانتهم ما خانوا - عند رسول الله ﷺ لهم عنده بالصلاح فقال لهم : إذا قمتم بالشهادة لإنسان أو عليه؛ فقولوا فيها بالعدل . ولو كانت شهادتكم على أنفسكم وآبائكم وأمهاتكم وأقربائكم، ولا يحملنكم غِنى من شهدتم له، أو فقره أو قرابته ورحمة منكم على الشهادة له بالزور، ولا على ترك الشهادة عليه بالحق وكتمانها [١٣٣] .

والآية بعد كل هذا تظل معلما رفيعًا، ومنارة هادية إلى الشهادة بالحق ولو كان ذلك على الإنسان أو قرابته أو من يهمه أمرهم لأى سبب كان كرعاية الجار، أو الطمع فى جاره، أو منصب عند حاكم، أو انتصار لطائفة أو مذهب، أو نحو ذلك وما جاء فى الآية إنما هو من باب ضرب المثل .

جاء فى تفسير ابن كثير :

ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبى ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم فأرادوا أن يرشوه؛ ليرفق بهم؛ فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى، ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملنى حبّى إياه وبغضى لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض .

١٣٦- يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ ... الآية

يخاطب الله تعالى بهذه الآية أهل الكتاب فقد كان لهم نوع من الإيمان والتصديق ولكنه إيمان غير كامل . فقد آمن اليهود بموسى وبالتوراة وكفروا بعيسى وبالإنجيل، كما آمن النصارى بموسى وبعيسى وكفروا بمحمد ﷺ .

قال الطبرى فى تفسير الآية :

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ . بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل، وصدقوا بما جاءوهم به من عند الله .

ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . صدقوا بالله وبمحمد رسوله، أنه لله رسول، مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم.

والكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ . وصدّقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذى نزّله الله عليه وهو القرآن الكريم .

وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ . وآمنوا بالكتاب الذى أنزله الله من قبل القرآن وهو التوراة والإنجيل.

وقال ابن كثير : وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ .. جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال فى القرآن نزّل؛ لأنه نزل منجما على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد فى معاشهم ومعادهم .

وأما الكتب السابقة فكانت تنزل جملة واحدة؛ لهذا قال تعالى : وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ .

وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ... ومن يكفر بمحمد ﷺ وبما جاء من عند الله، فقد كفر بجميع ما أمر الله به؛ لأنه فرّق بين الرسل وقال : نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ.. وهذا خروج عن دين الله وهديه واتباع للضلال والهلاك .

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا ... فقد بعد عن الحق بعدًا سحيقا؛ لأن الخروج عن دين الله وهديه يتبعه الهلاك والضلال والبوار .

ومن المفسرين من قال: معنى: يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . أى: استمروا واثبتوا على إيمانكم بالله ورسوله وبالقرآن الكريم وبالكتب السماوية السابقة على القرآن وهى: التوارة، والإنجيل، والزبور، وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن كثير فى تفسيره حيث قال : يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه كما يقول المؤمن فى كل صلاة: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

أى: بصِّرنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله كما قال تعالى:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ . (الحديد: ٢٨).



﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾

المفردات :

ازدادوا كفرًا : عادوا واستمروا فيه .

بشر المنافقين : أنذرهم .

أيبتغون : أيطلبون .

العِزّة : الغلبة والقوة .

يخوضوا : يدخلوا .

التفسير:

١٣٧ - إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا ... الآية

هذه الآية، بينت حال بعض الكافرين، وهم المنافقون الذين ترددوا بين الإيمان الظاهر أمام المؤمنين، وبين الكفر، حينما يلتقون بالكافرين أمام المؤمنين.

والمعنى: إن المنافقين الذين أظهروا الإيمان أمام المؤمنين رياء، ثم كفروا أمام أوليائهم الكافرين، ثم عادوا إلى إظهار الإيمان حين لقائهم بالمؤمنين، ثم كفروا عند عودتهم إلى الكافرين، ثم ازدادوا فى دخيلة أنفسهم كفرا وجحودا، واستمروا عليه - إن هؤلاء:

لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً. أى: هؤلاء المنافقون المذكورون، قد حكم الله بأنهم محرومون من أن يغفر الله لهم كفرهم ومعاصيهم، ومحرومون من أن يهديهم الله إلى الحق؛ لإصرارهم على الكفر والنفاق.

وقيل: إن المراد من هؤلاء: قوم تكرر منهم الارتداد، وأصروا على الكفر وتمادوا فى الغَىِّ والضلال.

١٣٨ - بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

بعد أن أوصد الله فى وجه هؤلاء المنافقين أبواب الرحمة والهداية، نتيجة تكرر الكفر منهم، أمر الله رسوله أن ينذرهم بأنه أعدَّ لهم فى الآخرة عذابا شديد الإيلام، وعبر عن الإنذار بالتبشير؛ تهكما بهم وسخرية منهم، وإيئاسًا لهم من المبشرات كلها، وأنها - بفرض وقوعها كما هى هنا - فليس لها رصيد إلا العذاب الأليم؛ لتلاعبهم بالعقيدة وسخريتهم بها.

١٣٩ - الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية

أى: أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعوانا وأنصارًا لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتركون ولاية المؤمنين، ويقولون للكافرين إذا خلوا بهم **إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**.. (البقرة:١٤).

أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ: أى: أيطلبون بموالاة الكفر: القوة والغلبة ؟ والاستفهام إنكارى أى: أيطلبون العزة ممن لا يستطيع أن يمنحها لهم؟!

فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...

قال الشوكانى: هذه الجملة تعليل لما تقدم من توبيخهم بابتغاء العزة عند الكافرين وجميع أنواع العزة وأفرادها مختص بالله سبحانه، وما كان منها مع غيره فهو من فيضه وتفضله كما فى قوله: **وللَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**. (المنافقون: ٨) والعزة: الغلبة، يقال: عزَّه يعزّه عزا: إذا غلبه.

١٤٠- وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ... الآية

وقد نزل عليكم - يا معشر المؤمنين فى القرآن - أنكم إذا رأيتم أولئك الكافرين يستهزئون بكتاب الله تعالى، وسمعتم منهم ذلك فاتركوا مجالسهم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .

قال الشوكانى : أى: لا تقعدوا معهم ماداموا كذلك؛ حتى يخوضوا فى حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بها والذى أنزله الله عليهم فى الكتاب هو قوله تعالى :

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .. (الأنعام: ٦٨).

وقد كان جماعة من الداخلين فى الإسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به فنهوا عن ذلك [١٣٤] .

إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ .. أى: إنكم إن فعلتم ذلك ولم تنتهوا فأنتم مثلهم فى الكفر، ولستم بمؤمنين كما تزعمون فإن المرء بجليسه .

إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .. أى: يجمع الفريقين : الكافرين والمنافقين فى الآخرة فى نار جهنم؛ لأن المرء مع من أحب .

قال ابن كثير : أى: كما أشركوهم فى الكفر، كذلك يشارك الله بينهم فى الخلود فى نار جهنم أبدًا، ويجمع بينهم فى دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين .



﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

المفردات :

يتربصون بكم : ينتظرون وقوع أمر بكم .

فتح من الله : نصر منه .

ألم نستحوذ عليكم : ألم نحطكم بعوننا ومساعدتنا .

يخادعون الله : يفعلون مع الله ما يفعل المخادع . وهو إظهار ما لا يبطن .

يراءون الناس : يظهرون للناس غير ما انطوت عليه صدورهم .

مذبذبين : مترددين بين المؤمنين والكافرين .

التفسير:

١٤١ - الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ... الآية

هذه الآية - وما بعدها - تبين لنا بعض سمات المنافقين وصفاتهم، التى كانوا عليها . وأول صفة ذكرت لهم، هى التربص والانتظار ؛ لاستغلال المواقف استغلالا دنيئًا لمصلحتهم . وهو ما بيَّنه الله بقوله :

فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوٓا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ . أى: فإن كان لكم نصر على أعدائكم - بمعونة الله - تزلَّفوا لك، وراحوا يطالبون بالمغانم قائلين : **أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ** . بالعون حتى نصرتم على الأعداء؟

وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ . من الغلبة فى الحرب على المؤمنين .

قَالُوٓا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ... أى: قال المنافقون للكافرين: ألم نحطكم بعوننا ومساعدتنا، وإطلاعكم على أسرار المؤمنين؛ حتى صارت لكم الغلبة عليهم .

وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ . أى : ندفع عنكم صولة المؤمنين بتثبيطنا إياهم، وتباطئنا فى معاونتهم، وإشاعة الأخبار التى توهن قلوبهم، وتضعف عزائمهم . فاعرفوا حقنا عليكم، وهاتوا نصيبنا مما غنمتم .

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : فهو مطلع على دخائل الجميع محقين ومبطلين، فيثبت أولياءه المؤمنين المخلصين، ويعاقب أعداءه المنافقين يوم الجزاء .

وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً .

قال ابن كثير : أى: لن يسلَّطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى :

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ .. (غافر: ٥١) .

وعلى هذا يكون ردًا على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين؛ خوفا على أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال تعالى : فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَآ أَسَرُّواْ فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ... (المائدة: ٥٢) .

وفسر بعض العلماء هذه الفقرة على أنها ستكون يوم القيامة؛ قال الإمام على : «ذاك يوم القيامة».

وقيل: إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل، ولا تاركين للنهى عن المنكر كما قال تعالى: وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ. (الشورى: ٣٠) .

قال ابن العربى: وهذا نفيس جدًا [١٣٥] .

١٤٢- إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... الآية

هذا كلام مبتدأ يتضمن بعض قبائح المنافقين وفضائحهم. ولا شك أن الله لا يخادع؛ فإنه عالم بالسرائر والضمائر .

ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم؛ يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهرا - فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده .. وَهُوَ خَادِعُهُمْ. أى: هو الذى يستدرجهم فى طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق، وعن الوصول إليه فى الدنيا، وكذلك يوم القيامة [١٣٦] .

وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى ... الآية. أى: يصلون وهم متثاقلون، لايرجون ثوابا ولا يخافون عقابًا، وما قيامهم للصلاة مع المصلين، إلا مظهر من مظاهر خداعهم .

يُرَاءُونَ النَّاسَ .. أى: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله.

قال ابن كثير : أى لا إخلاص لهم، ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التى لا يرون فيها غالبا كصلاة العشاء وصلاة الصبح، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :

«أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر» [١٣٧].

وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ... هذه الجملة معطوفة على يُرَاءُون . أى: لا يذكرونه سبحانه إلا ذكرا

قليلا، أو لا يصلُّون إلا صلاة قليلة ووصف الذكر بالقلة؛ لعدم الإخلاص، أو لكونه غير مقبول أو لكونه قليلا فى نفسه .

أو يراد بالقلة: العدم؛ لأن ذكرهم غير مقبول، فلا فائدة فيه .

١٤٣ – مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ... الآية

المذبذب: المتردد بين أمرين، والذبذبة الاضطراب قال ابن جنى : المذبذب: القلق الذى لا يثبت على حال .

لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... أى: ليسوا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين فظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين: ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك.

قال ابن جرير عن قتادة يقول : ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ... أى: يخذله ويسلبه التوفيق ويصرفه عن طريق الهدى .

فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ... أى: طريقا يوصله إلى الحق .

فإنه: مَن يُضْلِلِ اللَّه فَلاَ هَادِىَ لَه . (الأعراف: ١٨٦)

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

المفردات :

سلطانا مبينا : حجة ظاهرة .

أولياء : نُصراء .

الدرك الأسفل : الطبقة السفلى .

واعتصموا بالله : اتخذوه ملجأ وملاذا .

وكان الله شاكرًا : أى: كان – ولا يزال – مثيبا على الشكر .

التفسير:

١٤٤ – يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية

بعد أن بين الله صفات المنافقين، الناطقة: بأنهم كفار فى حقيقة أمرهم، نهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين – جميعا – أولياء، فإنهم لا يضمرون الخير لهم . فقال : يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا الكفار أولياء وأحبَّاء ونصراء من دون المؤمنين ؛ لأنهم لا يؤمن جانبهم .

أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ... أى : أترغبون – بموالاة الكفار – أن تكون لله عليكم حجة واضحة فى عذابه إياكم ؛ إذ إنكم اتخذتم أعداءه أولياء لكم . وهم يبغون لكم الهزيمة، ولدينكم الزوال. كما قال تعالى : **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ** ... (الممتحنة: ١) .

وهذا لا يمنع من عقد معاهدات السلام معهم إذا كان فى ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره : ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعنى: مصاحبتهم ومصادقتهم، ومناصحتهم، وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم .

وقال الإمام الشوكانى: أى: لا تجعلوهم خاصة لكم وبطانة توالونهم من دون إخوانكم من المؤمنين كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين .

١٤٥– إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... الآية

أى: فى الطبقة التى فى قعر جهنم وهى سبع طبقات .

قال ابن عباس : أى: فى أسفل النار، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله .

وتفيد الآية: أن النار دركات، كما أن الجنة درجات .

وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ... أى: ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب .

١٤٦– إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ...

تستثنى هذه الآية من تاب عن النفاق قبل أن يموتوا، وأصلحوا أعمالهم ونياتهم، وبدلوا الرياء بالإخلاص **وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ**. أى: تمسكوا بكتاب الله ودينه.

وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ... أى: جعلوا قلوبهم نقية خالية من الشرك خالصة للإيمان وقصدوا بعملهم وجه الله.

قال ابن أبى حاتم: عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : «أخلص دينك؛ يكفك القليل من العمل» [١٣٨].

إن الإخلاص إكسير العبادة وروحها وسرّ قبولها قال تعالى :

وَمَآ أُمِرُوآ إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُواْ الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ... (البينة: ٥) .

فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمؤمِنِينَ ... أى: هؤلاء الذين تابوا إلى الله وأصلحوا أعمالهم ونياتهم يدخلون فى عداد المؤمنين إيمانًا حقيقيا وإنه لشرف عظيم أن يدخل الإنسان فى عداد المؤمنين .

وَسَوْفَ يُؤتِ اللَّهُ الْمُؤمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ... أى: يعطيهم الأجر الكبير فى الآخرة وهو الجنة .

١٤٧ – مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وءَامَنتُمْ ...

أىُّ منفعة له سبحانه فى عذابكم ؟ إن شكرتم وآمنتم أيتشفى من الغيظ – حاشا لله –؟ وأم يدرك به الثأر، أم يدفع به الضر، ويستجلب النفع ؟ وهو الغنى عنكم ؟ !

قال الإمام الشوكانى فى تفسيره : فتح القدير :

هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لا غرض له سبحانه فى التعذيب إلاّ مجرد المجازاة للعصاة .

والمعنى : أى منفعة له فى عذابكم إن شكرتم وآمنتم، فإن ذلك لا يزيد فى ملكه، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه ؟ !

وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا . أى: يشكر عباده على طاعته؛ فيثيبهم عليها ويتقبلها منهم .

والشكر فى اللغة: الظهور يقال: دابة شكور؛ إذا ظهر من سمنها فوق ما تُعطى من العلف .

فالله سبحانه وتعالى يعطى على العمل القليل الثواب الجزيل وهو واسع العلم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض .

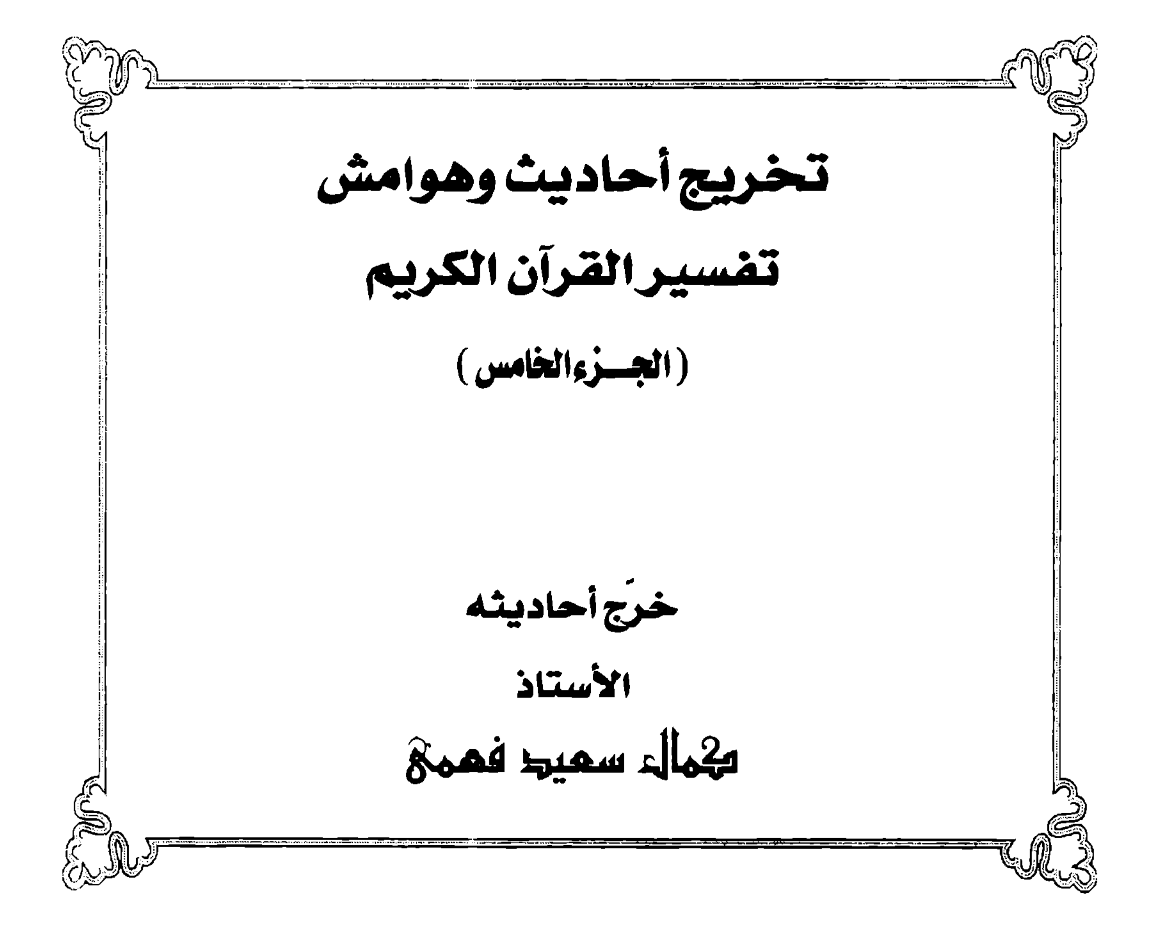
فما أعظم فضله، وما أجزل نعمه، وما أكثر عطاءه. وَإِنْ تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا .

وكان من دعاء رسول الله ﷺ إذا قام من الليل : «اللهم، لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد. أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد . لا إله إلا أنت وعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق» [١٣٩].

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، تمت كتابة تفسير القرآن الكريم (الجزء الخامس) ضحى يوم الأربعاء ٢٨ شوال ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٤ يونيو ١٩٨٧ م بمنيل الروضة القاهرة، والحمد لله رب العالمين .

اللهم لك الحمد والشكر كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم

(الجــزء الخامس)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) احتلمت في ليلة باردة:

رواه أبو داود في الطهارة (٣٣٤) وأحمد في مسنده (١٧٣٥٦) عن عمرو بن العاص، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟! فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ إن الله كان بكم رحيما فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا !.

(٢) من قتل نفسه بشيء عذب به:

رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٤) في الأدب (٦٠٧٤، ٦١٠٥) في الأيمان والنذور (٦٦٥٣) مسلم في الإيمان (١١٠) وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٥٧) والترمذي في الطب (٢٦٣٦) والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٠) والدارمي في الديات (٢٣٦١) وأحمد في مسنده (١٥٩٥٠، ١٥٩٥٦) من حديث ثابت بن الضحاك وكان من أصحاب الشجرة حدثه أن رسول الله ﷺ قال: من حلف على ملة غير الإسلام فهو كما قال وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة ومن لعن مؤمنا فهو كقتله ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله.

(٣) من تردى من جبل فقتل نفسه:

رواه البخاري في الطب (٥٧٧٨) ومسلم في الإيمان (١٠٩) والترمذي في الطب (٢٠٤٣، ٢٠٤٤) والنسائي في الجنائز (١٩٦٥) وابن ماجه في الطب (٣٤٦٠) (٧٣٣٩، ٩٨٣٩، ٩٩٦٤) والدارمي في الديات (٢٣٦٢) من حديث أبي هريرة مرفوعًا: من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه جهنم خالدا مخلدا فيها أبد.

(٤) اجتنبوا السبع الموبقات:

رواه البخاري في الوصايا ح ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ح ٨٩، والنسائي في الوصايا ح ٣٦٧١، وأبو داود في الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبي هريرة.

(٥) ألا أنبأكم بأكبر الكبائر:

رواه البخاري في الشهادات ح ٢٤٦٠، وفي الأدب ح ٥٥١٩، ٥٥٢٠، ومسلم في الإيمان ح ١٢٦، ١٢٨، وأحمد ح ١١٨٨٦، ١٩٤٩١، ١٩٤٩٩.

(٦) إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه:

رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٣) وأبو داود في الأدب (٥١٤١) وأحمد في مسنده (٦٩٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٧) ما زال جبريل يوصيني بالجار:

رواه البخاري في الأدب (٦٠١٤) ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٤) وأبو داود في الأدب (٥١٥١) والترمذي في البر والصلة (١٩٤٢) وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٣) وأحمد في مسنده (٢٣٧٣٩، ٢٤٠٧٩، ٢٤٤٢١، ٢٥٠١٢، ٢٥٤٨٢) من حديث عائشة. ورواه البخاري في الأدب (٦٠١٥) ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر. ورواه أبو داود في الأدب (٥١٥٢) والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣) وأحمد في مسنده (٦٤٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وقد روى هذا الحديث عن مجاهد عن عائشة وأبي هريرة عن النبي ﷺ أيضا. ورواه أحمد في مسنده (٥٥٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود. ورواه أحمد في مسنده أيضًا (٧٤٧٠، ٧٩٨٥، ٩٤٥٣، ١٠٢٩٧) من حديث أبي هريرة. ورواه أحمد في مسنده (١٩٨٣٧، ٢٢٥٨٣) عن رجل من الأنصار.

(٨) اقرأ علي؛ أحب أن أسمعه من غيري:

رواه البخاري في التفسير (٤٥٨٢) وفي فضائل القرآن (٥٠٥٠، ٥٠٥٥) ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٠) والترمذي

فى التفسير (٣٠٢٤) وأبو داود فى العلم (٣٦٦٨) وابن ماجه فى الزهد (٤١٩٤) وأحمد فى مسنده (٣٥٤١، ٣٥٩٥، ٤١٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٩) تفسير المراغى ٥ / ٦١ .

(١٠) فتح القدير للشوكانى ١ / ٤٨٠ .

(١١) الحمد لله الذى وفق:

رواه أبو داود فى الأقضية (٣٥٩٢) والترمذى فى الأحكام (١٣٧٢) والدارمى فى المقدمة (١٦٨) وأحمد فى مسنده (٢١٥٠٢، ٢١٥٥٦، ٢١٥٩٥) عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن قال: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال: أقضى بكتاب الله قال: فإن لم تجد فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ ولا فى كتاب الله، قال: أجتهد رأيى ولا آلو. فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله. قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندى بمتصل. وقال الزيلعى فى نصب الراية: وأخرجاه أيضا عن أناس من أصحاب معاذ: أن رسول الله، مرسلاً، قال الترمذى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بمتصل، انتهى. وقال البخارى فى «تاريخه الكبير»: الحارث بن عمرو بن أخى المغيرة بن شعبة الثقفى عن أصحاب معاذ، عن معاذ، روى عنه أبو عون، ولا يصح، ولا يعرف إلا بهذا، مرسل، انتهى. وفيه كتاب، ورواه النسائى فى آداب القضاء (٥٣٩٩) والدارمى فى المقدمة (١٦٧) عن شريح أنه كتب إلى عمر يسأله فكتب إليه أن اقض بما فى كتاب الله فإن لم يكن فى كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ فاقض بما قضى به الصالحون فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ ولم يقض به الصالحون فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ولا أرى التأخير إلا خيرا لك والسلام عليكم.

(١٢) الشرج: مسيل الماء .

(١٣) اسق يا زبير:

رواه البخارى فى المساقاة أيضًا (٢٣٦١، ٢٣٦٢) وفى الصلح (٢٧٠٨) وفى التفسير (٤٥٨٥) من حديث عروة قال خاصم الزبير رجل من الأنصار فقال النبى ﷺ: يا زبير اسق ثم أرسل فقال الأنصارى: إنه ابن عمتك، فقال عليه السلام: اسق يا زبير ثم يبلغ الماء الجدر ثم أمسك فقال الزبير: فأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾.

ورواه البخارى فى المساقاة (٢٣٦٠) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٥) وأبو داود فى الأقضية (٣٦٣٧) والترمذى فى الأحكام (١٣٦٣) وفى التفسير (٣٠٢٧) والنسائى فى آداب القضاة (٥٤٠٤) وابن ماجه فى المقدمة (١٥) وفى الأحكام (٢٤٨٠) وأحمد فى مسنده (١٥٦٨٤) عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أنه حدثه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبى ﷺ فى شراج الحرة التى يسقون بها النخل.. الحديث. ورواه أحمد فى مسنده (١٤٢٢) من حديث الزبير ابن العوام.

(١٤) فى ظلال القرآن ٢ / ٧٠٧.

(١٥) تضمن الله لمن خرج فى سبيله

رواه البخارى فى الإيمان (٣٦) وفى فرض الخمس (٣١٢٣) وفى التوحيد (٧٤٧٥، ٧٤٦٣) رواه مسلم فى الإمارة واللفظ له – (١٨٧٦) ومالك فى الموطإ كتاب الجهاد (٩٧٤) والنسائى فى الجهاد (٣١٢٢، ٣١٢٣) وفى الإيمان وشرائعه (٥٠٢٩) وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٥٣) والدارمى فى الجهاد (٢٣٩١) وأحمد فى مسنده (٨٧٥٧، ٨٩٢٣) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادا فى سبيلى .. الحديث. وقد روى الحديث بأكثر من لفظ منها: انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان . . الحديث. ومنها: أعد الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى.. وفى إحدى الروايات: تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه إلا الجهاد.. الحديث.

(١٦) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، ٥ / ٧٠٨ ، طبعة دار الشروق الحادية عشرة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(١٧) كنت أنا وأمى من المستضعفين:

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٥٧) وفى تفسير القرآن (٤٥٨٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما يقول: كنت أنا وأمى من المستضعفين؛ أنا من الولدان وأمى من النساء.

(١٨) تفسير الكشاف ١ / ٢٨١ .

(١٩) إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم:

رواه النسائى فى الجهاد (٣٠٨٦) من حديث ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى ﷺ بمكة فقالوا: يا رسول الله إنا كنا فى عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال: إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا فأنزل الله عز وجل ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيدكم وأقيموا الصلاة﴾. وذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه.

(٢٠) كانت الزكاة غير محددة المقادير فى مكة - قبل الهجرة - وكان ذلك متروكا لتقدير المسلمين، ثم تم تحديدها بالمدينة.

(٢١) انظر تفسير القرطبى ٥ / ٢٨٢ .

(٢٢) ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب:

رواه البخارى فى المرضى باب: ما جاء فى كفارة المرضى (٥٣١٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها). ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: (ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن وأذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه). رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال: لما نزلت ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ، فقال: قاربوا وسددوا. وفى كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها». هذا حديث حسن غريب.

(٢٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية الحزب التاسع، ص ٨٥٩ .

(٢٤) أنتم أعلم بأمر دنياكم:

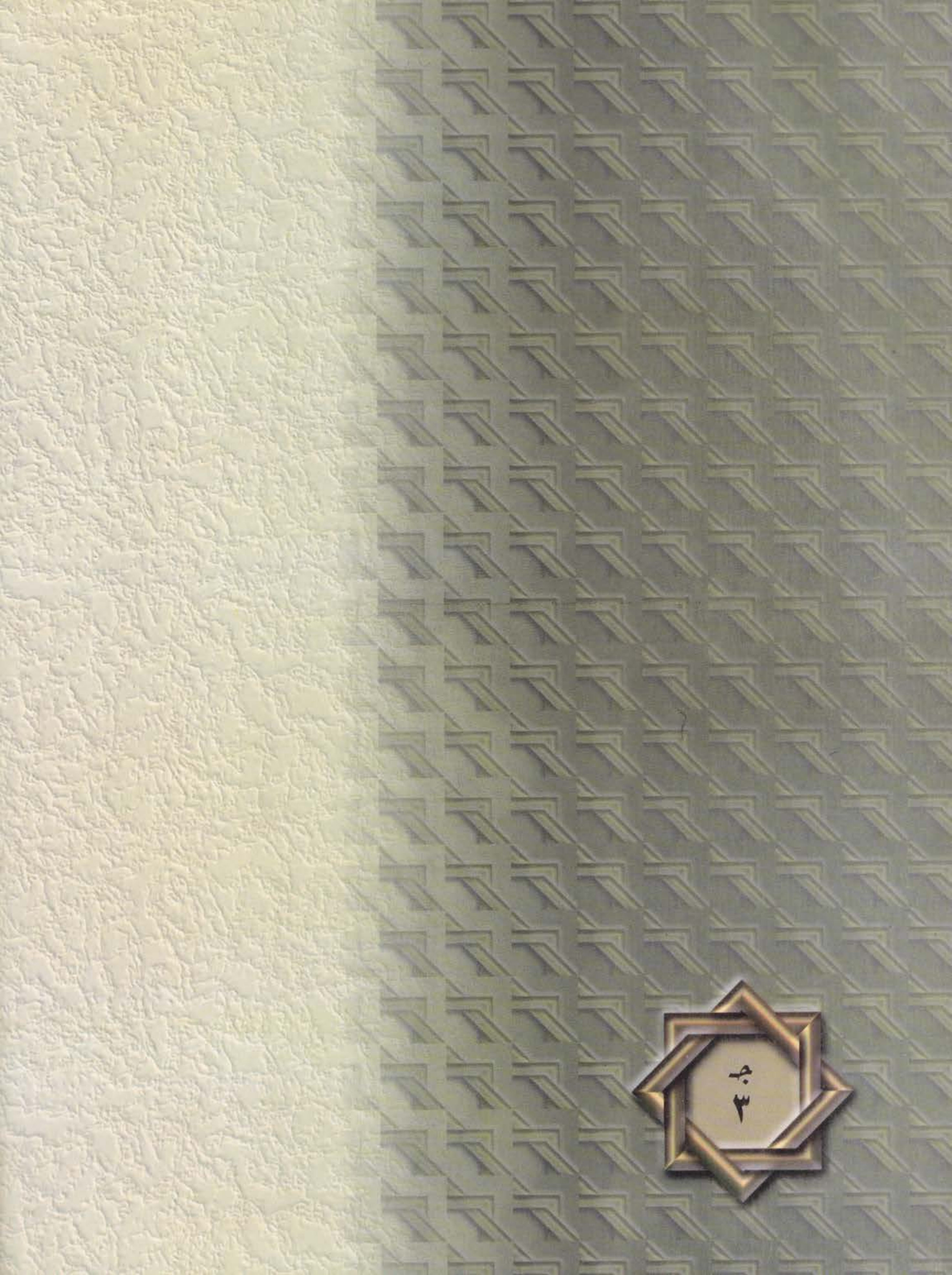
رواه مسلم فى الفضائل (٢٣٦٣) وأحمد فى مسنده (١٢١٣٥) من حديث أنس أن النبى ﷺ مر بقوم يلقحون فقال: لو لم تفعلوا لصلح قال: فخرج شيصا فمر بهم فقال: ما لنخلكم قالوا: قلت: كذا وكذا قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم.

(٢٥) من أطاعنى فقد أطاع الله:

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٥٧) وفى الأحكام (٧١٣٧) ومسلم فى الإمارة (١٨٣٥) والنسائى فى البيعة (٤١٩٣) وفى الاستعاذة (٥٥١٠) وابن ماجه فى المقدمة (٣) وفى الجهاد (٢٨٥٩) (٧٣٨٦، ٨٣٠٠، ٨٧٨٨) من حديث أبى هريرة مرفوعا: من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى.

(٢٦) إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم فى الكتاب:

رواه مسلم فى العلم (٢٦٦٦)، وأحمد ٢/ ١٨٥.


ج ۳